قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر الإيمان

ترجمة
محمد بدران

الجزء الرابع من المجلد الرابع

١٥

دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع
DAR AL JIL-EDITEUR DISTRIBUTEUR
بيروت

جامعة الدول العربية
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
تونس

الكتاب الخامس

المسيحية فى عنفوانها

١٠٩٥ - ١٣٠٠

ثبت مسلسل بالحوادث الواردة

فى الكتاب الخامس

٧٥٠ — ١١٠٠ : إدا الكبير .

٨٤٢ : يمين أستر سبورج تستخدم فيها اللغة الوطنية .

حوالى ١٠٠٠ : نشأة الموسيقى المتعددة النغم .

١٠٢٠ : العهد الاشتراكى الأول (لمدينة ليون) .

١٠٤٠ : التجسيد الموسيقى لجيدو الأرززوى .

١٠٥٠ — ١١٢٢ : روسلان ، الفيلسوف .

١٠٥٦ — ١١١٤ : نسطور والسجل الروسى .

١٠٥٦ — ١١٣٣ : هلدربرت التورى ، الشاعر .

١٠٦٦ — ١٠٨٧ : وليم الأول ملك إنجلترا .

١٠٦٦ — ١٢٠٠ : هندسة النورمان المعمارية فى إنجلترا .

١٠٧٦ — ١١٨٥ : جلبرت ده لابريه ، الفيلسوف .

١٠٧٩ — ١١٤٢ : أبلار ، الفيلسوف

١٠٨٠ : القناصل فى لكا ؛ نشأة المدن ذات الحكومات الذاتية فى إيطاليا (القرمونات) .

١٠٨٠ — ١١٥٤ : وليم الكونشيسى ، الفيلسوف .

١٠٨١ — ١١٥١ : سوجر ، رئيس دير سانت دنيس .

١٠٨٣ — ١١٤٨ : أنا كومينا ، المؤرخة .

١٠٨٥ : كتاب يوم الحشر الإنجليزى .

١٠٨٦ — ١١٢٧ : وليم العاشر ، دوق أكتين ، أول من عرف من شعراء الفروسية الغزلين .

١٠٨٨ وما بعدها : إرنريوس والقانون الرومانى فى بولونيا .

١٠٨٨ — ١٠٩٩ : البابا إربان الثانى .

١٠٨٩ — ٢١٣١ : دير كلونى .

١٠٩٠ — ١١٥٣ : سان برنار .

١٠٩٣ — ١١٠٩ : أنسلم كبير أساقفة كنتربرى .

١٠٩٣ — ١١٧٥ : كنيسة درهام الكبرى .

حوالى ١٠٩٥ : أغنية رولان .

١٠٩٥ : الدعوة إلى الحرب الصليبية الأولى .

١٠٩٥ — ١١٦٤ : روجر الثانى صاحب صقلية .

١٠٩٨ : تأسيس النظام السسترسى .
١٠٩٨ – ١١٢٥ : هنرى الخامس ملك ألمانيا .
١٠٩٩ : استيلاء الصليبيين على بيت المقدس .
١٠٩٩ – ١١١٨ : البابا باسكال الثانى .
١٠٩٩ – ١١٤٣ : مملكة أورشليم اللاتينية .
١٠٩٩ – ١١٧٩ : سانت هلد جارد .
حوالى ١١٠٠ : الأرقام الهندية (العربية) فى أوربا ، الورق يصنع فى القسطنطينية .
١١٠٠ – ١١٣٥ : هنرى الأول ملك إنجلترا .
١١٠٠ – ١١٥٥ : أرنلد البرشيائى ، المصلح .
١١٠٤ – ١١٩٤ : النمط الانتقالى فى المعمار .
١١٠٥ : كتاب الأسئلة الطبيعية لأدلارد .
١١١٠ : جامعة باريس تتشكل .
١١١٣ : الأمير مونوماخ يهدئ الثورة فى كييف .
١١١٤ – ١١٥٨ : أتو الفريزنجى ، المؤرخ .
١١١٤ – ١١٨٧ : جرارد الكريمونى ، المترجم .
١١١٧ : أبلار يعلم هلوائيز .
١١١٧ – ١١٨٠ : يوحنا السلزبورى الفيلسوف .
حوالى ١١٢٠ : نشأة رهبان فرسان مالطة .
١١٢١ : الحكم على أبلار فى سواسون .
١١٢٢ : اتفاقية وورمز .
١١٢٢ – ١٢٠٤ : إليانور صاحبة أكتين .
١١٢٣ : مجلس لاتران الأول .
١١٢٤ – ١١٥٣ : دافد الأول ملك اسكتلندة .
١١٢٧ : نشأة فرسان المعبد .
١١٣٢ وما بعدها : دير سانت دنيس يعاد بناؤه على الطراز القوطى .
١١٣٥ – ١١٥٤ : استيفن ملك إنجلترا .
١١٣٧ : الكورتيز الأول ؛ كتاب تاريخ بريتوموم لجفرى المنموثى .
١١٣٧ – ١١٩٦ : ولتر ماپ (س) الهجّاء .
١١٣٨ : كنراد الثالث يؤسس أسرة هوهنستاوفن .
١١٣٩ – ١١٨٥ : ألفنسو الأول أنريكيز أول ملوك البرتغال .
١١٤٠ : أبلار يحكم عليه فى سان .
١١٤٠ – ١١٩١ : كريتين (المسيحى (ده ترويه) .
١١٤٠ – ١٢٢٧ : الشعراء الجلياريون .
١١٤٢ : نشأة حزبى الجولف والجبلين .
١١٤٢ : دكريتوم لجراتيان .

١١٤٥ – ١٢٠٢ : يواقيم الفلوراني .

١١٤٦ – ١١٤٧ : ثورة أرنلد البرشياني .

١١٤٧ – ١٢٢٣ : جرالدس كبرنسس الجغرافي .

حوالي ١١٥٠ : النيبلنجنليد .

١١٥٠ : السنتنتيا لبطرس لمبارد ، تماثيل مواساك ، الدالة المتحركة تستخدم في نوايون .

١١٥٠ – ١٢٥٠ : مجد الفرنسيين شعراء الفروسية الغزليين .

١١٥٢ – ١١٩٠ : فردريك الأول بربرسا إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

١١٥٤ – ١١٥٩ : البابا هدريان الرابع .

١١٥٤ – ١١٨٩ : هنري الثاني يؤسس أسرة بلانتجنت .

١١٥٤ – ١٢٠٦ : يورك منستر .

١١٥٦ : تأسيس مسكو .

١١٥٧ : مصرف البندقية يصدر صكوكا حكومية .

١١٥٧ – ١٢١٧ : اسكندر نكهام ، العالم الطبيعي .

١١٥٩ – ١١٨١ : البابا اسكندر الثالث .

حوالي ١١٦٠ : السيد .

١١٦٠ – ١٢١٣ : جوفري ده فيلهاردون ، المؤرخ .

١١٦٣ – ١٢٣٥ : كنيسة نوتردام في باريس .

١١٦٥ – ١٢٢٠ : ولفرام فون اشنباخ ، الشاعر .

١١٦٥؟ – ١٢٢٠ : ولتر فون در فوجلفيد ، الشاعر .

١١٦٧ : تكوين العصبة اللباردية ؛ نشأة جامعة أكسفورد .

١١٦٢ – ١٢١٥ : پيرڤيدال شاعر الفروسية الغزلي .

١١٧٠ : يقتل تومس آبكت ؛ استرنجبو ، ذو القوس القوي ، يبدأ فتح أيرلندة ؛ بطرس ولدو في ليون .

١١٧٠ – ١٢٢١ : سانت دمنيك .

١١٧٠ – ١٢٤٥ : اسكندر الهالي الفيلسوف .

١١٧٢ وما بعدها : قصر الدوج .

١١٧٤ – ١٢٤٢ : كنيسة ولز الكبرى .

١١٧٥ – ١٢٣٤ : ميخائيل أسكت

١١٧٥ – ١٢٨٠ : الطراز الإنجليزي القوطي الأول .

١١٧٥ وما بعدها : كنيسة كنتربري الكبرى .

١١٧٦ : إنشاء جماعة كارثوزيا ، هزيمة فردريك بربرسا في لنيانو .

١١٧٨ وما بعدها : اللمدون الألبجنسيون ؛ كنيسة پيتربرو .

١١٧٨ – ١٢٤١ : إسنري استرلسون ، المؤرخ .

١١٧٩ : مجلس لاتران الثالث .

١١٨٠؟ : إنشاء جامعة منبليه ؛ ماري ده فرانس الشاعرة .

١١٨٠ — ١٢٢٥ : فليب الثانى أغسطس ملك فرنسا .
١١٨٠ — ١٢٥٠ : ليوناردوده فيبوناتشى ، العالم الرياضى .
١١٨٠؟—١٢٥٣ : وبرت جرسيتسّ ، العالم الطبيعى .
١١٨٢ — ١٢١٦ : القديس فرانسس الأسيسى .
١١٨٥ — ١٢١٩ : أرمينية الصغرى تزدهر تحت حكم لبو الثالث .
١١٨٥ — ١٢٣٧ : كنيسة بامبرج .
١١٨٩ — ١١٩٢ : الحرب الصليبية الثالثة .
١١٨٩ — ١١٩٩ : رتشرد الأول قلب الأسد .
١١٩٠ : نشأة طبقة الفرسان التيوتون .
١١٩٠ — ١١٩٧ : هنرى السادس ملك ألمانيا .
١١٩٢ — ١٢٣٠ : أوتاكار الأول ملك بوهيميا .
١١٩٢ - ١٢٨٠ : لنكولن منستر .
١١٩٣ — ١٢٠٥ : أندريكو دندولو دوج البندقية .
١١٩٣ — ١٢٨٠ : ألبرتس ماجنس .
١١٩٤ — ١٢٤٠ : لويلين الأكبر ملك ويلز .
١١٩٤ — ١٢٥٠ : فردرك الثانى ملك صقلية .
١١٩٥ — ١٢٣١ : سانت أنتونى فى پدوا .
١١٩٥ — ١٣٩٠ : كنيسة بورج .
١١٩٨ — ١٢١٦ : البابا إنوسنت الثالث .
١١٩٩ — ١٢١٦ : چون ملك إنجلترا .
١٢٠٠؟: داڤد الدينانتى الفيلسوف .
١٢٠٠ — ١٣٠٤ : بهو القماش فى إيپرس .
١٢٠٠ — ١٢٥٩ : ماثيو باريس المؤرخ .
١٢٠٠ — ١٢٦٤ : ڤنسنت عالم بوڤيه ، من رجال الموسوعات .
١٢٠١ : الألمان يفتحون ليڤونيا .
١٢٠١ — ١٥٠٠ : كنيسة رون .
١٢٠٢ — ١٢٠٤ : الحرب الصليبية الرابعة .
١٢٠٢ — ١٢٠٥ : فليپ الثانى ملك فرنسا يستولى على نورمنديا ، وأنچو ، ومين ، وبريطانى من إنجلترا .
١٢٠٢ — ١٢٤١ : ڤلمدير الثانى ملك الدنمرقة .
١٢٠٤ — ١٢٢٩ : الحرب الصليبية الألبجنسية .
١٢٠٤ — ١٢٥٠ : معجزة جبل القديس ميخائيل .
١٢٠٤ — ١٢٦١ : مملكة القسطنطينية اللاتينية .
١٢٠٥ : أقدم إشارة مسيحية إلى البوصلة المغنطيسية ، مسرحية هارتمان فن أوى **Derarme Heinrich** .
١٢٠٥ — ١٣٠٣ : كنيسة ليون .

١٢٠٦ — ١٢٢٢ : ثيودور لسكاريس إمبراطور الشرق .
١٢٠٧ — ١٢٢٨ : استيفن لانجتون كبير أساقفة كنتربرى .
١٢٠٨ : القديس فرنسس يؤسس نظام الرهبان الصغار ؛ إنوسنت الثالث يصدر قرار الحرمان على إنجلترا .
١٢٠٩ : تأسيس جامعة كبردج .
١٢١٠ : تحريم كتب أرسطو فى باريس ؛ ترستران لجتفرايد الأسترسبورجى
١٢١١ — ١٤٢٧ : كنيسة ريمس .
١٢١٢ : حرب الأطفال الصليبية ، سانتا كلارا يؤسس نظام كلارا الفقيرات .
١٢١٣ — ١٢٧٦ : چيمس الأول ملك أرغونة .
١٢١٤ : فليب الثانى ينتصر فى بوفيه .
١٢١٤ — ١٢٩٢ : روچر بيكن .
١٢١٥ : العهد الأعظم ؛ مجلس لاتران الرابع ، تأسيس نظام الدومنيك .
١٢١٦ — ١٢٢٧ : البابا هونوريوس الثالث .
١٢١٦ — ١٢٧٢ : هنرى الثالث ملك إنجلترا .
١٢١٧ : الحرب الصليبية الخامسة .
١٢١٧ — ١٢٥٢ : فرديناند الثالث ملك قشتالة .
١٢١٧ — ١٢٦٣ : هاكون الرابع ملك النرويج .
١٢٢٠ — ١٢٤٥ : كنيسة سلزبرى .
١٢٢٠ — ١٢٨٨ : كنيسة أمين .
١٢٢١ — ١٢٧٤ : سانت بوناڤنتير .
١٢٢١ — ١٥٦٧ : كنيسة برجوس .
١٢٢٤ : إنشاء جامعة ناپلى .
١٢٢٤ — ١٣١٧ : چان ده چوانڤيل ، المؤرخ .
١٢٢٥ : قوانين الشاحسنسپيجل .
١٢٢٥ — ١٢٧٤ : القديس تومس أكويناس ، الفيلسوف .
١٢٢٥ — ١٢٧٨ : نيقولو پيزانو ، المثال .
١٢٢٦ — ١٢٣٥ : بلانش القشتالية نائبة الملك .
١٢٢٦ — ١٢٧٠ : لويس التاسع ملك فرنسا .
١٢٢٧ : تأسيس جامعة سلمنقة ، بداية محكمة التفتيش البابوية .
١٢٢٧ — ١٢٤١ : البابا جريجورى التاسع .
١٢٢٧ — ١٤٩٣ : كنيسة طليطلة .
١٢٢٧ — ١٥٠٢ : كنيسة بوفيه .
١٢٢٨ وما بعدها : كنيسة سان فرانسسكو فى أسيسى .
١٢٢٨ : الحرب الصليبية السادسة ، فردريك الثانى يسترد بيت المقدس .
١٢٢٩ — ١٣٤٨ : كنيسة سينا .

١٢٣٠ وما بعدها : كنيسة أسترسبورج .
١٢٤٠ — ١٢٧٥ : جيلو جنزلى .
١٢٣٢ — ١٣٠٠ : أرتلفودى كبيو ، الفنان .
١٢٣٢ — ١٣١٥ : ريمندلى ، الفيلسوف .
١٢٣٥ — ١٢٨١ : سيجر البرابنتى ، الفيلسوف .
١٢٣٥ — ١٣١١ : آرنلد الفلانوفى ، الطبيب .
١٢٣٧ : المغول يغيرون على الروسيا ؛ رواية الوردة لوليم الوروسى .
١٢٤٠ : انتصار اسكندر نفسكى على نهر النيفا .
؟١٢٣٠ : أوكسين ونيقولتى .
١٢٤٠ — ١٣٠٢ : سيمابيو .
١٢٤٠ — ١٣٢٠ : چيوفنى پيزانو ، الفنان .
١٢٤١ : المغول يهزمون الألمان عند ليجنتز ، ويفتحون كراكاو ويعيثون فساداً فى بلاد المجر .
١٢٤٣ — ١٢٥٤ : البابا إنوسنت الرابع .
١٢٤٤ : استيلاء المسلمين على بيت المقدس .
١٢٤٥ : مجلس ليون الأول يخلع فردريك الثانى .
١٢٤٥ : چيوفنى ده پيانوكربينى يزور بلاد المغول .
١٢٤٥ — ١٢٤٨ : سانتى شاپل .
١٢٤٥ — ١٢٧٢ : دير وستمنستر .
١٢٤٨ : القديس لويس يقود الحملة الصليبية السابعة .
١٢٤٨ — ١٣٠٤ : قصر الحمراء .
١٢٤٨ — ١٨٨٥ : كنيسة كولونى .
١٢٥٠ : أسر القديس لويس ، موت فردريك الثانى ، كتاب براكتن .
١٢٥٢ — ١٢٦٢ : تكوين عصبة مدن هانسيا .
١٢٥٢ — ١٢٨٢ : الفنسو العاشر الحكيم ملك قشتالة .
١٢٥٣ — ١٢٧٨ : أتوكار الثانى ملك بوهيميا .
١٢٥٤ — ١٢٦١ : البابا اسكندر الرابع .
١٢٥٥ — ١٣١٩ : دلتشيو السينائى ، المصور .
١٢٥٨ : هاكون الرابع ملك النرويج يفتح أيسلندة .
١٢٥٨ — ١٢٦٦ : مانفرد ملك صقلية .
١٢٥٨ — ١٣٠٠ : جيلو كفلكنتى .
؟١٢٦٠ : فلاجلنتس .
١٢٩٠ — ١٣٢٠ : هنرى ده منديل ، الجراح .
١٢٦١ : ميخائيل الثامن باليكاجس يعيد الدولة الشرقية فى القسطنطينية .
١٢٦٥ : برلمان سيمون ده منتفورت .
١٢٦٥ — ١٣٠٨ : دنزاسكوتس ، الفيلسوف .

١٢٦٥ – ١٣٢١ : دانتى .

١٢٦٦ : كتاب روچر بيكن Opus Maius .

١٢٦٦ – ١٢٨٥ : تشارلس أمير أنچو ملك صقلية .

١٢٦٦ – ١٣٣٧ : چيتو .

١٢٦٨ : هزيمة كرارين ، ونهاية أسرة هوهنستوفن .

١٢٦٩ : الظاهر بيبرس يستولى على يافا وأنطاكية .

١٢٧٠ : لويس التاسع يقود الحملة الصليبية الثامنة .

١٢٧١ – ١٢٩٥ : ماركو پولو فى آسية .

١٢٧٢ – ١٣٠٧ : إدورد الأول ملك إنجلترا .

١٢٧٣ – ١٢٩١ : رودلف الهپسبرجى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

١٢٧٤ : مجلس ليون الثانى .

١٢٧٩ – ١٣٢٥ : دنيز ملك البرتغال .

١٢٨٠ – ١٣٨٠ : الطراز القوطى الإنجليزى المزخرف .

١٢٨٢ : صلوات الغروب الصقلية ؛ بدرو الثالث صاحب أرغونة يستولى على صقلية .

١٢٨٣ : إدورد الثالث يعيد فتح ويلز .

١٢٨٤ : بلفرى صاحب بروج .

١٢٨٥ – ١٣١٤ : فليب الرابع الجميل ملك فرنسا .

١٢٩٠؟ : القصة الذهبيـــة تأليف يوقوپر ده ڤراچين ، رواية الوردة Roman de la Rose تأليف جان منج .

١٢٩٠ – ١٣٣٠ : كنيسة أورڤيتو .

١٢٩١ : استيلاء المماليك على عكا ، نهاية الحروب الصليبية ، عصبة المقاطعات السويسرية .

١٢٩٢ – ١٣١٥ : چون بليول ملك اسكتلندة .

١٢٩٤ : لانفرنى ينشئ فن الجراحة الفرنسى .

١٢٩٤ : كنيسة سانت كروس (الصليب المقدس) فى فلورنس .

١٢٩٤ – ١٣٠٣ : البابا بنيفاس الثامن .

١٢٩٤ – ١٤٣٦ : كنيسة سانتا ماريا ده فيورى فى فلورنس .

١٢٩٥ : البرلمان النموذجى الذى أنشأه إدورد الأول .

١٢٩٦ : القرار البابوى لبنيفاس .

١٢٩٨ : هزيمة ولاس فى فلكيرك ، قصر فيتشيو والعميد فى فلورنس .

١٢٩٨ وما بعدها : كنيسة برشلونة .

١٣٠٢ : الفلمنكيون يهزمون الفرنسيين عند كورتراى ، القرار البابوى لبنيفاس ، فليب الرابع يدعو مجلس الولايات إلى الاجتماع .

١٣٠٥ — ١٣١٦ : البابا كلمنت الرابع .

١٣٠٨ — ١٣١٣ : هنرى السابع إمبراطور الغرب .

١٣٠٩ : البابا ينقل البابوية إلى أفنيون .

١٣١٠ — ١٣١٢ : حل نظام فرسان المعبد فى فرنسا .

١٣١٤ : اسكتلندة تحصل على استقلالها فى بنكبيرن .

١٣١٥ : السويسريون يهزمون جيش آل هپسبرج فى موجارتن ، وينشئون الاتحاد السويسرى .

الباب الثالث والعشرون

الحروب الصليبية

١٠٩٥ – ١٣٩١

الفصل الأول

أسبابها

كانت الحروب الصليبية هي الفصل الأخير من مسرحية العصور الوسطى ؛ ولعلها أجدر الحوادث بالتصوير فى تاريخ أوربا والشرق الأدنى ، ففيها عمد الدينان العظيمان – المسيحية والإسلام – ، آخر الأمر ، وبعد قرون من الجدل والنقاش ، إلى الفيصل الأخير فيما يشجر بين بنى الإنسان من نزاع ، ونعنى به محكمة الحرب العليا ؛ وفيها بلغ كل تطور فى العصور الوسطى ، وكل توسع فى الشئون التجارية والديانة المسيحية ، وكل تحمس فى العقيدة الدينية ، وكل ما فى الإقطاع من قوة ، وفى الفروسية من فتنة وبهجة ، وبلغ هذا كله غايته فى حرب دامت مائتى عام فى سبيل روح البشرية والأرباح التجارية .

وأول سبب مباشر للحروب الصليبية(*) هو زحف الأتراك السلاجقة . وكان العالم قبل زحفهم قد كيف نفسه لقبول سيطرة المسلمين على بلاد الشرق الأدنى ؛ وكان الفاطميون حكام مصر قد حكموا فلسطين حكماً سمحا رحيما ؛ استمتعت فيه الطوائف المسيحية بحرية واسعة فى ممارسة شعائر دينها إذا استثنينا بعض فترات

(*) الاسم الإنجليزى Crnsade مشتق من اللفظ الأسبانى Cruzada أى عليه علامة الصليب .

قصيرة قليلة : نعم إن الحاكم بأمر الله ، الخليفة المجنون ، دمر كنيسة الضريح المقدس (١٠١٠) ؛ ولكن المسلمين أنفسهم قدموا المال الكثير لإعادة بنائها[١] . وقد وصفها الرحالة المسلم ناصري خسرو بأنها بناء واسع الجنبات تتسع لثمانية آلاف شخص ، بذل في بنائها أعظم ما يستطاع من الحذق والمهارة ، وزين كل مكان في داخلها بالنسيج الحريري البيزنطي المطرز بخيوط الذهب ، ورسم فيها المسيح عليه السلام راكباً على ظهر حمار[٢] ؛ وكان في أورشليم كنائس أخرى كثيرة ، وكان في وسع الحجاج المسيحيين أن يدخلوا الأماكن المقدسة بكامل حريتهم ؛ وكان الحج إلى فلسطين قد أصبح من زمن بعيد إحدى شعائر العبادة أو التوبة من الذنوب ، فكان الإنسان أينما سار في أوربا يلتقي بحجاج يدلون على أنهم أدوا هذه الشعيرة بأن يضعوا على أثوابهم شارة في شكل الصليب من خوص النخل (*) جاءوا به من فلسطين ؛ ويوصف هؤلاء في كتاب بيرز بلاومان Piers Plowman بأنه « كان من حقهم أن يكذبوا ويخادعوا ما بقي من حياتهم[٣] » . لكن الأتراك انتزعوا بيت المقدس من الفاطميين في عام ١٠٧٠ ، وأخذ الحجاج المسيحيون بعد عودتهم إلى أوطانهم يتحدثون عما يلقونه فيها من ظلم وتحقير . وتقول قصة قديمة لا نجد ما يؤيدها ، إن أحد هؤلاء الحجاج وهو بطرس الناسك حمل إلى إربان الثاني Urban II من سمعان بطريق أورشليم رسالة تصف بالتفصيل ما يعانيه المسيحيون فيها من اضطهاد وتستغيث به لينقذهم (١٠٨٨) .

وكان السبب المباشر الثاني من أسباب الحرب الصليبية ما حاق بالإمبراطورية البيزنطية من ضعف شديد الخطورة . لقد ظلت هذه الإمبراطورية سبعة قرون طوال تقف في ملتقى الطرق المارة بين أوربا وآسية ، تصد جيوش آسية وجحافل

(*) وكان هؤلاء يسمون Palmers من كلمة palm أي النخلة ومن معاني كلمة Palmer غشاش أو مخادع في اللعب . (المترجم)

السهوب . أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فإن اضطراب شئونها الداخلية ، وشيعها الخارجة على الدين ، وانفصالها عن الغرب على أثر الانشقاق الذى حدث فى عام ١٠٥٤ ، كل هذا قد أوهنها وجعلها أضعف من أن تؤدى رسالتها التاريخية . وبينا كان البلغار ، والبشناق Patznaks ، والكومان Comans ، والروس يدقون أبوابها فى أوربا ، كان الأتراك يقطعون أوصال ولاياتها الآسيوية ، وكاد الجيش البيزنطى أن يقضى عليه عند ملازكرت فى عام ١٠٧١ ، واستولى السلاجقة على حمص وأنطاكية (١٠٨٥) ، وطرسوس ، ونيقية ذات الماضى التاريخى الدينى ، وأخذوا يتطلعون من وراء مضيق البسفور إلى القسطنطينية نفسها ، واستطاع الإمبراطور ألكسيوس الأول (١٠٨١ — ١١١٨) أن يحتفظ بجزء من آسية الصغرى بعقد صلح مذل ، ولكنه لم تكن لديه القدرة الحربية على صد الغارات التى توالت بعدئذ على أملاكه . ولو أن القسطنطينية سقطت وقتئذ فى أيدى الترك لأمكنهم الاستيلاء على شرقى أوربا كله ، ولـمّا بقى لمعركة تور (٧٣٢) أثر ما . وبعث ألكسيوس برسله إلى إربان الثانى وإلى مجلس بياسنزا Piacenza يستحث أوربا اللاتينية لتساعده على صد هجمات الترك ؛ وكان من أقواله « إن من الحكمة أن يحارب الأتراك فى أرض آسية بدل أن ننتظرهم حتى يقتحموا بجحافلهم بلاد البلقان إلى عواصم أوربا الغربية » .

وثالث الأسباب المباشرة للحروب الصليبية هو رغبة المدن الإيطالية — بيزا ، وجنوى ، والبندقية ، وأملفى Amalfi — فى توسيع ميدان سلطانها التجارى الآخذ فى الازدياد . ذلك أنه لما استولى النورمان على صقلية من المسلمين (١٠٦٠ — ١٠٩١) ، وانتزعت الجيوش المسيحية منهم جزءاً كبيراً من أسبانيا (١٠٨٥ ومابعدها) ، أصبح البحر المتوسط الغربى حراً للتجارة المسيحية ؛ وأثرت المدن الإيطالية وقويت لأنها هى الثغور التى تخرج منها غلات إيطاليا والبلاد الواقعة وراء الألب ، وأخذت هذه المدن تعمل للقضاء على تفوق المسلمين فى الجزء

الشرق من البحر المتوسط وتفتح أسواق الشرق الأدنى لبضائع غربى أوربا . ولسنا نعلم إلى أى حد كان هؤلاء التجار الإيطاليون قريبين من مسامع البابا .

وصدر القرار النهائى من إربان نفسه ، وإن كان غيره من البابوات قد طافت بعقولهم هذه الفكرة . فقد دعا جربرت Gerbert ، حينما أصبح البابا سلفستر الثانى Sylvester II ، العالم المسيحى لإنقاذ بيت المقدس ، ونزلت حملة مخفقة فى بلاد الشام (حوالى ١٠٠١) ؛ ولم يمنع النزاع المرير القائم بين جريجورى السابع وهنرى الرابع البابا من أن يقول بأعلى صوته : « إن تعريض حياتى للخطر فى سبيل تخليص الأماكن المقدسة لأفضل عندى من حكم العالم كله »[٤] . وكان هذا النزاع لا يزال على أشده حين رأس إربان مجلس بياسنزا فى مارس من عام ١٠٩٥ ؛ وأيد البابا فى هذا المجلس استغاثة ألكسيوس ، ولكنه أشار بتأجيل العمل حتى تعقد جمعية أكثر من هذا المجلس تمثيلا للعالم المسيحى ، وتبحث فى شن الحرب على المسلمين . ولعل الذى دعاه إلى طلب هذا التأجيل ما كان يعلمه من أن النصر فى مغامرة فى هذا الميدان البعيد غير مؤكد ؛ وما من شك فى أنه كان يدرك أن الهزيمة ستحط من كرامة العالم المسيحى والكنيسة المسيحية إلى أبعد حد ؛ وأكبر الظن أنه كان يتوق إلى توجيه ما فى طبائع أمراء الإقطاع والقراصنة النورمان من حب القتال إلى حرب مقدسة ، تصد جيوش المسلمين عن أوربا وبيزنطية . ولقد كان يحلم بإعادة الكنيسة الشرقية إلى حظيرة الحكم البابوى ، ويرى بعين الخيال عالماً مسيحيا عظيم القوة متحداً تحت حكم البابوات الدينى ، ورومة تعود حاضرة للعالم ؛ وكان هذا تفكيراً أملته رغبة فى الحكم لا تعلو عليها رغبة .

وظل البابا بعدئذ بين شهرى مارس واكتوبر من عام ١٠٩٥ يطوف بشمالى إيطاليا وجنوبى فرنسا ، يستطلع طلع الزعماء ويضمن المعونة لما هو مقدم عليه . واجتمع المجلس التاريخى بمدينة كلير مونت Clermont فى مقاطعة أوفرنى ، وهرع

إليه آلاف الناس من مائة صقع وصقع لم يقف فى سبيلهم برد نوفمبر القارس . ونصب القادمون خيامهم فى الأراضى المكشوفة ، وعقدوا اجتماعاً كبير لا يتسع له بهو ، وامتلأت قلوبهم حماسة حين وقف على منصة فى وسطهم مواطنهم إربان الفرنسى وألقى عليهم باللغة الفرنسية أقوى الخطب وأعظمها أثراً فى تاريخ العصور الوسطى :

يا شعب الفرنجة ! شعب الله المحبوب المختار ! . . . لقد جاءت من تخوم فلسطين ، ومن مدينة القسطنطينية ، أنباء محزنة تعلن أن جنسا لعينا أبعد ما يكون عن الله ، قد طغى وبغى فى تلك البلاد بلاد المسيحيين ، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب وبالحرائق ؛ ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع التعذيب . وهم يهدمون المذابح فى الكنائس ، بعد أن يدنسوها برجسهم ، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان ، وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها فى شهرين كاملين .

على من إذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم ، واستعادة تلك الأصقاع ، إذا لم تقع عليكم أنتم — أنتم يا من حباكم الله أكثر من أى قوم آخرين بالمجد فى القتال ، وبالبسالة العظيمة ، وبالقدرة على إذلال رءوس من يقفون فى وجوهكم ؟ ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوى قلوبكم — أمجاد شارلمان وعظمته ، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم — فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا ، الضريح الذى تمتلكه الآن أمم نجسة ، وغيره من الأماكن المقدسة التى لوثت ودنست ... لا تدعوا شيئاً يقعد بكم من أملاككم أو من شئون أسركم . ذلك بأن هذه الأرض التى تسكنونها الآن ، والتى تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقلل الجبال ، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين ، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيهم من الطعام ، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً ، ويلتهم بعضكم بعضاً ، وتتحاربون ، ويهلك الكثيرون منكم فى الحروب الداخلية .

طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد ، واقضوا على ما بينكم من نزاع ، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس ، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث ، وتملكوها أنتم . إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها ، هي فردوس المباهج . إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها ، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم ، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجداً لا يفنى في ملكوت السموات(٥) »

وعلت أصوات هذا الجمع الحاشد المتحمس قائلة : « تلك إرادة الله Dieu li volt » وردد إربان هذا النداء ودعاهم إلى أن يجعلوه نداءهم في الحرب ، وأمر الذاهبين إلى الحرب الصليبية أن يضعوا علامة الصليب على جباههم أو صدورهم ويقول وليم مالمزبرى William Malmsbury : « وتقدم بعض النبلاء من فورهم ، وخروا راكعين بين يدى البابا ووهبوا أنفسهم وأموالهم لله »(٦) وحذا حذوهم آلاف من عامة الشعب وخرج الرهبان والنساك من صوامعهم ليكونوا جنود المسيح بالمعنى الحرفي لهذا اللفظ لا بمعناه المجازى ، وانتقل البابا النشيط إلى مدن أخرى — إلى تور ، وبوردو ، وطولوز (طلوشة) ، ومنبلييه ، ونيمز Nimes وظل تسعة أشهر يخطب داعياً إلى الحرب الصليبية . ولما بلغ رومة بعد أن غاب عنها سنتين ، استقبلته بالترحاب أقدم مدن العالم المسيحى تقوى وأخذ على عاتقه أن يحل جميع الصليبيين من جميع القيود التي تعوقهم عن الانضمام إلى المقاتلين . ولم يلق في عمله هذا مقاومة جدية ؛ فحرر رقيق الأرض ، وحرر التابع الإقطاعى طوال مدة الحرب مما عليه من الولاء لسيده ؛ ومنح جميع الصليبيين ميزة المحاكمة أمام المحاكم الكنسية لا أمام المحاكم الإقطاعية ، وضمن لهم مدة غيابهم حماية الكنيسة لأملاكهم . وأمر

بوقف جميع الحروب القائمة بين المسيحيين والمسيحيين — وإن لم يقو على تنفيذ أمره هذا ، ووضع مبدأ للطاعة يعلو على قانون الولاء الإقطاعى ؛ وهكذا توحدت أوربا كما لم تتوحد فى تاريخها كله ، ووجد إربان نفسه السيد المرتضى — من الوجهة النظرية على الأقل — لملوك أوربا على بكرة أبيهم . وسرَت روح الحماسة فى أوربا كما لم تسر فيها من قبل فى أثناء هذا الاستعداد المحموم للحرب المقدسة .

الفصل الثاني

الحرب الصليبية الأولى

١٠٩٥ — ١٠٩٩

وانضوت جماعات لا عدد لها تحت لواء الحرب مدفوعة إلى هذا بمغريات جمة : منها أن كل من يخر صريعاً فى الحرب قد وعد بأن تغفر له جميع ذنوبه ، وأذن لأرقاء الأرض أن يغادروا الأراضى التى كانوا مرتبطين بها ، وأعفى سكان المدن من الضرائب ، وأجلت ديون المدينين على أن يؤدوا فائدة نظير هذا التأجيل ، وتوسع البابا فى سلطاته توسعاً جريئاً فأطلق سراح المسجونين ، وخفف أحكام الإعدام عن المحكوم عليهم بها إذا خدموا طوال حياتهم فى فلسطين ، وانضم آلاف من المتشردين إلى القائمين بهذه الرحلة المقدسة ؛ وأقبل كثيرون من الأتقياء المخلصين ليخلصوا الأراضى التى ولد فيها المسيح ومات ، منهم رجال سئموا الفقر الذى كانوا يعانونه ، والذى ظنوا أن لانجاة لهم منه ، ومنهم المغامرون التواقون إلى الاندفاع فى مغامرات جريئة فى بلاد الشرق ، ومنهم الأبناء الصغار الذين يرجون أن تكون لهم إقطاعيات فى تلك البلاد ، ومنهم التجار الذين يبحثون عن أسواق لبضائعهم ، والفرسان الذين غادر أرضهم أرقاؤها فأصبحوا لا عمل لهم ، ومنهم ذوو النفوس الضعيفة الذين يخشون أن يرميهم الناس بالجبن وخور العزيمة . ونشطت الدعاوة المألوفة فى الحروب فأخذت تؤكد الاضطهاد الذى يلقاه المسيحيون فى فلسطين ، والمعاملات الوحشية التى يلقونها على أيدى المسلمين ، والأكاذيب عما فى العقيدة الإسلامية من زيغ وضلال ؛ فكان المسلمون يوصفون بأنهم يعبدون تمثالا للنبى محمد(٧) ؛ وأخذ الثرثارون « الأتقياء » يقولون : إن النبى قد

أصابته نوبة صرع التهمته فى أثنائها الخنازير البرية[٨] . ورويت قصص خرافية عن ثروة الشرق ، وعن الغانيات السمر ينتظرن أن يأخذهن الرجال البواسل[٩] .

وهذه البواعث المختلفة لا يمكن أن تجمتع من أجلها جموع متجانسة يستطاع إخضاعها لنظام عسكرى . وقد بلغ من أمر هذا الخليط أن النساء والأطفال أصروا فى كثير من الحالات على الانضمام إلى صفوف المجاهدين ليقوم النساء بخدمة أزواجهن ، والأبناء بخدمة آبائهن ، ولعلهم كانوا على حق فى هذا الإصرار لأن العاهرات سرعان ما تطوعن لخدمة المحاربين . وكان إربان قد حدد لبدء الرحيل شهر أغسطس من عام ١٠٩٦ ، ولكن الفلاحين القلقين الذين كانوا أوائل المتطوعين لم يستطيعوا الانتظار إلى هذا الموعد ، فسار جحفل منهم عدته نحو اثنى عشر ألفا (لم يكن من بينهم إلا ثمانية من الفرسان) وبدأ رحلته من فرنسا فى شهر مارس بقيادة بطرس الناسك Peter the Hermit ، وولتر المفلس Walter the penniless (Gautar Sans-Avoir) ، وقام جحفل آخر – ربما كانت عدته ٥٠٠ من ألمانيا بقيادة القس جتسشوك Gattschalck ، وزحف ثالث من أرض الرين بقيادة الكونت إمكو اللينِنجِينى Count Emico of Leiningen – . وكانت هذه الجموع غير النظامية هى التى قامت بأكثر الاعتداءات على يهود ألمانيا وبوهيميا ، وأبت أن تطيع نداء رجال الدين والمواطنين من أهل تلك البلاد ، وانحطت حتى استحالت إلى وقت ما وحوشا كاسرة تستر تعطشها للدماء بستار من عبارات التقى والصلاح . وكان الجنود قد جاءوا معهم ببعض المال ، لكنهم لم يجيئوا إلا بالقليل الذى لا يغنى من الطعام ، وكان قادتهم تعوزهم التجارب فلم يعدوا العدة لإطعامهم ؛ وقدر كثيرون من الزاحفين المسافة بأقل من قدرها الصحيح ، وكانوا وهم يسيرون على ضفاف الرين والدانوب كلما عرجوا على بلدة من البلدان يسألهم أبناؤهم فى لهفة – أليست هذه أورشليم ؟ ولما فرغت أموالهم ، وعضهم الجوع ، اضطروا إلى نهب ما فى طريقهم من الحقول والبيوت ،

وسرعان ما أضافوا الفسق إلى السلب والنهب(١١) . وقاومهم أهل البلاد مقاومة عنيفة ، وأغلقت بعض المدن أبوابها فى وجوههم ، وأمرهم بعضها أن يرحلوا عنها بلا مهل ، ولما بلغوا آخر الأمر مدينة القسطنطينية ، بعد أن نفدت أموالهم ، وهلك منهم من هلك بفعل الجوع والطاعون ، والجذام ، والحمى ، والمعارك التى خاضوا غمارها فى الطريق ، رحب بهم ألكسيوس ؛ ولكنه لم يقدم لهم كفايتهم من الطعام ، فانطلقوا فى أرباض المدينة ، ونهبوا الكنائس ، والمنازل ، والقصور . وأراد ألكسيوس أن ينقذ عاصمته من هذه الجموع الفتاكة التى أهلكت الحرث والنسل وكانت فيها كالجراد المنتشر . فأمدها بالسفن التى عبرت بها البسفور ، وأرسل إليها المؤن ، وأمرها بالانتظار حتى تصل إليها فرق أخرى أحسن منها سلاحاً وعتاداً . ولكن الصليبيين لم يستمعوا إلى هذه الأوامر ، سواء كان ذلك لجوعهم أو لقلقهم ونفاد صبرهم ، فزحفوا على نيقية . وخرجت عليهم قوة منظمة من الترك ، كلها من مهرة الرماة ، وأبادت هذه الطليعة من فرق الحرب الصليبية الأولى فلم تكد تبقى على أحد منها . وكان ولتر المفلس من بين القتلى ؛ وأما بطرس الناسك فكانت نفسه قد اشمأزت من هذه الجموع التى لا تخضع لقيادة ، وعاد قبل المعركة إلى القسطنطينية ، وأقام فيها سالماً حتى عام ١١١٥ .

وبينا كانت هذه الحوادث تجرى فى مجراها كان الزعماء والإقطاعيون الذين حملوا الصليب قد جمع كل منهم رجاله فى إقليمه . ولم يكن من بين هؤلاء الزعماء ملوك ، فقد كان فيليب الأول ملك فرنسا ، ووليم الثانى ملك إنجلترا ، وهنرى الرابع ملك ألمانيا ، كان هؤلاء جميعاً مطرودين من حظيرة الدين حين كان إربان الثانى يدعو إلى الحرب الصليبية ، ولكن كثيرين من الأشراف انضموا إلى صفوف المقاتلين ، وكانوا كلهم تقريبا من الفرنسيين أو الفرنجة . وبهذا كانت الحرب الصليبية الأولى فى الأغلب الأعم مغامرة فرنسية ، ومن أجل هذا ظل الشرق الأدنى إلى هذا اليوم إذا ذكر غربى أوربا سماه بلاد الفرنجة (الأفرنج) ، وكان

الدوق جدفرى Godfrey سيدبويون Bouillon (وهى مقاطعة صغيرة فى بلچيكا) يجمع بين صفات الجندى والراهب — كان شجاعاً محنكا فى الحرب ، ورعاً إلى حد التعصب فى الدين ؛ وكان الكونت بوهمند من سادة ترنتو Tarantô ابن روبرت جسكارد Robert Guiscard قد ورث عن أبيه كل شجاعته وبراعته ، وكان يحلم باقتطاع مملكة له ولجنوده النورمان من الأملاك البيزنطية السابقة فى الشرق الأدنى . وكان معه ابن أخيه تانكرد الهوتڤيلى Tancred of Hauteville الذى شاءت الأقدار أن يكون بطل رواية أورشليم المنجاة Jeusalem Delivered لتاسو Tasso . وكان بهى الطلعة ، شجاعاً لا يهاب الردى ، شهماً ، كريماً ، يحب المجد والمال ، يعجب به الناس كافة ويرونه المثل الأعلى للفارس المسيحى . وكان ريموند Reymond كونت طولوز (طلوشة) قد حارب المسلمين من قبل فى أسپانيا فلما تقدمت به السن وهب نفسه وثروته العظيمة إلى حرب أكبر وأوسع ، ولكن غطرسته أفسدت عليه نبله ، ودنس بخله تقواه .

وسارت هذه الجموع إلى القسطنطينية من طرق مختلفة ؛ وعرض بوهمند على جدفرى أن يستوليا على المدينة ، فرفض جدفرى هذا العرض لأنه لم يأت ، على حد قوله ، إلا لقتال الكفرة(١٢) ، ولكن هذه الفكرة لم تمت . وكان فرسان الغرب الأشداء أنصاف الهمج يحتقرون سادة الشرق المثقفين المخادعين ، ويرون أنهم مارقون من الدين ، مخنثون ، مترفون . وكانوا ينظرون بعين الدهشة والحسد إلى الكنوز المخزونة فى كنائس العاصمة البيزنطية ، وقصورها وأسواقها ، ويرون أن هذا الثراء العظيم يجب أن يكون من نصيب الشجعان البواسل . ولعل ألكسيوس قد ترامت إليه هذه الأفكار التى كانت تملأ صدور منقذيه ، وكان ما لاقاه فى قتال جحافل الفلاحين (وقد لامه الغرب على هزيمته إياهم) مما دعاه إلى اصطناع الحذر ، وإن شئت فقل إلى النفاق . نعم إنه استنجد بالغرب على الأتراك ، ولكنه لم يطلب أن تتجمع قوى أوربا المتحدة على أبواب عاصمته ، ولم

يكن واثقاً قط من أن أولئك المقاتلين يطمعون فى أورشليم بقدر ما يطمعون فى القسطنطينية ، أو من أنهم سيعيدون إلى ملكه أىَّ إقليم ينتزعونه من الأتراك ، وكان من قبل من أملاك الدولة البيزنطية . ولهذا عرض على الصليبيين المؤن ، والأموال ، ووسائل النقل ، والمعونة الحربية ، وعرض على زعمائهم رشا سخية(١٣) ، وطلب إليهم فى نظير هذا أن يقسم النبلاء يمين الولاء له بوصفه سيدهم الإقطاعى ، وأن تكون كل الأراضى التى يستولون عليها إقطاعيات لهم منه . وأثرت الفضة فى نفوس النبلاء ورققت قلوبهم فأقسموا اليمين المطلوبة .

وعبرت هذه الجيوش البالغ عددها نحو ثلاثين ألفاً المضيقين فى عام ١٠٧٩ ، وكانت لا تزال موزعة القيادة . وكان من حسن حظ الصليبيين أن المسلمين كانوا أشد انقساما على أنفسهم من المسيحيين ، فقد أنهكت الحروب قوة المسلمين فى أسبانيا ، ومزقت المنازعات الدينية وحدتهم فى شمالى إفريقية ؛ وكان الخلفاء الفاطميون فى الشرق يمتلكون بلاد الشام الجنوبية ، بينما كان أعداؤهم السلاجقة يمتلكون جزءها الشمالى والقسم الأكبر من آسية الصغرى . وخرجت أرمينية على فاتحيها السلاجقة وتحالفت مع الفرنجة . وزحفت جيرش أوربا يؤيدها هذا العون كله وحاصرت نيقية . واستسلمت الحامية التركية فى المدينة بعد أن وعدها ألكسيوس بالمحافظة على حياتها (١٩ يونية سنة ١٠٩٧) ، ورفع إمبراطور الروم العلم الإمبراطورى على حصنها ، وحمى المدينة من النهب ، وأرضى الزعماء الإقطاعيين بالعطايا السخية ، ولكن الجنود المسيحيين اتهموا ألكسيوس بأنه ضالع مع الأترك . واستراح الصليبيون فى المدينة أسبوعاً زحفوا بعده على أنطاكية ، والتقوا عند دوريليوم بجيش تركى تحت قيادة قلج أرسلان ، وانتصروا عليه انتصاراً سفكوا فيه كثيراً من الدماء (أول يوليه سنة ١٠٩٧) ، واخترقوا آسية الصغرى دون أن يلقوا فيها عدوا غير قلة الماء والطعام ، والحر الشديد الذى لم تكن دماء الغربيين قادرة على احتماله . ومات الرجال والنساء ، والخيل

والكلاب ، من العطش فى أثناء هذا الزحف الشاق الذى اجتازوا فيه خمسمائة ميل ؛ فلما عبروا جبال طوروس انفصل بعض النبلاء بقواتهم عن الجيش الرئيسى ليفتحوا لأنفسهم فتوحا خاصة بهم — فسار ريمند ، وبوهمند ، وجدفرى إلى أرمينية ؛ وسار تنكرد وبولدوين (أخو جدفرى) إلى الرها حيث أسس بلدوين بالختل والغدر[١٤] أولى الإمارات اللاتينية فى الشرق (١٠٩٨) . وأخذت قوات الصليبيين الكبرى تشكو من هذا التأخير وتتوجس منه الشر المستطير ؛ فعاد النبلاء وواصلت القوة بأجمعها الزحف على أنطاكية .

ويصف المؤرخ الإخبارى صاحب چستا فرنكورم Gesta Francorum أنطاكية بأنها « مدينة ذات بهجة وجمال عظيم تمتاز عن سائر المدن »[١٥] . وقاومت المدينة الحصار ثمانية أشهر ، مات فى خلالها كثير من الصليبيين بسبب تعرضهم لأمطار الشتاء القارس والبرد والجوع ، وقد وجد بعضهم غذاء جديداً بامتصاص « أعواد حلوة سموها زكرا Zucra » (وهى كلمة مشتقة من لفظ السكر العربى) ، ففيها ذاق « الفرنجة » طعم السكر للمرة الأولى وعرفوا أنه يصنع من عصير أحد النباتات المزروعة[١٦] . وقدمت العاهرات للغزاة متعا أشد خطراً من السكر ، من ذلك أن رئيساً للشمامسة قتله الأتراك وهو مضطجع مع عاهر سورية[١٧] . وجاءت الأنباء فى شهر مايو من عام ١٠٩٨ أن جيشاً إسلامياً كبيراً يقوده كربوغة أمير الموصل يقترب من أنطاكية ، لكن هذه المدينة سقطت فى أيدى الصليبيين (٣ يونية ١٠٩٨) قبل أن يصل إليها هذا الجيش ببضعة أيام . وخشى كثيرون من الصليبيين عجزهم عن مقاومة جيش كربوغة ، فركبوا السفن فى نهر العاصى ، وفروا هاربين . وزحف ألكسيوس بقوة من جنود الروم ، ولكن جماعة من الفارين غرروا به ، فأدخلوا فى روعه أن المسيحيين هزموا ، فعاد أدراجه ليدافع عن آسية الصغرى ، ولم يغفر له الصليبيون هذه الفعلة . وأراد قسيس من مرسيلية يدعى بطرس بارثلميو Peter Bartholomew أن

يبعث الشجاعة من جديد فى قلوب الصليبيين ، فادعى أنه عثر على الحربة التى نفذت فى جنب المسيح ، ولما سار المسيحيون للقتال رفعت هذه الحربة أمامهم كأنها علم مقدس ، وخرج ثلاثة فرسان من بين التلال فى ثياب بيض حين ناداهم الرسول البابوى أدهمار وسماهم الشهداء القديسين موريس ، وثيودور ، وچورچ . وبعث ذلك فى قلوب الصليبيين روحا جديدة ، وتولى بوهمند القيادة الموحدة فانتصروا انتصاراً حاسماً . ثم اتهم بارثلميو بأنه ارتكب خدعة دينية ، وعرض أن يرضى بحكم الله فيجتاز ناراً مشتعلة ليثبت باجتيازها صدق دعواه . وأجيب إلى طلبه فاخترق ناراً مشتعلة فى حزم من الحطب ، وخرج سالما فى الظاهر ، ولكنه توفى فى اليوم الثانى من أثر الحروق أو من الإجهاد الذى لم يحتمله قلبه ، وأزيلت الحربة من بين أعلام الجيش الصليبى (١٨) .

وأصبح بوهمند من ذلك الحين أمير أنطاكية اعترافاً بفضله ، وكان يمتلك هذا الإقليم فى ظاهر الأمر بوصفه أميراً إقطاعيا خاضعاً لألكسيوس ، لكنه فى الواقع كان يحكمه بوصفه حاكما مستقلا ؛ وقال زعماء الصليبيين إن عجز ألكسيوس عن أن يخف لمعونتهم قد أحلهم من يمين الولاء التى أقسموها له . وقضى أولئك الزعماء ستة أشهر أعادوا فيها تنظيم قواهم وجددوا نشاطهم ، ثم زحفوا بجيوشهم على أورشليم . وبعد حروب دامت ثلاث سنين ، نقص فيها عددهم إلى ١٢٫٠٠٠ من المحاربين وقفوا فى اليوم السابع من شهر يونية عام ١٠٩٩ وهم مبتهجون متعبون أمام أسوار المدينة . وكان من سخريات التاريخ أن الأتراك الذين جاءوا ليقاتلوهم قد أخرجوا من المدينة قبل ذلك الوقت بعام ، وكان مخرجوهم هم الفاطميين . وعرض الخليفة الفاطمى على الصليبيين أن يعقد معهم الصلح مشترطا على نفسه أن يؤمن الحجاج المسيحيين القادمين إلى أورشليم والذين يأتونها للعبادة . ولكن بوهمند وجدفرى طلبا التسليم بغير قيد أو شرط ، وقاومت حامية الفاطميين

المكونة من ألف رجل الحصار مدة أربعين يوما ، فلما حل اليوم الخامس عشر من شهر يوليه قاد جدفرى وتانكرد رجالهما وتسلقوا أسوار المدينة ، وتم للصليبيين الفوز بغرضهم بعد أن لاقوا فى سبيله الأمرين . وفى هذا يقول القس ريمند الإچيلى شاهد العيان :

وشاهدنا أشياء عجيبة ، إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رمياً بالسهام ، أو أرغموا على أن يلقوا أنفسهم من فوق الأبراج ، وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام ، ثم أحرقوا فى النار . وكنت ترى فى الشوارع أكوام الروءوس والأيدى والأقدام ، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل[١٩] .

ويروى غيره من المعاصرين تفاصيل أدق من هذه وأوفى ؛ يقولون إن النساء كن يقتلن طعنا بالسيوف والحراب ، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم[٢٠] ويقذف بهم من فوق الأسوار ، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد ، وذبح السبعون ألفاً من المسلمين الذين بقوا فى المدينة ، أما اليهود الذين بقوا أحياء فقد سيقوا إلى كنيس لهم ، وأشعلت فيهم النار وهم أحياء ؛ واحتشد المنتصرون فى كنيسة الضريح المقدس ، وكانوا يعتقدون أن مغارة فيها احتوت فى يوم ما المسيح المصلوب . وفيها أخذ كل منهم يعانق الآخر ابتهاجا بالنصر ، وبتحرير المدينة ، ويحمدون الرحمن الرحيم على ما نالوا من فوز !

الفصل الثالث

مملكة أورشليم اللاتينية ١٠٩٩ — ١١٤٣

اختير جدفرى البويونى الذى اعترف له آخر الأمر بالصلاح ، والتقى المنقطع النظير حاكما على دمشق على أن يلقب بهذا اللقب المتواضع وهو « حامى الضريح المقدس » ولم يدع الحاكم الجديد أنه خاضع لألكسيوس لأن الحكم البيزنطى لهذه المدينة كان قد انقضى منذ ٣٦٥ عاماً ، ولهذا أصبحت مملكة أورشليم اللاتينية من يوم إنشائها دولة مستقلة كاملة السيادة . وحرّم فيها المذهب الأورثوذكسى الشرقى ، وفرّ البطريق اليونانى إلى قبرص ، وقبلت أبرشيات المملكة الجديدة الشعائر اللاتينية ، والمطران الإيطالى والحكم البابوى .

وبعد فإن ثمن السيادة هو القدرة على الدفاع عنها . وهذا هو الثمن الذى كان على المحررين العظام أن يؤدوه ؛ فقد وصل إلى عسقلان بعد أسبوعين من هذا التحرير جيش مصرى يهدف إلى استعادة المدينة المقدسة فى أديان كثيرة وهزم جدفرى هذا الجيش القادم ، ولكنه مات بعد سنة واحدة من تلك المعركة (١١٠٠) وخلفه أخوه بولدوين وهو أقل منه كفاية (١١٠٠ — ١١١٨) ، واتخذ لنفسه لقباً أسمى من لقبه وهو لقب ملك . وشملت المملكة الجديدة فى عهد الملك فلك Fulk كونت أنجو (١١٣١ — ١١٤٣) الجزء الأكبر من فلسطين وسوريا ، ولكن المسلمين ظلوا مالكين حلب ، ودمشق ، وحمص . وقسمت المملكة أربع إمارات إقطاعية ، تتركز على التوالى حول أورشليم ، وأنطاكية والرها ، وطرابلس ؛ ثم جزئت كل إمارة إلى إقطاعيات تكاد كل منها تكون مستقلة عن الأخرى ، وكان سادتها المتحاسدون يشنون الحروب بعضهم على

بعض ، ويسكون العملة ، ويحاكون الملوك المستقلين فى هذه وغيرها من الشئون . وكان الأشراف هم الذين يختارون الملك ، وتقيده سلطة كنسية دينية لا سلطان عليها لغير البابا نفسه . وكان مما أضعف سلطان الملك غير هذا أنه أسلم عدة ثغور : يافا ، وصور ، وعكا ، وبيروت ، وعسقلان — إلى البندقية ، وپيزا ، وجنوى ، نظير ما تقدمه للمملكة الجديدة من معونة حربية وما تحمله لها بطريق البحر من مؤن . أما تنظيم المملكة وقوانينها فكانت تضعهما المحاكم العليا فى أورشليم — وكان هذا إحدى النتائج المنطقية للحكم الإقطاعى من الوجهة القانونية . وادعى الأشراف ملكية الأرض جميعها ، وأنزلوا ملاكها السابقين — سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين — منزلة أرقاء الأرض ، وفرضوا عليهم واجبات إقطاعية أشد قسوة مما كان منها وقتئذ فى أوربا ، حتى أخذ سكان البلاد المسيحيون ينظرون بعين الحسرة إلى حكم المسلمين ويعدونه من العصور الذهبية التى مرت بالبلاد (٢١) .

وكان فى المملكة الناشئة كثير من أسباب الضعف ، ولكنها كانت تتلقى معونة فذة من نظام من الرهبان الحربيين . ذلك أن تجار أملفى Amalfi كانوا قد حصلوا من المسلمين منذ عام ١٠٤٨ على إذن ببناء مستشفى فى بيت المقدس لإيواء الفقراء أو المرضى من الحجاج . ثم نظم ريمند دو پى Raymond du Puy موظفى هذا المعهد تنظيما جديداً فجعلهم هيئة دينية تكرس حياتها للعفة ، والفقر ، والطاعة ، وحماية المسيحيين فى فلسطين بالدفاع عنهم دفاعا عسكريا ؛ ومن ثم أصبح هؤلاء الفرسان فرسان مستشفى القديس يوحنا من أنبل الهيئات الخيرية فى العالم المسيحى . وحدث حوالى ذلك الوقت نفسه (١١١٩) أن نذر هيوده پايان Hugh de Payans وثمانية آخرون من فرسان الصليبيين أنفسهم للرهبنة ، وخدمة المسيحيين العسكرية ، وأن حصلوا من بلدوين الثانى على مسكن لهم بالقرب من الموضع الذى كان فيه هيكل سليمان ، وسرعان ما أطلق عليهم اسم فرسان المعبد . ووضع

لهم القديس برنار نظاما صارما ، لم يطيعوه زمنا طويلا ؛ وكان مما أثنى عليهم به أنهم « أكثر الناس علما بفن الحرب » ، وأمرهم « ألا يغتسلوا إلا نادراً » وأن يقصوا شعر رءوسهم[٢٢] . وكتب برنار إلى فرسان المعبد يقول « إن على المسيحى الذى يقتل غير المؤمن فى الحرب المقدسة ، أن يثق بما سينال من ثواب ، وعليه أن يكون أشد وثوقا من هذا الثواب إذا قُتِل هو نفسه ، وإن المسيحى ليبتهج بموت الكافر لأن المسيح يبتهج بهذا الموت »[٢٣] ؛ ومن الواجب على الناس أن يقتلوا وهم مرتاحو الضمير إذا كانوا يريدون النصر فى الحروب . وكان الواحد من فرسان المستشفى يلبس مئزراً أسود اللون ، على كمه الأيسر صليب ، أما الواحد من فرسان المعبد فكان يلبس مئزراً أبيض على « حرملته » صليب أحمر . وكانت كلتا الطائفتين تكره الأخرى كرهاً مبعثه الدين . وانتقل فرسان المستشفى وفرسان المعبد من تمريض الحجاج إلى الهجوم على حصون المسلمين ؛ ومع أن فرسان المعبد لم يكونوا يزيدون على ثلثمائة ، وأن فرسان المستشفى كانوا حوالى ١١٨٠[٢٤] ، فقد كان لهم جميعاً شأن ظاهر فى معارك الحروب الصليبية ؛ وذاعت شهرتهم الحربية . وقامت الطائفتان بحملة واسعة لجمع المال ، فتوالت عليهما الإعانات من الكنيسة والدولة ، ومن الأغنياء والفقراء على السواء ؛ فلم يحل القرن الثالث عشر حتى كانت كلتاهما تمتلك فى أوربا ضياعا واسعة تشمل أديرة ، وقرى ، وبلدانا . وأدهشت كلتاهما المسيحيين والمسلمين بما أنشأت من الحصون الواسعة فى بلاد الشام ، حيث كانوا يستمتعون بالترف مجتمعين ، وسط متاعب الحروب وكدحها ، مع أنهم قد نذروا أنفسهم فرادى للفقر[٢٥] . وفى عام ١١٩٠ أنشأ ألمان فلسطين طائفة الفرسان التيوتون بمعونة عدد قليل من الألمان فى بلادهم الأصلية ، وشادوا لهم مستشفى قرب عكا .

وعاد معظم الصليبيين إلى أوربا بعد الاستيلاء على بيت المقدس ، فنقص بذلك عدد الرجال الذين تعتمد عليهم الحكومة المزعزعة الأركان نقصاً يعرضها

للخطر الشديد . ووفد على البلاد كثيرون من الحجاج ولكن قلما بقى فيها عدد منهم للقتال . وكان الروم فى الشمال يترقبون فرصة تتاح لهم لاستعادة أنطاكية والرها وغيرهما من المدن التى كانوا يدعون أنها مدن بيزنطية ؛ وأخذ المسلمون فى الشرق ينشطون ويضمون صفوفهم بتأثير النداءات الإسلامية والغارات المسيحية . وكان اللاجئون المسلمون الفارون من فلسطين يقصون عليهم الحوادث المفصلة المحزنة التى أعقبت سقوط المدينة فى أيدى المسيحيين . واقتحمت هذه الجموع مسجد بغداد العظيم وأهابت بالجيوش الإسلامية أن تحرر بيت المقدس وقبة الصخرة المقدسة من أيدى الكفرة النجسة[٣٦] . وكان الخليفة عاجزاً لا يستطيع تلبية النداء ، ولكن عماد الدين زنكى أمير الموصل الذى ولد عبداً رقيقاً لبى الدعوة ، وزحف جيشه الحسن القيادة فى عام ١١٤٤ وانتزع من المسيحيين المعقل الخارجى الشرقى ، وبعد أشهر قليلة استعاد الرها وضمها إلى حظيرة الإسلام . واغتيل زنكى وخلفه ابنه نور الدين ، وكان يماثله فى شجاعته ، ويفوقه فى قدرته . وكانت أخبار هذه الحوادث هى التى أثارت أوربا ودفعتها إلى الحرب الصليبية الثانية .

الفصل الرابع

الحرب الصليبية الثانية : ١١٤٦ – ١١٤٨

واستغاث القديس برنار بالبابا يوجنيوس الثالث لينادى مرة أخرى بحمل السلاح . وكان يوجنيوس وقتئذ فى صراع مع الخارجين على الدين فى رومة نفسها ، فطلب إلى برنار أن يقوم هو نفسه بالدعوى . وكانت هذه فكرة سديدة لأن القديس كان أعظم شأنا من الرجل للذى نصبه هو بابا . فلما أن خرج من صومعته فى كليرڤو Clairvaux ليدعو الفرنسيين إلى الحرب خفتت أصوات الشك التى كانت مستكنة فى صدور المؤمنين ، وزالت المخاوف التى نشرتها القصص التى كانت تروى عن الحروب الصليبية الأولى . واتخذ برنار سبيله مباشرة إلى الملك لويس السابع وأقنعه بأن يحمل الصليب ، ثم وقف والملك إلى جانبه وأخذ يخطب الجمع الحاشد فى ڤيزلاى Vézelay (١١٤٦) ؛ ولم يكد يتم خطبته حتى تطوع الجمع كله لحمل السلاح ، وتبين أن ما كان معداً من الصلبان لا يكفيهم ؛ فمزق برنار مئزره ليصنع منه ما يحتاجه من الشارات ، وكتب إلى البابا يقول إن « المدائن والحصون قد خلت من سكانها ، ولم يبق إلا رجل واحد لكل سبع نساء ، وترى فى كل مكان أرامل لأزواج لا يزالون أحياء » . ولما أن ضم إليه فرنسا على هذا النحو انتقل إلى ألمانيا ، واستطاع بحماسته وفصاحة لسانه أن يقنع الإمبراطور كنراد الثانى بأن الحرب الصليبية هى القضية الوحيدة التى يستطاع بها توحيد حزبى الجاف Guelf والههنستوفن Hohenstaufen اللذين كان نزاعهما يمزق الدولة تمزيقاً . وانضوى كثيرون من النبلاء تحت لواء كنراد ، من بينهم الشاب فردريك السوابى Frederick of Swabfa الذى

أصبح فيما بعد بربروسا Barbarossa والذى مات فى الحرب الصليبية الثالثة .

وبدأ كنراد والألمان سيرهما فى يوم عيد الفصح من عام ١١٤٧ ، وتبعهما الفرنسيون فى يوم عيد العنصرة ، وكانوا يسيرون فى حذر على مسافة منهم ، لأنهم لم يكونوا واثقين أيهما أشد عداء لهم : الألمان أو الأتراك . وكان الألمان أيضاً يشعرون بمثل هذه الحيرة بين الأتراك واليونان ؛ وبلغ من كثرة المدن البيزنطية التى نهبت فى طريق الزاحفين أن أغلقت كثير منها أبوابها فى وجوههم ، ولم تقدم لهم إلا قليلا من المؤن أنزلتها فى سلات من فوق الأسوار . وعرض عليهم مانول كمنينوس Manuel Comnenus إمبراطور الرومان فى ذلك الوقت فى رقة ولطف أن تعبر الجيوش النبيلة مضيق الهلسبنت عند ستسوس Sestos ، بدل أن تخترق القسطنطينية ، ولكن كنراد ولويس رفضا هذا العرض ، وقامت طائفة فى مجلس لويس تدعوه إلى الاستيلاء على القسطنطينية وضمها إلى فرنسا ، ولكنه لم يستجب لهذه الدعوة . على أنه لا يبعد أن تكون أنباؤها قد ترامت إلى اليونان ؛ هذا إلى أن هؤلاء قد توجسوا خيفة من قامة فرسان الغرب ودروعهم ، وإن سرتهم حاشيتهم النسائية . فقد كانت اليانور المتعبة تصاحب زوجها لويس ، وكان الشعراء يصحبون الملكة ، ونبلاء فلاندرز وطلوشة يصطحبون معهم أزواجهم ، وكانت وسائل النقل التى مع الفرنسيين مثقلة بالحقائب والصناديق الملأى بالثياب ، ومواد التجميل ، يراد بها المحافظة على جمال تلك السيدات فى الجواء المتقلبة وفى صروف الدهر والحرب . وعجل مانويل بنقل الجيشين فى مضيق البسفور ، وأمد اليونان بالنقود المخفضة القيمة ليتعاملوا بها مع الصليبيين . وكثيراً ما أدى نقص المؤن فى آسية ، وارتفاع الأثمان التى يطالب بها اليونان ، إلى النزاع بين المنقذين ومن يريدون إنقاذهم من أعدائهم ، وكان مما أحزن فردريك ذا اللحية الصهباء أنه اضطر إلى أن يسفك بسيفه دماء المسيحيين ليستطيع ملاقاة « الكفار » . وأصر كنراد على أن يسير فى الطريق الذى سارت فيه الحملة

الصليبية الأولى مخالفاً بذلك نصيحة مانويل . وتخبط الألمان فى سيرهم على الرغم من مرشديهم ، أو لعل ذلك كان بفعل مرشديهم ، فاجتازوا بطاحا بعد بطاح خالية من موارد الطعام ، ووقعوا فى كمين بعد كمين نصبه لهم المسلمون ، ودب فى قلوبهم اليأس لكثرة من هلك منهم . والتقى جيش كنراد عند دورليوم ، حيث هزمت الحملة الأولى جيش قلج أرسلان ، بقوة المسلمين الرئيسية ، ومنى فيها بهزيمة ساحقة ، لم ينج فيها من جيش المسيحيين أكثر من واحد من كل عشرة . وخدع الجيش الفرنسى الذى كان متأخراً وراء الألمان بمسافة طويلة بما جاءه من أخبار عن انتصار الألمان ، فتقدم فى غير حذر ، وقضى على الكثيرين من رجاله الجوع وهجمات المسلمين . ولما وصل إلى أضاليا أخذ لويس يساوم رؤساء بحارة السفن اليونانية على نقل جيشه بطريق البحر إلى طرسوس أو أنطاكية المسيحيتين ، وطالب أولئك الرؤساء بأجور باهظة عن كل شخص تحمله السفن ، فقبل لويس وطائفة من النبلاء ، وإليانور ، وسرب من السيدات الانتقال ، وتركوا بقية الجيش الفرنسى فى أضاليا ، وانقضت جيوش المسلمين على المدينة وقتلوا كل من فيها تقريباً من الجنود الفرنسيين (١١٤٨) .

ووصل لويس إلى بيت المقدس ومعه النساء وليس معه جيش ، كما وصل إليها كنراد بفلول الجيش الذى غادر به راتسبون . وحشد الملكان من هذه الفلول وممن كان فى العاصمة من الجنود جيشاً مرتجلا ، وزحفا به على دمشق ؛ وكانت قيادته موزعة بين كنراد ، ولويس ، وبولدوين الثالث (١١٤٣ — ١١٦٢) . وشجر النزاع فى أثناء الحصار بين النبلاء على الطائفة التى تحكم المدينة بعد سقوطها ، وتسرب عمال المسلمين إلى الجيش المسيحى ، ورشوا بعض الزعماء بالمال فجعلوهم يقعدون بلا عمل أو ينسحبون من الميدان[٢٧] . ولما أن ترامت الأنباء بأن أميرى حلب والموصل يزحفان بجيش كبير لفك الحصار عن دمشق تغلب دعاة الانسحاب ، فانقسم الجيش المسيحى إلى جماعات قليلة فرت إلى أنطاكية أو عكا ، أو بيت

المقدس . . وهزم كنراد وأصيب بالمرض ورجع مسربلا بالعار إلى ألمانيا ، وعادت إليانور وعاد معظم الفرسان الفرنسيين إلى فرنسا ، أما لويس فقد بقى فى فلسطين عاما آخر يحج فيه إلى الأضرحة المقدسة .

وارتاعت أوربا لما أصيبت به الحملة الصليبية الثانية من إخفاق شنيع ، وأخذ الناس يتساءلون كيف يرضى الله جل جلاله أن يذل المدافعون عن دينه هذا الإذلال المنقطع النظير ، وشرع النقاد يهاجمون القديس برنار ويصفونه بأنه خيالى متهور ، يرسل الناس ليلاقوا حتفهم ، وقام فى أماكن متفرقة بعض المتشككة الجريئين يجادلون فى القواعد الأساسية للدين المسيحى . ورد عليهم برنار بقوله إن أساليب الله سبحانه لاتدركها عقول البشر ، وإن الوبال الذى حل بالمسيحيين ربما كان عقابا لهم على ما ارتكبوا من ذنوب . ولكن الشكوك الفلسفية التى أشاعها أبلار Abelard (المتوفى عام ١١٤٢) أخذت من ذلك الوقت تجد من يعبر عنها حتى بين جمهرة الشعب نفسه ، وسرعانما خبت جذوة التحمس للحرب الصليبية ، وتأهب عصر الإيمان للدفاع عن نفسه بالسيف والنار ضد الأديان الغربية أو عدم الإيمان بأديان على الإطلاق .

الفصل الخامس

صــــلاح الدين

وكانت حضارة جديدة عجيبة قد نشأت فى سوريا وفلسطين المسيحيتين . ذلك أن الأوربيين الذين استوطنوا هذين البلدين منذ عام ١٠٩٩ قد تزيوا شيئاً فشيئاً بالزى الشرقى ، فلبسوا العمامة والقفطان اللذين يوائمان مناخ تلك البلاد ذات الشمس والرمال ؛ وزاد اتصالهم بمن يعيشون فى تلك المملكة من المسلمين ، فقل بذلك ما بين الجنسين من تنافر وعداء ، فأخذ التجار المسلمون يدخلون بكامل حريتهم البلدان المسيحية ويبيعون أهلها بضاعتهم ، وكان المرضى من المسيحيين يفضلون الأطباء المسلمين واليهود على الأطباء المسيحيين(٢٨) ، وأجاز رجال الدين المسيحيون إلى المسلمين أن يؤموا المساجد للعبادة ، وأخذ المسلمون يعلمون أبناءهم القرآن فى المدارس الإسلامية القائمة فى أنطاكية وطرابلس المسيحيتين ، وتعهدت الدول المسيحية والإسلامية بأن تضمن سلامة التجار والمسافرين الذين ينتقلون من إحداهما إلى الأخرى . وإذ كان الصليبيون لم يأتوا معهم إلا بعدد قليل من زوجاتهم فقد اتخذ كثيرون ممن أقاموا منهم فى الدول المسيحية لهم زوجات سوريات ؛ وسرعان ما كوّن أبناء هذا الزواج المختلط عنصراً كبيراً من سكان الدول الجديدة ، وأصبحت اللغة العربية لغة التخاطب اليومى العامة للسكان ، وعقد الأمراء المسيحيون أحلافاً مع الأمراء المسلمين ضد منافسيهم من المسيحيين ، كما كان الأمراء المسلمون فى بعض الأحيان يستعينون « بالمشركين » فى شئون السياسة والحرب . ونمت صلات المودة الشخصية بين المسيحيين والمسلمين . وقد وصف الرحالة ابن جبير الذى طاف بسوريا المسيحية فى عام ١١٨٣ بنى دينه المسلمين بأنهم ينعمون بالرخاء ويلقون معاملة حسنة على يد الفرنجة . وكان مما

ساءه أن يرى عكا غاصة بالخنازير والصلبان ، تفوح منها رائحة الأوربيين الكريهة ، ولكنه يأمل أن يتحضر المسيحيون بالحضارة التي وفدوا إليها والتي هي أرقى من حضارتهم(٢٩).

وظلت مملكة أورشليم اللاتينية في سني السلم الأربعين التي أعقبت الحملة الصليبية الثانية تمزقها المنازعات الداخلية ، على حين أن أعداءها المسلمين كانوا يسيرون بخطى حثيثة نحو الوحدة . فقد مدّ نور الدين سلطانه من حلب إلى دمشق (١١٧٥) ، ولما مات أخضع صلاح الدين لسلطانه مصر وسوريا الإسلامية (١١٧٥) ؛ ونشر تجار جنوى ، والبندقية ، وبيزا الاضطراب في الثغور الشرقية بمنافساتهم القاتلة . وفي أورشليم أخذ الفرسان يتنازعون للاستيلاء على العرش. ولما استطاع جاى ده لوزينان أن يشق إليه طريقه بالختل (١١٨٦) ، استاءت لذلك طبقة الأشراف ، حتى قال أخوه جوفرى : « إن يكن جاى هذا ملكا فأنا خليق بأن أكون إلهاً » . ونصب ريجلند أمير شاتيون Reginald of Chatillon نفسه أميراً مستقلا في قلعة الكرك العظيمة وراء نهر الأردن ، على حدود بلاد العرب ، وكثيراً ما خرق اتفاق الهدنة المعقود بين الملك اللاتيني وصلاح الدين ، وأعلن عزمه على أن يغزو بلاد العرب ، ويهدم قبر النبي في المدينة ، ويدك أبنية الكعبة في مكة(٣٠) . وأبحرت قوته الصغيرة المؤلفة من الفرسان المغامرين في البحر الأحمر ، واتجهت نحو المدينة ؛ ولكن سرية مصرية باغتتها ، وقتلتها عن آخرها إلا عدداً قليلا فروا مع ريجنلد ، وبعض الأسرى الذين سيقوا إلى مكة ، وذبحوا في يوم عيد النحر (١١٨٣) .

وكان صلاح الدين في هذه الأثناء قد قنع بشن بعض الغارات الصغيرة على فلسطين ؛ فلما رأى ما فعله ريجنلد ثارت حميته الدينية ، فأخذ ينظم من جديد جيشه الذي فتح به دمشق ، والتقى بقوات المملكة اللاتينية في معركة غير حاسمة عند مرج ابن عامر ذي الشهرة التاريخية (١١٨٣) ، ثم هاجم ريجنلد عند

الكرك بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت ، ولكنه لم يستطع دخول القلعة الحصينة . وفى عام ١١٨٥ وقع مع المملكة اللاتينية هدنة تدوم أربع سنين ؛ ولكن ريچنلد مل فترة السلم الطويلة ، فاعترض فى عام ١١٨٦ قافلة للمسلمين ، ونهب كثيرا من متاعها وأسر عدداً من أفرادها ، ومنهم أخت صلاح الدين ، وقال ريچنلد : « إذا كانوا يثقون بمحمد فليأت محمد لينقذهم » . ولم يأت محمد ؛ ولكن صلاح الدين ثارت ثائرته ، فأعلن الجهاد على المسيحيين ، وأقسم ليقتلن ريچنلد بيده .

ونشبت المعركة الفاصلة فى الحروب الصليبية كلها عند حطين بالقرب من طبرية فى اليوم الرابع من شهر يوليه سنة ١١٨٧ . وكان صلاح الدين ملما بمعالم الأرض فاختار لجيوشه الأماكن المشرفة على آبار الماء ؛ ودخل المسيحيون ميدان المعركة يلهثون من الظمأ بعد أن اخترقوا السهول فى حر منتصف الصيف المحرق . وانتهز المسلمون فرصة هبوب الريح نحو معسكر الصليبيين ، فأشعلوا النار فى الأعشاب البرية ، وحملت الريح الدخان فزاد متاعب الصليبيين . وفى هذا الاضطراب الأعمى انفصل مشاة الفرنجة عن فرسانهم ، وقتلوا عن آخرهم ؛ وبعد أن ظل الفرسان يقاتلون قتال اليائسين ضد السلاح ، والدخان ، والظمأ خروا منهوكى القوى ، فقتل منهم من قتل وأسر الباقون . ولم تظهر جيوش المسلمين شيئاً من الرأفة بفرسان المعبد أو المستشفى ، وأمر صلاح الدين أن يؤتى له بالملك جاى والدوق ريچنلد ، فلما أقبلا عليه قدم الشراب إلى الملك دليلا على أنه قد عفا عنه ، أما ريچنلد فقد خيره بين الموت والإيمان برسالة النبى ، فلما رفض قتله . وكان مما غنمه المسلمون فى هذه المعركة الصليب الذى كان الصليبيون يتخذونه علماً لهم فى المعركة ، ويحمله فيها أحد القساوسة ، وقد أرسله صلاح الدين إلى الخليفة فى بغداد . ولما رأى صلاح الدين أنه لم يبق أمامه جيش يخشى بأسه ، زحف لتحرير عكا ، و أطلق فيها سراح أربعة آلاف أسير من المسلمين ، وكافأ جنوده بما غنمه

من ثروة هذا المرفأ الكثير المتاجر ، وخضعت فلسطين كلها تقريباً لصلاح الدين وبقيت فى قبضة يده بضعة أشهر .

ولما اقترب من بيت المقدس خرج إليه أعيانها يعرضون عليه الصلح ، فقال لهم إنه يعتقد كما يعتقدون هم أن هذه المدينة بيت الله ، وإنه لا يرضيه أن يحاصرها أو يهاجمها . وعرض على أهلها أن تكون لهم الحرية الكاملة فى تحصينها ، وأن يزرعوا ما حولها من الأرض إلى ما بعد أسوارها بخمسة عشر ميلا دون أن يقف أحد فى سبيلهم ، ووعدهم بأن يسد كل ما ينقصهم من المال والطعام إلى يوم عيد العنصرة ، فإذا حل هذا اليوم ورأوا أن هناك أملا فى إنقاذهم ، كان لهم أن يحتفظوا بالمدينة ، ويقاوموا المحاصرين مقاومة شريفة ، أما إذا لم يكن لهم أمل فى هذه المعونة ، فإن عليهم أن يستسلموا من غير قتال ، وتعهد فى هذه الحال أن يحافظ على أرواح السكان المسيحيين وأموالهم[*] . ورفض المندوبون هذا العرض ، وقالوا إنهم لن يسلموا المدينة التى مات فيها المسيح منقذ الخلق[٣١] . ولم يطل حصار المدينة أكثر من اثنى عشر يوما ، ولما أن استسلمت بعدها فرض صلاح الدين على أهلها فدية قدرها عشر قطع من الذهب (٤٧ر٥٠ ؟ ريالا أمريكيا) عن كل رجل ، وخمس قطع عن كل امرأة ، وقطعة واحدة عن كل طفل ، أما فقراء أهلها البالغ عددهم سبعة آلاف فقد وعد بإطلاق سراحهم إذا أدوا إليه الثلاثين ألف بيزانت (٢٧٠ر٠٠٠ ؟ ريال أمريكى) التى بعث بها هنرى الثانى ملك إنجلترا إلى فرسان المستشفى ؛ وقبلت المدينة هذه الشروط « بالشكر والنحيب » على حد قول أحد الإخباريين المسيحيين ، ولعل بعض العارفين من المسيحيين قد وازنوا بين هذه الحوادث وبين ما جرى فى عام ١٠٩٩ . وطلب العادل أخو صلاح الدين أن يهدى إليه ألف عبد من الفقراء الذين بقوا من غير فداء ، فلما أجيب إلى طلبه أعتقهم جميعاً ؛ وطلب بليان Balian زعيم المقاومين

(*) ألا ما أعظم هذا النبل ! (المترجم)

المسيحيين هدية مثلها ، وأجيب إلى ما طلب ، وأعتق ألفاً آخرين ، وحذا حذوه المطران المسيحي وفعل ما فعل صاحبه ، وقال صلاح الدين إن أخاه قد أدى الصدقة عن نفسه ، وإن المطران وباليان قد تصدقا عن نفسهما ، وإنه يفعل فعلهما ، ثم أعتق كل من لم يستطع أداء الفدية من كبار السن ؛ ويلوح أن نحو خمسة عشر ألفا من الأسرى المسيحيين بقوا بعدئذ من غير فداء فكانوا أرقاء ؛ وكان ممن افتدوا زوجات وبنات النبلاء الذين قتلوا أو أسروا فى واقعة حطين ورق قلب صلاح الدين لدموع أولئك النساء والبنات فأطلق سراح من كان فى أسر المسلمين من أزواجهن وآبائهن (ومن بينهم جاى) أما « النساء والبنات اللاتى قتل أزواجهن وآباؤهن فقد وزع عليهن من ماله الخاص ما أطلق ألسنتهن بحمد الله ، وبالثناء على ما عاملهن به صلاح الدين من معاملة رحيمة نبيلة »[٣٢](*) ذلك ما يقوله إرنول Ernoul مولى باليان .

وأقسم الملك والنبلاء الذين أطلق سراحهم ألا يحملوا السلاح ضده مرة أخرى ، ولكنهم ما كادوا يشعرون بالأمن فى طرابلس وأنطاكية المسيحيتين حتى أحلهما حكم رجال الدين من يمينهما المغلظة ، وأخذا يدبران الخطط للثأر من صلاح الدين[٣٣] . وأجاز السلطان لليهود أن يعودوا إلى السكنى فى بيت المقدس ، وأعطى المسيحيين حق دخولها ، على أن يكونوا غير مسلحين ، وساعد حجاجهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم[٣٤] ؛ وطهرت قبة الصخرة التى حولها المسيحيون إلى كنيسة بأن رشت بماء الورد ، وأزيل منها الصليب الذهبى الذى كان يعلوها ، بين تهليل المسلمين وأنين المسيحيين ؛ وسار صلاح الدين على رأس جيشه لحصار عكا ، ولما وجدها أمنع من عقاب الجو سرح الجزء الأكبر من جنده وانسحب وهو مريض متعب إلى دمشق (١١٨٨) فى الخمسين من عمره ؛

(*) يالها من شهامة منقطعة النظير . (المترجم)

الفصل السادس

الحملة الصليبية الثالثة

١١٨٩ — ١١٩٢

وكان احتفاظ المسيحيين بمدائن صور أنطاكية ، وطرابلس مما ترك فى قلوبهم أثارة من الأمل . وكانت الأساطيل الإيطالية لا تزال تسيطر على مياه البحر المتوسط ، متأهبة لنقل المحاربين الصليبيين إذا أدوا لها أجورها . وعاد وليم كبير أساقفة صور إلى أوربا ، وأخذ يروى فى الاجتماعات التى تعقد فى إيطاليا ، وفرنسا وألمانيا قصة سقوط بيت المقدس ، ولما قدم إلى ألمانيا تأثر بدعوته فردريك بربرسا إلى حد دفع الإمبراطور العظيم وهو فى سن السادسة والسبعين إلى الزحف بجيشه من فوره (١١٨٩) ، وحياه العالم المسيحى كله وخلع عليه اسم موسى الثانى الذى سيشق الطريق إلى الأرض الموعودة . ولما عبر الجيش الجديد مضيق الهلسپنت عند غاليبولى ، واتخذ إلى أرض فلسطين طريقاً جديداً ، كرر أخطاء الحملة الصليبية الأولى ومآسيها ؛ واقتفت أثره العصابات التركية وأزعجته ، وقطعت عنه المؤن ، فمات مئات من رجاله جوعاً ، ومات فردريك ميتة غير شريفة إذ غرق فى نهر سالف الصغير فى قليقية (١١٩٠) ، ولم ينج من جيشه إلا جزء قليل انضم إلى حصار عكا .

وكان رتشرد الأول (الأنكتار) الملقب « قلب الأسد » قد توج من زمن قريب ملكاً على إنجلترا وهو فى الحادية والثلاثين من عمره ، فصمم هذا الملك على أن يجرب حظه مع المسلمين . وإذ كان يخشى أن يغير الفرنسيون فى أثناء غيابه على الأملاك الإنجليزية فى فرنسا ، فقد أصر على أن يصحبه فليب أغسطس ، ووافق الملك الفرنسى ، وكان وقتئذ شاباً فى الحادية والعشرين

من عمره ، وتلقى الملكان الشابان الصليب من وليم كبير أساقفة صور باحتفال مهيب فى فيزلاى ، وأبحر جيش رتشرد المؤنف من النورمان (لأن الإنجليز لم يشترك منهم فى الحروب الصليبية إلا القليل) من مرسيليا ، وأبحر جيش فليب من جنوى على أن يلتقى الجيشان فى صقلية (١١٩٠) ، فلما التقيا فيها شجر النزاع بينهما واستسلما للهو وقضيا فى نزاعهما ولهوهما نصف عام . وأغضب تانكرد ملك صقلية رتشرد ، فانتزع هذا منه مسينا « بأسرع مما يتطلبه من القس ترتيل صلاة السحر » ، ثم ردها إليه نظير أربعين ألف أوقية من الذهب ؛ فلما توفر له المال بهذه الطريقة أبحر بجيشه إلى فلسطين . وتحطمت بعض سفنه على ساحل جزيرة قبرص ، وقبض حاكمها اليونانى على بحارة السفن وزجهم فى السجون ، فوقف رتشرد عندها بعض الوقت ، وفتح الجزيرة ، وأعطاها إلى جاى ده لوزينان ملك بيت المقدس المشرد . وبلغ عكا فى يونيه من عام ١١٩١ بعد عام من مغادرته فيزلاى ، وكان فليب قد سبقه إليها . وكان حصار المسيحيين لعكا قد دام تسعة عشر شهراً ، وهلك فيه منهم عدة آلاف ، ثم استسلم المسلمون بعد أسابيع قليلة من وصول رتشرد ؛ وطلب المنتصرون من المغلوبين مائتى ألف قطعة لن الذهب (نحو ٩٥٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) ، وأن يسلموا إليهم ١٦٠٠ أسيراً من صفوة أهل المدينة ، وأن يردوا إليهم الصليب الحق . ووعدهم أهل المدينة أن يجيبوهم إلى ما طلبوا ؛ وأيد صلاح الدين هذا الاتفاق ، وسمح للمسلمين من سكان عكا ما عدا الألف والستمائة السالفى الذكر أن يغادروا المدينة ومعهم من المؤن ما يستطيعون حمله . ثم أصيب فليب أغسطس بالحمى فعاد إلى فرنسا وترك وراءه قوة فرنسية مؤلفة من ١٠٫٥٠٠ رجل ، وأصبح رتشرد القائد الوحيد للحملة الصليبية الثالثة .

وبدأت وقتئذ طائفة من الوقائع المشوشة الفذة ، تعاقبت فيها الضربات والمعارك مع التحيات والمجاملات ؛ وأظهر فيها الملك الإنجليزى والسلطان الكردى

بعض ما تتصف به حضارتاهما ودياناهما من أنبل الصفات وأظرفها . وليس معنى هذا أن كلا الرجلين كان من أولياء الله الصالحين ، فقد كان فى وسع صلاح الدين أن يكيل بكل ما لديه من بأس الضربات المميتة لعدوه إذا بدا له أن أهدافه الحربية تتطلب هذا ؛ وكذلك سمح رتشرد ذو النزعة الروائية الشعرية لنفسه أن يفعل ما لا يتفق مع حياته النبيلة . من ذلك أنه لما تباطأ زعماء عكا المحاصرة فى تنفيذ شروط الاتفاق المعقود بينهم ، أمر رتشرد أن تضرب رءوس ٥٠٠ر٢ من الأسرى المسلمين أمام أسوار المدينة لينبه بذلك الأهلين إلى وجوب الإسراع فى تنفيذ الشروط(٣٥) ؛ فلما بلغ هذا النبأ صلاح الدين ، أمر بأن يعدم كل من يقع بعدئذ فى الأسر أثناء المعارك مع الملك الإنجليزى . ثم بدل رتشرد نغمته ، فعرض أن ينهى الحروب الصليبية بأن يزوج أخته چوان للعادل أخى صلاح الدين ، ولكن الكنيسة عارضت هذه الفكرة فتخلى رتشرد عنها .

وأيقن رتشرد أن صلاح الدين لن يصبر على الهزيمة ، فأعاد تنظيم قوته ، وتأهب للسير ستين ميلا نحو الجنوب بمحاذاة شاطئ البحر ليفك الحصار عن يافا التى كانت وقتئذ فى أيدى المسيحيين ويحاصرها المسلمون ، ورفض كثير من النبلاء أن يسيروا معه ، وفضلوا أن يتخلفوا فى عكا ، ويحيكوا الدسائس للاستيلاء على عرش فلسطين ، لأنهم كانوا واثقين من أن رتشرد سيستولى عليها . وعاد الجنود الألمان إلى بلادهم ، وكثيرا ما كان الجنود الفرنسيون يعصون أمر الملك الإنجليزى ويفسدون عليه خططه الحربية ؛ كذلك لم يكن العامة مستعدين لبذل جهود جديدة فى سبيل فلسطين . ويقول المؤرخ الإخبارى المسيحى لحملة رتشرد الصليبية إن المسيحيين المتصبرين بعد هذا الحصار الطويل :

استسلموا للخمول والترف ، وأبوا أن يغادروا المدينة المليئة بأسباب النعيم — أحسن أنواع الخمور ، وأجمل الغانيات . وأطلق الكثيرون منهم لشهواتهم العنان

فانحلت أخلاقهم ودنسوا المدينة بترفهم ، حتى أصبح العقلاء يتوارون خجلا من طيشهم ونهمهم[٣٦] .

وزاد الطين بلة أن رتشرد أمر ألا يصحب الجيش من النساء إلا الغسالات ممن لا يغرين الجند بالإثم . وعوض رتشرد عيوب جنوده بمقدرته الفذة على القيادة ، وحذقه فى الهندسة العسكرية ، وشجاعته الملهمة فى الميدان . وكان فى هذه الصفات كلها متفوقاً على صلاح الدين وعلى سائر قادة الحروب الصليبية المسيحيين .

والتقى جيشه بجيش صلاح الدين عند أرسوف وانتصر عليه انتصاراً غير حاسم (١١٩١) ، وطلب مواصلة القتال ، ولكن رتشرد سحب جنوده إلى داخل أسوار يافا ، ثم عرض عليه صلاح الدين الصلح ؛ وبينا كانت المفاوضات دائرة بين القائدين اتصل كنراد مركيز منفرات Conrad Marquls of Montferrat ، الذى كان يتولى أمر صور ، فى مفاوضات مستقلة مع صلاح الدين ، وعرض عليه أن يصبح حليفه ، وأن يستولى على عكا ويردها للمسلمين ، إذا وافق صلاح الدين على أن يتملك هو صيدا وبيروت . ولكن صلاح الدين أجاز لأخيه ، على الرغم من هذا العرض ، أن يعقد مع رتشرد صلحاً يترك للمسيحيين جميع ما كان بيدهم وقتئذ من المدن الساحلية ، ونصف بيت المقدس . وبلغ من سرور رتشرد بهذه الشروط أن خلع على ابن السفير المسلم لقب فارس (١١٩٢) ؛ لكنه حين سمع بعد قليل من الوقت أن صلاح الدين يواجه بعض المتاعب فى الشرق ، رفض شروطه ، وحاصر داروم واستولى عليها ، وتقدم حتى أصبح على بعد اثنى عشر ميلا من بيت المقدس . ودعا صلاح الدين جنوده إلى حمل السلاح ، وكان قد سرحهم ليستريحوا فى فصل الشتاء ، وحدث الشقاق فى هذه الأثناء فى معسكر المسيحيين ، وأبلغهم كشافتهم أن الآبار التى فى طريق بيت المقدس قد سممت ، وأن الجيش الزاحف عليها لن يجد ماء للشرب ،

وعقدوا مجلسا للنظر فيما يجب أن يفعلوه ، فقرر هذا المجلس أن يتخلوا عن بيت المقدس ويزحفوا على القاهرة البعيدة عنهم بنحو ٢٥٠ ميلا . وكان رتشرد قد سئمت نفسه هذه الفعال ، وعافتها ، وملأ اليأس قلبه ، فانسحب إلى عكا وأخذ يفكر فى العودة إلى إنجلترا .

ولكنه لما سمع أن صلاح الدين عاود الهجوم على يافا ، وأنه استولى عليها بعد يومين لا أكثر ، أبى عليه كبرياؤه أن ينكص عن غرضه ، وبعث فى نفسه روحا جديدة ، وأقلع من فوره إلى يافا مع من استطاع أن يحشدهم من الجنود . ولما وصل إلى الميناء نادى بأعلى صوته « الويل للقاعد ! » وقفز إلى وسطه فى البحر ، وأخذ يلوح ببلطته الدنمرقية الشهيرة ويقتل كل من يقف فى سبيله ، ثم قاد جنوده إلى داخل المدينة ، وأخرج منها جميع الجنود المسلمين . كل هذا ولم يكد صلاح الدين يعرف ما حصل (١١٩٢) . فلما عرفه استدعى القسم الرئيسى من جيشه لإنقاذ المدينة ، وكان عدد رجاله يربو كثيراً على عدد جنود رتشرد الثلاثة الآلاف ، ولكن شجاعة الملك وجرأته أكسبتاه النصر . ولما رأى صلاح الدين أن رتشرد راجلا بعث إليه بجواد من عنده ، وقال إن من العار أن يقاتل هذا الرجل الشهم راجلا . وغضب جنود صلاح الدين من هذا العمل وأمثاله فلم يعودوا يطيقون صبراً عليه ؛ وأخذوا يلومونه على أن ترك جنود حامية يافا أحياء ليقاتلوه فيها مرة أخرى . ثم سار رتشرد آخر الأمر — إذا جاز لنا أن نصدق رواة القصة المسيحيين — أمام جيش المسلمين وحربته مدلاة إلى جانبه ، ولكن أحداً لم يجرؤ على مهاجمته[٣٧] .

ثم تبدلت الحال فى اليوم الثانى ، وجاءت الأمداد إلى صلاح الدين ، واستولى الملل مرة أخرى على رتشرد ، وحبس عنه فرسان عكا وصور معونتهم ، فأرسل يطلب الصلح من جديد . واشتدت عليه الحمى فطلب فاكهة وشرابا بارداً ،

فما كان من صلاح الدين إلا أن بعث إليه بالكمثرى والخوخ والثلج . وبطبيبه الخاص . وفى اليوم الثانى من سبتمبر ١١٩٢ وقع البطلان شروط صلح يدوم ثلاث سنين ، وقسمت فلسطين قسمين ؛ فاحتفظ رتشرد بجميع ما فتحه من المدن الممتدة على طول الساحل من عكا إلى يافا ؛ وسمح للمسلمين والمسيحيين بحرية الانتقال من أحد القسمين إلى الآخر ، وتعهد السلطان بحماية الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس على أن تبقى المدينة فى أيدى المسلمين (ولعل التجار الإيطاليين الذين يهمهم قبل كل شىء أن يسيطروا على الثغور البحرية ، قد أقنعوا رتشرد بالتخلى عن المدينة المقدسة نظير استيلائه على المدن الساحلية) . وأقيمت المآدب والألعاب احتفالا بالصلح ؛ ويقول صاحب سيرة رتشرد فى هذا : « والله وحده يعلم مقدار السرور الذى ملأ قلوب الشعبين ، وهو سرور يجل عن الوصف »[٣٨] . وزالت إلى حين الأحقاد من الصدور ؛ ولما ركب سفينته إلى إنجلترا أرسل رسالته الأخيرة إلى صلاح الدين يتحداه ، ويتوعده بأنه سيعود بعد ثلاث سنين ويستولى على بيت المقدس . وأجابه صلاح الدين بأنه إذا كان لابد أن تقطع يده فإنه يفضل أن يقطعها رتشرد (الأنكتار) لا أى رجل سواه[٣٩] .

وبعد فإن اعتدال صلاح الدين ، وصبره ، وعدله قد غلبت بهاء رتشرد ، وشجاعته ، ومهارته الحربية ؛ كما غلب المسلمون بفضل إخلاص زعمائهم ووحدتهم الزعماء الإقطاعيين المنقسمين على أنفسهم ، والذين يعوزهم الولاء للغرض والإخلاص فى المقصد ؛ وكان قصر خط التموين من وراء المسلمين أعظم فائدة من سيطرة المسيحيين على البحار . وكانت الفضائل والأخطاء المسيحية أبرز فى السلطان منها فى الملك المسيحى ؛ فقد كان صلاح الدين مستمسكاً بدينه إلى أبعد حد ، وأجاز لنفسه أن يقسو أشد القسوة على فرسان المعبد والمستشفى ؛ ولكنه كان فى العادة شفيقاً على الضعفاء ، رحيا بالمغلوبين ، يسمو على أعدائه فى وفائه بوعده سموا

جعل المؤرخين المسيحيين يعجبون كيف يخلق الدين الإسلامى « الخاطئ » فى ظنهم رجلا يصل فى العظمة إلى هذا الحد . وكان يعامل خدمه أرق معاملة ، ويستمع بنفسه إلى مطالب الشعب جميعها ، وكانت قيمة المال عنده لا تزيد على قيمة التراب . ولم يترك فى خزانته الخاصة بعد موته إلا دينارا واحدا(٤٠) ؛ وقد ترك لابنه الظاهر قبل موته بزمن قليل وصية لا تسمو فوقها أية فلسفة مسيحية(*) :

« أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها رأس كل خير ؛ وآمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك ؛ وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فإن الدم لا ينام ؛ وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالهم ، فأنت أمينى وأمين الله عليهم ؛ وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر . فما بلغتُ ما بلغتُ إلا بمداراة الناس ؛ ولا تحقد على أحد ، فإن الموت لا يبقى على أحد ؛ واحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم(**) » .

ومات فى عام ١١٩٣ ولم يتجاوز سنه الخامسة والخمسين .

(*) الحق أن عظمة صلاح الدين منشؤها استمساكه بأوامر دينه واتصافه بفضائل هذا الدين . (المترجم)

(**) نقل المؤلف الترجمة الإنجليزية لهذه الوصية عن كتاب « صلاح الدين » لاستانلى لين پول ونقلناها نحن عن سيرة صلاح الدين المعروفة باسم « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » تأليف القاضى بهاء الدين المعروف بابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ . (المترجم)

الفصل السابع

الحملة الصليبية الرابعة

١٢٠٢ — ١٢٠٤

أفلحت الحملة الصليبية الثالثة فى أخذ عكا ولكنها لم تفلح فى الاستيلاء على بيت المقدس ، وكانت هذه نتيجة ضئيلة ميئسة لحملة اشترك فيها أعظم ملوك أوربا . وكان غرق بربرسا ، وفرار فيليب أغسطس ، وإخفاق رتشرد ، ودسائس الفرسان المسيحين فى الأرض المقدسة التى لم يرعوا فيها واجباً أو ضميراً ، أو النزاع الذى قام بين فرسان المستشفى وفرسان المعبد ، وتجدد الحرب بين إنجلترا وفرنسا ، كل هذا قد حطم كبرياء أوربا ، وأذلها ، وأضعف ثقة العالم المسيحى بها . ولكن موت صلاح الدين المبكر ، وانقسام دولته بعد وفاته ، بعث فى قلوب العالم المسيحى آمالا جديدة ، فلم يكد إنوسنت الثالث Innocent III يجلس على عرش البابوية (١١٩٨ — ١٢١٦) ، حتى أخذ يطالب العالم المسيحى ببذل مجهود جديد ، وقام فلك ده نويى Fnlk de Neuilly ، وهو قس ساذج ، يدعو الملوك والسوقة إلى حرب صليبية رابعة . وكانت نتيجة الدعوة ميئسة ؛ فقد كان الإمبراطور فردريك الثانى طفلا فى سن الرابعة ؛ وكان فليب أغسطس يرى أن حملة صليبية واحدة تكفيه طوال حياته ، ونسى رتشرد كلماته الأخيرة لصلاح الدين فأخذ يسخر من دعوة فلك ، ويقول له : « إنك تدعونى إلى التخلى عن بناتى الثلاث — الكبرياء ، والبخل ، والانغماس فى الملاذ . فدونك هى لأجدر الناس بها : كبريائى لفرسان المعبد ، وبخلى لرهبان سيتو Citeaux ، وانغماسى فى الملاذ إلى المطارنة »[٤٢] . ولكن إنوسنت واصل دعوته ، وقال إن حملة توجه إلى مصر مقدر لها الفوز بفضل سيطرة الإيطاليين على البحر المتوسط ، ثم تتخذ مصر الغنية الخصبة قاعدة للزحف

على بيت المقدس : ووافقت البندقية بعد مساومات طويلة على أن تعد ما يلزم لنقل ٤٥٠٠ من الفرسان والخيول ، و ٩٠٠٠ من أتباعهم ، وعشرين ألفاً من المشاة ، وما يكفى هذه القوة من المؤن تسعة شهور ، كل هذا فى نظير ٨٥٫٠٠٠ مارك من الفضة (نحو ٨٫٥٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) . ورضيت أيضاً أن تمدهم بخمسين سفينة حربية بشرط أن تختص جمهورية البندقية بنصف الغنائم الحربية[٤٣] . على أن البنادقة لم يكن فى عزمهم أن يهاجموا مصر ، فقد كانوا يكسبون منها الملايين فى كل عام بما يصدرونه إليها من الخشب ، والحديد والسلاح ، وباستيراد العبيد ؛ ولم يكونوا يريدون أن يخاطروا بضياع هذه التجارة بالاشتراك فى الحرب ، أو باقتسامها مع بيزا وجنوى . ولهذا فإنهم وهم يفاوضون لجنة من الصليبيين عقدوا حلفا سريا مع سلطان مصر يضمنون بمقتضاه سلامة تلك البلاد من الغزو (١٢٠١)[٤٤] . ويقول إرنول Ernoul المؤرخ الإخبارى المعاصر إن البندقية حصلت على رشوة كبيرة نظير تحويل الحملة الصليبية عن فلسطين[٤٥] .

وتجمعت الجيوش الجديدة فى مدينة البندقية فى صيف ١٢٠٢ . وكان من أبرز رجالها المركيز بنغاس من منت فرات ، والكونت لويس من بلوا Blіois ، والكونت بلدوين من فلاندرز ، وسيمون ده منت‌فورت الذى يستمد شهرته من الألبجنسيين ، وكان من بين أعيانها الكثيرين چيوفروا ده ڤيلهاردون Geoffroi de Villehardouin (١١٦٠ — ١٢١٣) ، مارشال شمپانيا الذى لم يقتصر عمله على ما اضطلع به من دور رئيسى فى الأعمال السياسية والحربية المتصلة بالحرب الصليبية ، بل إنه سجل تاريخها المعيب فى مذكرات سترت معايبها ، وكانت بداية النثر الفرنسى الأدبى . وجاء معظم الصليبيين من فرنسا جرت بذلك عادتها ؛ وكان قد طلب إلى كل رجل أن يأتى معه بقدر من المال يتفق مع موارده حتى يتجمع للحملة مبلغ ال ٨٥٫٠٠٠ مارك التى لابد من أدائها للبندقية تنفيذاً للشروط المتفق عليها معها : ونقص المبلغ المتجمع عن الواجب أداؤه

بأربعة وثلاثين ألف مارك ، وحينئذ عرض إنريكو دندولو Enrico Dandolo اللوج الذى لا يكاد يبصر « ذو القلب العظيم » ، مدفوعاً إلى ما عرضه بكل ما أمدته به من تقى وقداسة سنوه الأربع والتسعون ، عرض هذا الدوج أن ينزل عن المبلغ الباقى إذا ساعد الصليبيون مدينة البندقية على فتح مدينة زارا Zara ، وكانت هذه المدينة وقتئذ أهم ثغور البحر الأدرياوى بعد البندقية نفسها ؛ وكانت البندقية قد استولت عليها فى عام ٩٩٨ ، وكثيراً ما خرجت عليها وأخضعت لها ، وكانت فى الوقت الذى نتحدث عنه من أملاك المجر ، ومنفذها الوحيد إلى البحر . وكانت ثروتها وقوتها آخذتين فى النماء ، ولهذا كانت البندقية تخشى منافستها لها فى تجارة البحر الأدرياوى . ووصف إنوسنت الثالث هذا الاقتراح بأنه اقتراح دنىء ، وأنذر كل من يشترك فيه بالحرمان ، غير أن أعظم البابوات شأناً وأقواهم سلطاناً لم يستطع أن يجعل صوته أعلى من رنين الذهب ، وهاجم الأسطولان المتحدان زارا ، واستوليا عليها بعد خمسة أيام ، وقسم الفاتحون الغنائم فيما بينهم ؛ ثم أرسل الصليبيون بعثة إلى البابا يرجون منه المغفرة ، فغفر لهم ، ولكنه طلب إليهم أن يردوا الغنيمة ؛ فشكروا له غفران الخطيئة ، واحتفظوا بالغنيمة ؛ وتجاهل البنادقة أمر الحرمان ، وخطوا الخطوة التالية لتنفيذ القسم الثانى من مشروعهم وهو الاستيلاء على القسطنطينية .

ولم تكن الإمبراطورية البيزنطية قد تعلمت شيئاً من الحملات الصليبية . ذلك أن هذه الإمبراطورية لم تقدم للصليبيين معونة تذكر ، ولكنها حصلت منهم على كسب عظيم ؛ فقد استردت الجزء الأكبر من آسية الصغرى ، وكانت تنظر بعين الرضا والاطمئنان إلى ماحل من الضعف بالغرب وبالإسلام فى كفاحهما للاستيلاء على فلسطين . وكان الإمبراطور مانيول Manuel قد ألقى القبض على آلاف من البنادقة من القسطنطينية وألغى إلى حين ما للبندقية فى تلك المدينة من امتيازات تجارية (١١٧١)[٤٦] ؛ ولم يستنكف إيزاك أنجيلوس Jsaac Angelus

أن يتحالف مع المسلمين(٤٧)؛ وفى عام ١١٩٥ خلعه أخوه ألكسيوس الثالث Alexius III وسجنه وفقأ عينيه ؛ وفر ابن إسحق واسمه أيضاً ألكسيوس إلى ألمانيا، ثم جاء إلى البندقية فى عام ١٢٠٢، واستغاث بمجلس شيوخها وبالصليبيين أن ينقذوا أباه ويعيدوه إلى عرشه ، ووعدهم فى نظير هذا العمل أن تساعدهم بيزنطية فى حربهم على الإسلام . وعقد دندولو والأشراف الفرنسيون مع الأمير الشاب اتفاقا عظيم الفائدة لهم : فقد أقنعوه أن يتعهد بأداء مائتى ألف مارك فضى إلى الصليبيين ، وأن يجهز جيشاً قوامه عشرة آلاف رجل للخدمة فى فلسطين ، وأن يخضع الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية للبابا فى رومة(٤٨) . ولكن البابا إنوسنت الثالث نهى الصليبيين على الرغم من هذه المنح السخية عن مهاجمة القسطنطينية وأنذرهم بالحرمان إذا فعلوا ؛ ورفض بعض الأشراف أن يشتركوا فى الحملة ، ورأى قسم من الجيش أنه فى حل من يمينه التى أقسمها بالاشتراك فى الحملة الصليبية وعاد إلى أوطانه ، ولكن فكرة الاستيلاء على أغنى مدينة فى أوربا ظلت مستحوذة على الكثيرين من الصليبيين يصعب عليهم مقاومتها ، ولهذا فإن الأسطول العظيم المكون من ٤٨٠ سفينة أقلع فى أول يوم من شهر أكتوبر عام ١٢٠٢ وسط مظاهر الابتهاج والتهليل بينا كان القساوسة الواقفون عند أبراج السفن الحربية ينشدون نشيد تعال أيها الخالق الروح Veni Creator Spilritus(٤٩) ، ووقف هذا الأسطول الضخم أمام القسطنطينية فى الرابع والعشرين من شهر يونيه عام ١٢٠٣ . ويقول فيلهاردون فى وصفها :

وأؤكد لكم أن أولئك الذين لم يروا القسطنطينية من قبل قد فتحوا عيونهم واسعة ، لأنهم لم يكونوا يعتقدون أن فى العالم كله مدينة فى مثل هذا الثراء ، حين أبصروا الأسوار الشامخة ، والأبراج الضخمة التى تتألف منها ، والقصور المنيفة ، والكنائس العالية التى لا يحصى عددها ، ولا يعتقد إنسان بوجودها إلا إذا كان قد رآها بعينيه ، وعرف ما بلغته هذه المدينة سيدة المدن

كلها من الطول والعرض . واعلموا أنه لم يكن بيننا رجل مهما بلغ من الشجاعة ، إلا اقشعر بدنه حين شاهدها ؛ وليس فى هذا شىء من العجب ، لأن أحداً من الناس لم يقم منذ بداية العالم بعمل يضارع فى جلاله هجومنا على تلك المدينة(٥٠) .

وأرسل المهاجمون بلاغاً نهائياً إلى ألكسيوس طلبوا فيه : أن يرد الإمبراطورية إلى الأخ الأعمى أو إلى ألكسيوس الصغير ، الذى كان يصحب الأسطول المغير ؛ فلما رفض ألكسيوس الثالث هذا الإنذار نزل الصليبيون إلى البر ، بعد مقاومة ضعيفة ، أمام أسوار المدينة ، وكان دندولو الشيخ المسن أول من وطئت قدماه الأرض . وفر ألكسيوس الثالث إلى تراقيا ، وأخرج الأشراف اليون إسحق أنجيلوس من سجنه وأجلسوه بأنفسهم على العرش ، وأرسلوا باسمه رسالة إلى الزعماء اللاتين يقول فيها إنه ينتظر ابنه ليحييه . وبعد أن استخلص الصليبيون وعداً من إسحق بارتباطه بما تعهد لهم به ولده دخل ندولو والأشراف المدينة ، وتوج ألكسيوس الصغير إمبراطوراً بالاشتراك مع أبيه . ولما عرف اليونان الثمن الذى اشترى به هذا النصر انقلبوا عليه غاضبين ساخرين ؛ فأما العامة فقد أخذوا يحسبون مقدار ما يجب عليهم أداؤه من الضرائب لجمع ما وعد به منقذيه من المال ، وأما الأشراف فقد ساءهم وجود أرستقراطية غريبة وقوة أجنبية فى المدينة ، وأما رجال الدين فقد رفضوا فى غضب وحنق أن يخضعوا لرومة . وحدث فى هذه الأثناء أن رأى بعض الجنود اللاتين جماعة من المسلمين يصلون فى مسجد مقام فى مدينة مسيحية ، فثارت ثائرتهم وأشعلوا النار فى المسجد ، وقتلوا المصلين . وظلت النار مشتعلة ثمانية أيام وامتدت إلى مسافة ثلاثة أميال ، وأحالت جزءاً كبيراً من القسطنطينية رماداً وأنقاضاً . وقام أمير من البيت المالك وتزعم ثورة من أهل المدينة وقتل ألكسيوس الرابع ، وأعاد إسحق إنجيلوس إلى السجن ، وجلس على العرش وتسمى باسم ألكسيوس الخامس دوكاس

Alexius V. Ducas ، وأخذ يعد جيشاً يطرد به اللاتين من معسكرهم فى غلطة . ولكن اليونان كانوا قد قضوا دهراً طويلا وهم آمنون وراء أسوارهم ، فلم يحتفظوا بشىء من الفضائل المتصلة باسمهم الرومانى ، فاستسلموا بعد شهر من الحصار ؛ وفر ألكسيوس الخامس ، وأخذ اللاتين الظافرون يعيثون فى العاصمة كأنهم جراد منتشر ملتهم (١٢٠٤) .

وازداد نهمهم لطول ما حرموا من فريستهم الموعودة ، فانقضوا على المدينة الغنية فى أسبوع عيد الفصح وأتوا فيها من ضروب السلب والنهب ما لم تشهده رومة نفسها على أيدى الوندال أو القوط . نعم إنه لم يقتل فى هذه الحوادث كثيرون من اليونان — فلعل عدد القتلى لم يتجاوز ألفين ، أما السلب والنهب فلم يقفا عند حد . ووزع الأشراف القصور فيما بينهم ، واستولوا على ما وجدوه فيها من الكنوز ؛ واقتحم الجنود البيوت ، والكنائس ، والحوانيت ، واستولوا على كل ما راقهم مما فيها ؛ ولم يكتفوا بتجريد الكنائس مما تجمع فيها خلال ألف عام من الذهب والفضة والجواهر ، بل جردوها فوق ذلك من المخلفات المقدسة ، ثم بيعت هذه المخلفات بعدئذ فى أوربا الغربية بأثمان عالية . وعانت كنيسة أياصوفيا من النهب ما لم تعانه فيما بعد على يد الأتراك عام ١٤٥٣[٥١] ، فقد قطع مذبحها العظيم تقطيعاً لتوزع فضته وذهبه[٥٢] . وكان البنادقة ، وهم الذين يألفون المدينة التى كثيراً ما رحبت بهم تجاراً ، يعرفون أين توجد أعظم كنوزها ، فاستعانوا بذكائهم الفائق على أعمال التلصص ، وامتدت أيديهم إلى التماثيل ، والأقمشة ، والأرقاء ، والجواهر ؛ ونقلت الأربعة الجياد البرنزية التى كانت تطل على المدينة اليونانية ، وجمل بها ميدان القديس مرقس Piazza di San Marco . وكانت هذه السرقات المنظمة مصدر تسعة أعشار مجموعات الفنون والجواهر التى امتازت بها كنوز كنيسة القديس مرقس على سائر الكنائس[٥٣] . وبذلت محاولة ضئيلة للحد من اغتصاب النساء ، وقنع الكثيرون من الجنود بالعاهرات ، ولكن

إنوسنت الثالث أخذ يشكو من أن شهوات اللاتين المكبوتة لم ينج منها الكبار أو الصغار ، ولا الذكور أو الإناث ، ولا أهل الدنيا أو الدين ؛ فقد أرغمت الراهبات اليونانيات على احتضان الفلاحين أو السائسين البنادقة والفرنسيين[٥٤] . وبددت فى أثناء هذا السلب والنهب محتويات دور الكتب وأتلفت المخطوطات الثمينة أو فقدت ، واندلعت ألسنة النيران بعدئذ مرتين فى المدينة فالتهمت دور الكتب والمتاحف كما التهمت الكنائس والمنازل ، فضاعت مسرحيات سفكليز ويوربديز التى ظلت حتى ذلك الوقت باقية بأكملها ولم ينج منها إلا القليل ، وسرقت آلاف من روائع الفن أو شوهت أو أتلفت .

ولما خمدت حدة الاضطراب والنهب اختار أعيان اللاتين بلدوين أمير فلاندرز ملكا لمملكة القسطنطينية اللاتينية (١٠٢٤) ، وجعلوا الفرنسية لغتها الرسمية . وقسمت الإمبراطورية البزنطية إلى أملاك إقطاعية يحكم كلا منها أمير نبيل إقطاعى . وكانت البندقية حريصة على السيطرة على طرق التجارة فاستولت على هدريانويل ، وإپيروس ، وأكارنانيا Acarnania ، والجزائر الأيونية ، وجزء من البلوپونيز ، وجزيرة عوبية ، وجزائر الأرخبيل ، وغاليبولى ، وثلاثة أثمان القسطنطينية . وانتزعت من أهل چنوى « المصانع » البزنطية ، والمعاقل الخارجية ، واختار دندولو لنفسه ، وكان وقتئذ يترنح فى ثيابه الإمبراطورية ، لقب « دوج البندقية ، وسيد ربع الإمبراطورية الرومانية وثمنها »[٨٥] . ولم يطل عمره بعد هذا فقد مات فى زهو هذا النصر الذى ناله بفعال أثيمة لم يؤنبه عليها ضميره . واستبدل برجال الدين اليونان غيرهم من اللاتين ، رسم الكثيرون منهم قساوسة لهذه المناسبة دون أن يكون لهم تاريخ سابق فى شئون الدين ، ووافق إنوسنت الثالث على الاتحاد الرسمى بين الكنيستين اليونانية واللاتينية عن رضا

وطيب خاطر ، وإن ظل يحتج على الهجوم . وعاد معظم الصليبيين إلى أوطانهم مثقلين بالغنائم ، وأقام بعضهم فى الأملاك الجديدة ، ولم يصل منهم إلى فلسطين إلا حفنة قليلة ، لم تعمل فيها عملا ما . ولعل الصليبيين قد ظنوا أن القسطنطينية بعد استيلائهم عليها ، ستكون قاعدة ضد الأتراك أقوى مما كانت وهى بيزنطية ، ولكن النزاع بين اللاتين واليونان الذى دام أجيالا طوالا أنهك قوى العالم اليونانى ولم تفق الإمبراطورية البيزنطية من هذه الضربة القاصمة ، ومهد استيلاء اللاتين على القسطنطينية إلى استيلاء الأتراك عليها بعد مائتى عام من ذلك الوقت .

الفصل الثامن

إخفاق الحملات الصليبية

١٢١١ — ١٢٩١

لقد كانت فضائح الحملة الصليبية الرابعة ، مضافة فى نحو عشر سنين إلى إخفاق الحملة الثالثة ، مما لا يرتاح له الدين المسيحى الذى واجه بعد زمن قليل بعث فلسفة أرسطو ، وفلسفة ابن رشد الدقيقة القائمة على تحكيم العقل . وأخذ المفكرون يجهدون عقولهم ليفسروا للناس كيف رضى الله أن يهزم ناصروه فى تلك القضية المقدسة ، ولم يهب النصر إلا للبنادقة الأدنياء . ولاح لذوى النفوس الساذجة فى خلال هذه الشكوك أن لا سبيل إلى استرداد حصن المسيح الحصين إلا بالطهر والتجرد من الذنوب . ولهذا قام فى عام ١٢١٢ شاب ألمانى لايعرف التاريخ من ماضيه إلا أن اسمه نقولاس Nicholas ، وأعلن أن الله قد أمره أن يقود إلى الأرض المقدسة حملة صليبية مؤلفة من الأطفال . وعارضه فى ذلك رجال الدين وغير رجال الدين ، ولكن فكرته انتشرت انتشاراً سريعاً فى عصر تسوده أكثر مما تسود سائر العصور موجات الحماسة العاطفية . وحاول الآباء بكل ما وسعهم من الجهد أن يمنعوا أبناءهم من الاستجابة لدعوته ، ولكن آلافاً من الغلمان (وبعض البنات فى ثياب الغلمان) لا يزيد متوسط أعمارهم على الثانية عشرة تسللوا من بيوتهم وساروا وراء نقولاس ، ولعلهم قد سرهم أن ينجوا من استبداد البيت إلى حرية الطريق . وخرج القسم الأكبر من هذا الحشد المؤلف من ثلاثين ألف طفل ، من مدينة كولونى ، وساروا بإزاء نهر الرين ، وفوق جبال الألب . وأهلك الجوع عدداً كبيرا منهم وفتكت الذئاب ببعض المتخلفين ، واختلط اللصوص بالزاحفين وسرقوا ثيابهم وطعامهم ؛ ووصل من نجا منهم إلى

جنوى حيث سخر منهم الإيطاليون عبدة المصالح الدنيوية ؛ ولم يجدوا سفناً تقلهم إلى فلسطين ؛ فلما استغاثوا بإنوسنت الثالث أجابهم بلطف أن يعودوا إلى أوطانهم ، فمنهم من سمعوا النصيحة وقفلوا راجعين وهم حزانى مكتئبون ، فعبروا جبال الألب ، ومنهم من استقروا فى جنوى ، وتعلموا فيها أساليب العالم التجارية .

هذا ما حدث فى ألمانيا ، أما فى فرنسا فقد قدم إلى فليب أغسطس فى ذلك العام نفسه راع فى الثانية عشرة من عمره يدعى استيفن ، وقال إن المسيح ظهر له وهو يرعى غنمه ، وأمره أن يقود حملة من الأطفال إلى فلسطين ، فأمره الملك أن يعود إلى غنمه ، ولكن عشرين ألفاً من الغلمان اجتمعوا رغم هذا وساروا وراء استيفن ، واجتازوا فرنسا إلى مرسيليا ، وكان استيفن قد وعدهم أن البحر سينشق عند هذه المدينة ليمكنهم من الوصول إلى فلسطين راجلين ، ولم ينشق لهم البحر ، ولكن اثنين من أصحاب السفن عرضا عليهم أن ينقلاهم إلى حيث يقصدون دون أن يتقاضوا منهم أجراً . فازدحم الأطفال فى سبع سفن أقلعت بهم وهم ينشدون أناشيد النصر . وتحطمت اثنتان من هذه السفن بالقرب من سردانية وغرق كل من كانوا فيها ، وجيء بالباقين من الأطفال إلى تونس أو مصر حيث بيعوا فى أسواق الرقيق ، وشنق صاحبا السفن التى أقلتهم بأمر فردريك الثانى [٥٦] .

وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت وجه إنوسنت الثالث فى أثناء انعقاد مجلس لاتران الرابع دعوة أخرى إلى أوربا لاستعادة الأراضى المقدسة ، وعاد إلى الخطة التى حالت البندقية دون تنفيذها — خطة الهجوم على مصر . وغادرت الحملة الصليبية الخامسة بلاد ألمانيا ، والنمسا ، والمجر فى عام ١٢١٧ بقيادة أندرو Andrew ملك المجر ، وأفلحت فى الوصول إلى دمياط الواقعة على مصب النيل الشرقى . وسقطت المدينة فى أيديهم بعد حصار دام عاماً كاملا ، وعرض عليهم الملك الكامل سلطان مصر وسوريا الجديد أن يصالحهم على أن يسلم لهم الجزء الأكبر من بيت المقدس ، ويطلق سراح الأسرى المسيحيين ، ويعيد الصليب الحق . وطلب

الصليبيون أن يتقاضوا بالإضافة إلى ذلك كله غرامة حربيه ، ولكن الكامل رفض هذا الطلب ، وبدأت الحرب من جديد ، ولكنها لم تجر كما يشتهى الصليبيون ، فلم يأتهم ما كانوا ينتظرون من المدد ؛ ثم عقدت هدنة تدوم ثمانى سنين رد إلى الصليبيين بمقتضاها الصليب الحق ، ولكن دمياط أعيدت إلى المسلمين ، وجلا جميع الجنود المسيحيين عن أرض مصر .

وعزا الصليبيون هذه المأساة إلى فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا وإيطاليا الشاب ؛ ذلك أنه أقسم يمين الصليبيين فى عام ١٢١٥ ، ووعد أن ينضم إلى الجيوش المحاصرة لدمياط ، ولكن المشاكل السياسية القائمة وقتئذ فى إيطاليا ، مضافاً إليها فى أغلب الظن ضعف إيمانه ، لم يمكناه من أن يبر بقسمه ووعده . فلما كان عام ١٢٢٨ زحف فردريك ، وهو لا يزال مطروداً من حظيرة الدين ، على رأس الحملة الصليبية السادسة ، ولما وصل إلى فلسطين لم يلق أية معونة ممن فيها من المسيحيين الصالحين ، فقد أعرض هؤلاء عن رجل مطرود من الكنيسة المسيحية . فلما رأى الإمبراطور ما فعلوا أرسل رسله إلى الملك الكامل ، وكان يقود جيش المسلمين فى نابلس ، ورد عليه الكامل رداً جميلا ، وأعجب فخر الدين سفير السلطان بما رآه من معرفة الإمبراطور بلغة العرب ، وآدابهم ، وعلومهم ، وفلسفتهم ، وشرع الحاكمان يتبادلان المجاملات والآراء ، ولشد ما دهش المسيحيون والمسلمون على السواء حين وقعا فى عام ١٢٢٩ معاهدة أعطى الكامل بمقتضاها فردريك مدن عكا ، ويافا ، وصيدا ، والناصرة ، وبيت لحم ، وجميع مدينة بيت المقدس ما عدا الفضاء المحيط بقبة الصخرة المقدسة عند المسلمين . وأجيز فوق ذلك للحجاج المسيحيين أن يأتوا إلى هذا الفضاء ليؤدوا فيه صلواتهم فى موضع هيكل سليمان ، وسمح للمسلمين بمثل هذه الحقوق فى بيت لحم . ونصت المعاهدة فوق ذلك على إطلاق جميع الأسرى من الطرفين المتعاقدين ، وتعهد كلاهما أن يحافظ على السلم عشر سنين وعشرة شهور (٥٧) . وهكذا أفلح الإمبراطور الطريد فيما عجز

عنه المسيحيون فى مائة عام كاملة ، والتقت الثقافتان المسيحية والإسلامية فترة من الزمان وهما متفاهمتان ، تحترم كلتاهما الأخرى ، ووجدتا أن فى وسعهما أن يعيشا معاً فى صفاء ووئام . واغتبط سكان الأرض المقدسة المسيحيون ، ولكن جريجورى التاسع نادى بأن تلك المعاهدة سبة للعالم المسيحى ، وأبى أن يقرها . ولما رجع فردريك إلى بلاده استولى النبلاء المسيحيون المقيمون فى فلسطين على بيت المقدس ، وعقدوا حلفا بين القوة المسيحية فى آسية ، وبين أمير دمشق المسلم ضد سلطان مصر المسلم (١٢٤٤) . واستنجد سلطان مصر بأتراك خوارزم ، فخف هؤلاء لنجدته واستولوا على بيت المقدس ونهبوها ، وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها . وبعد شهرين من ذلك الوقت هزم بيبرس المسيحيين فى غزة ، وسقطت مدينة بيت المقدس مرة أخرى فى أيدى المسلمين (أكتوبر سنة ١٢٤٤) .

وبينا كان إنوسنت الرابع يدعو إلى حرب صليبية على فردريك الثانى ويعرض على كل من يقاتلون الإمبراطور فى إيطاليا نفس المنح والمزايا التى يمنحها من يخدمون فى الأراضى المقدسة ، نظم لويس التاسع أو القديس لويس ملك فرنسا الحملة الصليبية السابعة . ذلك أنه لبس شارة الصليب بعد زمن قليل من سقوط أورشليم ، وأقنع نبلاء بلاده أن يحذوا حذوه ؛ ولما حل عيد الميلاد أهدى إلى بعض المسيحيين الذين ظلوا ممتنعين عن الانضمام إلى الحملة أثوابا غالية الثمن نقشت عليها شارة الصليب . وبذل الملك جهده للتوفيق بين إنوسنت وفردريك حتى تلقى الحملة الصليبية تأييد أوربا متحدة . لكن إنوسنت رفض وساطته ، وزاد على هذا الرفض أن بعث راهبا يدعى چيوڤنى ده پيانو كرپينى Giovanni de Piano Carpini إلى خان المغول الأعظم يعرض عليه اتحاد المغول والمسيحيين على الأتراك . ورد عليه الخان بأن طلب خضوع البلاد المسيحية للمغول . فلما حل عام ١٢٤٨ سار لويس على رأس الفرسان الفرنسيين ومعهم چانسيد چوانڤيل الذى روى أعمال الملك فى تاريخه الذائع الصيت . ووصلت الحملة إلى دمياط ، واستولت عليها بعد

قليل من وصولها ، ولكن فيضان النيل السنوى الذى لم يحسب الصليبيون حسابه حين وضعوا خطة الحملة بدأ فى وقت وصول الصليبيين ، وغمر البلاد بالماء فأحاط بالصليبيين وحصرهم فى دمياط مدة نصف عام . على أنهم لم يندموا لما أصابهم لأن « الأشراف » كما يقول چوانفيل « أخذوا يولمون الولائم . . . كما أخذ العامة يصاحبون النساء الفاجرات »(٥٨) . ولما واصل الجيش زحفه ، كان الجوع والمرض ، والفرار ، قد أنهكت قوته وأنقصت عدده ، وأضعفه اختلال نظامه ، فمنى بهزيمة ساحقة عند المنصورة رغم استبساله فى الدفاع عن نفسه ، وتبدد شمله وولى الجنود الأدبار ، وأسر عشرة آلاف من المسيحيين من بينهم لويس نفسه ، وقد خارت قواه من وطأة الزحار (١٢٥٠) . وعالجه من مرضه طبيب عربى ، ثم أطلق سراحه بعد أن قضى فى الأسر شهراً بشرط أن يسلم دمياط ويفتدى نفسه بخمسمائة ألف جنيه فرنسى (٣٨٠٠٠٠٠ ريال أمريكى) . ولما أن قبل لويس هذه الفدية الباهظة أنقص منها السلطان خمسها ، وقبل نصف الباقى ووثق بعهد قطعه الملك على نفسه أن يؤدى إليه النصف الآخر(٥٩) . وسار الملك على رأس فلول جيشه إلى عكا ، وأقام فيها أربع سنين ، يدعو فيها أوربا فى غير طائل إلى أن تكف عن الحروب فيما بينها وأن تنضم إليه فى حرب جديدة . وبعث فى هذه الأثناء وليم الربركوازى William of Rubruquois إلى خان المغول يعرض عليه للمرة الثانية دعوة إنوسنت — ولكنه لم يلق منه غير ما لقى فى الدعوة الأولى : ثم عاد فى عام ١٢٥٤ إلى فرنسا .

وكانت السنون التى قضاها فى الشرق قد هدأت ما كان بين المسيحيين فيه من شقاق ، فلما غادره عاد هذا الشقاق سيرته الأولى ؛ فقامت بين أهل البندقية وجنوى بين عامى ١٢٥٦ و١٢٦٠ حرب داخلية فى ثغور الشام ، انضمت فيها

جميع الأحزاب المتنافرة إلى هذا الجانب أو ذاك ، وأنهكت قوى المسيحين فى فلسطين . واغتنم بيبرس أحد السلاطين المماليك فى مصر هذه الفرصة فزجف بجيشه على الساحل واستولى على المدن المسيحية بمدينة فى إثر مدينة : قيصرية (١٢٦٥) ، وصفد (١٢٦٦) ، ويافا (١٢٦٧) ، وأنطاكية (١٢٦٨) . وقتل من وقع فى الأسر من المسيحين أو استرقوا ، وقاست أنطاكية من النهب والحرق ما لم تفق منه قط فيما بعد .

وثارت حمية لويس من جديد فى شيخوخته فلبس شارة الصليب مرة أخرى (١٢٦٧) ، وحذا حذوه أبناؤه الثلاثة ، ولكن النبلاء الفرنسيين لم يوافقوا على خطته وقالوا إنها سخافة بلهاء ، وأبوا أن ينضموا إليه ؛ وحتى چوانفيل نفسه رفض رفضاً باتاً أن يشترك فى الحملة الصليبية التالية . ونزل الملك — الحصيف فى حكمه ، الأخرق فى حربه — بقواته القليلة فى بلاد تونس ؛ وكان يرجو من وراء ذلك أن يحمل أميرها على اعتناق الدين المسيحى ، وأن يهاجم مصر من جهة الغرب . ولكنه لم تكد تطأ قدماه أرض إفريقية حتى « أصيب بنزلة معوية شديدة »[٦٠] ومات وهو يردد لفظ « بيت المقدس » (١٢٧٠) . وبعد عام من ذلك الوقت نزل الأمير إدورد ، ولى عهد إنجلترا فى عكا ، وقاد بعض هجمات جريئة قامت بها حاميتها ، ثم عاد مسرعاً إلى إنجلترا ليضع على رأسه التاج الإنجليزى .

وحلت بالمسيحيين الكارثة الأخيرة حين نهب بعض المغامرين منهم قافلة للمسلمين فى بلاد الشام ، وشنقوا تسعة عشر من التجار المسلمين ، ونهبوا بعض البلدان الإسلامية . وطلب السلطان الترضية الكافية عن هذا الاعتداء ؛ ولم يجب إلى طلبه ، فلم يسعه إلا أن يزحف على عكا أقوى المعاقل الأمامية المسيحية فى فلسطين ، واستولى عليها بعد حصار دام ثلاثة وأربعين يوماً . فلما سقطت فى

يده سمح لرجاله أن يقتلوا أو يسترقوا ستين ألفاً من الأسرى (١٢٩١) . وسرعان ما سقطت بعدئذ فى أيدى المسلمين مدائن صور ، وصيدا ، وحيفا ، وبيروت . وبقى شبح مملكة أورشليم اللاتينية ماثلا إلى حين فى ألقاب بعض الزعماء ، وظل بعض المغامرين أو المتحمسين قرنين من الزمان يقدمون على محاولات متقطعة غير مجدية « ليواصلوا السجال العظيم » ، ولكن أوربا أدركت أن الحروب الصليبية قد انقضى أجلها .

الفصل التاسع

نتائج الحروب الصليبية

إذا نظرنا إلى الحروب الصليبية من حيث أغراضها المباشرة التى دارت رحاها من أجلها قلنا إنها أخفقت لا محالة . ذلك أنه بعد أن دامت هذه الحروب قرنين من الزمان بقيت بيت المقدس فى أيدى المماليك ، وقل عدد الحجاج المسيحيين إلى تلك المدينة وزادت مخاوفهم . يضاف إلى هذا أن الحكومات الإسلامية التى كانت من قبل تمتاز بالتسامح مع أصحاب الأديان الأخرى قد ذهب عنها تسامحها بسبب الهجمات المتكررة على بلادها ، ولم يبق فى أيدى المسيحيين ثغر واحد من ثغور فلسطين والشام التى انتزعوها من قبل لتستقبل التجارة الإيطالية ، وأثبتت الحضارة الإسلامية أنها أرقى من الحضارة المسيحية فى رقيها ، وأسباب راحتها ، وتعليمها وأساليبها الحربية . يضاف إلى هذا كله أن الجهود الكبيرة التى بذلها البابوات لنشر لواء السلم على ربوع أوربا بتوجيهها إلى غرض واحد قد تحطمت بفعل المطامع القومية ، وحروب البابوات « الصليبية » على الأباطرة .

ولم يفق الإقطاع مما أصابه من إخفاق فى الحروب الصليبية إلا بأشد الصعاب . ذلك أن الذى كان يوائم النظام الإقطاعى هو المغامرات والبطولة الفردية فى أضيق نطاق ، ولهذا لم تعرف كيف توفق بين أساليبها الخاصة وبين مناخ الشرق والحرب فى الميادين النائية ، وأخطأت خطأ لا يغتفر لها فى حل مشكلة التموين فى خط مواصلاتها الطويل ؛ ثم إنها قد استنفدت فى تلك الحروب ما لديها من عتاد ، وفقدت روحها المعنوية حين لم تقو على فتح بيت المقدس المسلمة بل فتحت بزنطية المسيحية . وكان كثيرون من الفرسان قد باعوا أملاكهم أو رهنوها للمرابين

أو الكنيسة أو الملوك ليحصلوا على المال اللازم للحروب ؛ وتخلوا من أجل المال عما كان لهم من حقوق فى كثير من المدن القائمة فى أملاكهم ، وأعفوا كثيرين من الفلاحين من الضرائب والالتزامات الإقطاعية المستقبلة بأثمان عاجلة ، وأفاد آلاف من أرقاء الأرض من الامتيازات التى هيأتها لهم الحروب الصليبية بأن تركوا الأراضى التى كانوا يعملون فيها ، ولم يرجع آلاف منهم إلى الضياع . وبينا كانت الثروة الإقطاعية والأسلحة الإقطاعية تتحول نحو الشرق ، كان سلطان الملوك الفرنسيين يقوى وثراؤهم يزداد ، فكانت هذه القوة والزيادة من أهم آثار الحروب الصليبية . وضعفت فى الوقت عينه قوة الإمبراطوريتين الرومانيتين الشرقية والغربية : فقد ضاعت هيبة أباطرة الغرب لعجزهم عن استرداد الأرض المقدسة ، ولنزاعهم مع البابوية التى أعلت شأنها الحروب الصليبية . أما الدولة الشرقية ، فلم تستعد قط ما كان لها فى سابق عهدها من قوة وشهرة ، رغم مولدها الجديد فى عام ١٢٦١ . لكن الحروب الصليبية قد أفادت العالم الغربى هذه الفائدة : وهى أنه لولاها لاستولى الأتراك على القسطنطينية قبل عام ١٤٥٣ بزمن طويل ، ذلك أنها أضعفت قوة المسلمين أنفسهم وجعلتهم أقل مقاومة لتيار المغول الجارف .

وحلت الكوارث ببعض المنظمات العسكرية . من هذا أن فرسان المعبد الذين نجوا من مذبحة عكا فروا إلى قبرص ، وانتزعوا فى عام ١٣١٠ رودس من المسلمين ، واستبدلوا باسمهم القديم اسم فرسان رودس ، وظلوا يحكمون الجزيرة حتى طردهم منها الأتراك فى عام ١٥٢٢ ، فانتقلوا منها إلى مالطة وأصبحوا فرسان مالطة ، وظلوا باقين حتى حل نظامهم فى عام ١٧٩٩ . أما الفرسان التيوتون فقد نقلوا مقرهم الرئيسى بعد سقوط عكا إلى مارينبورج Marienburg فى بروسيا التى انتزعوها من الصقالبة وضموها إلى ألمانيا . وأعاد فرسان المعبد تنظيم صفوفهم فى فرنسا بعد أن أخرجوا من آسية ؛ وإذ كانت لهم أملاك واسعة غنية فى جميع أنحاء

أوربا ، فقد أخذوا يستمتعون بما تدره عليهم هذه الأملاك ؛ وإذ كانت أملاكهم معفاة من الضرائب فقد كان فى وسعهم أن يقرضوا المال بفوائد أقل من التى يتقاضاها اللمبارد واليهود ، وجمعوا بعملهم هذا ثروة طائلة ؛ هذا إلى أنهم لم يكونوا كفرسان المعبد ينشئون المستشفيات والمدارس أو يقدمون المعونة للفقراء ؛ وأثارت أموالهم الطائلة المكنوزة ، ودولتهم المسلحة فى داخل الدولة ، وعدم خضوعهم لسلطان الملوك أثارت هذه كلها حسد فليب الرابع الجميل لهم وخوفه منهم وغضبه عليهم ؛ فقبض فى الثانى عشر من شهر أكتوبر عام ١٣١٠ على جميع من كان فى فرنسا من فرسان المعبد دون سابق إنذار لهم ووضع الخاتم الملكى على جميع ممتلكاتهم . واتهمهم فليب باللواط ، وبأنهم فقدوا إيمانهم بالدين المسيحى لطول اختلاطهم بالمسلمين ، وبأنهم ينكرون المسيح ويبصقون على الصليب ، ويعبدون الأوثان ، ويحالفون المسلمين سراً ، وأنهم طالما خانوا القضية المسيحية ؛ وحوكم السجناء أمام محكمة من المطارنة والرهبان الموالين للملك ، فأنكروا التهم الموجهة إليهم ، وعذبوا لكى يعترفوا ، فنهم من علقوا من معاصمهم وكانوا يرفعون وينزلون فجاءة ، ومنهم من وضعت أقدامهم عارية أمام النيران ومنهم من دقت شظايا حادة بين أظافر أيديهم ، ومنهم من كانت تقتلع لهم سن كل يوم ، ومنهم من علقت أوزان ثقيلة فى أعضائهم التناسلية ، ومنهم من ماتوا موتا بطيئاً من الجوع . وكانت جميع وسائل التعذيب السالفة الذكر تستخدم مع أولئك الفرسان فى كثير من الحالات ، فكانت النتيجة أن الكثيرين منهم حين جيء بهم ليعاد استجوابهم كانوا ضعافا موشكين على الموت . وأظهر واحـــد منهم العظام التى سقطت من قدميه المحروقتين ؛ واعترف الكثيرون منهم بجميع التهم التى وجهها لهم الملك ، وقال بعضهم إنهم قد تلقوا وعداً مختوما بخاتم الملك أن يؤمنوا على حياتهم وترد لهم أملاكهم إذا أقروا بارتكاب التهم التى توجهها لهم الحكومة ، ومات بعضهم فى السجون ، وانتحر البعض الآخر ؛ وشد تسعة وخمسون على

قوائم خشبية وأحرقوا بالنيرال (١٣١٠) ، وظلوا إلى آخر لحظة من حياتهم يجهرون بأنهم بريئون . واعترف دوه مولاى Du Molay رئيس الطائفة الأكبر على نفسه نتيجة لهذا التعذيب ، فسبق إلى قائمة الإحراق ، فعاد إلى الإنكار ، واقترح محاكموه أن تعاد محاكمته ؛ ولكن فليب لم يرضه هذا التأخير ، وأمر بحرقه على الفور ، وشرف الملك بحضوره تنفيذ الحكم . وصادرت الدولة جميع ما كان لفرسان المعبد من أملاك فى فرنسا ، واحتج البابا كلمنت الخامس على هذه الأعمال ، ولكن رجال الدين الفرنسيين أيدوا الملك فى أعماله ، وامتنع البابا عن المقاومة وكان فى واقع الأمر سجينا فى أفنيون ، وأعلن بإيعاز فليب إلغاء نظام فرسان المعبد (١٣١٢) . وصادر إدورد الثانى هو الآخر أملاك فرسان المعبد فى إنجلترا ليسد بها حاجته إلى المال . وأعطى فليب وإدورد الكنيسة بعض هذه الأموال المصادرة ، ووهبا بعضها الآخر لأنصارهم وأحبائهم ، فأنشأوا بها ضياعا واسعة ، وأعانوا بها الملوك على الأشراف الإقطاعيين القدامى .

وربما كان بعض الصليبيين قد تعلموا فى الشرق أن يتغاضوا من جديد عن الشذوذ(*)؛ وفى وسعنا أن نضم هذا ، والعودة إلى إنشاء الحمامات العامة والمراحيض الخاصة فى الغرب ، إلى ما أسفرت عنه الحروب الصليبية من نتائج وأكبر الظن أن الأوربيين قد رجعوا إلى العادة الرومانية القديمة عادة حلق اللحى نتيجة لاتصالهم ببلاد الشرق الإسلامية(٦١) ، ودخلت ألف كلمة وكلمة من اللغة العربية إلى اللغات الأوربية ، وانتشرت القصص الشرقية فى أوربا ، وتهيأ لها مظهر جديد فى اللغات القومية الناشئة . وتأثر الصليبيون بروعة الزجاج المنقوش المصنوع فى بلاد الإسلام ، وربما كان من نتائج تأثرهم بها أنهم نقلوا من بلاد الشرق الأسرار الفنية التى أدت إلى تحسين الزجاج الملون الذى نشاهده

(*) لقد وصف المؤلف فى المجلدات السابقة انتشار الشذوذ الجنسى فى بلاد أوربا ومنها بلاد اليونان والرومان ، وذكر فى هذا الفصل نفسه تهم الشذوذ الجنسى التى وجهت إلى الهيئات الصليبية المحاربة . (المترجم)

فى الكنائس القوطية[٦٢] . وكانت البوصلة ، والطباعة ، والبارود معروفة فى بلاد الشرق قبل انتهاء الحروب الصليبية ، ولعلها انتقلت إلى أوربا فى أعقاب تلك الحروب . ويلوح أن الأوربيين كانوا أشد جهلا من أن يعنوا بالشعر ، والعلوم ، والفلسفة « العربية » ؛ ولهذا فإن تأثر الغرب بهذه المؤثرات الإسلامية جاء عن طريق أسپانيا وصقلية لا عن طريق اتصالهم بالمسلمين أثناء هذه الحروب . كذلك تأثر الغرب بالثقافة اليونانية بعد استيلاء الأتراك على القسطنطينية ، ومن دلائل هذا التأثر أن موربيك Moerbeke كبير أساقفة كورنثة الفلمنكى أمد تومس أكويناس بتراجم لكتب أرسطو عن أصولها اليونانية مباشرة . وفى وسعنا أن نقول بوجه عام إن ما عرفه الصليبيون من أن أتباع الدين المسيحى قد يكونون مثلهم خلائق متحضرين ، كريمين ، يوثق بهم ويعتمد عليهم ، أو يفوقونهم فى هذه الصفات ، إن ما عرفه الصليبيون من هذا قد بعث بلا ريب بعض العقول على التفكير ، وكان سبباً فى إضعاف العقائد الدينية المقررة فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر . ولقد تحدث بعض المؤرخين أمثال وليم كبير أساقفة صور عن الحضارة الإسلامية حديثاً ملؤه الإجلال بل والإعجاب فى بعض الأحيان ، لو سمعه المحاربون فى الحملة الصليبية الأولى لهزهم وصدم مشاعرهم وكبرياءهم[٦٣] .

وعظم سلطان الكنيسة الرومانية وعلت مكانتها إلى أبعد حد بسبب الحملة الصليبية الأولى ، ثم أخذت تضعف بالتدريج بسبب الحملات التى تلتها . وكان منظر الشعوب المختلفة ، والأشراف العظام ، والفرسان ذوى الكبرياء ، والأباطرة والملوك فى بعض الأحيان ، متحدين جميعاً للدفاع عن قضية دينية بزعامة الكنيسة ، كان هذا المنظر سبباً فى رفع مكانة البابوية وعلو شأنها . فقد كان مندوبو البابا يدخلون كل قطر وكل أبرشية ، يحثون الناس على التطوع للحروب الصليبية ويجمعون لها الأموال ، وكان سلطانهم يزاحم سلطان رجال الدين فى تلك الأقطار والأبرشيات ويطغى عليه فى بعض الأحيان ؛ وبفضلهم أصبح

المستمسكون بدينهم خاضعين مباشرة لسلطان البابا . وأضحى جمع المال على هذا النحو سنة متبعة ، وسرعان ما استخدمت الأموال المجموعة فى أغراض أخرى غير الحملات الصليبية ؛ وأصبح من حق البابا أن يفرض الضرائب على رعايا الملوك ، وأن يحول إلى رومة مبالغ كبيرة من المال ، لولا هذا لذهبت إلى خزائن الملوك واستخدمت فى الحاجات المحلية ؛ وأثار هذا بلا ريب غضب الملوك ومقاومتهم . وكان توزيع صكوك الغفران على من يقوم بالخدمة فى فلسطين أربعين يوما عملا مشروعا فى العرف العسكرى ، وكان منح هذه الصكوك الغفرانية نفسها لمن يتكفلون بنفقات محارب من الصليبيين يبدو كذلك من الأعمال التى يمكن التسامح فيها ، أما التوسع فى منح تلك الصكوك ، إلى الذين يؤدون الأموال ليستخدمها البابوات ، أو الذين يحاربون حروب البابا فى أوربا ضد فردريك ، ومانفرد Manfread وكنراد فقد كان مصدراً جديداً من مصادر غضب الملوك واستيائهم ، ومبعثاً لفكاهة الناقدين وسخريتهم . وحدث فى عام ١٢٤١ أن أمر جريجورى التاسع مندوبه فى بلاد المجر أن يعفى الذين أقسموا بالتطوع فى الحرب الصليبية من أيمانهم إذا أدوا إليه قدراً من المال ، ثم استخدم ما جمعه من الأموال بهذه الطريقة فى كفاحه المرير ضد فردريك الثانى(٦٤) . وقام الشعراء الجوالون أهل پروڤنسال ينتقدون الكنيسة لتحويلها تيار الحرب الصليبية من فلسطين إلى فرنسا ، وذلك بعرضها صكوك الغفران نفسها على من يتطوعون لمحاربة المارقين الألبجنسيين فى فرنسا(٦٥) . ويقول ماثيو باريس Mathew Paris فى التعليق على هذا العمل : « ودهش المؤمنون من أن يعد البابوات بغفران جميع خطايا من يسفكون دماء المسيحيين كما تغفر جميع خطايا من يسفكون دماء الكفار »(٦٦) . وكان كثيرون من ملاك الأراضى قد باعوا أرضهم للكنائس أو الأديرة أو رهنوها لها ليحصلوا بذلك على ما يلزمهم من المال فى الحروب الصليبية ، وأصبح للأديرة بفضل هذا ضياع واسعة . ولما أن انحطت مكانة الكنيسة بسبب إخفاق الحروب

الصليبية أضحت ثروتها هدفا واضحاً لحسد الملوك ، وغضب الشعب وتأنيب النقاد . ومن الناس من كان يعزو الكوارث التى أصابت لويس التاسع فى عام ١٢٥٠ إلى الحرب التى شنها فى الوقت نفسه إنوسنت الرابع على فردريك الثانى . وقام المتشككون الجريئون يقولون إن إخفاق الحروب الصليبية يدحض ما يدعيه البابا من أنه نائب عن الله أو ممثله فى أرضه . ولما أن قام الرهبان بعد عام ١٢٥٠ يسألون الناس المال لإعداد حروب صليبية أخرى ، استدعى بعض من كانوا يستمعون خطبهم بعض المتسولين وتصدقوا عليهم باسم محمد من قبيل السخرية بالرهبان أو الحقد عليهم ، لأن محمداً فى رأيهم قد أظهر أنه أعظم قوة من المسيح[٦٧] .

وكان أثر الحروب الصليبية الذى يلى فى أهميته إضعاف العقيدة الدينية المسيحية هو بث روح النشاط فى الحياة المدنية الأوربية لمعرفة الأوربيين بأساليب المسلمين التجارية والصناعية . ذلك أن الحرب تسدى إلى الناس خيراً واحداً وهو أنها تعلمهم علم تقويم البلدان . فقد عرف التجار الإيطاليون الذين أثروا بفضل الحروب الصليبية كيف يرسمون خرائط للبحر المتوسط ، وتلقى المؤرخون الإخباريون الرهبان الذين رافقوا الفرسان آراء جديدة عن اتساع بلاد آسية واختلاف أصقاعها ونقلوا هذه الآراء إلى غيرهم من الناس ، وبهذا تحركت فى القلوب الرغبة فى الكشف والارتياد ، وظهرت كتب فى وصف الأقاليم والبلدان ترشد الحجاج إلى البلاد المقدسة وإلى داخل البلاد المقدسة ؛ وأخذ الأطباء المسيحيون العلم عن الأطباء اليهود والمسلمين ، وتقدم علم الجراحة بفضل الحروب الصليبية .

وسارت التجارة وراء الصليب ، أو لعل التجارة هى التى قادت الصليب . لقد خسر الفرسان فلسطين ، ولكن الأساطيل التجارية الإيطالية لم تنتزع السيطرة على البحر المتوسط من أيدى المسلمين وحدهم بل انتزعتها كذلك من أيدى البيزنطيين . نعم إن مدائن البندقية ، وجنوى ، وبيزا ، وأملفى ،

ومرسيليا ، وبرشلونة كانت قبل الحروب الصليبية تتجر مع بلاد الشرق الإسلامية ، وتخترق مضيق البسفور والبحر الأسود ، ولكن الحروب الصليبية قد وسعت نطاق هذه التجارة إلى أبعد حد . وكان لاستيلاء البنادقة على القسطنطينية ، ونقلهم الحجاج والمحاربين إلى فلسطين ، وتوريدهم المؤن إلى المسيحيين وغير المسيحيين فى بلاد الشرق ، واستيرادهم المحاصيل الشرقية إلى أوربا — كان لهذا كله أكبر الأثر فى انتعاش التجارة والنقل البحرى انتعاشاً لم يكن له نظير منذ أيام مجد رومة الإمبراطورية ، وجاءت إلى أوربا بكميات موفورة من الأقمشة الحريرية والسكر والتوابل كالفلفل ، والزنجبيل ، والقرنفل ، والقرفة — وكانت كلها من مواد الترف النادرة فى أوربا فى القرن الحادى عشر . وانتقلت من الشرق إلى الغرب بكميات كبيرة نباتات ومحاصيل وأشجار عرفتها أوربا من قبل من بلاد الأندلس الإسلامية . ومن هذه الذرة ، والأرز ، والسمسم ، والخروب ، والليمون ، والبطيخ ، والخوخ ، والمشمش ، والكرز ، والبلح . وسمى البصل الصغير المعروف باسم الشالوت والعسقلانى من اسم عسقلان الثغر الذى كان ينقل منه على ظهور السفن من الشرق إلى الغرب ، وظل المشمش يسمى « برقوق دمشق » زمناً طويلا[٦٨] . وجاء من بلاد الإسلام الدمقس ، والموصلين ، والساتان ، والمخمل ، والأقمشة المزركشة ، والطنافس ، والأصباغ ، والمساحيق ، والعطور ، والجواهر لتزدان بها بيوت أمراء الإقطاع وأهل الطبقات الوسطى ويتحلى بها رجالهم ونساؤهم[٦٩] . وحلت المرايا الزجاجية المطلية بغشاء معدنى محل المرايا المصنوعة من البرنز أو الصلب المصقول ، وأخذت أوربا عن الشرق صناعة تكرير السكر والزجاج « البندق » .

ونمت الصناعة الفلمنكية بوجود أسواق جديدة لها فى بلاد الشرق ، وساعد

هذا النماء على قيام البلدان ونشأة الطبقة الوسطى ، وأدخلت من بلاد بيزنطية والإسلام فنون للأعمال المصرفية أحسن مما كان موجوداً فيها قبل ، فظهرت أشكال ووسائل جديدة للائتمان ، وازداد تداول النقود والآراء كما ازداد عدد الرجال . لقد بدأت الحروب الصليبية بنظام إقطاعى زراعى ، نفخت فيه روح البربرية الألمانية الممتزجة بالعاطفة الدينية ؛ واختتمت بقيام الصناعة ، واتساع نطاق التجارة ، فى عهد ثورة اقتصادية مهدت السبيل لعصر النهضة وأمدته بالمال .

الباب الرابع والعشرون

الثورة الاقتصادية

١٠٦٦ - ١٣٠٠

الفصل الأول

انتعاش التجارة

كل ازدهار التجارة يمد جذوره فى اتساع نطاق التجارة والصناعة ، ويستمد غذاءه من هذا الاتساع . وكان استيلاء المسلمين على ثغور البلاد الواقعة فى شرق البحر المتوسط وجنوبه ، وعلى تجارة هذين القسمين ، وغارات المسلمين وأهل الشمال والمجر على بلاد أوربا ، وما حل بها من الاضطراب أيام خلفاء شارلمان ، كان هذا كله سبباً فى انحطاط الحياة الأوربية الاقتصادية والعقلية فى القرنين التاسع والعاشر إلى الدرك الأسفل ؛ فلما أن حمى الإقطاع الزراعة وأعاد تنظيمها ، وروض قراصنة الشمال فأصبحوا الزراع والتجار النورمان ، وصد الهون واعتنقوا الدين المسيحى ، واستعادت التجارة الإيطالية معظم ثغور البحر المتوسط ، وأعاد الصليبيون فتح البلاد الواقعة فى شرق هذا البحر ، واستيقظ الغرب فى أثر اتصاله بحضارتين أرقى من حضارته هما حضارتا الإسلام وبيزنطية ، لما حدث هذا كله أتيحت الفرصة فى القرن الثانى عشر لانتعاش أوربا ، ووجد الحافز القوى لهذا الانتعاش ، والوسائل المادية لازدهار الثقافة فى القرن الثانى عشر ، وواصلت هذا الانتعاش حتى منتصف القرن الثالث عشر أى إلى بداية نهاية العصور الوسطى .

وكان شعار الفرد والمجتمع فى ذلك العهد هو : يجب أن يتقدم الطعام على الفلسفة والثراء على الفن Primum est edere, deinde philosophari .

وكانت الخطوة الأولى فى الانتعاش الاقتصادى هى إزالة القيود التى كانت تعطل التجارة الداخلية . ذلك أن الحكومات القصيرة النظر كانت تفرض مائة ضريبة وضريبة على نقل البضائع وبيعها — تفرضها على دخول الثغور ، وعبور القناطر ، واستخدام الطرق أو الأنهار ، أو القنوات ، وعرض البضائع على المشترين فى الأسواق والموالد . وكان سادة الإقطاع يرون أن من حقهم أن يجبوا الضرائب على البضائع المارة بأملاكهم كما تفعل الدول فى هذه الأيام ، وكان منهم من يبسط حماية حقة وخدمات صادقة للتجار إذ يمدونهم بالحراسة المسلحة وكرم الضيافة التى تيسر لهم القيام بأعمالهم(*) . ولكن تدخل الدول وسادة الإقطاع فى شئون التجارة أدى إلى وجود اثنتين وستين محطة لجباية المكوس على طول نهر الإلب ، وسبع وسبعين على نهر الدانوب . . ؛ وكان التاجر يؤدى ستين فى المائة من بضاعته نظير نقلها فى نهر الرين أو على شاطئيه(٢١) . وتعرض التجار والمسافرون لأشد الأخطار فى الطرق البرية والمسالك المائية الموبوءة بالحروب الإقطاعية ، والجنود غير النظاميين ، والأشراف اللصوص ، والقرصان المنتشرين فى الأنهار والبحار . غير أن « هدنة الله » و « سلم الله » يسرتا التجارة البرية بتحديدهما فترات للسفر آمنة أماناً نسبياً ؛ كما أن ازدياد قوة الملوك قلل بعض الشيء من السرقات ، وأوجد نظاما موحداً للمقاييس والموازين ، وحدد العوائد والمكوس ونظمها ؛ ومنعها منعاً باتاً من بعض الطرق والأسواق فى أيام الموالد الكبرى .

(*) كان بعض سادة الإقطاع يعلقون دروعهم ، أو يعلقون شعارهم الحربى ، عند مداخل قصورهم علامة على استعدادهم لاستضافة الغرباء . وهذا هو السبب فى قيام النزل على جانبى الطرق تحمل أسماء مثل : « النسر الأحمر » ، و « السبع الذهبى » ، و « الدب الأربد » .

وكانت هذه الموالد عصب الحياة التجارية فى العصور الوسطى . نعم إن البائعين الجوالين كانوا بطبيعة الحال يترددون ببضائعهم الصغيرة على الأبواب ، والصناع يبيعون مصنوعاتهم فى حوانيتهم ، والبائعين والمشترين يجتمعون فى المدن أيام الأسواق ، والأشراف يقيمون الأسواق قريبة من قصورهم ، والكنائس تسمح بإقامتها فى أفنيتها ، والملوك يديرونها فى مخازن فى عاصمة ملكهم . نعم إن هذا كله كان يحدث ، ولكن تجارة الجملة ، والتجارة الدولية كانتا تتركزان فى المواسم الإقليمية التى كانت تقام فى أوقات معينة فى لندن واستوربردج Stourbridge بإنجلترا ؛ وفى باريس ، وليون ، وريمس ، وإقليم شمبانيا بفرنسا ؛ وفى ليل ، وإيبر Ypres ودويه Douai ، وبروج Bruge بفلاندرز ، وفى كولونى ، وفرانكفورت ، وليپزج ، ولوبك Lübeck بألمانيا ، وچنيفا بسويسرا ؛ ونفجورود بروسيا . . . وكانت أشهر هذه الأسواق كلها وأحبها إلى الجماهير ماكان يقام منها بمقاطعة شمبانيا فى لانى Lagny ، إذا حل شهر يناير ، وفى بار — على — الأوب Bar-sur-Aube أيام عيد الفصح ، وفى پروڤن Provins فى شهرى مايو وسبتمبر ، وفى تروای Troyes فى شهرى سبتمبر ونوفمبر . وكان كل موسم من هذه المواسم يدوم ستة أسابيع أو سبعة ، وكان تعاقبها على هذا النحو بمثابة سوق دولية تدوم معظم أيام السنة . وكانت أماكنها مما ييسر اجتماع المتاجر والتجار القادمين من فرنسا والأراضى الوطيئة ، ووادى نهر الرين ، بالقادمين من پروڤانس ، وأسپانيا ، وإيطاليا ، وأفريقية ، وبلاد الشرق ؛ وكانت هذه المواسم مصدراً كبيرا للثراء والسلطان لفرنسا فى القرن الثانى عشر . ونشأت هذه المواسم فى مدينة تروای فى القرن الخامس الميلادى ، ثم اضمحل شأنها حين انتزع فليب الرابع (١٢٨٥ — ١٣١٤) شمبانيا من أمرائها المستنيرين ففرض عليها من المكوس والنظم ما أفقرها ؛ فلما كان القرن الثالث عشر حلت محلها الثغور والتجارة البحرية .

وكان بناء السفن والملاحة قد تحسنا تحسناً بطيئاً منذ أيام الرومان ، فقد كان لمئات من المدن الساحلية منارات حسنة لإرشاد السفن ، وكان لكثير منها — كالقسطنطينية ، والبندقية ، وجنوى ، ومرسيليا ، وبرشلونة — أحواض واسعة . وكانت السفن فى العادة ذات سطح واحد أو لا سطح لها على الإطلاق ، وكانت حمولتها حوالى ثلاثين طنا ؛ وكان فى مقدورها لصغر حجمها وقلة حمولتها أن تسير صعداً فى الأنهار مسافات بعيدة ؛ ولهذا كان فى مقدور سفن المحيطات أن تصل إلى أمثال مدائن نربونه Narbonne ، وبوردو ، ونانت Nantes ، ورون ، وبروج ، وبرمن ، وإن كانت بعيدة بعض البعد عن البحار ؛ ولهذا أضحت هذه المدن ثغوراً مزدهرة . وكانت بعض سفائن البحر المتوسط أكبر حجما من السفن السالفة الذكر ، تحمل ستمائة طن وتتسع لألف وخمسمائة راكب[٢] . وقد أهدت البندقية إلى لويس التاسع سفية يبلغ طولها مائة قدم وثمانى أقدام ، وعدد بحارتها مائة وعشرة . وكان الطراز السائد لايزال هو الطراز القديم ذا الكوثل المزخرف ، والسارية أو الساريتين ، والشراع أو الشراعين ، والهيكل المنخفض ذى الصفين أو الثلاثة الصفوف من المجاذيف ، وقد يصل عددها إلى مائتى مجذاف . وكان معظم المجذفين رجالا أحراراً متطوعين لأن البحارة العبيد كانوا قليلى العدد فى العصور الوسطى[٣] . وتقدم فن إدارة الشراع إلى الريح الذى كان معروفاً فى القرن السادس تقدماً بطيئاً حتى القرن الثانى عشر حين أضيفت إلى الشراع المربع القديم أشرعة أمامية وخلفية[٤] ، ولكن القوة المحركة الرئيسية ظلت هى المجاذيف كما كانت قبل . وظهرت البوصلة البحرية ، التى لا تعرف بدايتها على وجه التحقيق[*] ، فى سفن المسيحيين حوالى عام ١٢٠٠ . وجعل الملاحون الصقليون استعمالها مستطاعاً فى المياه الهائجة بتثبيت

(*) ربما كانت نشأتها فى أوربا ؛ انظر مجلة اسيكيولوم Speculum عدد إبريل سنة ١٩٤٠ ص ١٤٦ .

الإبرة الممغطسة فوق قطب متحرك[٥] ، ومع هذا فقد مرت مائة عام بعد هذا الاختراع قبل أن يجرؤ الملاحون ـ عدا أهل الشمال ـ على الابتعاد عن الأرض وتسيير السفن وسط البحار الواسعة . وكانت الملاحة المحيطية من ١١ فبراير إلى ٢٢ نوفمبر عملا اثتنائياً ، فقد كانت محرمة على سفن العصبة الهانسية Hansetic League ، وكانت سفائن البحرين المتوسط والأسود تقف فى هذه الفترة . وظلت الأسفار البحرية بطيئة كما كانت فى الزمن القديم ، فكان اجتياز المسافة من مرسيليا إلى عكا يتطلب خمسة عشر يوماً ، ولم تكن الأسفار البحرية توصف لشفاء الأمراض، وكانت البحار موبوءة بالقرصان ، وكثيراً ما كانت السفن تتحطم أثناء سفرها ، ولم تكن أقوى البطون تنجو من الاضطراب ؛ ويحدثنا فروسار Froissart أن سير هرڤيه ده ليون Sir Hervé de Léon ظل يتخبط على ظهر السفينة خمسة عشر يوماً بين سوثمبتن Southampton وهارفلير Harflur ، وأنه اعتل إلى حد لم يستطع بعده أن يستعيد صحته[٦] . وكان يعوض المسافرين عن هذه المتاعب بعض التعويض أن أجور السفر كانت قليلة ، فقد كان أجر عبور القناة الإنجليزية (بحر المانش) ستة بنسات فى القرن الرابع عشر ، وكانت أجور نقل البضائع والأسفار البعيدة تتناسب مع هذا الأجر القليل ، ولهذا امتاز النقل البحرى على البرى امتيازاً تبدلت بسببه خريطة أوربا السياسية فى القرن الثالث عشر .

ولما استرد الصليبيون سردانيه (١٠٢٢) وقورسقة (١٠٩١) من المسلمين فتح مضيق مسينا ، والبحر المتوسط للملاحة الأوربية ، كما استردت الحرب الصليبية الأولى جميع الثغور الجنوبية الواقعة على هذا البحر إلا القليل منها . فلما تحررت التجارة من هذه القيود ربطت أوربا بشبكة من الطرق التجارية لم تقتصر نتيجتها على اتصالها بالمسيحيين فى آسية ، بل شملت كذلك اتصالها ببلاد المسلمين فى أفريقية وآسية ،ثم امتدت إلى أبعد من هذا ، إلى بلاد الهند والشرق

الأقصى . فقد كانت المتاجر تحمل من الصين أو الهند ، وتجتاز التركستان ، وفارس ، والشام إلى موانى سوريا وفلسطين ؛ أو تخترق بلاد المغول إلى بحر الخزر ونهر الفلجا ، أو تنقلها إلى الخليج الفارسى ، ثم تسير صعدا فى نهر الفرات أو دجلة ، ثم تجتاز الجبال والصحراوات إلى البحر الأسود ، أو بحرر الخزر ، أو البحر المتوسط ؛ أو تسير السفن فى البحر الأحمر ثم تنقل بالقنوات أو القوافل إلى القاهرة أو الإسكندرية . وكانت التجارة — ومعظمها فى القرن الثالث عشر تجارة مسيحية — تنتشر من ثغور أفريقية الإسلامية إلى آسية الصغرى وبيزنطية ، أو إلى جزائر قبرص ، وردوس ، وكريت (إقريطش) ؛ أو إلى ثغور سلانيك ، وبيرية ، وكورنثة ، وپتراس ؛ أو إلى صقلية ، وإيطاليا ، وفرنسا ، وأسپانيا . وكانت القسطنطينية تضيف بضائعها الكمالية إلى هذا التيار الجارف ، وتغذى التجارة الصاعدة فى نهر الدانوب والدنيپر إلى أوربا الوسطى ، والروسيا ، ودول البحر البلطى . واستولت مدائن البندقية ، وپيزا ، وچنوى على التجارة الغربية البيزنطية ، وحاربت كما يحارب المتوحشون لكى تكون للمسيحيين السيادة على البحار .

وكان مركز إيطاليا بين الشرق والغرب ، موغلة فى البحر المتوسط ، وثغورها المتجهة إلى البحر فى ثلاث جهات مختلفة ، وبلدانها المشرفة على ممرات جبال الألب ، مما يسر لها الاستفادة أكثر من سائر الأقطار من تجارة أوربا مع بيزنطية ، وفلسطين ، وبلاد المسلمين . فقد كان لها على البحر الأدرياوى مدائن البندقية ، وراڤنا ، وريميني ، وأنكونا ، وبارى ، وبرنديزى ، وتارنتو ؛ وكان لها فى الجنوب كروتون (أقروطونة) ؛ وكان لها على الساحل الغربى رچيو ، وسلرنو ، وأملفى ، ونابلى ، وأستيا ، وپيزا ، ولوكا ، وكانت هذه تنقل تجارة غنية واسعة ؛ وكانت فلورنس المركز المصرفى لهذه التجارة تسيطر على شئونها المالية . وكان نهر الأرنو والپو ينقلان بعض هذه التجارة فى داخل البلاد إلى مدائن پدوا ،

وفرارا ، وكرمونا ، وپياسنزا ، وباڤيا . وكانت رومة تستولى على الإتاوات والعشور من سكان أوربا الأتقياء إلى كنائسها وأضرحتها ؛ وكانت سينا Siena ، وپولونيا تقعان عند ملتقى الطرق الداخلية الكبرى الكثيرة الإنتاج ؛ وكانت ميلان ، وكومو ، وبريشيا ، وڤيرونا ، والبندقية تجمع فى أحجارها ثمار التجارة تتنقل فوق جبال الألب من حوضى الدانوب والرين ؛ وكانت جنوى تسيطر على البحر الترهينى ، كما كانت البندقية تتحكم فى البحر الأدرياوى . وكان أسطول جنوى التجارى يتألف من مائتى سفينة عليها عشرون ألفاً من البحارة ، وكانت ثغورها التجارية تمتد من قورسقه إلى طربزون . وكانت جنوى تتجر بكامل حريتها مع بلاد المسلمين كما تتجر معها البندقية وپيزا ؛ كانت البندقية تتجر مع مصر ، وپيزا مع بلاد تونس ، وجنوى مع أفريقية وأسپانيا الإسلاميتين ؛ وكانت كثير من هذه المدن الإيطالية تبيع الأسلحة للمسلمين فى أيام الحروب الصليبية ، وكان البابوات الأقوياء أمثال إنوسنت الثالث يندّدون بالتجارة أيا كانت مع المسلمين ؛ ولكن الذهب كان أقوى أثراً من الدين أو الدم المراق ، ولهذا ظلت « التجارة المحرمة » تجرى فى مجراها العادى(٧) .

واضمحلت جنوى من جراء حروبها مع البندقيـــة ، وتطلعت ثغور فرنسا الجنوبية وأسپانيا الغربية إلى نصيب من تجارة البحر المتوسط ؛ واستعادت مرسيليا إلى حين ما كان لها فى سابق أيامها من تفوق بعد أن كسدت تجارتها أيام سلطان المسلمين ، ولكن منبلييه أخذت فى خلال القرن الثانى عشر تنافسها فى أن تكون باب فرنسا الجنوبى مدفوعة فى هذه المنافسة بسكانها المختلفى الأجناس وثقافتها المتعددة الأصول — غالية ، وإسلامية ، ويهودية . وأفادت برشلونة من أهلها الذين ينتمى بعضهم إلى الأسر التجارية اليهودية القديمة التى بقيت فيها بعد أن استردت من المسلمين . وإذا كانت جبال البرانس تفصل أسپانيا المسيحية عن سائر أوربا فقد وجدت فى هذه المدينة وفى بلنسية وسيلة

للاتصال بعالم البحر المتوسط . وكانت ثغور قادس ، وبوردو ، ولاروشل ، ونانت ترسل سفنها لتسير بإزاء ساحل المحيط الأطلنطى إلى رون ، ولندن ، وبروج ؛ كما كانت جنوى فى القرن الثالث عشر ، والبندقية فى عام ١٣١٧ ترسلان سفنهما إلى هذه الثغور الأطلنطية كلها مخترقة مضيق جبل طارق ؛ وقبل أن يحل عام ١٣٠٠ كانت التجارة التى تعبر جبال الألب قد نقصت ، وأخذت تجارة المحيط الأطلنطى تسمو بأم هذا المحيط إلى تلك الزعامة التى ضمنها لها كولمبس فيما بعد .

وأثرت فرنسا من أنهارها وهى الحبال السائلة التى تربط بها التجارة الأقاليم الواقعة على شطآنها وتوحدها . وبفضل هذه الأنهار — الرون ، والجارون ، واللوار ، والساؤون ، والسين ، والواز Oise ، والموزل ازدهرت تجارتها وأخصبت حقولها ، ولم يكن فى وسع بريطانيا وقتئذ أن تنافسها ، ولكن الثغور الخمسة الواقعة على القناة الإنجليزية كانت ترحب بالسفن والبضائع الأجنبية . وكان نهر التامز عند لندن محاطاً منذ ذلك العهد البعيد بأحواض السفن المتجاورة الممتدة على شاطئيه ، وكانت تصدر منها المنسوجات ، والصوف ، والقصدير لتستورد بأثمانها التوابل من بلاد العرب ، والحرير من الصين ، والفراء من الروسيا ، والخمور من فرنسا . وكان أنشط من هذه كلها وأنشط من أى ثغر فى أوربا الشمالية مدينة بروج العاصمة التجارية والمنفذ الخارجى لبلاد فلاندرز بغلاتها الزراعية والصناعية . وعند هذه المدينة كان يتقاطع محورا التجارة الأوربية المحور الشرقى الغربى والمحور الشمالى الجنوبى ، كما كانا يتقاطعان عند البندقية وجنوى . وكان موقعها القريب من شاطئ بحر الشمال والمقابل لإنجلترا ، مما يسر لها استيراد الصوف الإنجليزى لينسج على الأنوال الفلمنكية والفرنسية . وكانت إلى هذا بعيدة فى الداخل بعداً يجعل ثغرها مأوى أميناً للسفن . ولهذا اجتذبت إليها أساطيل جنوى والبندقية وفرنسا القريبة ، وسمحت لهذه المدن بأن توزع بضائعها بمائة طريق وطريق على الثغور

الأصغر منها . ولما أن ازداد النقل البحرى أمناً ورخصاً ، اضمحلت التجارة البرية ، وحلت بروج محل المدن ذات المواسم التجارية ، فأضحت السوق التى تلتقى فيها التجارة الأوربية ؛ فكانت حركة النقل الثقيل على أنهار الموز Meuse ، والشلد Scheldt والرين تحمل إلى بروج بضائع ألمانيا الغربية وفرنسا الشرقية لتصدر منهما إلى الروسيا ، واسكنديناوة ، وإنجلترا ، وأسبانيا . وانتعشت بلدان أخرى بفضل هذه التجارة النهرية نذكر منها ڤلنسين Valencienne ، وكمبريه Cambrai ، وثورنيه Tonrai ، وغنت Gnent ، وأنتورب (أنفرس) Antwerp الواقعة على نهر الشلد ؛ ودينان Dinant ، ولييج Liége ، ومسترخت Maestricht على نهر الموز .

وكانت بروج أشهر مدائن القسم الغربى من العصبة الهانسية ، وكان منشأ هذه العصبة وأمثالها أن المدائن التجارية فى أوربا الشمالية ألفت من بينها فى القرن الثانى عشر أحلافاً مختلفة سماها الألمان هانسات Hanses أى اتحادات أو نقابات ، تهدف إلى تشجيع التعاون الدولى ضد المنافسة الخارجية ، وإقامة هيئات متجانسة من التجار البعيدين عن أوطانهم ، وحماية أنفسهم من القراصنة ، وقطاع الطرق ، وتقلب العملة ، والمدينين المماطلين ، وجباة الضرائب ، والمكوس الإقطاعية .

وكونت لندن ، وبروج ، وإيبر ، وترواى ، وعشرون مدينة أخرى « اتحاد لندن » ؛ وانضمت لوبك ، التى أسست فى عام ١١٥٨ لتكون مرقباً خارجيا للحرب والتجارة الألمانيتين مع اسكنديناوة ، إلى هامبرج (١٢١٠ ، وبروج (١٢٥٢)(*) فى اتحاد مشابه لهذا ، انضمت إليه فيما بعد دانزج ، وبرمن ، ونفجورود ، ودوربات Dorpat ، ومجدبرج ، وثورن Thorn ، وبرلين ، وڤزبى Visby ، واستوكهولم، وبرجن Bergen ، ولندن ؛

(*) ربما كان هذا التاريخ هو بداية العصبة الهانسية ، وإن كان هذا الاسم لم يطلق عليها إلا فى عام ١٢٧٠ .

وبلغ هذا الاتحاد عنفوانه فى القرن الرابع عشر ، وكان يضم وقتئذ اثنتين وخمسين بلدة ، ويشرف على مصاب جميع الأنهار الكبرى — الرين ، والويزر Weser ، والإلب ، والأودر ، والفستيولا — التى تنقل غلات أوربا الوسطى إلى بحر الشمال والبحر البلطى ؛ وكان هذا الحلف يسيطر على تجارة أوربا الشمالية من رون إلى نفجورود ؛ وظل مدة طويلة يحتكر مصايد الرنجة فى البحر البلطى وتجارة القارة الأوربية مع إنجلترا . ولقد أنشأ الحلف محاكم للفصل فيما يشجر بين أعضائه من نزاع ، والدفاع عنهم فيما يقام عليهم من قضايا من البلدان الخارجة عنه ، وكان فى بعض الأحيان يحارب بوصفه سلطة مستقلة . وقد سن الحلف قوانين لتنظيم العمليات التجارية بل والسلوك الأخلاقى بين أعضائه مدناً كانوا أو رجالا ؛ وكان يحمى التجار المنظمين إليه من الشرائع الاستبدادية ، والضرائب والغرامات غير القانونية ؛ ويفرض على أعضائه مقاطعة المدن التى تسىء إليه ، ويعاقب المماطلين فى الدفع ، والمخلين بالأمانة ، والمشترين بضائع مسروقة . وأنشأ محطة تجارية فى كل مدينة منضمة إليه ، وجعل تجاره خاضعين لقوانينه الألمانية أينما ذهبوا ، وحرم عليهم الزواج من الأجنبيات .

وظلت العصبة الهانسية قرناً من الزمان عاملا من عوامل الحضارة ، فقد طهرت البحر البلطى وبحر الشمال من القراصنة ، ونظفت المجارى المائية ؛ وعدلتها فجعلتها مستقيمة ، ورسمت خرائط للتيارات البحرية والمد والجزر ، وأبانت عليها موضع القنوات ، وأنشأت المنارات البحرية ، والثغور ، والقنوات ، وسنت القوانين البحرية وجمعتها فى كتب ؛ وجملة القول أنها أحلت النظام مكان الفوضى فى تجارة أوربا الشمالية . ولقد ضمت هذه العصبة طبقة التجار ، وألفت منهم هيئة قوية فحمت بذلك الطبقة الوسطى من الأشراف ، وعملت على تحرير المدن من سادة الإقطاع ؛ وليس أدل على قوتها من أنها قاضت ملك فرنسا لأن جنوده أتلفوا بضائع العصبة ، وأرغمت ملك إنجلترا على أن يؤدى ما يلزم من النفقات

لإقامة الصلوات طلباً لنجاة أرواح تجار العصبة الهانسية الذين أغرقهم الإنجليز[٨] . وبفضل هذه العصبة انتشرت تجارة الألمان ولغتهم وثقافتهم نحو الشرق إلى بروسيا ، وليفونيا Livonia ، وإستونيا Estonia ، ورفعت بلدان كونجزبرج Königsburg ، وليباو Libau ، وميمل Memel ، وريجا Riga إلى مصاف المدن الكبرى . وكانت العصبة تتحكم فى أثمان البضائع التى يتجر فيها أعضاؤها وأوصافها ، وبلغ اشتهار أعضائها بالاستقامة أن استخدم الإنجليز لفظ Easterlings أى (رجال الشرق) بمعنى « نقى أوصاف » وأن أضيف بهذا المعنى إلى لفظى فضة أو ذهب بمعنى موثوق به أو صادق .

ولكن العصبة الهانسية أضحت على مر الزمن عاملا من عوامل الاستبداد والحماية معاً ؛ فقد أسرفت فى فرض القيود الاستبدادية على استقلال أعضائها ، وأرغمت المدن على الانضمام إليها باستخدام سلاح المقاطعة تارة وبالعنف تارة أخرى ، وقاومت المدن والأحلاف المنافسة لها بجميع الوسائل الطيبة منها والخبيثة ، ولم تتورع عن استئجار القراصنة للإضرار بتجارة أولئك المنافسين ؛ وبلغ من أمرها أن نظمت لها جيوشاً خاصة ، وأقامت من نفسها دولة داخل كثير من الدول ؛ وبذلت كل ما فى وسعها للضغط على طبقة الصناع التى تستمد منها بضائعها وظلم هذه الطبقة ، ولهذا أصبح الكثيرون من العمال وغيرهم من الناس يخشونها ويحقدون عليها ، ويرون أنها أقوى وسيلة من وسائل الاحتكار قيدت بها التجارة فى أى وقت من الأوقات . ولما أن ثار العمال فى إنجلترا عام ١٣٨١ طاردوا كل المنضمين إلى العصبة الهانسية ، واقتفوا آثارهم فى أماكن العبادة داخل الكنائس ، وقتلوا كل من لم يستطيعوا النطق بلفظى Cheese Bread (الخبز والجبن) بلهجة إنجليزية[٩] .

واستولت العصبة فى عام ١١٦٠ على جزيرة جتلاند Gotland التابعة

للسويد واتخذت فزبى قاعدة وحصنا لتجارة البحر البلطى ، وأخذت بعدئذ عقداً بعد عقد ، تبسط سيطرتها على تجارة الدنمرقة ، وبولندا ، والنرويج ، والسويد ، وفنلندة ، والروسيا . وعلى سياسة تلك البلاد ، حتى قال آدم البرمنى Adam of Bremen : إن تجار العصبة الهانسية فى القرن الثالث عشر « بلغوا من الكثرة مبلغ روث البهائم . . . وكانوا يبذلون من الجهد للحصول على جلد طير الغطاس كأن فى هذا الجلد نجاتهم إلى أبد الدهر »[١٠] . واتخذ هؤلاء التجار مقرهم فى نفجورود القائمة على نهر فلخوف Volkhov ، وأقاموا فيها بوصفهم حامية تجارية مسلحة ، واتخذوا كنيسة القديس بطرس مخزناً لبضائعهم ، وأحاطوا مذبحها بدنان الخمر ، وأقاموا على هذه المخازن حراسة أشبه بحراسة الكلاب المتوحشة ، وعنوا فى أثناء ذلك بأداء جميع ما يتطلبه التقى والصلاح من الشعائر الدينية[١١] .

ولم تقنع العصبة بهذا بل وجهت أفكارها نحو السيطرة على تجارة نهر الرين ، وأرغمت كولونى على الخضوع لها مع أنها كانت صاحبة عصبة مستقلة . أما فى جنوب تلك المدينة فقد وقفت فى وجهها عصبة الرين المؤلفة فى عام ١٢٥٤ من كولونى ، ومينز ، واسپير Speyer ، وورمز ، واسترسبرج ، وبازل . وفى جنوب هذه المدائن كانت أجزبرج Augsburg ، وألم Ulm ، ونورمبرج Nuremberg تقوم بالتجارة الآتية من إيطاليا ؛ ولا نزال حتى اليوم نرى فى البندقية مستوع هذه التجارة المسمى Fondaco de Fedeschi القائم على القناة الكبرى . وقامت رجنزبرج Regensburg وثينا على الطرف الغربى لنهر الدانوب ، ذلك الشريان العظيم الذى كان يحمل غلات الأجزاء الداخلية من ألمانيا إلى بحر إيجة عن طريق سلانيك ، أو إلى القسطنطينية والروسيا والبلاد الإسلامية وبلاد الشرق عن طريق البحر الأسود . وهكذا دارت التجارة الأوربية الداخلية دورة كاملة ، وعمت التجارة الخارجية فى العصور الوسطى كل مكان .

ترى أى صنف من الناس كان أولئك التجار الذين كانوا يرسلون بضائعهم فى هذه الطرق مجتازة أرضين كثيرة متباينة يسكنها أقوام ذوو وجوه مرتابة ولغات غريبة وعقائد متحاسدة متباغضة ؟ لقد كان أولئك التجار ينتمون إلى شعوب مختلفة ويأتون من بلاد كثيرة متباينة ، ولكن عدداً كبيراً منهم كان من الشوام ، واليهود ، والأرمن ، واليونان . وقلما كانوا من صنف رجال الأعمال الذين نعرفهم اليوم رجالا آمنين جالسين خلف مكاتبهم فى مدنهم ؛ بل كانوا فى العادة ينتقلون فى البلدان مع بضائعهم ؛ وكثيراً ما كانوا يقطعون مسافات طويلة ليبتاعوا بأرخص الأثمان ما يحتاجونه من البضائع من الأماكن التى تكثر فيها ، ثم يعودون ليبيعوها غالية فى البلدان التى يندر فيها وجودها . وكانوا فى العادة يشترون ويبيعون بالجملة en gross كما يقول الفرنسيون . وقد ترجم الإنجليز لفظ grosser إلى groccr ثم أطلقوا اللفظ بهذه الصيغة grocer على من يبيع التوابل بالجملة[١٢] . وكان التجار خلائق مغامرين ، ومرتادين ؛ وفرسانُ القوافل مسلحين بالخناجر والرشا ، متأهبين للقاء قطاع الطرق ، والقراصنة ، وآلاف مؤلفة من البلايا والمحن .

وربما كان أشد ما يضايقهم هو اختلاف الشرائع وتعدد جهات التقاضى ، وكان من أهم أعمالهم وضع قانون دولى للتجارة والملاحة يتقدم على مر الأيام . لقد كان التاجر إذا سافر برا يخضع إلى قضاء محكمة جديدة ، وربما خضع إلى قوانين مختلفة فى أملاك كل سيد إقطاعى ، وكان من حق هذا السيد أن يستولى على بضائعه إذا سقطت على الأرض فى الطريق ، وإذا جنحت سفينته أصبحت بمقتضى « قانون التحطيم » من حق السيد الذى جنحت عند ساحل أرضه ؛ وكان مما يفتخر به أحد السادة البريطانيين أن صخرة خطرة فى ساحل بلاده كانت أثمن درة فى تاجه[١٣] . وظل التجار يقاومون هذا الظلم الصارخ عدة قرون حتى بدءوا يلغونه تدريجا فى القرن الثانى عشر . وكان التجار اليهود

الدوليون قد جمعوا فى هذه الأثناء طائفة من القوانين المتجارية يسيرون على هديها ؛ وأصبحت هذه النظم فيما بعد أساس القانون التجارى فى القرن الحادى عشر(١٤) . وأخذ هذا القانون التجارى ينمو عاماً بعد عام بما يضاف إليه من الأوامر التى يصدرها النبلاء أو الملوك لحماية التجار أو الزوار القادمين من الدول الأجنبية ؛ وأنشئت محاكم خاصة لتنفيذ القانون التجارى ؛ ومما هو خليق بالذكر أن هذه المحاكم قد أغفلت ضروب الإثبات والمحاكمات القديمة كالتعذيب ، والمبارزة ، والتحكيم الإلهى .

وكان التجار الأجانب قد حصلوا منذ القرن السادس الميلادى بمقتضى قوانين القوط الغربيين على حقهم فى أن يحاكموا فى المنازعات الخاصة بهم وحدهم أمام مندوبين من بلادهم ؛ وهكذا بدأ النظام القنصلى الذى تقيم الأمة التجارية حسب نصوصه « قناصل » لها فى خارج بلادها أى مستشارين لحماية مواطنيها ومساعدتهم . ولقد أنشأت جنوى قنصلية لها من هذا النوع فى عكا عام ١١٨٠ ، وحذت المدن الفرنسية حذوها فى هذا العمل فى أثناء القرن الثانى عشر ؛ وكان ما عقد من الاتفاقات لتبادل هذه الحقوق القنصلية من خير المصادر التى استمد منها القانون الدولى فى العصور الوسطى .

وكان قدر من القانون البحرى قد ظل قائماً من العهود القديمة ؛ فلم يمح هذا القانون قط بين تجار رودس المستنيرين ، بل كان من أقدم الشرائع البحرية « قانون أهل رودس » الصادر فى عام ١١٦٧ . وأصدرت قوانين أوليرون Lois d'Olèron فى أواخر القرن الثانى عشر جزيرة* فى البحر قرب ساحل بوردو لتنظيم تجارة الخمور ثم أخذتها عنها فرنسا وفلاندرز ، وإنجلترا . ونشرت العصبة الهانسية قانونا مفصلا فى القواعد والنظم البحرية يسير عليه أعضاؤها : وقد نص فيه على ما يجب اتخاذه من الاحتياطات لضمان سلامة الركاب والبضائع ، وعلى الحقوق التى يتمتع بها الناجون ومن ينجونهم وواجبات ربابنة السفن وملاحيها

وأجورهم ، والشروط التي يصح للسفينة التجارية أو يجب عليها بمقتضاها أن تتحول إلى سفينة حربية . وكانت العقوبات المقررة في هذه القوانين صارمة ، ولكن يلوح أن هذه الصرامة كانت واجبة لتثبيت التقاليد والعادات الخاصة بالأنظمة البحرية ، وبث الثقة بها والاعتماد عليها في قلوب الخاضعين لها : ذلك أن العصور الوسطى قد ظلت تؤدب الناس عشرة قرون ليظل أهل هذا الزمن الحديث أحراراً أربعمائة عام .

الفصل الثانى

تقدم الصناعة

تقدمت الصناعة بنفس الخطا التى اتسع بها نطاق التجارة ؛ ذلك أن اتساع الأسواق زاد الإنتاج ، وزيادة الإنتاج أنعشت التجارة .

غير أن وسائل النقل كانت أقل العوامل تقدما ، فقد كانت معظم الطرق الرئيسية فى العصور الوسطى مليئة بالأتربة ، والأقذار ، والأوحال ؛ ولم تكن هناك قنوات أو برابخ تنقل الماء من الطرق ، ولهذا كثرت فيها الحفر والبرك ؛ وكانت المخاضات كثيرة والقناطر قليلة : وكانت الأحمال تنقل على ظهور البغال أو الخيل ولا تنقل فى العربات لأن العربات يصعب عليها تجنب الحفر كما تتجنبها دواب الحمل . وكانت عربات الركوب كبيرة سمجة عجلاتها ذات إطار من حديد غير ذات مرونة(١٥) ؛ ولهذا كانت هذه العربات غير مريحة مهما تكن زينتها ، ومن أجل ذلك فإن الناس رجالا كانوا أو نساء كانوا يفضلون ركوب الخيل منفرجة سيقانهم ذكوراً وإناثاً على الجانبين . وقد ظلت العناية بالطرق حتى القرن الثانى عشر موكولة إلى أصحاب الأملاك المجاورة لها ، ولم يكن هؤلاء الملاك يدركون كيف يطلب إليهم أن ينفقوا المال على إصلاح الطرق التى ينتفع المارون بها أكثر مما ينتفع بها سواهم . وحذا فردريك الثانى فى القرن الثالث عشر حذو المسلمين والبيزنطيين فأمر بإصلاح طرق صقلية وجنوبى إيطاليا ، وأنشئت فى هذا الوقت عينه أولى « الطرق الكبرى الملكية » بتثبيت مكعبات حجرية فى الثرى المفكك أو الرمال ، وشرعت المدن فى هذا القرن نفسه ترصف شوارعها الرئيسية ، وأنشأت مدائن فلورنس ، وباريس ، ولندن ، والمدن الفلمنكية قناطر غاية فى الجودة ، كذلك نظمت الكنيسة فى القرن الثانى عشر هيئات أخوية دينية لإصلاح

القناطر وتشييدها ، وعرضت على من يشتركون فى هذا العمل الغفران من الذنوب . وكان إخوان الجسور Frères pontifs هم الذين أنشأوا جسر أفنيون الذى لا يزال محتفظا بأربع عقود من صنع أيديهم . وبذلت بعض طوائف الرهبان لا سيما الرهبان البندكتيين جهوداً كبيرة للمحافظة على الطرق والجسور ؛ وظل ملك إنجلترا ورجال الدين فيها ومواطنوها فيما بين عامى ١١٧٦ و ١٢٠٩ يقدمون أموالهم أو جهودهم الجسمية لإنشاء جسر لندن ، وقامت فوق هذا الجسر بيوت وكنيسة صغيرة ، وكان الجسر يقوم فوق عشرين عقداً من الحجر يعبر عليها نهر التاميز ؛ وأقيمت فى بداية القرن الثالث عشر أولى القناطر المعلقة المعروفة فوق خانق فى ممر سان جوثار St. Gothard بجبال الألب .

وكانت المسالك المائية أكثر ما يستخدمه الناس فى النقل ، فأصبحت لذلك ذات شأن عظيم فى نقل البضائع لأن الطرق البرية كانت كثيرة المتاعب ، فقد كانت السفينة الواحدة تحمل ما تحمله خمسمائة دابة ، وكانت إلى هذا أقل نفقة من الدواب ، ومن أجل ذلك كانت أنهار أوربا المنتشرة من نهر التاجه Tagus إلى الفلجا Volga من أهم مسالكها العامة ، وكان اتجاه هذه الأنهار ومصابها العامل الرئيسى فى انتشار السكان ، ونمو المدن ، بل والسياسة العسكرية للأمم فى كثير الأحيان . وكانت القنوات لا حصر لها وإن كانت الأحواض غير معروفة .

وكان السفر بالبر والبحر على السواء شاقا بطيئاً ، فكان انتقال الأسقف من كنتربرى إلى رومة يتطلب تسعة وعشرين يوماً . وكان فى وسع حملة الرسائل إذا استبدلوا الخيل فى مراحل الطريق أن يجتازوا مائة ميل فى اليوم الواحد ؛ ولكن الرسل الخصوصيين كانوا يكلفون كثيراً ، ولهذا كان البريد (الذى أعيد فى إيطاليا فى القرن الثانى عشر) مقصوراً فى العادة على الأعمال الحكومية ، وكانت عربات عامة حافلة تسير بانتظام فى أماكن متفرقة من القارة كالعربات التى كانت تسير بين لندن وونشستر . وكانت الأخبار بطيئة الانتقال شأنها فى هذا

شأن الرجال ؛ مثال ذلك أن نبأ موت بربرسا فى قليقية لم يصل إلى ألمانيا إلا بعد أربعة أشهر(١٦) . ولهذا كان فى وسع الرجل فى العصور الوسطى أن يتناول فطوره من غير أن تزعجه مصائب العالم التى يجد الناس فى جمعها ؛ وكان من حسن حظه أن ما يصله من أخبار هذه المصائب قد بلغ من قدم العهد حداً لا يستطاع معه علاجه .

وخطا الناس بعض خطوات فى تسخير القوى الطبيعية واستخدامها لمنفعتهم . وشاهد ذلك أن « كتاب يوم الحشر » يسجل وجود خمسة آلاف طاحونة مائية فى إنجلترا فى عام ١٠٨٦ ، وثمة رسم باق من عام ١١٦٩ يصور عجلة مائية يضاعف دوراتها البطيئة ويزيد سرعتها عدد من التروس المتعاقبة المدرجة فى الصغر(١٧) . وبفضل هذا الازدياد فى السرعة أضحت العجلة المائية أداة رئيسية من أدوات الصناعة ؛ وأخذت تنتشر فى بلاد أوربا المختلفة ، فظهرت فى ألمانيا عام ١٢٤٥ آلة مائية لنشر الخشب تدار بالماء(١٨) ؛ وكانت آلة أخرى فى دويه Douoi (١٣١٣) تستخدم لصنع الآلات الحادة ؛ وانتشرت الطواحين الهوائية ، التى عرفت لأول مرة فى أوربا الغربية عام ١١٠٥ ، انتشاراً سريعاً بعد أن شاهد المسيحيون سعة انتشارها فى بلاد الإسلام(١٩) ، فقد كان فى إيبر Ypres وحدها مائة وعشرون من هذه الطواحين فى القرن الثالث عشر .

وكان تحسن أدوات العمل وازدياد حاجات الناس عاملا هاما فى تشجيع أعمال التعدين التى نهضت وقتئذ نهضة فجائية عظيمة . من ذلك أن حاجة التجارة إلى عملة ذهبية موثوق بها ، وقدرة الناس المتزايدة على إشباع شهوتهم فى لبس الحلى قد أديا إلى تجدد العمل فى استخراج التبر بغسل طين الأنهار ، ومن العروق المعدنيـــة فى إيطاليا ، وفرنسا ، وإنجلترا ، والمجر ، ومن ألمانيا بنوع خاص . وكشف حوالى عام ١١٧٥ عروق غنية للنحاس الأحمر ، والفضة ، والذهب فى إرز جيبرج Erz Gebirge (أى جبال المعدن) ؛ وعلى أثر هذا الكشف هرع الناس

إلى فرايبرج Freiberg ، وجسلار Goslar ، وأنابرج Annaberg كما هرعوا إلى أمريكا بعد كشفها ؛ وأطلق اسم بلدة يواقيمثالر Joachimsthaler الصغيرة على النقود التي تسك فيها ، ثم اختصر هذا اللفظ اختصاراً تحتمه كثرة الاستعمال واشتق منه كلمة ثالر thaler الألمانية وكلمة دولار Dollar الإنجليزية[٢٠] ؛ وأضحت ألمانيا بعدئذ أكبر مورد للمعادن الثمنية إلى أوربا ، وكانت مناجمها هي الأساس الذي قامت عليه قوتها السياسية ، كما كانت تجارتها هي الإطار الذي حدد هذه القوة . فقد كان الحديد يستخرج من جبال هارز Harz ومن وستفاليا Westphalia ، والأراضي الوطيئة ، وإنجلترا ، وفرنسا ، وأسبانيا ، وصقلية ، وعاد الناس مرة أخرى إلى استخراجه من جزيرة إلبا . وكان الرصاص يستخرج من دربي شير Derbyshire ، والقصدير من ديفون ، وكورنوول ، وبوهيميا ؛ والزئبق والفضة من أسبانيا ، والكبريت والشب من إيطاليا ، واشتق اسم سلزبرج Salzburg من طبقاتها الملحية العظيمة . وعاد الإنجليز في القرن الثاني عشر إلى استخراج الفحم الذي كان يستخدم في بلادهم أيام الرومان ثم أهمل — كما يلوح — في عهد السكسون ، ومما يدل على كثرة استخراجه أن الملكة إليانور غادرت قصر نتنجهام في عام ١٢٣٧ لكثرة الدخان المتصاعد من الفحم الذي يحرق في المدينة القائمة عند أسفله ، وأن لندن حرمت استعمال الفحم لأن الدخان كان يسمم المدينة — ذلك مثل من العصور الوسطى لإحدى المصائب التي يظن الناس أنها من مصائب العصر الحديث[٢١] .

وكان امتلاك الرواسب المعدنية منشأ كثير من الاضطراب في القوانين . فلما أن كانت يد الإقطاع قوية في البلاد كان السيد الإقطاعي يدعي أن المعادن الموجودة في أرضه من حقه وحده ، وكان يستخرج رواسبها بأيدي رقيق أرضه . وكانت الهيئات الكنسية تدعي لنفسها مثل هذه الدعوى ، وتستخدم أرقاء الأرض ، أو العمال المأجورين في استخراج الرواسب القيمة من أراضيها . وأصدر

فردريك بربرسا قراراً ينص على أن الملك وحده صاحب جميع المعادن التى فى بلاده ، وأن هذه المعادن لا يمكن استخراجها إلا على أيدى شركات تعمل تحت إشراف الدولة(٢٢) . فلما عاد هذا الحق الملكى الذى كان متبعاً أيام أباطرة الرومان أصبح هو القانون السائد فى ألمانيا فى العصور الوسطى ؛ وسار على هذه السنة نفسها ملوك إنجلترا فادعى الملك لنفسه ملكية جميع رواسب الفضة والذهب ، أما المعادن الدنيئة فكان فى استطاعة صاحب الأرض أن يستخرجها بشرط أن يدفع عن ذلك إتاوة للملك(٢٣) .

وكان فحم الخشب هو الذى يستعمل فى صهر المعادن ، وكان كثير من الخشب يستخدم فى أفران ظلت حتى ذلك الوقت بحالتها البدائية ؛ ولكن النحاسين كانوا على الرغم من هذا يخرجون أدوات جميلة من الشَّبَه ، كما كان صناع الأدوات الحديدية فى لييج ، ونورمبرج ، وميلان ، وبرشلونة ، وطليطلة يصنعون أسلحة وأدوات حديدية ممتازة . واشتهرت أشبيلية بصلبها الجيد ، وأخذ الحديد الزهر (المصهور فى درجة ١٥٣٥° مئوية) يحل محل الحديد المطاوع الملين فى درجة ٨٠٠ مئوية) . وكانت الأدوات الحديدية كلها تقريباً تصنع قبل هذا التغيير « بالطرق » — Smiting ومن هذا اللفظ اشتق لفظ اسمث smith السكسونى أى الطارق للحداد . وكان صب الأجراس من الصناعات الهامة لأن الكنائس الكبرى وأبراج المدن كانت تتنافس فى أوزان أجراسها ، وارتفاع أصواتها ، وحسن نغماتها . وكان النحاسون يصنعون أغطية النيران Curfews أى (Couvre feus) التى يضعها الناس على نيرانهم إذا دقت أجراس المساء Curfew . واشتهرت بلاد سكسونيا بما فيها من مصاهر البرنز ، كما اشتهرت إنجلترا « بالتنك » Pewter وهو مزيج من النحاس ، والبزموت ، والأنتيمون (الإثمد) والقصدير . وكان الحديد المطاوع يستخدم فى صنع قوائم حديدية رشيقة للنوافذ ، وأخرى من الحديد المشغول لأمكنة المرتلين فى الكنائس ،

والمفصلات الضخمة ذات الأشكال المختلفة التي كانت تنتشر على الأبواب لتقويها وتزينها . وكان الحدادون والصائغون كثيري العدد ؛ وذلك لأن الذهب والفضة لم يكن يستخدمهما الناس للمباهات بمكانتهم أو لإخفائها فحسب ، بل كانا يستخدمان فوق ذلك لوقاية صاحبهما من العملة المتقصة ؛ وإعطائه في الأزمات نوعا من الثروة يستطيع تحويله إلى طعام أو سلع .

واتسع نطاق صناعة المنسوجات في القرن الثالث عشر اتساعا عظيما في فلاندرز وإيطاليا ، وكانت مؤسسات شبه رأسمالية ينتج فيها آلاف من الصناع سلعاً للسوق العامة ويجمعون المكاسب للمستثمرين الذين لا تقع عليهم أعينهم ؛ وكان لنقابة الصوف في فلورنس مصانع كبيرة يشتغل فيها تحت سقف واحد غسالون ، وقصارون ، وقزازن ، وغزالون ، وناسجون ، ومفتشون وكتبة يعملون بأدوات ، وآلات ، وأنوال لا يمتلكونها وليست لهم أية سيطرة عليها(٢٤) .

وكان المتجرون بالجملة في الأقمشة ينظمون المصانع ، ويقدمون ما يلزمها من الأدوات ، ويمدونها بالعمال ورؤوس الأموال ، ويحددون الأجور والأثمان ، وينظمون عمليتي التوزيع والبيع ، ويتحملون أخطار المغامرة ، وما ينتج عن الإخفاق من خسائر ، ويجنون ما يثمره النجاح من مكاسب(٢٥) . وكان غيرهم من أصحاب الأعمال يفضلون أن يحصلوا على المواد الغفل التي يحتاجها الأفراد أو الأسر ، ثم توزعها تلك الأسر أو هؤلاء الأفراد على التجار نظير أجر أو ثمن ، وبهذه الطريقة انضم آلاف من الرجال والنساء في إيطاليا ، وفلاندرز ، وفرنسا إلى المهن الصناعية(٢٦) ؛ ولهذا أصبحت مدائن أمين ، وبوفيه ، وليل ، ولاؤن ، وسان كنتان ، وپروڤن Provins ، وريمس ، وترواى ، وكمبريه ، وتورنيه ، ولييج ، ولوڤان Louvain مركزا عظيما لأعمال الوساطة السالفة الذكر — وفاقتها في ذلك غنت ، وبروج ، وإيبر ، ودويه واشتهرت كلها بأذواقها الفنية وثوراتها ، وأعارت لاؤن اسمها إلى شاش البطانات Lawn كما أعارت كمبريه اسمها إلى التيل

الرفيع « الكمبريك » Cambric واشتق الطراز المضلع فى النسيج diaper من اسم مدينة إيبر[٢٧] . وكان فى غنت ٢٣٠٠ نساج يعملون على الأنوال ؛ وكان فى پروفن فى القرن الثالث عشر ثلاثة آلاف ومائتان[٢٨] . وكانت لأكثر من عشر مدائن فى إيطالية صناعاتها الخاصة فى النسيج . وتخصصت نقابة الصوف فى فلورنس فى القرن الثانى عشر فى إنتاج البضائع الصوفية المصبوغة ، كما نظمت نقابة الأقمشة فى بداية القرن الثالث عشر أعمالا واسعة النطاق لاستيراد الصوف وتصدير منسوجاته ، وقبل أن يحل عام ١٣٠٦ كان فى فلورنس ٣٠٠ مصنع للنسيج كما كان فيها قبل عام ١٣٣٦ ثلاثون ألف نساج[٢٩] . وكانت چنوى تنسج المخمل اللطيف والحرير ذا الخيوط الذهبية . وأخذت ڤينا فى أواخر القرن الثالث عشر تستورد النساجين الفلمنكيين ، وسرعان ما نشأت فيها صناعة للنسيج خاصة بها . وكادت إنجلترا تحتكر إنتاج الصوف فى شمالى أوربا ؛ وكانت ترسل معظم منسوجاتها منه إلى فلاندرز . ومن أجل هذا ارتبطت هذه البلاد بعجلتها فى شئون السياسة والحرب واشتقت من اسم وورستد Worstead أسماء لأنواع مختلفة من الأقمشة الصوفية . وكانت أسبانيا تنتج نوعاً جيداً من الصوف ، وكانت أغنام المرينو التى بها مصدراً من مصادر دخلها القومى ؛

وكان العرب قد أدخلوا إنتاج الحرير ونسجه فى أسپانيا فى القرن الثامن كما أدخلوها فى إيطاليا فى القرن التاسع ، وواصلت مدائن بلنسية ، وقرطاجنة ، وأشبيلية ، ولشبونة ، وپالرمة ، ذلك الفن بعد أن أضحت بلاداً مسيحية ، واستقدم روجر الثانى النساجين اليونان واليهود من كورنثة وطيبة اليونانيتين إلى پالرمه فى عام ١١٤٧ ، وأسكنها أحد قصورها ، وبفضل هؤلاء الرجال وأبنائهم انتشرت تربية دودة القز فى جميع أنحاء إيطاليا ؛ ونظمت لوكا صناعة الحرير على نطاق رأسمالى واسع ، كانت تنافسها فيها مدائن فلورنس ، وميلان ، وچنوى ، ومودينا ،

وبولونيا ، والبندقية ؛ وتخطت هذه الصناعة جبال الألب وأنتجت صناعاً مهرة فى زيورخ ، وباريس ، وكولونى .

وكان فى ميدان صناعات العصور الوسطى مئات من مختلف الحرف الأخرى منها حرفة طلاء الآنية الخزفية بطبقة زجاجية وذلك برش سطوحها وهى مبللة بالرصاص ثم حرقها فى نار غير شديدة ؛ فإذا أرادوا أن يكون لون سطحها الأملس البراق أخضر لا أصفر أضافوا النحاس أو البرنز إلى الرصاص . ولما أضحت المبانى والنيران كثيرة الأكلاف فى مدن القرن الثالث عشر المطردة النماء حلت قطع القرميد محل السقف المصنوعة من القش ، وفرضت مدينة لندن هذا التغيير على سكانها فى عام ١٢١٢ . وما من شك فى أن الحرف المتصلة بالبناء كانت متقدمة لأن طائفة من أمتن المبانى الباقية فى أوربا الآن يرجع تاريخها إلى هذا العهد . وكان الزجاج يصنع للمرايا ، والنوافذ ، والأوانى ، ولكنه كان يصنع فى نطاق ضيق إذا قيس إلى غيره من المصنوعات ، وكانت الكنائس تحتوى على أحسن ما صنع من أنواع الزجاج أما البيوت فلم يكن فيها شىء منه . وكانت صناعة الزجاج بالنفخ معروفة فى أوربا الغربية منذ القرن الحادى عشر إن لم يكن قبله ، ولعل هذا الفن لم يختف قط من إيطاليا منذ أن بلغ ذروة مجده فى أيام الدولة الرومانية . أما الورق فقد ظل حتى القرن الثانى عشر يستورد من بلاد الشرق الإسلامية أو من أسپانيا ، ولكن مصنعاً للورق افتتح فى رافنزيرج Ravensburg بألمانيا فى عام ١١٩٠ ، وبدأت أوربا فى القرن الثالث عشر تصنع الورق من النيل . وكانت الجلود من أهم السلع فى التجارة الدولية ، كما كان دبغها منتشراً فى كافة الأنحاء . وكان صناع القفازات والسروج ، وأكياس النقود ، والأحذية والأساكفة من أبرز الناس وأكثرهم تنافساً . وكانت الفراء تستورد إلى داخل أوربا من الشمال والشرق ، وكانت من ملابس الملوك والأشراف والطبقة الوسطى .

وكانت الخمر والجعة تستخدمان بدل وسائل التدفئة المركزية ، وكانت

كثير من المدن تجنى أرباحا طائلة من احتكار البلديات لصناعة عصر الخمور ، وكانت ألمانيا فى ذلك العهد قد تزعمت العالم فى الصناعة القديمة .

ويرجع معظم رخاء مدينة همبورج فى القرن الرابع عشر إلى معاصرها الخمسمائة وإلى بيع منتجاتها ، وبقيت الصناعات بوجه عام ، إذا استثنينا منها صناعة النسيج ، فى مرحلة الصناعات اليدوية ، فكان الصناع الذين يعملون للسوق المحلية — كالخبازين ، والأساكفة ، والحدادين ، والنجارين ومن إليهم — هم المالكين لأدواتهم وثمار عملهم ، وظلوا أحرارا من الناحية الفردية . وكانت معظم الصناعات لا تزال تقوم فى بيوت العمال أو الحوانيت الملاصقة لبيوتهم ؛ وكانت كثير من الأسر تؤدى لنفسها كثيراً من الأعمال التى توكل الآن للحوانيت أو المصانع — كانت تصنع خبزها ، وتنسج ثيابها ، وتخصف نعالها : وكانت خطى التقدم فى هذه الصناعة المنزلية بطيئة ؛ وكانت الأدوات ساذجة ، والآلات قليلة ، ولم تكن دوافع المنافسة والكسب مما يحفز الناس على الإنتاج أو على استبدال القوة الآلية بالمهارة البشرية ؛ ومع هذا فلربما كان هذا النظام هو أحسن صورة من التنظيم الصناعى فى التاريخ كله : نعم إن إنتاجه كان بطيئاً ، ولكن أكبر الظن أن ما كان يبعثه فى نفوس الصناع من رضا وقناعة كان عاليا إذا قيس بغيره من العصور . فقد بقى العامل قريباً من أسرته ، وكان هو الذى يحدد ساعات عمله ويحدد بقدر ما ثمن ما يصنع ؛ وكان إعجابه بمهارته يسمو بخلقه ويبعث فيه الثقة بنفسه ؛ وكان فناناً وصانعاً معاً ؛ وكان يغتبط اغتباط الفنان حين يرى الشىء الكامل الذى يصنعه يتشكل شيئاً فشيئاً بين يديه :

الفصل الثالث

النقـــود

وأحدث هذا التوسع العظيم فى التجارة والصناعة انقلابا كبيراً فى الأعمال المالية ، فأما التجارة فلم يكن فى مقدورها أن تتقدم ما دامت قائمة على المبادلة ، بل أضحت تتطلب مستوى ثابتاً للقيم ، وواسطة للتبادل سهلة ، ووسيلة ميسرة مفتوحة لاستثمار الأموال .

وكان من حق سادة الإقطاع وكبار رجال الدين فى القارة الأوربية فى عهد الإقطاع أن يسكوا النقود ، ولهذا عانى الاقتصاد الأوربى الأمرين من جراء الفوضى النقدية التى كانت أسوأ من فوضى هذه الأيام ؛ وزادت هذه الفوضى بفعل مزيفى العملة وقارضيها ، وكان الملوك يأمرون بأن تقطع أطراف من يرتكبون هذه الأعمال أو أعضاؤهم التناسلية أو أن تقلى أجسامهم وهم أحياء[٣٠] ، ولكن الملوك أنفسهم كثيراً ما كانوا يخفضون قيمة نقدهم(*) . وقل وجود الذهب بعد غارات القبائل الهمجية ، واختفى اختفاء تاماً من أوربا الغربية بعد أن فتح المسلمون بلاد الشرق ، فكان النقد بأجمعه بين القرنين الثامن والثالث عشر يصنع من الفضة أو المعادن الخسيسة ، ذلك أن الذهب والحضارة يتلازمان كثرة وقلة(**) .

(*) جاء فى السجل الإنجليزى السكسونى عن سنة ١١٢٥ : « وأمر الملك هنرى أن تقطع من كل الذى يضرب العملة (يقصـــد من يزيفها) . . . يده اليمنى وخصيتاه من تحته »[٣١] .

(**) هذا حكم من المؤلف غريب لا نعتقد أنه يصدق فى كل الأزمنة أو فى كل البلاد . (المترجم)

على أن العملة الذهبية ظلت تضرب فى الإمبراطورية البيزنطية طوال العصور الوسطى ؛ ولما أن كثر الاتصال بين الغرب والشرق أخذت النقود البيزنطية الذهبية المعروفة بالبيزانط bezants فى بلاد الغرب ، أخذت هذه النقود يتعامل بها فى كافة أنحاء أوربا ، وكان لها من الاحترام فى العالم المسيحى أكثر ما لسائر النقود . ولما رأى فردريك الثانى ما للعملة الذهبية المستقرة فى بلاد الشرق الأدنى من أثر طيب فى تلك البلاد سك فى إيطاليا أولى العملات الذهبية فى أوربا الغربية . وسمى هذه العملة أوغسطالس Augustales مقلداً بهذا فى صراحة نقـد أغسطس ومكانته : والحق أنها كانت خليقة بهذه التسمية ، لأنها ، وإن كانت تقليداً لعملة الشرق ، كانت ذات طابع فخم . وسمت من فورها إلى أعلى مستوى فى فن المسكوكات فى العصور الوسطى ؛ وأصدرت چنوى وفلورنس فى عام ١٢٥٣ مسكوكات ذهبيــة ؛ وكان الفلورين الفلورنسى ، الذى تعادل قيمته زنة رطل من الفضة أجمل وأبقى هذه المسكوكات ، وكان يقبل فى جميع أنحاء أوربا ؛ ولم يحل عام ١٢٨٤ حتى كان لجميع دول أوربا الكبرى ، ما عدا إنجلترا ، عملة ذهبية يوثق بها — وذلك جهد عظيم مشكور ضحى به فى الفوضى الضاربة أطنابها فى القرن العشرين .

وقبل أن يختتم القرن الثالث عشر كان ملوك فرنسا قد ابتاعوا أو صادروا كل ما لسادة الإقطاع من حقوق تخول لهم سك العملة إلا القليل الذى لا يكاد يستحق الذكر من هذه الحقوق ، وظل نظام النقد الفرنسى حتى عام ١٧٨٩ محتفظا بالمصطلحات التى وضعها له شارلمان ، وإن لم يحافظ على قيمتها ؛ فكان فيه الليرا (Livra) أو الجنيه الفضى ، والصلدى (sou) وهو $\frac{1}{20}$ من الجنيه ، والدينار (denier) وهو $\frac{1}{12}$ من الصلدى . وأدخلت غارة الرومان هذا النظام النقدى فى إنجلترا ، وفيها أيضاً كان الجنيه الإنجليزى يقسم عشرين قسما يسمى واحدها

شلنا ، ويقسم كل منها اثنى عشر قسما — هى البنسات. وأخذ الإنجليز ألفاظ pound ، shilling ، penny من الأسماء الألمانية pfund ، schilling ، pfennig ولكنهم أخذوا الرموز الدالة عليها من اللغة اللاتينية L من لبرا Libra ، s من سليدس solidus ، d من ديناريوس denarius ، ولم يكن لإنجلترا عملة ذهبية إلا فى عام ١٣٤٣ ، غير أن عملتها الفضية التى قررها هنرى الثانى (١١٥٤ — ١١٨٩) ظلت أكثر العملات استقراراً فى أوربا . وضرب المارك الفضى فى ألمانيا فى القرن العاشر ، وجعلت قيمته نصف قيمة الجنيه الفرنسى أو البريطانى ؛

ولكن النقد فى العصور الوسطى ، رغم هذا التطور كله ، قد لاقى الأمرين من جزاء تقلب قيمته ، وعدم ثبات نسبة الفضة إلى الذهب ، وحق الملوك والمدن — والأشراف ورجال الدين فى بعض الأحيان — فى جمع النقود كلها فى أى وقت ، وتقاضى أجر على إعادة سكها ، وإصدار عملة جديدة مخفضة تزداد فيها نسبة المعدن الخسيس . وتأثر النقد الأوربى كله لما أصابه من انحطاط فى فترات غير منتظمة لعدم أمانة دور الضرب ، وازدياد مقدار الذهب أسرع من ازدياد مقدار السلع ، وسهولة أداء الديون الوطنية بالعملة المخفضة ؛ ولنضرب لذلك مثلا الجنيه الفرنسى فلم تكن قيمته فى عام ١٧٨٩ تزيد على ٢ر١ فى المائة مما كانت عليه أيام شارلمان(٣٢) ، وفى وسعنا أن نحكم على مقدار انخفاض قيمة النقد من ذكر أثمان بعض السلع التى تعد نموذجا لغيرها : من ذلك أن الاثنتى عشرة بيضة كان ثمنها فى راقنا عام ١٢٨٦ « بنسا » واحدا ؛ وكان ثمن الخنزير فى لندن عام ١٣٢٨ أربعة شلنات ، وثمن الثور خمسة عشر شلناً (٣٣) ؛ وكان رأس الضأن فى فرنسا فى القرن الثالث عشر يشترى بثلاثة فرنكات ، والخنزير

يشترى بستة[٣٤] ؛ فالنقد يزداد تضخما على مر العصور[*] .

بقى أن نعرف مصدر النقود اللازمة لتمويل التجارة والصناعة وتوسيع نطاقها . لقد كان أهم مصدر منفرد لهذا المال هو الكنيسة ، وذلك بفضل ما كان لها فى جمع المال من نظام لا يدانيه نظام سواه ، وكان لديها على الدوام رأس مال سائل تستطيع توجيهه فى جميع الأوقات لأى غرض تشاء . وكانت الكنيسة أعظم قوة مالية فى العالم المسيحى ، ويضاف إلى هذا أن كثيرين من الأفراد كانوا يودعون أموالهم أمانات فى الكنائس والأديرة . وكانت الكنيسة تقرض من أموالها الأفراد والهيئات فى أوقات الشدة ، وكان أكثر من يقترضون المال هم القرويين الذين يرغبون فى إصلاح ضياعهم ، وكانت الكنائس والأديرة بمثابة مصارف عقارية ، وكان لها فضل فى تكوين طبقة الزراع الأحرار[٣٦] ، وكانت منذ عام ١٠٧٠ تقرض المال للملاك المجاورين لها نظير حصة من ريع أملاكهم[٣٧] ، وقد أصبحت الأديرة بهذه القروض المضمونة برهون أولى هيئات الإقراض فى العصور الوسطى . وكان دير سانت أندريه St. André فى فرنسا يقوم بعمل مصرفى بلغ من اتساع نطاقه أن كان يستأجر المرابين اليهود ليؤدوا له عملياته المالية[٣٨] . وكان رهبان المعبد يقرضون المال بفوائد للملوك والأمراء ، والأشراف ، والفرسان ، والكنائس ، والمطارنة ؛ وربما كانت أعمال الرهن التى يقوم بها هؤلاء الفرسان أوسع الأعمال المالية التى من هذا النوع فى القرن الثالث عشر .

غير أن هذه القروض التى تقدمها الهيئات الكنسية كانت فى العادة تستخدم

(*) يقدر كولتن Coulton ، أكبر علماء العصور الوسطى من الإنجليز ، قيمة العملة الإنجليزية فى عام ١٢٠٥ بقدر قيمتها فى عام ١٩٣٠ أربعين مرة[٣٥] ؛ أما هذا المجلد فتقدر فيه قيمة النقود فى العصور الوسطى بقدر قيمة الوحدات المقابلة لها من النقود أو المعادن الثمينة فى عام ١٩٤٩ خمسين مرة ، ولقد صرفنا النظر فى هذا التقدير عما حدث فى النقد من تقلبات فى تلك العصور .

فى الاستهلاك أو فى الأغراض السياسية ، وقلما كانت تستخدم فى تمويل الصناعة أو التجارة . وبدأ الائتمان التجارى حينما كان الفرد أو الأسرة يستودع التاجر مالا أو يعهد إليه به يستخدمه فى رحلة بحرية معينة أو مشروع معين على أن ينال فى نظير هذا جزءاً من المكسب ، وكان هذا العمل يسمى فى العالم المسيحى إيداعا Commenda . وكان هذا النظام — نظام الشريك « الموصى » طريقة رومانية قديمة أكبر الظن أن العالم المسيحى الغربى عاد فتعلمها من الشرق البيزنطى . وكان من شأن هذه الطريقة النافعة — طريقة الاشتراك فى المكسب دون مخالفة أوامر الكنيسة التى تحرم الربا — أن تنتشر انتشاراً واسعاً ؛ وبذلك استحالت « الكمپانية » (Com-panis) أى الاشتراك فى الخبز ، أو الاستثمار فى داخل نطاق الأسرة شركة soietas تضم عدة أشخاص لا يتحتم أن يكونوا كلهم من ذوى القربى ويمولون طائفة أو سلسلة من الأعمال بدل أن يمولوا عملا واحداً . وظهر هذا النوع من المنظمات المالية فى چنوى والبندقية فى أواخر القرن العاشر ، ووصل إلى درجة عليا من الرقى فى القرن الثامن عشر ، وكان من أكبر أسباب نمو التجارة الإيطالية السريع . وكثيراً ما كانت طوائف الاستثمار هذه توزع ما تتعرض له من الأخطار بأن تشترى « أجزاء » أى أسهماً فى عدد من السفن أو المشروعات فى وقت واحد ، ولما أن أصبحت هذه الأسهم (partes) فى القرن الرابع عشر قابلة للانتقال، نشأت من هذا الشركة المحاصة joint stock company . وكان أعظم مصدر فردى لرأس المال — أى المال الذى تؤخذ منه نفقات مشروع ما قبل أن يدر دخلا — هو المالى المحترف . وقد بدأ هذا المالى عمله فى الزمن القديم بأن كان صرافا يبدل النقود ثم استحال من زمن بعيد إلى مراب يستثمر ماله ومال غيره فى المشروعات التجارية أو فى إقراضها إلى الكنائس ، أو الأديرة ، أو الأشراف أو الملوك . ومما يجدر التنبيه إليه فى هذا المقام أن الدور الذى كان يضطلع به اليهود فى إقراض المال قد بولغ فيه كثيراً . لقد كان اليهودى ذوى حول

وطول فى آسپانيا ، ولكنهم ظلوا زمناً ما ضعفاء فى ألمانيا، وكان يفوقهم الماليون المسيحيون فى إيطاليا وفرنسا(٣٩) . وكان أكبر مقرض للملوك إنجلترا هو وليم كيد William Cade ؛ كما كان أكبر المقرضين فى فرنسا وفلاندرز فى القرن الثالث عشر أسرتى لوشار Louchard وكرسپان Creepin فى أراس(٤٠) ؛ وقد وصف وليم البريطونى William the Breton أراس فى ذلك الوقت بأنها « مكتظة بالمرابين »(٤١) . وكان من مراكز المال فى شمالى أوربا غير المراكز السالفة الذكر مصفق أو بورصة (من bussa أى كيس) أى سوق المال فى بروج . وكان من طوائف المرابين المسيحيين طائفة أكبر من هؤلاء جميعاً نشأت فى كاهور Cahors إحدى مدن فرنسا الجنوبية يقول ماثيو باريس فى وصفها :

وفى تلك الأيام (١٢٣٥) انتشر وباء الكهوريين Cohorisians البغيض، انتشاراً مروعاً لم يكد يبقى معه إنسان فى إنجلترا كلها وبخاصة بين المطارنة إلا وقع فى شباكهم ، ولقد كان الملك نفسه مديناً لهم بمبالغ لا تحصى ، وكانوا يخادعون المعوزين ويحتالون عليهم فى حاجياتهم ، ويغشون ما يقومون به من أعمال الربا بستار الاتجار(٤٢) .

وعهدت البابوية شئونها المالية فى إنجلترا إلى رجال المصارف الكهوريين فترة من الزمان ، ولكن قسوتهم أثارت غضب الإنجليز إلى حد جعلهم يقتلون أحد أفراد تلك الطائفة فى أكسفورد ، ولعنهم روچر أسقف لندن ، ثم نفاهم هنرى الثالث من إنجلترا ، وندد ربرت جروستست Robert Grosseteste أسقف لنكلن وهو على فراش الموت بابتزاز « التجار والصيارفة من رجال مولانا البابا » الذين هم « أغلظ أكباداً من اليهود »(٤٣) .

وكان الإيطاليون هم الذين ارتقوا بالأعمال المصرفية فى القرن الثالث عشر إلى درجة لم يكن لها مثيل من قبل . فقد نشأت أسر مصرفية عظيمة لتمد التجارة

الإيطالية الواسعة النطاق بالمال وهو عصب حياتها : ومن هؤلاء أسرتا بونسنيورى Buonsignori وجلرانى Gallerani فى سينا Siena وأسر فرسكوبلدى Frescobaldi ، وباردى Bardi ، وپروزى Peruzzi فى فلورنس ، وأسرتا پيزانى Pisani ، وتيبولى Tiepoli فى البندقية . . . وقد مدت هذه الأسر أعمالها المالية إلى ما وراء جبال الألب ؛ وكانوا يقرضون ملوك إنجلترا وفرنسا الذين لا تنقطع حاجتهم إلى المال مبالغ طائلة ، كما كانوا يقرضون الأشراف ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، والمدن . وكان البابوات والملوك يستخدمون أولئك المرابين لتحصيل إيرادهم ، والإشراف على دور الضرب والشئون المالية ، والاستعانة بآرائهم فى السياسة . وكانوا يشترون الصوف ، والتوابل ، والحلى ، والحرير جملة ، ويمتلكون السفن والنزل فى أقصى أوربا وأدناها(٤٤) . وقبل أن ينتصف القرن الثالث عشر كان هؤلاء « اللمبارد » ، كما كان أهل الشمال يسمون جميع رجال المصارف الإيطاليين ، أعظم رجال المال فى العالم قوة ونشاطا . وكانوا قوما مكروهين فى داخل بلادهم وخارجها لشدتهم فى تحصيل المال ، يحسدهم الناس من أجل ثرائهم ؛ لأن الناس فى كل جيل يقترضون المال ويندون بمن يقرضونه . وكان قيام هذه الطائفة ضربة قاصمة وجهت إلى رجال المصارف الدوليين اليهود ، ولم يتورع أفرادها عن أن يشيروا بنفى منافسيهم ذوى الصبر والجلد(٤٥) . وكان أقوى « اللمبارد » جميعاً هم شركات المصارف الفلورنسية ، وفى وسعنا أن نعد منها ثمانين شركة بين عامى ١٢٦٠ و ١٣٤٧ . وكانت هذه الشركات تمول الحملات السياسية والحربية التى يقوم بها البابوات وتجنى من وراء عملها هذا أرباحا طائلة ، وكانت من حيث هى المصارف التى تمد البابوات بالمال ستاراً نافعاً لتلك العمليات التى قلما كانت تتفق مع آراء الكنيسة عن الربا . وكانت تجنى من الأرباح ما لا يكاد يقل عن أرباح المصارف فى هذه الأيام ؛ مثال ذلك أن شركة پروزى وزعت على المساهمين فيها أرباحا قدرها أربعون فى المائة فى عام ١٣٠٨(٤٦)

ولكن هذه الشركات الإيطالية كادت تكفر عن نهمها بما كانت تؤديه من الخدمات الحيوية للتجارة والصناعة . ولما أخذ نجمها فى الأفول خلفت وراءها فى جميع اللغات الأوربية تقريباً بعض مصطلحاتها وهى ألفاظ banco ، credito ، debito ، cassa ، conto ، disconto ، conto corrente ، netto ، bilanza ، banca rotta ومعناها على التوالى المصرف ، والدائن ، والمدين ، وصندوق النقد أى الخزانة ، والحساب ، والخصم ، والحساب الجارى ، والرصيد ، والميزان الحسابى ، والإفلاس(٤٨) .

وكانت الشركات المصرفية الكبرى فى البندقية وفلورنس ، وچنوى فى أثناء القرن الثالث عشر أو قبله تقوم بجميع الأعمال التى تقوم بها المصارف فى هذه الأيام كما تدل على ذلك الألفاظ السالفة الذكر . فكانت تقبل الودائع ، وتفتح الحسابات الجارية بين الجماعات التى تقوم بسلسلة من الأعمال المالية لم تصل بعد إلى نهايتها ، وكان مصرف البندقية منذ عام ١١٧١ ينظم تبادل الحسابات بين عملائه بعمليات مقصورة على عمليات إمساك الدفاتر(٤٩) . وكانت تقرض المال ، وتقبل ضمانا له الحلى ، والدروع الغالية الثمن ، والقراطيس المالية الحكومية ، أو حق جباية الضرائب أو تدبير شئون الإيرادات ؛ وكانت تخزن البضائع المعدة للنقل إلى خارج البلاد . وكان فى مقدورها بفضل علاقاتها الدولية أن تصدر خطابات الاعتماد التى يستطاع بها تسليم المال المودع فى بلد ما إلى مودعه أو من ينيبه عنه فى بلد آخر — وهى وسيلة مصرفية كانت معروفة من زمن بعيد عند اليهود والمسلمين وفرسان المعبد(٥٠) . وكانت تقوم أيضاً بعكس هذه العملية فتكتب السفاتج . فكان التاجر إذا أخذ بضاعة أو قرضاً ، يكتب على نفسه صكا بأن يسدد ما عليه إلى الدائن قبل وقت معين فى إحدى الأسواق الموسمية الكبرى أو فى إحدى المصارف الدولية . وكانت هذه الصكوك تسوى بعضها مع بعض فى السوق الموسمية أو المصرف بحيث لا يؤدى نقداً إلا صافى

الحساب بعد التسوية . وبهذه الطريقة أصبحت مئات العمليات المالية والتجارية تسوى من غير أن يكلف المتعاملون أنفسهم مشقة حمل مبالغ طائلة وأثقال كبيرة من النقد أو تبادلها . ولما أصبحت المراكز المصرفية بيوت مقاصة ، وفر رجال المصارف على أنفسهم عناء الذهاب إلى الأسواق الموسميه ، فكان فى وسع التجار المقيمين فى سائر أنحاء أوربا أن يسحبوا الأموال من حساباتهم فى مصارف إيطاليا ثم تسوى حساباتهم بعمليات إمساك الدفاتر بين المصارف المختلفة . وبهذه الطريقة زادت فائدة النقود وزاد تداولها عشرة أضعاف ما كانت عليه قبل . ولم يكن « نظام الائتمان » — الذى قام على أساس الثقة المتبادلة أقل مظاهر الثورة الاقتصادية شأناً أو أقلها دلالة على الشرف والأمانة .

كذلك كانت بداية نظام التأمين فى القرن الثالث عشر ، فكانت نقابات التجار تؤمن أعضاءها من حوادث الحريق ، وغرق السفن ، وغيرهما من الكوارث والأضرار ، بل تعدت هذا النوع إلى تأمينهم من القضايا التى تقام عليهم لجرائم ارتكبوها — سواء كان هؤلاء الأعضاء مذنبين أو بريئين[٥١] ؛ وكانت أديرة كثيرة تعطى المؤمن مرتباً سنوياً طوال حياته . فإذا قدم لها الشخص مبلغاً معيناً من المال تعهدت بأن تمده بالطعام ، والشراب ، وبالثياب ، والمسكن أحياناً ، طوال حياته الباقية[٥٣] . وقام أحد مصارف بروج منذ القرن الثانى عشر بالتأمين على البضائع ، ويبدو أن شركة قانونية للتأمين قد أسست فى هذا البلد عام ١٣١٠[٥٤] . وكان آل باردى فى فلورنس يؤمنون الأقمشة التى تنقل بطريق البر من الأخطار التى تتعرض لها فى الطريق .

وأصدرت مدينة البدقية أولى السندات الحكومية فى عام ١١٥٧ ، وكان سبب إصدارها أن مطالب الحرب اضطرت هذه الجمهورية أن تطلب قروضاً إجبارية من أهلها ، — وأنشئت إدارة خاصة لتسلم هذه القروض — ، ثم تعطى من يقدمونها شهادات تكون بمثابة ضمان من الحكومة بسداد هذه القروض

مضافاً إليها فائدة . وأصبحت هذه السندات الحكومية بعد عام ١٢٠٦ قابلة للتحويل والانتقال من يد إلى يد ، وكان من المستطاع بيعها أو شراؤها أو اتخاذها ضماناً للديون . وكانت شهادات مثلها منصوص فيها على مديونية البلدية تقبل فى كومو Como عام ١٢٥٠ على أنها مساوية لقدر معين من النقود المعدنية . وإذ لم تكن أوراق النقد إلا وعداً من الحكومة بالدفع ، فإن هذه الشهادات الذهبية القابلة للتحويل تعد بداية أوراق النقد فى أوربا(٥٥) .

وتطلبت العمليات المعقدة الخاصة بأصحاب المصارف ، والبابوات ، والملوك ، نظاما دقيقاً لإمساك الدفاتر . ولذلك امتلأت المحفوظات ، ودفاتر الحسابات ، بسجلات الإيجار ، والضرائب ، والأموال الواردة والمنصرفة ، والديون التى لأصحابها أو عليهم . وقد بقيت طرق المحاسبة ، التى كانت متبعة فى رومة فى عهد الإمبراطورية ، متبعة فى القسطنطينية بعد أن ضاعت منذ القرن السابع فى أوربا الغربية ؛ ومن هذه المدينة أخذها العرب ، ثم عادت إلى الوجود فى إيطاليا أثناء الحروب الصليبية : وإنا لنجد فى الحسابات العامة لمدينة جنوى فى عام ١٣٤٠ نظاما كاملا لطريقة الدوبيا — القيد المزدوج — وإن ضياع سجلات جنوى الخاصة بالأعوام المحصورة بين ١٢٧٨ و ٣١٤٠ ليترك لدينا مجالا للترجيح على أن هذا التقدم كان أيضاً من الأعمال المجيدة التى ظهرت فى القرن الثالث عشر(٥٦) .

الفصل الرابع

الربا

كانت العقيدة الدينية المسيحية فى الربا أكبر العقبات فى نمو النظام المصرفى وتقدمه . وكان لهذه العقيدة عند المسيحيين ثلاثة مصادر : طعن أرسطو على الربا وقوله إنه عمل غير طبيعى إذ هو توليد المال للمال[٥٧]، وطعن المسيح على الربا[٥٨] ، ومعارضة آباء الكنيسة للأعمال التجارية وللربا فى رومة . أما القانون الرومانى فقد شرع الربا وكان « رجال شرفاء »[*] أمثال بروتس يتقاضون رباً فاحشاً على أموالهم . وكان أمبروز Ambrose قد عارض النظرية القائلة إن من حق الإنسان أن يفعل بماله ما يشاء إذ قال :

أتقول « إنه ملكى » ؟ ألا فقل لى ماذا تملك ؟ أى ثروة جئت بها معك حين خرجت من بطن أمك ؟ إن ما تأخذه فوق كفايتك إنما تأخذه بالعنف . فهل الله ظالم إذ لم يوزع وسائل العيش بيننا بالتساوى فتنال أنت منها حظا موفورا ويبقى غيرك محتاجاً فقيراً ؟ أو هل الأصح من هذا أنه أراد أن يحبوك بدلائل حنوه عليك ، فى الوقت الذى وهب غيرك من الناس فضيلة الصبر ؟ وإذن فهل تظن أنت يا من وهبك الله نعمته أنك لا ترتكب الظلم حين تحتفظ لنفسك أنت وحدك بما يمكن أن يكون مصدر الحياة لكثير من الناس ؟ إن الذى تقبض عليه بيدك هو خبز الجياع ، وإن ما تخزنه هو كساء العرايا ، وإن المال الذى تكتنزه لهو الذى ينقذ الفقراء من بؤسهم[٥٩] .

(*) يشير المؤلف بهذه العبارة « رجال شرفاء » إلى خطبة ماركس أنطونيوس ووصفه بروتس وكاسيوس وقتلة قيصر بأنهم كلهم « رجال شرفاء » تهكماً منه عليهم واستهزاء بهم . انظر رواية يوليوس قيصر لشيكسپير . (المترجم)

واقترب غير أمبروز من آباء الكنيسة من الشيوعية ؛ فها هو ذا كلمنت الإسكندرى يقول : « إن الانتفاع بكل ما فى العالم يجب أن يكون حقا مشاعا للناس جميعاً . ولكن الناس يظلم بعضهم بعضاً إذ يقول واحد منهم إن هذا الشيء ملكه ، ويقول الآخر إن ذاك له ، وهكذا حدث الانقسام بين الناس »[٦٠] . وكان چيروم يرى أن الكسب كله حرام ، كما كان أوغسطين يرى أن جميع « الأعمال » المالية إثم لأنها تصرف الناس عن السعى للراحة الحقة ، أعنى الله »[٦١] . وكان البابا ليو الأول قد رفض هذه العقائد المتطرفة ، ولكن الكنيسة ظلت لا تعطف على التجارة ، وترتاب فى جميع أنواع المضاربات والمكاسب ، وتعارض جميع صنوف « الاحتكار » و « الجبء » و « الربا » . وكان هذا اللفظ الأخير يطلق فى العصور الوسطى على فائدة المال أياً كان قدرها ، وفى ذلك يقول أمبروز : « الربا هو كل مال يضاف إلى رأس المال »[٦٢] ، وقد أدخل جراتيان Gratian هذا التعريف الجامد فى القانون الكهنوتى الذى تسير عليه الكنيسة .

وكانت مجامع نيقية (٣٢٥) ، وأورليان (٥٣٨) ، وماسون Maçon ، وكليشى (٦٢٦) قد حرمت على رجال الدين أن يقرضوا المال ليكسبوا بإقراضه ، وتوسعت قوانين شارلمان الصادرة فى عام ٧٨٩ ومجالس الكنيسة التى عقدت فى القرن التاسع ، فى هذا التحريم حتى شمل غير رجال الدين ؛ فلما أن عاد القانون الرومانى إلى الوجود فى القرن الثانى عشر شجعت عودته إرنريوس Irnerius و « الشراح » فى بولونيا على الدفاع عن الربا . وكان فى وسعهم أن يؤيدوا حججهم بما جاء فى قانون جستنيان ، ولكن مجلس لاتران الثالث (١١٧٩) جدد هذا التحريم وقرر « أن الذين يجهرون بالربا لا يقبلون فى العشاء الربانى ، وإذا ماتوا وهم على إثمهم لا يدفنون دفن المسيحيين ، وليس لقسيس أن يقبل صدقاتهم »[٦٣] . وما من شك فى أن إنوسنت الثالث كان يرى

رأياً أقل صرامة من هذا ، لأنه أشار فى عام ١٢٠٦ بأن « يعهد ببائنة الزوجة فى بعض الحالات إلى تاجر من التجار » لكى تحصل منها على دخل بطريق الكسب الشريف »[٦٤] . غير أن جريجورى التاسع عاد إلى القول بأن الربا هو كل ما يناله الإنسان من كسب نظير قرض[٦٥] ، وظل هذا الرأى قانون الكنيسة الرومانية حتى عام ١٩١٧ .

وكانت ثروة الكنيسة فى الأرض لا فى التجارة ، فقد كانت تزدرى التجار كما يزدريهم سادة الإقطاع ، أما الأرض والعمل (وتدخل فيه الإدارة) فكان يبدو لها أنهما وحدهما مصدر كل الثروة وكل القيم ، وكانت تنظر بعين السخط إلى سلطان طبقة التجار وثرائها المتزايدين لأن هذه الطبقة لم تكن تميل إلى الملاك الإقطاعين ولا إلى الكنيسة ؛ وقد ظلت قروناً طوالا تظن أن جميع المرابين يهود ، وترى من حقها أن تبدى سخطها على الشروط الصارمة التى يفرضها المرابون على الهيئات والمعاهد الدينية التى تحتاج إلى المال . ويمكن القول بوجه عام إن ما بذلته الكنيسة من جهود للإشراف على طرق الكسب كان عملا مقروناً بالشجاعة يهدف إلى تثبيت قواعد الأخلاق المسيحية ، ويسمو على ماكان يدنس الحياة والشرائع اليونانية والرومانية من سجن المدين أو استرقاقه ، ولسنا واثقين من أن الناس فى هذه الأيام أسعد حالا مما عساهم أن يكونوا لو عملوا برأى الكنيسة فى الربا .

وظل تشريع الحكومات زمناً طويلا يؤيد موقف الكنيسة فى هـــذه الناحية ، وكانت المحاكم المدنية نفسها تحرم الربا[٦٦] ، ولكن تبين أن حاجات التجارة أقوى أثراً من خشية السجن أو الجحيم . ذلك أن اتساع نطاق التجارة والصناعة تطلب استخدام المال المتعطل فى المشروعات النشيطة ، ووجدت الدول فى أثناء الحرب أو الأزمات الطارئة أن الاقتراض أيسر من فرض الضرائب ؛ وكانت النقابات تقرض المال وتقترضه بالربا ، وكان الملاك الذين يرغبون

فى توسيع أملاكهم ، أو يسافرون للاشتراك فى الحروب الصليبية يرحبون بالمرابى ، بل إن الكنائس نفسها والأديرة كانت تتغلب على أزماتها ، أو نفقاتها المتزايدة ، أو حاجتها للمال بالالتجاء إلى « اللمبارد » أو الكهوريين أو اليهود .

واستطاع الناس أن يجدوا بذكائهم منافذ لهم فى هذا القانون ، من ذلك أن المقترض كان يبيع الأرض رخيصة للمقرض ، ويترك له حق الانتفاع بريعها نظير فائدة ماله ، ثم يعود بعدئذ فيشترى الأرض منه (البيع الوفائى) . أو كان المالك يبيع للدائن جزءاً من ريع أرضه أو دخلها ، أو ريعها أو دخلها كلهما . مثال ذلك أنه إذا باع ا إلى ب ريع جزء من أرضه يغل عشر جنيهات بمبلغ مائة جنيه ، فإن ب فى واقع الأمر يقرض ا مائة جنيه بفائدة قدرها عشرة فى المائة . وكانت أديرة كثيرة تستثمر أموالها بهذه الطريقة — وبخاصة فى ألمانيا حيث اشتق اللفظ المقابل للفائدة Zins من اللفظ اللاتينى الذى كان يطلق فى العصور الوسطى على الريع Census [٦٧] . كذلك كانت المدن تقرض المال بأن تبيع المقرض جزءاً من دخلها[٦٨] . وكان الأفراد والهيئات ومنها الأديرة تقرض المال نظير عطايا تنالها سراً أو بيوع صورية[٦٩] ، حتى لقد شكا البابا ألكسندر الثالث فى عام ١١٦٣ من أن « كثيرين من رجال الدين (وبخاصة فى الأديرة) » يقرضون المال لمن هم فى حاجة إليه ، ويرتهنون أملاكهم ضماناً له ، ثم يحصلون على ثمار هذه الأملاك المرتهنة مضافة إلى رأس المال المقرض ، وإن كانوا يحجمون عن الربا المألوف لأنه محرم تحريماً صريحاً » [٧٠] . وكان بعض المدينين يتعهدون بدفع « تعويضات » تزيد زيادة مطردة عن كل يوم أو شهر يتأخرون فيه عن أداء الدين ، وكان يوم السداد يحدد عمدا فى أجل قريب حتى تصبح هذه الفائدة الخفية محققة لا مفر من أدائها[٧١] . وكان الكهوريون يقرضون بعض الأديرة المال على هذا الأساس

بشروط ترفع سعر الفائدة إلى ستين فى المائة فى السنة(*) . وكانت بعض الشركات المصرفية تقرض المال جهرة بالربا وتدعى الحصانة من القانون ، لأنه فى رأيها لا ينطبق إلا على الأفراد ، ولم تكن مدن إيطاليا ترى أية غضاضة فى دفع فوائد عن سنداتها الحكومية ، وبلغ انتشار الربا حداً جعل إنوسنت الثالث يجهر فى عام ١٢٠٨ بأنه لو طرد جميع المرابين من الكنيسة كما يتطلب ذلك القانون الكنسى ، لوجب إغلاق الكنائس جميعها(٧٣) .

واضطرت الكنيسة على كره منها أن تكيف نفسها وفق الظروف الواقعية ، فتقدم القديس تومس أكويناس حوالى عام ١٢٥٠ بجرأة عظيمة بمبدإ كهنوتى جديد عن الربا قال فيه إن من يستثمر ماله فى مشروع تجارى يحق له شرعا أن ينال نصيبا من ربحه إذا شارك فعلا فى التعرض للخسارة(٧٤) ، وفسرت الخسارة بأنها تشمل التأخر فى أداء الدين عن تاريخ معين مشروط(٧٥) . وارتضى القديس بوناڤنتورا St. Bonaventura والبابا إنوسنت الرابع هذا المبدأ وتوسعا فيه حتى قالا بشرعية أداء عوض للدائن نظير ما يصيبه من الخسارة لعدم انتفاعه برأس ماله(٧٦) . وأقر بعض المشرعين من رجال الدين حق الدول فى إصدار سندات ذات فائدة ؛ وأقر البابا مارتن Martin الخامس فى عام ١٤٢٥ شرعية بيع الريع ، ثم ألغت معظم الدول الأوربية بعد عام ١٤٠٠ ما وضعته من القوانين لتحريم الربا ، ولم يكن تحريم الكنيسة إلا كلاما مهملا يتفق الناس جميعاً على

(*) لقد كانت هذه الحال وما هو أسوأ منها سائدة فى مصر إلى عهد قريب فقد ، كانت بعض المصارف تقرض المال بفائدة مركبة تؤدى إلى زيادة رأس المال إلى ضعفيه فى عشر سنين وإلى ثلاثة أضعاف فى عشرين . وكان بعض المرابين يقرض الجنيه الإنجليزى (٩٧,٥) بسبعة وعشرين قرشاً ونصف قرش فى ثلاثة أشهر ، ويحتالون على هذا العمل الإجرامى بإضافة الفائدة إلى رأس المال والادعاء بأن مجموعهما هو المال المقترض . ومن طرق الخداع الأخرى البيع الوفائى والرهون العقارية وغيرها مما أدى إلى ضياع كثير من الأملاك وانتقالها إلى المرابين . (المترجم)

إغفاله . وحاولت الكنيسة أن تجد حلا للمسألة بتشجيعها القديس برنرديتو الفلترى St. Bernardino of Feltre وغيره من رجال الدين على أن ينشئوا ابتداء من عام ١٢٥١ ما يسمى « تلال الحب » — montes pietattis — حيث كان فى وسع المحتاجين الموثوق بأمانتهم أن يحصلوا على قروض من غير فائدة إذا أودعوا شيئاً ضماناً لهذا القرض . ولكن هذه « التلال » التى كانت مقدمة لمحال الرهون الحاضرة لم تعالج إلا جانباً صغيراً من المشكلة ، وبقيت حاجات التجارة والصناعة كما كانت من قبل ، ووجدت رؤوس الأموال للوفاء بهذه الحاجات .

وكان المرابون المحترفون يتقاضون فوائد باهظة ، ولم يكن هذا لأنهم شياطين لا ضمير لهم ، بل كان سببه أنهم يتعرضون لخسارة مالهم وفقد حياتهم ؛ ذلك أنهم لم يكن فى مقدورهم على الدوام أن يلزموا مدينيهم بأن يوفوا بالتزاماتهم بالتجائهم إلى القانون ، وكانت مكاسبهم عرضة لأن يستولى عليها الملوك أو الأباطرة ، وكانوا معرضين فى أى وقت من الأوقات لخطر النفى من البلاد ، وكانوا فى كل حين مكروهين ملعونين . وما أكثر القروض التى لم ترد لأصحابها ؛ وما أكثر المدينين الذين ماتوا مفلسين ، أو انضموا إلى جيوش الصليبيين ، وأعفوا من أداء الفوائد ، ثم لم يعودوا منها أبداً . وإذا عجز المدينون عن الوفاء ، لم يكن فى وسع الدائنين إلا أن يرفعوا سعر الفائدة على الديون الأخرى ؛ إذ ينبغى أن تتحمل الديون الرابحة خسائر الديون الخاسرة كما تتحمل أثمان السلع التى تشتريها نفقات السلع التى تتلف قبل بيعها . وكان السعر فى فرنسا وإنجلترا فى القرن الثانى عشر يتراوح بين ٣٣ ⅓ ٪ و ٤٣ ⅓ ٪ (٧٧) ، وكان يبلغ فى بعض الأحيان ٨٦ ٪ ؛ وقد انخفض فى إيطاليا فى عهد الرخاء إلى ١٢٫٥ ٪ وإلى ٢٠ ٪ (٧٨) . وحاول فردريك الثانى حوالى عام ١٢٤٠ أن يخفض هذا السعر

إلى ١٠ ٪ ، ولكنه سرعان ما أدى سعراً أعلى من هذا لداثنيه المسيحيين ؛ وكانت حكومة نابلى تجيز أن يكون أعلى سعر قانونى للفائدة ٤٠٪ [٧٩] ؛ وكان السعر ينخفض كلما زاد ضمان القروض ، وزادت المنافسة بين المقرضين ؛ وبعد أن تخبط الناس فى ألف من التجارب والأخطاء عرفوا كيف يستخدمون الأدوات المالية الجديدة ، أدوات الاقتصاد التقدمى ، وبدأ بذلك عصر المال فى أثناء عصر الإيمان .

الفصل الخامس

النقابات الطائفية

كان فى رومة عدد لا حصر له من الجماعات تطلق عليها أسماء مختلفة : طوائف ، وهيئات ، واتحادات ، ونقابات . كانت فيها جماعات للصناع ، والتجار والمقاولين ، والأندية السياسية ، والإخوة السرية ، والإخوة الدينية . ترى هل بقيت جماعة من هذه الجماعات فنشأت عنها النقابات الطائفية التى كانت قائمة فى العصور الوسطى ؟

لدينا رسالتان من رسائل جريجورى الأول (٥٩٠ — ٦٠٤) تشيران إلى وجود هيئة من صانعي الصابون فى نابولى ، وأخرى من الخبازين فى أترانتو ؛ ونقرأ فى كتاب قوانين الملك بوثارس Botharis اللمباردى (٦٣٦ — ٦٥٢) عن « الرؤساء الكوموسين » ، ويلوح أن هؤلاء كانوا كبار البنائين من كومو Como ويسمى بعضهم بعضاً الزملاء Collegantes — أى الذين يزامل بعضهم بعضا فى جماعة واحدة(٨٠) . وقد ورد ذكر جماعات لعمال النقل كانت قائمة فى رومة فى القرن السابع وفى ورمز فى القرن العاشر(٨١) . وظلت النقابات القديمة قائمة فى الإمبراطورية البيزنطية . ونجد فى سجلات رافنا إشارات إلى كثير من الجماعات الاقتصادية — إلى جماعة الخبازين فى القرن السادس ، وإلى هيئات الموثقين والتجار فى القرن التاسع ، والسماكين فى القرن العاشر ، وإلى موردى الأطعمة فى القرن الحادى عشر . ونسمع عن جماعات الصناع فى البندقية فى القرن التاسع ، وبجماعة للبستانيين برومة فى القرن الحادى عشر(٨٢) . وما من شك فى أن الكثرة الغالبة من النقابات والاتحادات فى الغرب قد قضت عليها غارات القبائل المتبربرة ، وما أعقبها من فاقة ، ومن عودة العمال إلى الأعمال الزراعية

ولكن يبدو أن بعضها قد بقى فى لمباردى ؛ ولما أن عادت التجارة والصناعة إلى الانتعاش فى القرن الحادى عشر ، كانت الظروف التى أوجدت الجماعات القديمة هى التى بعثت النقابات الطائفية بعثاً جديداً .

ومن أجل هذا كانت النقابات الطائفية أقوى ما تكون فى إيطاليا ، حيث بقيت الهيئات والأنظمة الرومانية القديمة حافظة لكيانها على خير وجه . ففى فلورنس مثلا نجد فى القرن الثانى عشر اتحادات للحرف — كالموثقين ، وصناع الملابس ، وتجار الصدف ، وأصحاب المصارف ، والأطباء ، والصيادلة ، والبزازين ، وتجار الفراء ، والدابغين ، وصانعى الأسلحة ، وأصحاب النزل ...[٨٣] ويلوح أن هذه النقابات الطائفية قد أنشئت على غرار نظائرها فى القسطنطينية[٨٤] . ويبدو أن تدمير الاتحادات الطائفية القديمة كان فى شمال جبال الألب أتم منه فى إيطاليا ، ولكننا مع ذلك نجد لها ذكراً فى شرائع دجوبرت Dagobert الأول (٦٣٠) ، وشرائع شارلمان (٧٧٩ — ٧٨٩) ، وأوامر هنكمار كبير أساقفة ريمس (٨٥٢) . وعادت النقابات الطائفية إلى الظهور فى فرنسا وفلاندرز فى القرن الحادى عشر ، وسرعان ما تضاعف عددها وأطلق عليها اسم « المتصدقين » أو « الإخوة » أو « الشركات » . وتفرعت النقابات الطائفية (الهانز) فى ألمانيا من الجماعات القديمة markgenossenschaften — وهى هيئات محلية لتبادل المعونة ، وأداء الشعائر الدينية ، والاحتفال بالأعياد . واستحال كثير من هذه الجماعات قبل أن يحل القرن الثانى عشر إلى اتحادات للصناعات والحرف ، وقبل أن يحل القرن الثالث عشر بلغت هذه الاتحادات من القوة درجة أمكنها بها أن تنازع المجالس البلدية سلطتها السياسية والاقتصادية[٨٥] ، ولم تكن العصبة الهانسية إلا واحدة من هذه الاتحادات . وورد ذكر النقابات الطائفية الإنجليزية لأول مرة فى قوانين الملك أين Ine (٦٨٨ — ٧٢٦) ، فقد ذكر فيها لفظ « ججلدان Gegildan » — وهى جماعات كان يُساعد بعضها بعضاً

فيما يفرض عليهم من مال « الفداء » . وكانت كلمة جلد gild الإنجليسكسونية (التى اشتقت منها كلمة guild أى النقابة الطائفية فى العصور الوسطى وهى قريبة فى أصلها من كلمة geld الألمانية وكلمتى gold و yield الإنجليزيتين) تعنى فى أول الأمر الاشتراك فى مال عام ، ثم أصبحت تعنى فيما بعد الاشتراك فى الجماعة التى تشرف على هذا المال . ووردت أقدم إشارة إلى النقابات الطائفية الإنجليزية فى عام ١٠٩٣ ، ولم يحل القرن الثالث عشر حتى كان لكل مدينة مهمة فى إنجلترا تقريباً نقابة طائفية أو أكثر من نقابة ، وحتى كان نوع من « الاشتراكية النقابية » البلدية يسيطر على أحوال الناس فى إنجلترا وألمانيا .

وكانت نقابات القرن الحادى عشر الطائفية جميعها تقريباً نقابات للتجار ، ولم تكن تضم إلا التجار المستقلين ورؤساء العمال ، وكانت تحرم من الانضمام إليها جميع من يعتمدون على غيرهم ، وكانت هيئات تعمل صراحة لفرض قيود على التجارة ، فكانت عادة تحمل المدن التى توجد فيها على أن تمنع بالضرائب الجمركية الحامية المرتفعة أو بغيرها من الوسائل دخول السلع التى تنافس ما تصنعه هى ؛ وإذا ما سمح لهذه البضائع الأجنبية بدخول المدينة بيعت بأثمان تحددها النقابة التى يؤثر دخولها فى بضائعها هى . وكثيراً ما كانت إحدى نقابات التجار الطائفية تحصل من المقاطعة أو الملك على ترخيص باحتكار سلعة أو سلع فى الإقليم الذى تعمل فيه أو الدولة كلها . مثال ذلك أن الشركة الباريسية للنقل التجارى المائى كادت تملك نهر السين كله . وكانت النقابة الطائفية ترغم الصناع عادة بأوامر تصدرها المدينة أو بالضغط الاقتصادى على ألا تعمل إلا معها أو برضاها وألا تبيع ما تنتجه إلا للنقابة أو عن طريقها .

وأصبحت أكبر هذه النقابات على مر الزمن هيئات متحدة قوية ، تتجر فى أنواع مختلفة من البضائع ، وتشترى المواد الغفل جملة ، وتؤمن التجارة من الخسائر ، وتنظم توريد الطعام لمدنها ونقل فضلاتها ، وترصف الشوارع ، وتنشئ

الطرق والأحواض وتعمق المرافئ ، وتؤمن الطرق الرئيسية بتعيين الشرطة فيها ، وتشرف على الأسواق ، وتنظم الأجور ، وساعات العمل وظروفه ، وشروط التمرن على الصناعات ، وطرق الإنتاج والبيع ، وأثمان المواد الخام والمصنوعات[٨٧] . وكانت تحدد للسلع أربع مرات أو خمس فى كل عام « ثمناً عادلا » تراه حافزاً قوياً للانتاج ومجزياً لجميع المهتمين بها . وكانت تزن وتختبر وتعد جميع ما يشترى ويباع من الحاصلات المتصلة بحرفتها وفى الدائرة التى تعمل فيها ، وتبذل كل ما فى وسعها لتمنع البضائع المغشوشة أو المنحطة من دخول السوق[٨٨] . وكانت النقابات تتخذ لمقاومة اللصوص ، وسادة الإقطاع ، والمكوس ، والعمال المشاكسين ، والحكومات التى تفرض الضرائب الفادحة . وكان لها شأن كبير فى السياسة ، وكانت تسيطر على كثير من المجالس البلدية ، وكثيراً ما أمدت الأقاليم بتأييد قوى فى كفاحها ضد الأشراف والأساقفة والملوك ، ثم تطورت هى آخر الأمر فأصبحت هيئة أرستقراطية من التجار والماليين .

وكان لكل نقابة طائفية فى العادة غرفتها الخاصة ، وكان بعض هذه الغرف فى العصور الوسطى صروحا مزخرفة أحسن زخرف . وكان لها طائفة من الموظفين الكبار ، ومسجلين ، وخزنة للأموال ، ومأمورين ، وشرطة . . . وكانت لها محاكمها الخاصة يحاكم فيها أعضاؤها ، وكانت تحتم على أعضائها أن يعرضوا منازعاتهم على محكمة النقابة الطائفية قبل أن يلجأوا إلى قانون الدولة . وكانت تفرض على أعضائها أن يمدوا بالمعونة زملاءهم النقابيين فى حالات المرض والكوارث ، وأن تنقذهم أو تفتديهم إذا هوجموا أو سجنوا[٨٩] وكانت تشرف على أخلاق أعضائها وآدابهم ، وثيابهم ، وتفرض عقوبة على كل من يحضر اجتماعاتها بغير جورب . وحدث أن اشتبك عضوان من نقابة التجار فى ليستر Leicester فى تلاكم فى سوق بسطن Boston فما كان من زملائهما إلا أن فرضوا عليهما غرامة قدرها برميل من الجعة ، يشربه أعضاء النقابة[٩٠] . وكان لكل نقابة

طائفية عيد سنوى تمجد فيه شفيعها القديس ، يبدأ بصلاة قصيرة يقضون بعدها اليوم كله يدمنون الشراب . وكانت النقابة تشترك فى تمويل كنائس المدينة صغيرها وكبيرها وتزيينها ، وفى إعداد التمثيليات الدينية التى نشأت منهـــا المسرحيات الحديثة وفى تمثيلها . وكان كبار رجالها يمشون فى الاستعراضات البلدية بأثوابهم الزاهية ، رافعين أعلام حرفهم فى مواكب فخمة . وكانت تؤمن أعضاءها من الحريق ، والفيضان ، والسرقة ، والسجن ، والعجز ، والشيخوخة(٩١) . وكانت تنشئ المستشفيات ، وبيوت الصدقات ، وملاجئ الأيتام والمدارس ؛ وتتحمل نفقات جنازات الموتى والصلوات التى تنجى أرواحهم من العذاب فى المطهر ، وقلما كان الأغنياء من أعضائها ينسونها فى وصاياهم .

وكان أرباب الحرف فى كل صناعة ممنوعين عادة من الانضمام إلى نقابات التجار الطائفية ، وإن كانوا خاضعين لنظمها الاقتصادية وسلطانها السياسى ، ولهذا أخذوا فى القرن الثانى عشر يؤلفون فى كل بلدة نقابات طائفية خاصة بهم ، فنجد فى ١٠٩٩ نقابات لطوائف النساجين فى لندن ولنكلن ، وأكسفورد ، وحذا حذوهم بعد قليل من ذلك الوقت القصارون ودابغو الجلود ، والقصابون ، والصياغ . . . وانتشرت هذه النقابات الطائفية فى القرن الثالث عشر فى جميع أنحاء أوربا وسميت فيها بأسماء مختلفة كأرباب الحرف ، والجمات ، فكان فى مدينة البندقية منها ثمان وخمسون ، وفى جنوى ثلاث وثلاثون ، وفى فلورنس إحدى وعشرون ، وفى كولونى ست وعشرون ، وفى باريس مائة . وفى عام ١٢٤٥ أصدر إتين بوالو Etienne Boileau « شهبندر التجار » فى أيام لويس التاسع « كتاباً للحرف » رسمياً أثبت فيه القواعد والنظم الخاصة بمائة نقابة طائفية ونقابة قائمة فى باريس . ومما يثير الدهشة ما يحتويه هذا التثبت من تقسيم للعمل : فكانت فى صناعة الجلد مثلا اتحادات خاصة بعمال السلخ ، والدباغة ، والأساكفة ، وصناع عدد الخيل ، وصناع السروج ، وصناع الأدوات

الجلدية الدقيقة . وكان فى النجارة اتحادات خاصة بكل من عمال الصناديق ، والأثاث ، وبناء السفن ، وصناع العجلات ، والبراميل ، وفاتلى الحبال . كانت كل نقابة طائفية تحرص على أسرار حرفتها ، وتحيط ميدان عملها بسياج يصد عنه من لا ينتمى إليه ، وتشغل نفسها بكثير من المنازعات القضائية الخاصة بهذه الحرفة(٩٢) .

وكانت نقابة الحرف الطائفية تتخذ لها شكلا دينيا ، وقديساً شفيعاً ، وتنزع إلى الاحتكار ؛ وكانت فى هذا كله تساير روح العصر الذى تعيش فيه . ولم يكن فى وسع أحد عادة أن يشتغل بحرفة إلا إذا كان عضواً فى النقابة الخاصة بها(٩٣) وكان جميع المنتمين إلى الحرفة هم الذين يختارون زعماءها مرة فى كل عام ، ولكنهم كانوا كثيراً ما يختارون لأقدميتهم فى النقابة أو لثروتهم . وكانت أنظمة النقابة — بالقدر الذى تسمح به نقابات التجار ، وأوامر البلديات ، والقوانين الاقتصادية — تعين الأحوال التى يعمل فيها أعضاؤها ، والأجور التى يتقاضونها ، والأثمان التى يحددونها . وكانت قواعد النقابات تحدد عدد الرؤساء فى كل منطقة ، وعدد الصبيان الذين يدربون عند كل رئيس ، وتحرم استخدام نساء فى الصناعات عدا زوجة الرئيس ؛ كما كانت تحرم استخدام الرجال بعد الساعة السادسة مساء ، وتعاقب الأعضاء لما يطلبونه من أثمان عالية ، وما عساهم يقدمون عليه من معاملات غير شريفة أو يصنعونه من سلع يستخدمون فيها مواد بالية . وكانت النقابة فى كثير من الأحيان تدمغ منتجاتها بطابعها أو علامتها التجارية ليكون هذا شهادة منها بجودة نوعها ، وكان هذا العمل موضع فخر لها(٩٤) ؛ وقد أخرجت نقابة النسيج فى بروج من المدينة عضواً من أعضاء النقابة زور طابع مدينة بروج على بضاعة رديئة(٩٥) . وكانت النقابة تعارض فى قيام المناقشة بين الرؤساء فى زيادة مقدار الإنتاج أو خفض ثمنه ، خشية أن يتمكن أعظم الرؤساء مهارة أو أكثرهم جداً من أن يزيدوا ثروتهم على حساب غيرهم من الرؤساء ،

ولكنها كانت تشجع المنافسة التى تقوم بين الرؤساء أو بين المدن لتحسين نوع المنتجات . وكانت نقابات الحرف تقوم بما تقوم به نقابات التجار من بناء المستشفيات والمدارس ، وتقوم بالتأمين المختلف الأنواع ، وتقدم المعونة إلى الفقراء من أعضائها ، والبائنات إلى بناتهم ، وتدفن موتاهم ، وتعنى بأراملهم ، وتتبرع بالعمال والمال لبناء الكنائس الصغيرة والكبيرة ، وتصور العمليات التى تؤديها ، وتنقش شاراتها على زجاج الكنائس .

ولم تمنع النزعة الأخوية بين رؤساء نقابات الحرف أن يكون فيها درجات متفاوتة فى العضوية والسلطان ، فكان فى الدرجة السفلى منها صبى التمرين الذى يبلغ العاشرة أو الثانية عشرة من العمر ، يرسله والداه ليعيش مع صانع متمرن مدة من الزمن تتراوح بين ثلاث سنين واثنتى عشرة سنة ، ويقوم بخدمته فى حانوته ومنزله . وكان يمنح فى نظير هذه الخدمة الطعام ، والكساء ، والمأوى ، وتعلم الحرفة ، ويعطى فى السنين الأخيرة من الخدمة أجراً وأدوات ؛ فإذا ما قضى مدة التمرين أعطى منحة من المال يبدأ بها عمله مستقلا ، فإذا هرب من معلمه أعيد إليه وعوقب على هربه ، فإذا داوم على الهرب حرم عليه الاشتغال بالحرفة . وإذا أتم خدمته عين عاملا بالمياومة ، ينتقل من رئيس إلى رئيس ويعمل بأجر يومى . فإذا مر عليه وهو بهذه الحال عامان أو ثلاثة أعوام ، وكان لديه من المال ما يستطيع به فتح حانوت مستقل امتحن لمعرفة كفايته الفنية أمام لجنة من أعضاء نقابته الطائفية ، فإذا اجتاز الامتحان أصبح رئيساً . وكان يطلب إلى الرئيس أحياناً — ولم يكن هذا إلا فى أواخر العصور الوسطى — أن يعرض على رؤساء النقابة عينة من صنعه يرضون عنها .

وكان الصانع الذى تخرج على هذا النحو — أو الرئيس كما كانوا يسمونه — يمتلك أدواته ، وكان فى العادة ينتج سلع الاستهلاك التى يطلبها المستهلك مباشرة ، وكان هذا المستهلك فى بعض الأحيان يقدم له المادة الغفل ، وكان يحق له أن يأتى

أى وقت ليراقب سير العمل . ولم يكن الوسيط فى هذا النظام هو الذى يسيطر على المسالك القائمة بين صانع السلعة والمنتفع بها . وكانت السوق التى ينتج لها الصانع هى التى تحدد ما ينتجه ، وكانت هذه السوق عادة هى البلدة التى يقيم فيها ، ولكنه لم يكن خاضعاً لتقلبات سوق عامة أو لأهواء المستثمرين أو المشترين البعيدين عنه ؛ ولم يكن يعرف ما يطرأ على السوق من تقلبات اقتصادية جنونية بين رخاء تارة وكساد تارة أخرى . وكانت ساعات عمله كثيرة تختلف من ثمان ساعات إلى ثلاث عشرة ساعة — ولكنه كان يختارها بنفسه ، ويعمل على مهل ، ويستمتع بكثير من الأعياد الدينية ، وكان يأكل الطعام المغذى المفيد ، ويبتاع الأثاث المتين ويلبس الثياب البسيطة الطويلة الأجل ، وكانت له حياة ثقافية لا تقل عن حياة الصانع فى هذه الأيام إن لم تكن خيراً منها . نعم إنه لم يقرأ كثيراً ، وكان لهذا ينجو من كثير من السخف الباطل المضل ، ولكنه كان يشترك اشتراكاً فعلياً فى المغانى ، والمراقص ، والتمثيليات ، والشعائر الدينيه التى تقام فى بيئته ؛

وظلت النقابات الطائفية طوال القرن الثالث عشر يزداد عددها ، ويعظم سلطانها ، وكانت قيداً دمقراطياً يحد من سلطان نقابات التجار الألجركية . غير أن نقابات الصناع الطائفية أصبحت على مر الزمن أرستقراطية عمال ، تنزع إلى قصر رؤساء الصناع على أبناء الصناع أنفسهم ، وخفض أجور عمال المياومة الذين ثاروا عليها فى القرن الرابع عشر ثورات كثيرة أضعفت سلطانها ، وتضع العقبات المطردة الزيادة فى سبيل من يريدون الانضمام إليها ، أو الدخول فى البلدان التى تقوم فيها[٩٦] . على أنها كانت منظمات ممتازة لعصر صناعى ، كثيراً ما ضيقت صعاب النقل فيه الأسواق التى تصرف فيها السلع وجعلتها مقصورة على المشترين المحليين ، ولم تكن رؤوس الأموال المتجمعة من الكثرة والسيولة بحيث تكفى

لتمويل الأعمال التجارية والصناعية الواسعة النطاق . فلما ظهرت الأموال المتجمعة فقدت النقابات ، سواء كانت نقابات تجار أو أرباب حرف ، ما كان لها من إشراف على السوق ، ومن ثم فقدت ما كان لها من إشراف على ظروف العمل . وقضت الثورة الصناعية على هذه النقابات فى إنجلترا بسبب ما حل بها من نكبات ناشئة من تغير الأحوال الاقتصادية ؛ ثم ألغتها الثورة الفرنسية إلغاء فجائياً تاماً ، لأنها كانت فى نظر القائمين بهذه الثورة لا تتفق مع حرية العمل وكرامته ، وهما الحرية والكرامة اللتان كفلتهما قبل فى ساعة من ألمع الساعات .

الفصل السادس

الحكومات المحلية (القومونات)(*)

أحدثت الثورة الاقتصادية التي تمخض عنها القرنان الثاني عشر والثالث عشر ثورة أخرى في المجتمع ونظم الحكم ، شأنها في هذا شأن الثورتين اللتين تمخض عنهما القرنان الثامن عشر والعشرون . ذلك أن طبقات جديدة نشأت في عالم السلطتين الاقتصادية والسياسية ، وحققت للمدينة في العصور الوسطى ذلك الاستقلال القوى الذى نشأ عنه كثير من النزاع والخصام ، والذى بلغ غايته فى عصر النهضة .

هذا وإن الجدل الثائر حول الوراثة والبيئة يمتد أثره إلى نشأة مدن أوربا كما يمتد إلى نشأة نقاباتها ؛ ترى هل نشأت هذه المدن من البلديات الرومانية ، أو أنها أثر من آثار التطور الاقتصادى الذى ظل يجرى فى مجراه زمناً طويلا ؟ الحق أن كثيراً من المدن الرومانية قد حافظت على وجودها المستمر خلال قرون الفوضى والفقر والانحلال ؛ ولكن عدداً قليلا منها فى إيطاليا وفرنسا الجنوبية الشرقية هى التى احتفظت بالنظم الرومانية القديمة ، ولم يحتفظ بالقانون الرومانى القديم إلا أقل من هذا العدد القليل . وأما فى شمال الألب فإن قوانين القبائل الهمجية طغت على التراث الرومانى ؛ وتسربت بعض العادات السياسية السائدة فى القبيلة والقرية الألمانية إلى البلديات القديمة . وكانت الكثرة الغالبة من المدن القائمة فى شمال جبال الألب تابعة للأملاك الإقطاعية يحكمها موظفون معينون من قبل سادة الإقطاع وتتحكم إرادتهم فى شئونها ، ذلك أن النظم البلدية كانت غريبة غير مألوفة عند الفاتحين التيوتون ، أما النظم الإقطاعية فكانت هى الطبيعية

(*) هكذا كان العرب يسمون هذه الحكومات والمدن المستقلة فى إيطاليا فى رسائلهم كما ترى ذلك فى صبح الأعشى . (المترجم)

المألوفة عندهم ، ولهذا نشأت مدنية العصور الوسطى خارج إيطاليا من تطور للمراكز والطبقات والسلطات التجارية .

وقامت المدينة الإقطاعية عادة على ربوات عالية ، عند ملتقى الطرق ، أو على ضفاف المجارى المائية الحيوية ، أو عند الحدود . وكانت الصناعات والحرف المتواضعة التى يشتغل بها سكان المدن قد نشأت ببطء حول أسوار القصر الإقطاعى أو الدير المحصن ؛ ولما خفت وطأة غارات الشماليين والمجر اتسع نطاق هذا النشاط القائم خارج الأسوار ، وتكاثر عدد الحوانيت ، واستقر التجار والصناع الذين كانوا من قبل أشخاصاً عابرين وأصبحوا من أهل المدن المقيمين الدائمين . غير أن الخوف وعدم الأمان عادا فى أيام الحرب إلى ما كانا عليه من قبل ، فأنشأ الأهلون المقيمون خارج السور سوراً ثانيا أطول محيطا من الخندق الإقطاعى ليحتموا فى داخله هم وحوانيتهم وبضائعهم . وظل السيد الإقطاعى أو الأسقف يملك ويحكم هذه المدينة التى اتسعت رقعتها بوصفها جزءاً من أملاكه ، ولكن سكانها المتزايدين كان يزداد بينهم العنصر التجارى والدنيوى ، فأخذوا يتبرمون من الفروض والسيطرة الإقطاعية ، ويعملون سراً وعلناً ليستخلصوا للمدينة حريتها .

ونشأت من التقاليد السياسية القديمة والحاجات الإدارية الجديدة جمعية من المواطنين وطائفة من الموظفين ؛ وشرعت هذه الحكومة المحلية — الهيئة السياسية — تأخذ على عاتقها شيئاً فشيئاً تنظيم شئون المدينة — البقعة الجغرافية . واستخدم أفراد هذه الهيئة الذكاء الذى هو من طبيعتهم ليثيروا سيداً على سيد — الشريف على الأسقف ، والفارس على الشريف ، والملك على كل واحد من هؤلاء الثلاثة أو عليهم جميعاً . وسلك أهل المدن سبلا كثيرة مختلفة ليحصلوا بها على حريتهم : منها أن يقسموا أغلظ الأيمان أن يمتنعوا عن أداء المكوس والضرائب التى يفرضها عليهم الشريف أو الأسقف ، ويقاوموا من يريد جبايتها منهم ؛ ومنها أن يعرضوا على السيد الإقطاعى مبلغاً محدوداً من المال جملة واحدة

أو قسطا سنويا يشترون به ميثاقا ينص على حريتهم . ونال أهل المدن التى تدخل فى أملاك الملك الخاصة استقلالهم الذاتى بهبات من المال يؤدونها له أو خدمات يقومون بها فى الحرب . ومن المدن ما أعلنت استقلالها دون مبالاة ، وثارت ثورات عنيفة دفاعاً عن هذا الاستقلال . فقد حاربت مدينة تور مثلا اثنتى عشرة حرباً قبل أن تنال حريتها . وباع عدد من سادة الإقطاع المدينين أو المحتاجين ، وبخاصة من كان يستعد منهم للحروب الصليبية ، مواثيق بالحكم الذاتى للمدن التى يسيطرون عليها إقطاعياً ؛ وكانت هذه هى الطريقة التى نالت بها كثير من المدن الإنجليزية الحكم الذاتى من رتشرد الأول . ومن سادة الإقطاع ، وبخاصة فى فلاندرز ، من أعطوا مواثيق بالحرية الناقصة للمدن التى كان نماؤها الاقتصادى سبباً فى زيادة دخلهم . وقاوم رؤساء الأديرة والأساقفة هذه النزعة الاستقلالية أطول من غيرهم لأن يمينهم التى أقسموها حين تولوا مناصبهم كانت تحتم عليهم ألا ينقصوا موارد أديرتهم أو كراسيهم الأسقفية ، وهى الموارد التى كانوا يعتمدون عليها فى أداء واجباتهم الكثيرة ، ومن أجل هذا كان كفاح المدن ضد حاكميها من رجال الدين شاقاً مريراً إلى أقصى حد .

وكان ملوك أسپانيا يبسطون رعايتهم على الحكومات المحلية ليتخذوها معولا لتقويض سلطان الأشراف المشاكسين ، ولهذا كانت المواثيق التى منحوها للمدن كثيرة بعيدة المدى فى الحرية ، وعلى هذا الأساس نالت ليون Leon عهدها من ملك قشتالة فى عام ١٠٢٠ ونالته برغوس Burgos فى عام ١٠٧٣ ، وناچيرا Najera فى عام ١٠٧٦ ، وطليطلة فى ١٠٨٥ ، ونالته بعدها بزمن قليل ، كمپستيلا Compostela ، وقادس ، وبلنسية ، وبرشلونة . وأفاد الإقطاع فى ألمانيا ، وأفادت المدن فى إيطاليا ، من الضعف الذى حل بالإمبراطورية والبابوية كلتيهما أثناء الحروب التى شبت بينهما بسبب التنازع على المناصب والسلطان وغير ذلك من أسباب الخصام بين الكنيسة والدولة ، وكان للمدن القائمة فى شمالى

إيطاليا من السلطان السياسى ما لا يكاد يعرف له نظير قبل ذلك الوقت أو بعده ؛ وكما كانت المجارى المتدفقة من جبال الألب تمد بمائها الأنهار العظيمة فى لمبارديا وتسكانيا ، فتحمل المتاجر وتخصب السهول ، كذلك كانت تجارة أقاليم أوربا الواقعة فى شمال الألب وتجارة آسية الغربية اللتان تلتقيان فى شمالى إيطاليا سبباً فى نشأة طبقة تجارية وسطى استخدمت ثروتها فى تجديد المدن القديمة ، وتشييد مدن جديدة ، وتشجيع الآداب والفنون بالمال الوفير ، وبث روح العزة والإباء التى حطمت بها أغلال الإقطاع .

وأخذ الأشراف يشنون من قصورهم الحصينة فى الريف حربا خاسرة على حركة استقلال المدن والحكم الذاتى فيها ؛ فلما خضعوا لما لا بد من الخضوع له ، انتقلوا إلى الإقامة فى المدن الكبيرة وأقسموا يمين الولاء لحكوماتها المحلية . أما الأساقفة ، الذين ظلوا قروناً طوالا الحكام الحقيقيين والحكام القادرين الحازمين لبلدان لمبارديا ، فقد خضعوا لهذه الحكومات بمساعدة البابوات ، وكانوا قد تجاهلوا هذه السلطة من زمن بعيد . فأخذنا نسمع منذ عام ١٠٨٠ عن « قناصل » يحكمون لوقا Lucca ، ثم نجدهم فى عام ١٠٨٤ فى پيزا ، وفى عام ١٠٩٨ فى أرزو Arezzo ، وفى عام ١٠٩٩ فى جنوى ، وفى ١١٠٥ فى پاڤيا ، وفى ١١٣٨ فى فلورنس . وظلت مدائن شمالى إيطاليا حتى القرن الخامس عشر تعترف بسيادة الإمبراطورية الرسمية وتصدر أوراقها الحكومية باسمها[٩٧] ؛ ولكنها كانت من الوجهة العملية الواقعية حرة مستقلة ، وقد عاد إليها العهد القديم عهد المدينة — الدولة بكل ما فيه من فوضى ومن حافز .

وتطلب تحرير المدن فى فرنسا كفاحا طويلا عنيفا فى كثير من الأحيان ؛ فقد أفلح الأساقفة الحاكمون فى لەمان Le Mans (١٠٦٩) ، وكمبرية (١٠٧٦) وريمس (١١٣٩) ، بما كانوا يصدرونه من أحكام الحرمان تارة وبالقوة تارة أخرى ، أفلحوا فى القضاء على الحكومات المحلية التى أقامها الأهلون ؛ أما فى

نوايون Noyon فقد منح الأسقف البلدة عهداً بحريتها من تلقاء نفسه (١١٠٨) ؛ وحررت سان كنتن St. Quentin نفسها فى عام ١٠٨٠ ، وبوفيه فى ١٠٩٩ ، ومرسيليا فى ١١٠٠ ، وأمين Amiens فى ١١١٣ ، واغتنم أهل لاؤن Laon غياب أسقفهم الفاسد فى عام ١١١٥ فأنشأوا فيها حكومة ذاتية ؛ فلما عاد رشوه بالمال حتى أقسم أن يحميها ، ثم أغرى الملك لويس السادس بعد عام من ذلك الوقت بأن يقضى عليها . ونرى فى وصف الراهب جويبرت النوچنتى Guibert of Nogent لما حدث بعدئذ مثلا من عنف ثورة المدن فى سبيل الحكم الذاتى :

فى اليوم الخامس من أسبوع عيد الفصح . . . علا صخب مضطرب فى جميع أنحاء المدينة ، وأخذ الناس ينادون بأعلى أصواتهم « الحكم الذاتى المحلى » ! ... ودخل أهل المدينة وقتئذ فناء الأسقف ، مشرعة سيوفهم ، وبلطهم الحربية الصغيرة والكبيرة ، وأقواسهم ، وعصيهم الضخمة ، وحرابهم ، وكانوا جماعة جد كبيرة . . . وهرع الأشراف من كل فج ليساعدوا الأسقف . . . فقاوم هو وبعض أعوانه الأهلين بالحجارة والسهام . . . وخبأ نفسه فى برميل . . . وأخذ يتوسل إليهم توسلا يبعث الرحمة والأسى فى النفوس ، ويعدهم بأنه لن يكون أسقفهم بعد ذلك اليوم ، وأنه سيهبهم ثروة لا حد لها ، ويغادر البلاد . وبينا كانوا هم يسخرون منه بقلوبهم المتحجرة ، إذ رفع رجل منهم يدعى برنار بلطته الحربية ، وأطار بها مخ ذلك الرأس المقدس الآثم ؛ وانفلت هو من الأيدى الممسكة به ، ومات قبل أن يصل إلى الأرض إذ عاجلته ضربة أخرى تحت وقب عينه وفوق أنفه . فلما قضى نحبه قطعت ساقاه ، وأثخن بالجراح ؛ وأبصر ثيبوت Thibaut فى إصبع الأسقف خاتماً لم يقو على انتزاعه منها ، فقطعها[٩٨] .

ودام هذا الكفاح مائة عام ؛ وقتل الأهلون فى ڤيزلاى Vézelay (١١٠٦) أرنود Arnaud رئيس الدير ، وأقاموا فيها حكومة محلية ؛ وثارت أورليان فى عام ١١٣٧ ، ولكن ثورتها لم تفلح . ومنح لويس السابع مدينة سان Sens عهداً

بحريتها فى عام ١١٤٦ ، ولكنه ألغى هذا العهد بعد ثلاث سنين بناء على طلب من رئيس الدير الذى كانت تلك البلدة ضمن أملاكه ؛ ثم قتل أهل المدينة رئيس الدير وابن أخيه ، ولكنهم عجزوا عن إعادة الحكومة المحلية . وواصل أسقف تورناى الحرب الأهلية ست سنين (١١٩٠ — ١١٩٦) ليقضى على حكومتها المحلية ، وأصدر البابا قرار بحرمان جميع أهل المدينة من الكنيسة ؛ وثار أهل رون فى يوم أحد الفصح من عام ١١٩٤ ونهبوا بيوت قساوسة كنيستها الكبرى ، وفى عام ١٢٠٧ أصدر البابا قرارا الحرمان على المدينة . وفى عام ١٢٣٥ استولى العامة على الحجارة التى جىء بها إلى المدينة لبناء كنيستها ، واتخذوها قذائف ومتاريس فى الثورة التى قاموا بها على أكبر رئيس دينى فى غالة ، وولى هو ومن معه من رجال الدين الأدبار ، ولم يعودوا إلا بعد عامين من ذلك الوقت ، لما أن حمل البابا لويس السابع على إلغاء الحكومة المحلية . وعجزت كثير من مدن فرنسا على نيل حريتها إلى أن قامت الثورة الكبرى ، ولكن الكثرة الغالبة من المدن الفرنسية نالت حريتها بين عامى ١٠٨٠ ، و ١٢٠٠ ، وبدأت أزهى عصورها بفضل ما بعثته فيها الحرية من روح دافعة قوية . وكانت الحكومات المحلية هى التى أنشأت الكنائس القوطية الكبرى .

وضم الملوك فى إنجلترا المدن إليهم فى كفاحهم ضد الأشراف بأن منحوا هذه المدن عهوداً تحقق لها قسطاً محدوداً من الحكم الذاتى . فقد منح وليم الفاتح مدينة لندن عهداً من هذه العهود ؛ ومنح هنرى الثانى مدائن لنكلن ، ودرهام ، وكارليل Carlisle ، وبرستل ، وأكسفورد ، وسلزبرى ، وسوثمبتن عهوداً شبيهة بهذا العهد ؛ وابتاعت كمبردج فى عام ١٢٠١ لنفسها حقوق الحكم المحلى من الملك يوحنا . ونزل الأشراف الحاكمون فى فلاندرز عن كثير من الحقوق لمدائن غنت ، وبروج ، ودويه ، وتورناى ، وليل . . . ولكنهم تغلبوا على جميع ما بذلته المدن من محاولات للحصول على الاستقلال البلدى التام . وحصلت مدائن ليدن Lyden

وهارلم Haarlem ، ورتردام ، ودرودرخت Drodrecht ، ودلفت Delft وغيرها من المدن الهولندية فى القرن الثالث عشر على عهود بالحكم الذاتى المحلى . أما فى ألمانيا فقد تطلب تحرير مدنها زمناً طويلا ، وكان هذا التحرير فى الغالب بطريق السلم ؛ فقد منح الأساقفة الذين ظلوا عدة قرون يحكمون المدن حكماً إقطاعياً من قبل الأباطرة ، إلى مدائن كولونى ، وتريير Trier ، ومتز ، ومينز ، واسپير ، واسترسبورج ، وورمز ، منحوا هذه المدن حق اختيار موظفيها وسن قوانينها .

ولم تطو صحيفة القرن الثالث عشر حتى كانت الثورة القائمة فى سبيل الحكم المحلى قد تم لها النصر فى أوربا الغربية ، فقد خلعت المدن عن عاتقها نير سادتها الإقطاعيين ، وتخلصت من الضرائب والمكوس الإقطاعية أو خفضتها ، وحددت حقوق رجال الدين فى أضيق نطاق ، وإن كانت كثرتها الغالبة لم تنل حريتها كاملة . وحرمت المدن الفلمنكية إنشاء أديرة جديدة ، والإيصاء بالأرض إلى الكنائس ؛ وضيقت نطاق ما كان لرجال الدين من حق فى أن يحاكموا أمام المحاكم الكنسية ، ونازعتهم حقهم فى أن يشرفوا على المدارس الابتدائية(٩٩) . وكان رجال الطبقة الوسطى من التجار هم المسيطرين على الحياة البلدية والاقتصادية ، واعترف بنقابات التجار الطائفية فى كل الحكومات المحلية تقريباً بأنها هيئات ذات حكم ذاتى . وكانت الحكومة المحلية هى ونقابة التجار الطائفية فى بعض الأحيان هيئة واحدة ؛ ولكنهما كانتا فى العادة منفصلتين إحداهما عن الأخرى . غير أن الحكومة المحلية قلما كانت تعارض مصالح النقابات الطائفية ؛ وليس أدل على هذا من أن نقابات المدينة الطائفية هى التى كانت تختار عمدة Lord Mayor لندن ؛ ذلك أن امتلاك المال قد أصبح وقتئذ ولأول مرة فى مدى ألف عام ذا سلطان أقوى من سلطان امتلاك الأرض ، وأخذ سلطان المال الآخذ فى الازدياد يتحدى سلطان الأشراف ورجال الدين . ووجهت طبقة التجار الوسطى ثروتها ، ونشاطها ، وقدرتها للحصول على المنافع السياسية ووجهتها بدرجة أعظم مما كانت

توجه فى الزمن القديم ، وإن كان ذلك عظيما فى ذلك الوقت نفسه ؛ فقد حرمت الفقراء فى معظم المدن من المجالس والوظائف العامة ، واستبدت بالفلاح والصانع ، واحتكرت مكاسب التجارة ، وأرهقت الأهلين بالضرائب الفادحة ، وأنفقت معظم إيراد الحكومة المحلية فى المنازعات الداخلية أو الحروب الخارجية التى تبغى بها الاستحواذ على الأسواق والقضاء على المنافسين . وحاولت أن تقضى على هيئات الصناع ، وحرمت عليهم حق الإضراب ، وإلا تعرضوا للإعدام أو النفى ، وكان ما تضعه من القواعد لتحديد الأثمان والأجور يهدف إلى مصالحها هى ، وإلى إلحاق الأذى الشديد بالطبقة العاملة(١٠٠) . وحدث وقتئذ ما حدث فى أيام الثورة الفرنسية ، فكانت هزيمة سادة الإقطاع نصراً لطبقة رجال الأعمال أكثر مما كانت لسائر الطبقات .

غير أن الحكومات المحلية للمدن كانت على الرغم من هذه المساوئ تأكيداً جليلا للحرية الإنسانية ؛ فقد كان سكان المدينة إذا سمعوا دقات الجرس من برجها يسارعون إلى الاجتماع ليختاروا حكامها ، وكان للمدن جيشها الإقليمى الخاص بها ، تدافع به عن نفسها أقوى الدفاع ، حتى استطاعت أن تهزم به جيوش الإمبراطور المدربة فى لنيانو (١١٧٦) ، وحاربت به بعضها بعضها حتى أنهكت قواها جميعاً . نعم إن مجالسها الإدارية لم تلبث أن ضعف نظامها حتى أضحت أرستقراطية من التجار ، ولكن الجمعيات البلدية كانت أولى الحكومات النيابية منذ عهد تيبيريوس ، وكانت هى لا العهد الإنجليزى الأعظم Magns Carta مبدأ الدمقراطية الحديثة (١٠١) ؛ وهى التى أحلت مناقشة الشهود مناقشة قانونية منظمة محل البقايا الرجعية للقوانين الإقطاعية والقبلية — الأيمان ، والمبارزة ، والتحكيم الإلهى — واستبدلت بالفداء أو ثمن الدم الغرامات أو السجن أو العقاب البدنى ، وهى التى قللت من المماطلة والتأجيل فى تطبيق القانون ، وأحلت التعاقد القانونى محل العلاقات الإقطاعية والولاء الإقطاعى ، ونشأت فيها

مجموعة كاملة جديدة من القوانين المنظمة لشئون المال والتجارة قامت على أساسها حياة جديدة فى أوربا :

وسرعان ما استحالت هذه الدمقراطية الفتية نظاما اقتصاديا شبه اشتراكى تحت إشراف الدولة . فكانت الحكومة المحلية للمدينة تسك عملتها ، وتنظم الأشغال العامة وتشرف عليها ، وتنشئ الطرق ، والقناطر ، وتشق القنوات ، وترصف بعض شوارع المدينة ، وتنظم توريد المؤن لها ، وتحرم الإجباء(*) ، والاحتكار ، وابتياع السلعة كلها من السوق ، وأوجدت الاتصال المباشر بين البائع والمشترى فى الأسواق والمواسم التجارية ؛ وفحصت عن المكاييل والمقاييس ، وفتشت السلع ، وعاقبت من يغش فيها ، وفرضت الرقابة على الصادرات والواردات ، وخزنت الحبوب للسنين العجاف ، وأمدت السكان بالحبوب بأثمان معتدلة فى أوقات الأزمات ، ونظمت أثمان الأطعمة الأساسية والجعة . وكانت إذا وجدت أن الثمن الذى حددته لسلعة مرغوب فيها منخفض انخفاضاً يقلل إنتاجها ، أجازت لبعض أثمان الجملة أن توازن نفسها بطريق المنافسة ، ولكنها أنشأت محاكم أو « جلسات » للخبز والجعة تعمل على بقاء أثمان الأشتات فى هاتين السلعتين متناسبة تناسبا دائما مع أثمان القمح أو الشعير(١٠٢) . وكانت بين الفينة والفينة تنشر قوائم بالأثمان المعتدلة ، مفترضة أنه لا بد أن يكون لكل سلعة « ثمناً عادلا » يتضمن ثمن المادة المصنوعة منها وأجر العمل اللازم لإنتاجها ، وقد أغفلت هذه النظرية عامل العرض والطلب وما يطرأ على قيمة النقد من تقلبات . واحتكرت بعض الحكومات المحلية — مثل حكومة بال Basel وجنوى تجارة الملح ، كما احتكرت غيرها مثل حكومة نورمبرج صنع خمورها ، ومنها ما كانت تخزن الحبوب فى مخازن البلدية(١٠٣) . وكانت الضرائب الجمركية الحامية التى

(*) أجبأ الزرع باعه قبل بدء صلاحه . (المترجم)

تفرضها البلديات تحول دون تداول البضائع(١٠٤) ، كما كان يعطل هذا التداول أحياناً إرغام أصحاب التجارة العابرة على أن يعرضوا بضاعتهم للبيع فى المدينة قبل أن تخرج منها(١٠٥) . وكان يحدث فى تلك الأيام ما يحدث فى أيامنا هذه فيحتال بعض المواطنين المتمردين للخروج على هذه القواعد ؛ كما كانت الأسواق السوداء كثيرة العدد(١٠٦) ، وكانت الأضرار الناشئة من بعض هذه القيود أكثر من نفعها ، ولهذا أهملت بعد زمن قليل .

غير أننا يحق لنا أن نقول بوجه عام أن ما قامت بها الحكومات المحلية لمدائن العصور الوسطى من أعمال ينطق بمهارة رجال الأعمال الذين كانوا يشرفون عليها وبشجاعتهم . فقد استمتعت أوربا بفضل توجيههم الحكيم فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر برخاء لم تعرف له مثيلا منذ سقوط رومة . وتكاثر سكان أوروبا فى عهد هذا النظام تكاثراً لم يكن له نظير منذ ألف عام على الرغم من انتشار الأوبئة والمجاعات والحروب . وكان أولئك السكان قد أخذوا يتناقصون فى القرن الثانى ، وأكبر الظن أنهم وصلوا إلى الحد الأدنى فى القرن التاسع ؛ ثم أخذ عددهم يزداد مرة أخرى فى الفترة الواقعة بين القرن الحادى عشر والموت الأسواد (١٣٤٩) بفضل انتعاش التجارة والصناعة ؛ ويغلب على الظن أن أهل الإقليم المحصور بين الموزل والرين قد تضاعفوا عشرة أضعاف ، ولعلهم بلغوا فى فرنسا عشرين مليوناً ، أى أنهم لايكادون يقلون عما كانوا عليه فى القرن الثانى عشر(١٠٧) . وقد كان من آثار الثورة الاقتصادية أن أخذ السكان يهاجرون من القرى إلى المدن . نعم إن القسطنطينية البالغ عدد سكانها ٨٠٠ر٠٠٠ ، وقرطبة وبالرم البالغ عدد سكانهما نصف مليون كانتا مزدحمتين بالسكان من زمن بعيد ؛ ولكن عدداً قليلا من المدن القائمة فى شمال جبال الألب هى التى كان يسكنها قبل عام ١١٠٠ أكثر من ثلاثة آلاف نسمة(١٠٨)

وقبل أن يحل عام ١٢٠٠ كان فى باريس نحو مائة ألف ، وفى كل من دويه ، وليل ، وإيبر ، وغنت ، وبروج نحو خمسين ألفاً ؛ وكان فى لندن عشرون ألفاً ؛ وقبل أن يحل عام ١٣٠٠ كان فى باريس ١٥٠٫٠٠٠ ألفاً ، وفى البندقية ، وميلان ، وفلورنس مائة ألف[١٠٩] ، وفى سينا Siena ومودينا ٣٠٫٠٠٠[١١٠] ، وفى لوبك ، ونورمبرج ، وكولونى ٢٠٫٠٠٠ ، وفى فرانكفورت ، وبال ، وهمبرج ، ونوروك ، ويورك ١٠٫٠٠٠ . وغنى عن البيان أن هذه الأرقام تقريبية وأنها عرضة إلى الخطأ الكبير .

وكان ازدياد السكان نتيجة من نتائج التطور الاقتصادى وسببا من أسبابه فى آن واحد : فأما أنه نتيجة من نتائج هذا التطور فلأن الناس أصبحوا يأمنون على أنفسهم وأموالهم أكثر من ذى قبل ، وأنهم صاروا أقدر مما كانوا على استغلال مصادر الثروة الطبيعية بفضل تقدم الصناعة ، وأن الأطعمة والسلع قد زاد انتشارها بفضل رواج التجارة وازدياد الثروة . وأما أنه كان سببا من أسبابه فلأنه أوجد أسواقاً مطردة الاتساع للتجارة والصناعة ، للأدب ، والتمثيل ، والموسيقى ، والفن ، وكان تنافس الحكومات المحلية وتفاخرها سبباً فى توجيه ثروتها إلى بناء الكنائس ، وأبهاء المدن ، وأبراج النواقيس ، والفساقى ، والمدارس ، والجامعات ؛ وعبرت الحضارة البحار والجبال فى إثر التجارة ؛ فانتقلت من بلاد الإسلام وبيزنطية إلى إيطاليا ، وأسبانيا ، وتخطت جبال الألب إلى ألمانيا ، وفرنسا ، وفلاندرز ، وبريطانيا . وأصبحت العصور المظلمة إحدى الذكريات الماضية ، وتمخضت أوربا مرة أخرى عن حياة فنية نشيطة .

وليس من حقنا أن ندعى أن مدينة العصور الوسطى هى المثل الأعلى لما يجب أن تكون عليه المدن . نعم إنها تبدو للناس فى هذه الأيام فى صورة جميلة ، يتوج تلاً فيها قصر منيع ، ويحيط بها سور ذو أبراج ، فيها بيوت وأكواخ ، وحوانيت ذات سقف من القش أو القرميد تزدحم حول الكنيسة أو القصر الحصين

أو الميدان العام . ولكننا يجب أن نضيف إلى هذه الصورة أن شوارعها كانت أزقة ضيقة ملتوية ، (وتلك أحسن وسيلة للدفاع ومنع وهج الشمس) يسير فيها الناس والماشية على وقع حوافر الدواب وطقطقة الأحذية الخشبية ، وأصوات المارة وهم سائرون فيها على مهل فى ذلك العصر الذى لم تكن فيه آلات تريح عضلاتهم وتبلى أعصابهم . وكانت تحيط بكثير من مساكن المدينة حدائق ، وأخنان الدجاج ، وحظائر الخنازير ، ومراعى البقر ، وأكوام الروث . وكانت لندن من المدن الشديدة على أهلها ، فأمرت «كل من يربى خنزيراً أن يحتفظ به فى بيته » ، أما فى غيرها فقد كانت الخنازير تجوس بملء حريتها خلال أكوام الفضلات المكشوفة[١١١] . وكانت الأمطار تملأ الأنهار من حين إلى حين فتطغى على الحقول والمدن ، حتى كان الناس يسيرون بالقوارب تدفعها المجاذيف إلى قصر وستمنستر[١١٢] . وكانت الشوارع تظل بعد المطر مليئة بالوحل عدة أيام ؛ وكان الرجال وقتئذ يحتذون أحذية طويلة ، وأما النساء فكن يحملن فى عربات وكراسى تتقلب من حفرة إلى حفرة . وقد رصفت بعض المدن شوارعها الرئيسية بالحجارة فى القرن الثالث عشر ، أما الكثرة الغالبة منها فقد ظلت شوارعها غير مرصوفة ، تتعثر فيها الأقدام وتنبعث منها الروائح الكريهة . وكانت للأديرة والقصور الحصينة وسائل صالحة لصرف الفضلات[١١٣] ، أما الأكواخ فلم يكن لها شىء من هذا ، وكانت فى أماكن متفرقة من المدينة ميادين كلَيئة ، بها مضخة يستقى منها الناس وحوض ترتوى منه الحيوانات المارة .

وكانت بيوت المدن القائمة فى شمالى الألب كلها تقريبا من الخشب ، ولم يكن فيها بيوت من الآجر أو الحجارة إلا بيوت أغنى الأشراف والتجار ، وكانت الحرائق كثيرة ، وإذا شبت انتشرت فى معظم الأحيان فى جميع المدينة لا يعوقها

عائق . ولنضرب لذلك مثلا مدائن رُوَن ، وبوفيه ، وأراس ، وترواى ، وپروڤن ، وپواتيه ، ومواساك Moissac فقد دمرتها كلها الحرائق فى عام ١١٨٨ ، ودمرت رون النارست مرات بين عامى ١٢٠٠ ، ١٢٢٥[١١٤] ، ولم يعتد الناس صنع السقف من القرميد إلا فى القرن الرابع عشر ، وكانت النار تكافح بالدلاء تستخدمها فرق باسلة عاجزة ، وكان فى المدينة خفراء مسلحون بخطاطيف طويلة يهدمون بها البيت المحترق إذا كان وجوده خطراً على غيره من البيوت . وإذ كان الأهلون جميعاً يرغبون فى السكنى بجوار القصر الحصين ليأمنوا بذلك على أنفسهم وأموالهم ، فقد كانت المبانى ترتفع عدة أطباق تصل أحياناً إلى ستة ، وكانت الأطباق العليا تبرز فى الشارع بروزا يكسبها روعة ويجعلها خطراً يهدد المارة . وكانت المدن تصدر قرارات تحدد بها ارتفاع المبانى .

وكان فى وسع الأهلين أن يستمتعوا بالحياة فى مدينة العصور الوسطى على الرغم من هذه الصعاب التى قلما كان يحس بها الناس ، لأنها كانت تعمهم كلهم تقريباً ، فقد كانت الأسواق مزدحمة بالناس ، وكان حديثهم كثيراً ، وأثوابهم وبضائعهم زاهية جذابة ، وكان البائعون الجائلون ينادون على سلعهم بأعلى أصواتهم ، والصناع لا ينقطعون عن الاشتغال بحرفهم . وربما كان بعض الممثلين الجائلين يقومون بتمثيل مسرحية دينية فى أحد الميادين ، أو موكب دينى يسير أحياناً فى أحد الشوارع يشترك فيه التجار المزهوون ، والصناع الأقوياء ، ورجال الدين بأثوابهم الوقورة ، ورجال الدنيا بثيابهم الزاهية ، وترتل فيها الأناشيد . أو تكون كنيسة فخمة تشاد فى المدينة ، أو تطل فتاة حسناء من شرفة منزل ، أو تدق نواقيس برج المدينة تدعو المواطنين إلى الاجتماع أو إلى امتشاق الحسام . وفى المساء تدق الأجراس تهيب بالأهلين أن يعودوا سراعاً إلى بيوتهم ،

لأن الشوارع كانت محرومة من الأضواء ، ما عدا ضوء الشموع يتراءى من نوافذ البيوت وضوء مصباح هنا وهنا أمام ضريح . فإذا أراد كبير من أهل المدينة أن يسير فيها ليلا سبقه خدمه يحملون المشاعل أو الفوانيس والسلاح لأن رجال الشرطة قلما كان لهم وجود . وكان المواطن الحكيم يبكر فى العودة إلى داره فراراً من ملل الليالى الظلماء ، وعلماً منه بأن الديكة سوف توقظه بصياحها فى مطلع الفجر ، وأن العمل فى انتظاره يطلب إليه أن ينجزه .

الفصل السابع

الثورة الزراعيـــة

وبدّل نمو الصناعة والتجارة ، وانتشار الاقتصاد النقدى ، وازدياد الطلب على العمال فى المدن ، بدّل هذا كله نظام الزراعة تبديلا كبيراً . ذلك أن البلديات لحرصها على أن تظفر بعمال جدد أعلنت أن أى شخص يقيم فى مدينة ٣٦٦ يوماً دون أن يطلبه سيد إقطاعى ، ويتحقق من شخصيته ، ويستولى عليه لأنه من أرقاء أرضه ، أى شخص تنطبق عليه هذه الشروط يصبح من تلقاء نفسه حراً ، يتمتع بحماية قوانين حكومة المدينة وسلطانها . وذهبت فلورنس إلى أبعد من هذا فدعت فى عام ١١٠٦ جميع الفلاحين المقيمين فى القرى المجاورة لها للمجىء إليها والإقامة فيها أحراراً ؛ ودفعت بولونيا Bologna وغيرها من المدن المال إلى سادة الإقطاع لكى يسمحوا لأرقاء أراضيهم بأن ينتقلوا إلى المدن . وفر عدد كبير من أرقاء الأرض أودعوا ليفلحوا أرضين جديدة فى شرق نهر الإلب ، وأصبحوا فيها أحراراً من تلقاء أنفسهم .

أما الذين بقوا فى ضياع سادة الإقطاع فقد أخذوا يعارضون فى أداء الضرائب والرسوم الإقطاعية التى أضحت لطول العهد بأدائها مقررة واجبة الأداء ؛ ونشأت من هذه المعارضة متاعب جمة . وحذا كثير من أرقاء الأرض حذو عمال المدن فأنشأوا لهم جمعيات ريفية ، وأقسموا أن يعملوا مجتمعين للامتناع عن أداء الرسوم والضرائب الإقطاعية ، ثم سرقوا أو أتلفوا ما عند سادتهم من وثائق تسجل استرقاقهم أو التزاماتهم ، وأحرقوا قصور المعاندين من أولئك السادة ، وأنذروهم بأنهم سيغادرون أملاكهم إذا لم يجيبوا مطالبهم . وفى عام ١١٠٠ أعلن أرقاء الأرض فى سانت ميشيل — ده — بوفيه أنهم سيتزوجون من تلك الساعة

بأية امرأة يرغبون فى زواجها ، وسيزوجون بناتهم من أى شخص يرغبون فيه . وفى عام ١٢٠٢ رفض أرقاء الأرض فى سانت أرنول — ده — كريبي St. Arnoul de - Crépy أن يؤدوا إلى سيدهم رئيس الدير ضريبة الأموات التقليدية أو الغرامة التى تفرض عليهم إذا زوجوا بناتهم خارج أملاك سيدهم . وشبت فتن أخرى من هذا النوع فى أكثر من عشر مدن منتشرة من فلاندرز إلى أسپانيا ، حتى وجد سادة الإقطاع أن من العسير عليهم أن يحصلوا على ربح من استخدام أرقاء الأرض ، وزادت هذه الصعوبة أمامهم على مر الأيام . ذلك أن ضروب المقاومة المتزايدة كانت تتطلب منهم إشرافاً مستمراً كثير النفقة فى كل مرحلة من مراحل العمل ؛ وكان عمل هؤلاء الأرقاء فى حوانيت الضيعة أكثر نفقة وأقل جودة من العمل الحر الذى يخرج السلع نفسها فى المدن .

وأراد سادة الإقطاع أن يستبقوا الفلاحين فى أرضهم ، ويجعلوا عملهم مربحاً لأولئك السادة ، فاستبدلوا بالقروض الإقطاعية القديمة مقادير من المال تؤدى دفعة واحدة ، وباعوا أرقاء الأرض حريتهم بأثمان يؤدونها من مدخراتهم ، وآجروا مساحات متزايدة من أرضهم إلى الفلاحين الأحرار بأجر نقدى ، واستأجروا عمالا أحراراً يعملون فى حوانيت ضياعهم . وحذت أوربا الغربية حذو بلاد الشرق الإسلامية والبيزنطية فشرعت من بداية القرن الحادى عشر إلى القرن الثالث عشر تنتقل انتقالا يزداد عاما بعد عام من الدفع عيناً فى أكثر الأحوال إلى الدفع نقداً فى معظمها . واشتدت رغبة ملاك الأراضى الإقطاعيين فى الحصول على السلع المصنوعة التى يعرضها التجار عليهم ، فزادت رغبتهم فى المال يبتاعون به هذه السلع ؛ ولما ساروا إلى قتال المسلمين فى الحروب الصليبية كانوا أحوج إلى المال منهم إلى الطعام والبضائع . كذلك كانت الحكومات تطالب بأداء الضرائب نقداً لا عيناً ؛ فلم ير الملاك بداً من الخضوع إلى مقتضيات الظروف ، فباعوا محصولاتهم بالنقود العاجلة بدل أن يستهلكوها بالهجرة الشاقة

المتعبة من قصر ريفى إلى قصر آخر مثله . وكان هذا الانتقال إلى الاقتصاد النقدى كثير النفقة على الملاك الإقطاعيين . ذلك أن إيجار أرضهم والأموال التى كانوا يحصلون عليها من الزراع نظير الرسوم المفروضة عليهم قد أصبح لها من الثبات فى العصور الوسطى ما للعادات المألوفة ، ولم يكن فى مقدورهم أن يزيدوها بنفس السرعة التى تنخفض بها قيمة النقد ؛ ولذلك اضطر كثيرون من الأشراف إلى بيع أرضهم — وباعوها عادة إلى رجال الطبقة الوسطى الناشئة . وحسبنا دليلا على هذا أن بعض النبلاء قد ماتوا من زمن بعيد أى منذ عام ١٢٥٠ وهم لا يملكون أرضاً ، ومنهم من مات فقيراً معدما[١١٥] . وكان من نتيجة هذه الأحوال أن أعتق فليب الجميل ملك فرنسا جميع أرقاء الأراضى الملكية فى أوائل القرن الرابع عشر ، وأن أمر ابنه لويس العاشر فى عام ١٣١٥ بتحرير جميع أرقاء الأرض « بشروط عادلة صالحة »[١٦٦] . وأخذ نظام رقيق الأرض يتلاشى شيئاً فشيئاً فى عدد من البلاد المختلفة الواقعة غرب نهر الإلب وذلك فى أوقات مختلفة من بداية القرن الثانى عشر إلى نهاية القرن السادس عشر ، وحلت محلها ملكية الفلاحين لأرضهم ، ونقسمت ضياع الإقطاع الكبرى إلى مزارع صغيرة ، وحصل الفلاحون فى القرن الثالث عشر على درجة من الحرية والرخاء لم يستمتعوا بمثلها مدى ألف عام . وفقدت المحاكم الإقطاعية ما كان لها من سلطان على الفلاحين ، وأخذ سكان القرى يختارون حكامهم ، ولم يكن هؤلاء يقسمون يمين الولاء لسيد الإقطاع المالك لأرضهم بل للملك نفسه . على أن تحرير رقيق الأرض فى أوربا الغربية لم يتم كله قبل عام ١٧٨٩ ، فقد ظل عدد كبير من سادة الإقطاع يطالبون بحقوقهم القديمة من الوجهة القانونية ، ولقد حاولوا فى القرن الرابع عشر أن يستعيدوها من الوجهة العملية ؛ غير أن الحركة التى تهدف إلى العمل الحر المتنقل لم يكن يستطاع وقفها طالما كانت التجارة والصناعة آخذتين فى النماء .

وكان الحافز الجديد للحرية ، مضافاً إلى اتساع الأسواق الزراعية ، من أسباب تحسن أساليب الزراعة ، وأدواتها ، ومحصولاتها ، كما كان تكاثر سكان المدن ، وازدياد الثراء ، والأساليب الجديدة التي يسرت الأعمال التجارية والمالية ، كل هذا كان سبباً في اتساع نطاق الاقتصاد الريفي وزيادة غناه . وتطلبت الصناعات الجديدة محصولات صناعية غير التي كانت موجودة من قبل — قصب السكر ، وبذر اليانسون ، والكمون ، والكتان ، والعنب الهندي ، والزيوت النباتية والأصباغ . وكان قرب المدن المزدحمة بالسكان مشجعا على تربية الماشية ، وصناعة منتجات الألبان ، وغرس حدائق الخضر . وجرت السفن بالخمور في الأنهار وفي البر والبحر من آلاف الكروم المنتشرة في أودية التيبر ، والآرنو ، والپو ، والوادي الكبير ، والتاجه ، والإبرة ، والرون ، والجروند ، والجارون ، واللوار ، والسين ، والموزل ، والموز ، والرين ، والدانوب ، وجرت السفن بهذه الخمور لتفرج كرب العمال الكادحين في حقول أوربا ، حوانيتها ، وغرف الحاسبين فيها ؛ وحتى إنجلترا نفسها كانت تعصر الخمر في الفترة الممتدة من القرن الحادي عشر إلى القرن السادس عشر . وخرجت الأساطيل الضخمة في البحر البلطي ، وبحر الشمال لتصيد منهما الرنكة وغيرها من أنواع السمك لتطعم المدن الجائعة التي تكثر فيها أيام الصوم ، ويرتفع فيها ثمن اللحم ؛ فكانت يارموث Yarmouth مدينة بحياتها إلى تجارة الرنكة ، وأقر تجار لوبك بفضلها عليهم بأن نقشوا الرنكة على مقاعدهم في الكنيسة(١١٧) ، واعترف الهولنديون الشرفاء بأنهم « شادوا على الرنكة » مدينة أمستردام الشامخة(١١٨) .

وتحسنت أساليب الزراعة الفنية على مهل ، فلقد تعلم المسيحيون من العرب في أسپانيا ، وصقلية ، وبلاد الشرق ، وأدخل الرهبان البندكتيون والسسترسيون Cistercians(*) الأساليب الرومانية القديمة والإيطالية الحديثة الخاصة بالزراعة ،

(*) فرع من الرهبان البندكتيين نشأ في عام ١٠٩٨ في غابة سستو Cisteaux بفرنسا .

وتربية الماشية ، والاحتفاظ بخصب التربة فى الأقطار الواقعة شمال جبال الألب ؛ وترك الزارع فى الضياع الجديدة يبتكرون ويغامرون كما يشاءون ولم يفرض عليهم تقسيم أراضيهم بين المزروعات المختلفة . وكان الزراع الذين يفلحون فى القرن الثالث عشر حقول فلاندرز المستصلحة من المستنقعات يتبعون الدورة الزراعية الثلاثية ، فكانت الأرض تزرع كل عام ولكن خصبها كان يجدد مرة كل ثلاث سنين بزرع الكلأ الذى يتخذ غذاء للحيوان أو البقول . وكان زوجان من الثيران القوية يجرّان المحاريث ذات السهام الحديدية تتعمق الأرض أكثر من ذى قبل . غير أن الكثرة الغالبة من المحاريث ظلت مع ذلك تصنع من الخشب (١٣٠٠) . ولم يكن يعرف التسميد إلا أصقاع قليلة ، وقلما كانت عجلات العربات تطوق بإطار من حديد . وكانت تربية الماشية من الأعمال الشاقة لطول فترات الجفاف ؛ ولكن القرن الثالث عشر شهد التجارب الأولى فى تهجين السلالات وأقلمتها . ولم تتقدم صناعة مستخرجات الألبان ، فلم تكن البقرة العادية فى القرن الثالث عشر تدرّ إلا قليلا من اللبن ، وقلما كان يصل إلى رطل واحد فى الأسبوع (مع أن البقرة الحسنة التربية تنتج الآن ما بين عشرة أرطال وثلاثين رطلا من الزبد فى الأسبوع الواحد) .

وبينما كان السادة فى أوربا يقاتل بعضهم بعضا ، كان فلاحوها يخوضون معارك أعظم شأناً ، وتتطلب من الشجاعة والبطولة ما يسمو على المعارك الحربية ، ولا يتغنى بمديحهم إنسان ؛ تلك هى معارك الإنسان مع الطبيعة . فقد طغى البحر بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر خمساً وثلاثين مرة على الجسور ، وأغرق الأراضى الوطيئة ، وشق خلجاناً وأجواناً جديدة فى البقاع التى كانت من قبل أرضاً صلبة ، وأهلك مائة ألف من السكان فى مائة عام . ونقل الفلاحون أهل هذه الأقاليم فى خلال الفترة الممتدة من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر بإشراف أمرائهم ورؤساء أديرتهم جلاميد الصخر من اسكنديناوة وألمانيا

وشادوا بها « السور الذهبى » الذى أنشأ البلچيكيون والهولنديون وراءه دولتين من أعظم دول التاريخ كله حضارة ، وانتزعت بذلك آلاف الأفدنة من البحر ، ولم يستهل القرن الثالث عشر حتى كانت شبكة من القنوات تشق الأراضى الوطيئة . واحتفر الإيطاليون بين عامى ١١٧٩ و ١٢٥٧ القناة العظمى Naviglio Grande بين بحيرة مجيورى ونهر البو فأخصبوا بها ٨٦ر٤٨٥ فداناً ، وأحال المهاجرون القادمون من فلاندرز ، وفريزيا Frisia ، وسكسونيا ، وأرض الرين مناقع المورن Mooren الواقعة بين نهر الإلب والأودر حقولا غنية . وقطعت غابات فرنسا الزائدة على الحاجة شيئاً فشيئاً وحلت مكانها الضياع التى ظلت تطعم فرنسا خلال الاضطراب السياسى الذى دام قروناً طوالا . ولعل هذه البطولة الجماعية التى بذلت فى تقطيع الغابات ، وتجفيف المستنقعات ، وإرواء الأرض وزراعتها ، لا الانتصارات الحربية أو التجارية ، هى العامل الأساسى الذى أدى آخر الأمر إلى انتصار الحضارة الأوربية فى الأعوام السبعمائة الأخيرة .

الفصل الثامن

حرب الطبقات

لم يكن فى أوربا الغربية فى بداية العصور الوسطى إلا طبقتان : طبقة الألمان الغالبين وطبقة الأهلين المغلوبين . وكانت الكثرة الغالبة من الأشراف الذين وجدوا فيما بعد فى انجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وشمالى إيطاليا من أبناء الفاتحين ، وظلوا يعتزون بهذه العلاقة العنصرية حتى فى أثناء حروبهم . وكانت الطبقات فى القرن الحادى عشر ثلاثا : هى الأشراف الذين يحاربون ، ورجال الدين الذين يصلون ، والفلاحون الذين يشتغلون . وأصبح هذا التقسيم تقليداً ثابتاً إلى حد ظن الناس معه أنه منزل من عند الله . وكان معظم الفلاحين ، كما كان معظم النبلاء ، يرون من واجب الإنسان أن يبقى فى الطبقة التى ولد فيها قانعاً بها البقاء صابراً عليه .

وأضافت الثورة الاقتصادية التى قامت فى القرن الثانى عشر طبقة جديدة إلى هذه الطبقات الثلاث — أهل المدن أو الطبقة الوسطى العاملة — وقوامها الخبازون والتجار ، ورؤساء أرباب الحرف من أهل المدن ، ولم تكن هذه الطبقة قد ضمنت وقتئذ أرباب المهن ، وكانت تسمى فى فرنسا الطبقة الثالثة . وقد سيطرت هذه الطبقة على الشئون البلدية ، واستطاعت أن تصل إلى مقاعد البرلمان الإنجليزى ، والديت Diet الألمانى ، والكورتز Cortes الأسبانى ، وإلى الجمعية العامة States General للطبقات وهى مجلس فرنسا القومى النيابى الذى لم يجتمع إلا نادراً ؛ ولكن هذه الطبقة الجديدة قلما كان لهـا أثر فى السياسة القومية قبل القرن الثامن عشر ، فقد ظل الأشراف يحكمون الدولة ويصرفون شئونها الإدارية ، وإن أصبحوا فى ذلك الوقت أقل من غيرهم سلطاناً فى المدن ؛ ذلك

أنهم كانوا يعيشون فى الريف (إلا فى إيطاليا) ، ويحتقرون سكان المدن ، ويخرجون من طبقتهم كل من تزوج من أفراد الطبقة الوسطى ، ولا يشكون فى أن حكم الأشراف لا بديل منه ، إلا حكم رجال الأعمال الأثرياء ، أو رجال الدين أصحاب الأساطير ، أو رجال الحرب الطغاة .

وكان التجار الأغنياء يبرمون من غطرسة الأشراف ، ويحتقرون ويستغلون طبقة الصناع ، ويقيمون فى بيوت مزخرفة ، ويبتاعون الأثاث الجميل ، ويتغذون بالأطعمة المجلوبة من خارج البلاد ، ويلبسون الثياب الغالية . وكانت نساؤهم يغطين أجسامهن الكبيرة بالحرير والفراء والمخمل والجواهر ؛ وكان مما آلم چين النافارية Jenne of Navarre ملكة فرنسا وحز فى نفسها أن وجدت ستمائة من نساء الطبقة الثالثة فى بروچ قد خرجن لاستقبالها فى ثياب لا تقل فخامة عن ثيابها هى . وشكا الأشراف من هذا وأخذوا يطالبون بأن تسن القوانين لوقف تيار هذا التظاهر الوقح ؛ وسنت من حين إلى حين قوانين لهذا الغرض ، ولكن الملوك كانوا فى حاجة إلى تأييد هذه الطبقة وإلى أموالها ، ولهذا لم تنفذ هذه القوانين إلا فى أوقات قليلة متفرقة .

وأفادت الطبقة الجديدة المالكة للعقار فى المدن فائدة كبيرة من زيادة عامرها ، ويسر لها التعطل الناشئ من هذه الزيادة السيطرة على طبقة العمال اليدويين . ذلك أن صعاليك المدن من الخدم ، وتلاميذ الصناعة ، وعمال المياومة لم يكن لهم إلا حظ قليل من التربية ، ولم يكن لهم شىء من القوة السياسية ، وكانوا يعيشون فى درجة من الفاقة أشد فى بعض الأحيان مما كان يعانيه أرقاء الأرض . فقد كان أجر عامل المياومة فى إنجلترا فى القرن الثالث عشر نحو بنسين اثنين فى اليوم — وتعادل القيمة الشرائية لهذا الأجر حوالى دولارين من نقد الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٩٤٨ ؛ وكان النجار يتقاضى أربعة بنسات وثمن بنس فى اليوم (١٢ر٤ دولارات) والبناء $\frac{1}{8}$٣ دولارات ، والمهندس المعمارى اثنى عشر بنسا

يضاف إليها بدل انتقال وهبات فى بعض الأحيان[١١٩] . لكن الأثمان كانت منخفضة بهذه النسبة عينها : فقد كان الرطل من لحم البقر يباع فى إنجلترا بفارذنج ٢ر١/١٠٠ من الدولار) ؛ وكانت الدجاجة تباع ببنس واحد (٨ر٤/١٠٠ من الدولار) ، وكان ثمن الكوارتر(*) من القمح خمسة شلنات وتسعة شلنات ونصف بنس (٥٧ر٩٠ دولاراً)[١٢٠] . وكان العامل يبدأ عمله فى مطلع الفجر وينتهى منه فى غسق الليل — إلا فى مساء السبت أو أيام الأعياد فكان ينتهى قبل ذلك . وكان فى السنة ما يقرب من ثلاثين يوما من أيام الأعياد ، لكن الأيام التى كان يستريح فيها العامل من الكدح فى إنجلترا لم تكن تزيد على ستة . وكانت ساعات العمل تزيد قليلا على مثيلاتها فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر أو التاسع عشر ، ولم تكن الأجور الحقيقية(**) أسوأ منها فى تلك الفترة ، بل إن بعضهم ليقول إنها كانت أعلى منها[١٢١] .

وتطور النزاع بين الطبقات فى أواخر القرن الثالث عشر فأصبح حرباً مسلحة بينها ؛ فكان كل جيل يشهد ثورة يقوم بها الفلاحون وبخاصة فى فرنسا ؛ ففى عام ١٢٥١ ثار الفلاحون فى فرنسا وفلاندرز على من كانوا يستبدون بهم من الملاك سواء كانوا من رجال الدين أو الدنيا . وأطلق هؤلاء على أنفسهم اسم الرعاة Pastoureux وشنوا حرباً ثورية شبيهة بالحروب الصليبية بقيادة واعظ غير مرخص معروف بلقب « سيد بلاد المجر » . وزحفوا من فلاندرز واخترقوا أمين إلى باريس ، وانضم إليهم فى طريقهم المتذمرون من الفلاحين وصعاليك المدن حتى بلغ عددهم مائة ألف رجل أو يزيدون ؛ وكانوا يحملون أعلاماً دينية ، وينادون بولائهم للويس التاسع ، وكان وقتئذ سجيناً عند المسلمين فى مصر ؛ ولكنهم كانوا مسلحين بالهراوات ، والخناجر ، والفؤوس ، والحراب ، والسيوف

(*) الكوارتر مكيال يعادل ٧ر٩١٨ لتر . (المترجم)

(**) يقصد بالأجور الحقيقية قيمتها الشرائية . (المترجم)

فكانوا بذلك جمعاً خطراً يخشى بأسه . وكانوا يندّدون بفساد الحكم ، واستبداد الأغنياء بالفقراء ، ونفاق القساوسة والرهبان وشرههم ؛ وكان العامة يهتفون لهم حين يسمعون منهم هذه الأقوال . وانتحلوا لأنفسهم حق الوعظ الديني ، وأخذوا يغفرون للناس ذنوبهم ، ويعقدون عقود الزواج ، وبلغ من أمرهم أن ذبحوا بعض من عارضوهم من القساوسة . ولما وصلوا فى زحفهم إلى أورليان ذبحوا فيها عشرات من رجال الدين وطلبة الجامعة ، ولكن رجال الشرطة تغلبوا عليهم فى تلك المدينة وفى بوردو ، فقبض على زعمائهم وأعدموا ، ثم صيد البائسون الباقون أحياء كما تصاد الكلاب فى هذا الزحف العديم النفع ، وشتتوا تشتيتاً أدى بهم إلى ضروب من البؤس مختلفة ؛ وفرّ بعضهم إلى انجلترا ، وقاموا فيها بفتنة صغرى أثارها الفلاحون قلمت أظفارها هى أيضاً .

وثارت نقابات الحرف فى المدن الصناعية الفرنسية فتكرر إضرابها عن العمل وقيامها بثورات مسلحة على احتكار طبقة التجار السياسى والاقتصادى ، وتحكمها فيهم . ففى بوفيه هاجم ١٥٠٠ من الغوغاء عمدة المدينة وبعض رجال المصارف وأساءوا معاملتهم (١٢٣٣) . وتمرد عمال النسيج فى رون على تجار الأقمشة وقتلوا عمدة المدينة حين تدخل فى النزاع (١٢٨١) ؛ وفى باريس حل الملك فيليب الجميل اتحادات العمال بحجة أنها تدبر الثورة (١٢٩٥ ، ١٣٠٧) ؛ غير أن نقابات الحرف الطائفية استطاعت مع ذلك أن تكسب حق الاشتراك فى الجمعيات البلدية وفى الوظائف العامة فى مدينة مرسيليا (١٢١٣) ، وأفنيون وآرل Arles (١٢٢٥) ، وأمين ، ومنبلييه ، ونيمز Nimes . . . وكان أحد رجال الدين ينحاز أحيانا إلى جانب الثائرين ، ويمدهم بالعبارات التى تلوكها ألسنتهم . ومن ذلك ما قاله أحد أساقفة القرن الثالث عشر : « كل الغنى مصدره السرقة ، وكل غنى لص أو وارث لص »[١٢٣] . وقامت فتن من هذا النوع اضطربت بها مدن فلاندرز ، فثار النحاسون فى دينان Dinant عام ١٢٥٥ ، والنساجون فى تورناى عام ١٢٨١ ،

وفى غنت عام ١٢٧٤ ، وفى هينولت Hinault عام ١٢٩٢ ، على الرغم من أن الإعدام أو النفى كان هو العقوبة التى يحكم بها على زعماء حركة الإضراب . وقام عمال إيبر Ypres ، ودويه ، وغنت ، وليل ، وبروج ، بفتنة جامعة عام ١٣٠٢ ، وهزموا جيشاً فرنسياً عند كورتريه ، وحصلوا على حق قبول ممثليهم فى مجالس الحكومات البلدية ووظائفها ، وألغوا القوانين الاستبدادية التى كانت ألجركية التجار تضايق بها أرباب الحرف . ولما أن نال النساجون شيئاً من السلطة إلى حين ، حاولوا أن يحددوا أجور القصارين — بل أن ينقصوها — فانحاز هؤلاء إلى جانب التجار الأغنياء(١٢٤) .

وسيطرت نقابات التجار الطائفية على لندن فى عام ١١٩١ ، وسرعان ما عرضوا بعد ذلك على الملك يوحنا أن يمدوه بقدر من المال فى كل عام ؛ إذا ما ألغى نقابات النساجين ، ووافق الملك على هذا العرض (١٢٠٠)(١٢٥) . وفى عام ١١٩٤ قام رجل يدعى وليم فتزوبرت Fitzobert أو ذو اللحية الطويلة ، وأخذ يخطب فى الفقراء من أهل لندن منادياً بضرورة الثورة ، وأصغى آلاف من الناس إلى ندائه هذا ، وحاول اثنان من أثرياء المدن أن يقتلوه ، ففر منهم إلى إحدى الكنائس ، ولكنه أخرج منها بعد أن سلط عليه الدخان ، وانتحر بأن بقر بطنه بطريقة لا تكاد تفترق فى شىء عن الطريقة اليابانية . وعده أتباعه من القديسين الشهداء وعبدوه ، وقدسوا التراب الذى جرى عليه دمه ، واحتفظوا به(١٢٦) . وإن حب الناس لربن هود الذى يسرق أموال الأشراف ورجال الدين ولكنه يشفق على الفقراء ، وانتشار قصته ، ليوحيان إلينا بما كان عليه شعور الطبقات بعضها نحو بعض فى بريطانيا خلال القرن الثانى عشر .

وكان أشد المنازعات إثارة للأحقاد ما قام منها فى إيطاليا . فقد حدث فى أول الأمر أن انضم العمال إلى نقابات التجار الطائفية وقاموا معاً بسلسلة من الاضطرابات الدموية العنيفة الموجهة ضد الأشراف ؛ وتم النصر للمتحالفين فى هذا

الكفاح قبل أن يختتم القرن الثالث عشر ؛ واشترك عمال الصناعات فى حكم فلورنس إلى حين ، غير أن كبار التجار ورجال المشروعات سرعان ما أصبحت لهم السيطرة فى مجلس المدينة ، ففرضوا على الموظفين نظما استبدادية متعسفة ، أدت فى القرن الرابع عشر إلى دخول النزاع فى مرحلته الثانية — مرحلة الحروب المتقطعة المتباعدة بين رجال الصناعة الأغنياء وعمال المصانع . وكانت هذه المشاهد — مشاهد النزاع الداخلى — هى التى قام فيها القديس فرانسس ينادى بإنجيل الفقر ، ويذكر الأغنياء الأشرار بأن المسيح لم يكن له قط ملكا خاصاً (١٢٧) .

واضمحلت الحكومات المحلية كما اضمحلت النقابات الطائفية فى القرن الرابع عشر بسبب اتساع نطاق اقتصاد البلديات وتحوله إلى اقتصاد قومى وأسواق وقفت قواعدهما واحتكارهما حجر عثرة فى سبيل تقدم الاختراع ، والصناعة ، والتجارة . وكان من أسباب اضمحلالها فوق ذلك ما كان فيها من منازعات داخلية أشاعت فيها الفوضى ، واستغلال قاس شديد الوطأة للريف المحيط بها ، ووطنيتها الضيقة المقصورة على حدود المدينة ، وسياستها ، وعملتها المضطربة غير المستقرة ، وحروبها التافهة الحقيرة بعضها على بعض فى فلاندرز وإيطاليا ، وعجزها عن أن تنتظم فى اتحاد يشمل عدة مدائن ذات حكم ذاتى ، كان يمكن أن يبقى بعد أن قوى سلطان الملوك . وليس أدل على ضعف هذه الحكومات المحلية من أن عدداً منها فى فرنسا التمس من الملك فى عام ١٣٠٠ أن يتولى هو حكمها .

ومع هذا كله فإن الثورة الاقتصادية التى قامت فى القرن الثالث عشر هى التى خلقت أوربا الحديثة ، فهى التى قضت آخر الأمر على الإقطاع الذى أدى مهمة الحماية الزراعية والتنظيم الزراعى ، وأصبح حجر عثرة فى سبيل اتساع نطاق المشروعات الاقتصادية . وهى التى حولت ثروة الإقطاع الجامدة إلى موارد سائلة متداولة يستخدمها الاقتصاد العالمى . وهى التى أمدت الأعمال الصناعية والتجارية بالآلات اللازمة لتقدمها ، وما نشأ عن هذا التقدم من زيادة كبيرة فى سلطان

الرجل الأوربى ، ووسائل راحته ، وفى معلوماته . وبفضلها عم أوربا رخاء استطاعت به أن تبنى فى قرنين من الزمان مائة كنيسة كبرى تتطلب كل واحدة منها وفرة عجيبة من المهارات والأموال . وكان ما تنتجه للأسواق المطردة الاتساع هو الذى هيأ السبيل للنظم الاقتصادية القومية التى قامت عليها الدول الحديثة ، ولعل حرب الطبقات نفسها التى أطلقتها الثورة الاقتصادية من عقالها كانت هى الأخرى حافزاً إضافياً لعقول الناس ونشاطهم . ولما هدأت عاصفة الانتقال كان صرح أوربا الاقتصادى والسياسى قد تبدل ، وكان تيار الصناعة والتجارة الجارف قد اكتسح العقبات المتأصلة من طريق التطور البشرى ، ودفع الناس إلى الأمام من مجد الكنائس الكبرى المشتت إلى مرجل النهضة الشامل .

الباب الخامس والعشرون

أوربا تفيــق من رقدتها

١٠٩٥ – ١٣٠٠

الفصل الأول

بيزنطيــة

اختتم ألكسيوس الأول كمنينوس Alexius I Comnenus حكمه الطويل (١١٠٨ – ١١١٨) على أثر مؤامرة من طراز المؤامرات التي اختصت بها بيزنطية ، وذلك بعد أن قاد سفينة الإمبراطورية بنجاح في حروب الترك والنورمان ، وفي الحرب الصليبية الأولى . وكانت ابنته الكبرى أنا كمنينا Anna Comnena مضرب المثــل في العلم ، كما كانت ملمة بخلاصة الفلسفة ، وكانت شاعرة موهوبة ، وسياسية ذات دهاء ، ومؤرخة مهذبة تميل في كتابتها إلى الكذب والاختلاق . ولما خطبت إلى ابن الإمبراطور ميخائيل السابع حسبت أنها بحكم مولدها وبفضل جمالها ومواهبها الذهنية قد اختارتها الأقدار للتربع على عرش الإمبراطورية ؛ ولم تكن تغفر قط لأخيها چون John أنه ولد وارث العرش ، فدبرت مؤامرة لاغتياله ، ولكن تدبيرها افتضح وعفي عنها ، وآوت إلى أحد الأديرة ، وكتبت سيرة أبيها في قصة نثرية تدعى ألكسياد Alexiad . وأدهش چون كمنينوس (١١١٨ – ١١٤٣) أوربا بالتمسك بالفضائل الشخصية ، وبكفايته الإدارية ، وبانتصاره في حروبه ضد أعدائه من الوثنيين والمسيحيين والمسلمين ، وخيل إلى الناس حيناً من الدهر أنه سيعيد الدولة إلى ما كانت عليه من مجد وسعة رقعة ، ولكن خدشا من سهم مسموم في كنانته قضى على حياته وأحلامه .

وكان ابنه مانويل الأول Manuel I (١١٤٣ — ١١٨٠) إله الحرب مجسما ، وهب نفسه للحرب ومتعتها ؛ يسير على الدوام فى طليعة جنوده ؛ ويرحب بالمبارزة الفردية ، وقد انتصر فى كل واقعة خاض غمارها إلا الأخيرة من هذه المواقع . وكان فى ميدان القتال رواقيا فى مبادئه ، أما فى قصره فكان أبيقوريا ، مترفاً فى طعامه ولباسه ، سعيداً فى عشقه الحرام لابنة أخيه . وعادت الآداب والعلوم إلى سابق ازدهارها بفضل ترفه ومناصرته ؛ وكانت سيدات البلاط يشجعن المؤلفين ، وقد نزلن هن أيضا من عليائهن ليقرضن الشعر ؛ وجمع زناراس Zanaras فى أيامه كتابه الضخم الذى أسماه موجز التاريخ . وشاد مانويل لنفسه قصراً جديداً هو قصر البلاشرنى Blachernae على شاطئ البحر عند طرف القرن الذهبى ؛ وكان أودم الدويلى Odom of Deuil يظنه « أجمل بناء فى العالم ، فقد كانت عمده وجدرانه مغطاة إلى نصفها بالذهب ، ومرصعة بالجواهر التى كانت تتلألأ حتى فى ظلام الليل »(١) . لقد كانت القسطنطينية فى القرن الثانى عشر صورة أخرى من النهضة الإيطالية .

وتطلبت فخامة العاصمة ، والحروب الكثيرة التى شنتها الإمبراطورية العجوز لتصد عنها الموت ، تطلبت هذه وتلك ضرائب فادحة ألقاها المترفون على المنتجين لضرورات الحياة . وكانت النتيجة إن زاد فقر الفلاحين ، واستسلموا للاسترقاق الأرضى ، وأن سكن عمال المدن اليدويون فى مساكن قذرة كثيرة الضجيج ، يُرتكب فى ظلماتها وأقذارها ما لا يحصى من الجرائم .

وكانت حركات ثورية شبه شيوعية تضطرم نارها فى قلوب صعاليك المدن(٢) ، ولكن هذه الحركات قد عفا ذكرها لكثرة ما حدث من أمثالها على مر الأيام . وكان استيلاء الصليبيين على فلسطين قد فتح ثغور الشام لتجارة اللاتين ، وخسرت القسطنطينية ثلث تجارتها البحرية التى استولت عليها المدن الناهضة فى إيطاليا . وكان من أعظم الآمال التى تداعب قلوب المسيحيين والمسلمين

على السواء أن يستولوا على ما فيها من الكنوز التي أنفقت فى جمعها ألف عام ؛ وحدث أن زار المدينة أحد المسلمين الصالحين فى أيام مانويل الزاهرة فدعا الله أن يمن على المسلمين بفضله وكرمه فيجعل القسطنطينية عاصمة بلاد الإسلام[٣] . وحتى البندقية نفسها ربيبة بيزنطية دعت فرسان أوربا لأن ينضموا إليها فى انتهاب ملكة البسفور .

ولم تعش المملكة اللاتينية التى أقامتها الحملة الصليبية الرابعة فى القسطنطينية إلا سبعاً وخمسين سنة (١٢٠٤ — ١٢٦١) ، ذلك أن المملكة الجديدة لم تقو على البقاء إلا ريثما كانت بيزنطية المتحفزة للثأر منها تعوزها الوحدة وقوة السلاح . أما هى فلم تكن لها أصول تقوم عليها من عنصرية الشعب أو دينه أو عاداته ، وكانت تكرهها الكنيسة اليونانية التى خضعت مكرهة لرومة ، ويضعضعها انقسامها إلى إمارات إقطاعية تدعى كل منها لنفسها السيادة الكاملة ، وتعوزها جميعاً التجربة التى لا غنى عنها لتنظيم اقتصادياتها الصناعية والتجارية ، وتهاجمها الجيوش البيزنطية من خارجها ، وتحرقها المؤامرات فى داخلها ، ولا تستطيع أن تستمد من سكانها المعادين لها ما تحتاجه من المال للدفاع العسكرى عن كيانها .

لكن الغزاة الفاتحين كان مصيرهم فى بلاد اليونان خيراً من مصيرهم فى القسطنطينية . ذلك أن الفرنجة ، والبنادقة ، وغيرهم من الأشراف الطليان عجلوا بتقسيم تلك البلاد التاريخية إلى أقسام إقطاعية ، وشادوا القصور الجميلة فوق التلال العالية تشرف على ما حولها من المواقع ، وشرعوا وأظهروا فى حكم السكان المتراخين المجدين حكما حازما جريئا . وحل مطارنة الكنيسة اللاتينية محل أساقفة المذهب الأرثوذكسى الذين نفوا من البلاد ، وأنشأ الرهبان القادمون من بلاد الغرب على التلال أديرة كانت من روائع الفن ومستودعاً لكنوزه . وقام رجل فخور من الفرنجة فلقب نفسه « دوق أثينة » ، وجاء شيكسبير فى غير منطق سليم وأخطأ خطأ يغتفر له ، ورجع به إلى الوراء ألفى عام ، وسماه ثيسيوس ، ولكن الروح

الحربية التي أقامت هذه الممالك الصغيرة كانت هي بعينها القاضية عليها لكثرة ما ثار بينها من المنازعات والأحقاد القاتلة ؛ فقد كانت الأحزاب المتنافسة يحارب بعضها بعضا على تلال المورة وسهول بؤوتيا حرباً طاحنة قضت عليها جميعا ؛ ولما أن غزت اليونان « الشركة القطلونية Catalian Company » الكبرى المؤلفة من جماعة المغامرين القادمين من قطلونيا (١٣١١) ذبحت زهرة فرسان الفرنجة في المعركة التي دارت قرب نهر سفسوس Cephisus ، وأضحت المنهوكة القوى ألعوبة في أيدى القراصنة الأسبان .

وبعد عامين من سقوط القسطنطينية أقام ثيودوز لسكاريس Theodoae Lescaris حمو ألكسيوس الثالث حكومة بيزنطية في منفاه في نيقية . ورحبت بحكمه جميع الأناضـــول بما فيها مدائن بورصة ، وفلدلفيا ، وأزمير ، وإفسوس الغنية ؛ وأفاءت إدارته الحازمة القديرة العادلة على هذه الأقاليم رخاء جديداً ، وبعثت في الآداب اليونانية حياة جديدة ، وأحيت في قلوب الوطنيين اليونان آمالا جديدة . وأنشأ ألكسيوس كمنينوس ابن مانويل في شرق تلك البلاد وفي طربزون بالذات مملكة بيزنطية أخرى ، ونشأت مملكة ثالثة في إبيروس برياسة ميخائيل أنجلوس ؛ وضم چون فتاتزيس John Vatatzes زوج ابنه لسكاريس وخليفته (١٢٢٢—١٢٥٤) جزءاً من إبيروس إلى مملكة نيقية ، واسترد سالونيك من الفرنجة (١٢٤٦) ، وكاد يستولى على القسطنطينية نفسها لولا أنه عاد إلى آسية الصغرى لأنه عرف أن البابا إنوسنت قد دعا المغول الزاحفين غربا إلى الإغارة على بلاده من جهة الشرق (١٢٤٨) . ورفض المغول مشروع البابا محتجين بتلك الحجة الساخرة وهي أنهم لا يريدون أن يعملوا على « إثارة الأحقاد بين المسيحيين بعضهم وبعض »[٤] . وكان حكم الملك چون الطويل الأمد من خير الأحكام في التاريخ وأعظمها تشريفاً لصاحبها ، فقد استطاع أن يخفف الضرائب ، ويشجع الزراعة ، وينشئ المدارس ، ودور الكتب .

والكنائس ، والأديرة ، والمستشفيات وملاجئ لكبار السن والفقراء ، على الرغم من الحروب الكثيرة النفقات التى خاض غمارها ليعيد بها وحدة الإمبراطورية البيزنطية[٥] . وازدهرت الآداب والفنون فى عهده ، وأصبحت نيقية فى القرن الثالث عشر من أكثر مدن العالم ثروة وأعظمها جمالا .

وكان ابنه ثيودور لسكاريس الثانى (١٢٥٤ — ١٢٥٨) شغوفاً بالعلم معتل الجسم ، عالماً ومضطرب العقل ؛ مات بعد حكم قصير ، واغتصب العرش بعد موته ميخائيل پليولوجوس Michael Paleologus زعيم الأشراف المتذمرين (١٢٥٩ — ١٢٨٢) . وإذا جاز لنا أن نصدق المؤرخين قلنا إن ميخائيل كان متصفا بكل نقيصة — كان « أنانيا ، منافقاً . . . كذوباً بغريزته ، مغروراً ، قاسيا ، شرهاً »[٦] . ولكنه كان واسع الحيلة شديد الدهاء ، دبلومسياً ، معقود لواء النصر ، استطاع بمعركة واحدة أن يثبت قدمه فى إپيروس ، كما استطاع بحلفه مع چنوى أن يفوز بمعونتها على البنادقة والفرنجة فى القسطنطينية ؛ وأمر قائده استراتيجوپولس Strategopulus أن يتظاهر بالهجوم على العاصمة من ناحية الغرب . وزحف استراتيجولس على المدينة ولم يكن معه أكثر من ألف رجل ، فلما وجد حاميتها خفيفة دخلها واستولى عليها دون عناء ، وفر الملك بلدوين الثانى هو وحاشيته ، وتبعه رجال الدين اللاتين الذين كانوا فى المدينة وقد استولى عليهم رعب كانوا خليقين به . وعبر ميخائيل البسفور وهو لا يكاد يصدق النبأ وتوج إمبراطوراً (١٢٦١) ، وهكذا بعثت الإمبراطورية البيزنطية من رقادها ، وكان الناس يظنونها قد قضت نحبها ، واستعادت الكنيسة اليونانية استقلالها ، وظلت الدولة البيزنطية الفاسدة قائمة تصرف شئونها قرنين آخرين احتفظت فيهما بالآداب القديمة ونقلتها إلى العالم الغربى ، وصدت رغم ضعفها جيوش المسلمين فى تلك الفترة من الزمان .

الفصل الثانى

الأرمن (١٠٦٠ ـ ١٣٠٠)

وحدث حوالى عام ١٠٨٠ أن غادرت أسر أرمنية كثيرة بلادها لعدم رضائها عن سيطرة السلاجقة عليها ، وعبرت جبال طوروس ، وأنشأت مملكة أرمينية الصغرى فى قليقية . وبينما كان الأتراك ، والكرد ، والمغول يحكمون أرمينية الحقيقية ، احتفظت الدولة باستقلالها مدى ثلاثة قرون ؛ واستطاع ليو الثانى Leo II فى حكمه الذى دام أربعة وثلاثين عاما (١١٨٥ ـ ١٢١٩) أن يصد هجمات سلاطين حلب ودمشق ، ويستولى على إسوريا Isauria وينشئ عاصمة مملكته فى سيس Sis (وهى الآن فى تركيا) ، ويعقد حلفاً مع الصليبيين ، ويدخل الشرائع الأوربية فى بلاده ، ويشجع الصناعة والزراعة ، ويمنح تجار البندقية وجنوى عدداً من الامتيازات ، ويقيم الملاجئ للأيتام ، والمستشفيات للمرضى ، والمدارس لطلاب العلم . واستمتع رعاياه فى أيامه برخاء منقطع النظير ، وكسب بحق اسم ليو الأفخم ، وكان من أعظم ملوك العصور الوسطى حكمة وأكثرهم خيراً وصلاحا . ووجد صهره هثوم الأول HethumI (١٢٢٦ ـ ١٢٧٠) المسيحيين غير أهل لأن يعتمد عليهم ، فتحالف مع المغول ، وسره أن يطردوا السلاجقة من أرمينية (١٢٤٠) . فلما أن اعتنق المغول الإسلام حاربوا أرمينية الصغرى ودمروها تدميراً (١٣٠٣ ومابعدها) . وفتح المماليك المصريون أرمينية فى عام ١٣٣٥ ، وقسمت البلاد بعد الفتح بين سادة الإقطاع . وظل الأرمن خلال هذا الاضطراب يبدون ضروباً من المهارة الفنية فى العمارة ، وحذقاً عظيما فى النقش الدقيق ، يستمسكون بنوع من الكثلكة المستقلة عن سائر المذاهب ، استطاعوا به أن يصدروا كل المحاولات التى بذلتها القسطنطينية أو رومة للسيطرة على بلادهم .

الفصل الثالث

روسيا والمغول (١٠٥٤ ـ ١٣١٥)

كانت قبائل نصف همجية تسيطر فى القرن الحادى عشر على بلاد روسيا الجنوبية ، وهذه القبائل هى الكومان Cumans ، والبلغار ، والخزر Khazars ، والپلوفتسي ، والپتزيناك Patzinaks . . . أما ما بقى من روسيا الأوربية فكان مقسما إلى أربع وستين إمارة ـ أهمها كيف Kiev ، وڤلهينيا Volhynia ، ونفجورود ، وسزداليا Suzdalia ، واسمولنسك Smolensk ، وريازان Ryazan ، وشرنيجوف Chernigov ، وپرياسلاڤل Pereyaslavl. وكانت معظم هذه الإمارات تعترف بسيادة كيف عليها ؛ ولما قربت منية يارسلاف Yaroslav أمير كيف الأكبر (١٠٥٤) وزع هذه الولايات بترتيب أهميتها بين أبنائه حسب سنهم ؛ فأعطى أكبرهم إمارة كيف ، ثم وضع نظاما دورياً فذاً يقضى بأنه إذا مات أمير ينتقل الباقون من الأمراء كل منهم إلى الولاية التى تلى ولايته فى الأهمية . وانقسمت طائفة من هذه الإمارات فى القرن الثالث عشر إلى عدد من الإقطاعيات وزعها الأمراء على أبنائهم ؛ ثم أصبحت هذه الإقطاعيات وراثية على مر الزمن ، فكانت أساساً للنظام الإقطاعى المعدل الذى تعاون فيما بعد هو وغارات المغول على إبقاء بلاد الروسيا بحالها التى كانت عليها فى العصور الوسطى بعد أن خرجت أوربا الغربية من هذه العصور . على أن بلاد الروسيا كان لها فى هذه الفترة صناعات يدوية نشيطة ، وتجارة أغنى مما أصبح لها فى كثير من القرون المتأخرة .

وكانت سلطة كل أمير وراثية فى العادة ، ولكنها كانت تحددها جمعية شعبية تسمى الڤيشى Veche ومجلس من أعليان البلاد يدعى بويارسكايا دوما

Boyarskaya duma . وتركت معظم الشئون الإدارية والقانونية فى أيدى رجال الدين ، وكادت معرفة القراءة والكتابة تقتصر على هؤلاء هم وعدد قليل من الأعيان ، والتجار ، والمرابين . وقد استعان هؤلاء بالنصوص أو النماذج البيزنطية ، فأنشأوا للروسيا آدابها ، وقوانينها ، ودينها ، وفنونها . وبفضل جهودهم هذبت وحددت الحقوق أو القوانين الروسية Russkaya Pravda التى وضعت أول مرة فى أيام يارسلاف ، وصيغت صياغة قانونية (حول ١١٦٠) . وجعلت للكنيسة الروسية الولاية النامة على شئون الدين ورجاله ، وشئون الزواج والأخلاق والوصايا ، وكان لها سلطان مطلق على الأرقاء وغيرهم من الموظفين الذين يعملون فى أملاكها الواسعة . وارتفعت بفضل جهودها منزلة العبيد فى الروسيا من الوجهة القانونية إلى حد ما ، ولكن تجارة الرقيق ظلت قائمة حتى بلغت ذروتها فى القرن الثانى عشر(٧) .

وشهد هذا القرن نفسه اضمحلال مملكة كيف وسقوطها ، فقد كان للفوضى الإقطاعية السائدة فى غرب أوربا ما يماثلها من الفوضى السائدة بين القبائل والأمراء ؛ وشبت بين عامى ١٠٥٤ ، ١٢٢٤ ثلاث وثمانون حرباً أهلية فى الرسيا ، وأغير عليها ست وأربعون مرة ، وشنت دول روسية ست عشرة حرباً على شعوب غير روسية ، وتنازع ٢٩٣ أميراً عرش أربع وستين إمارة(٨) . وحدثت فى عام ١١١٣ اضطرابات ثورية فى كيف كان سببها ما حل بالأهلين من فقر من جراء الحروب ، وارتفاع سعر الفائدة على الديون ، والاستغلال ، والتعطل . وهاجمت الجماهير الحانقة الثائرة بيوت رجال الأعمال والمرابين ونهبتها ، واحتلت دواوين الحكومة وبسطت سيادتها عليها لحظة من الزمان . واستدعت الجمعية البلدية مونوماخ Monomakh أمير پرياسلاڤل ليكون أمير كيف الأعظم ؛ وجاء الأمير وهو كاره ، وقام فيها بما قام به صولون فى أثينة عام ٥٩٤ ق . م ، فخفض سعر الفائدة على القروض ، وقيد بيع المدينين المفلسين أرقاء من تلقاء أنفسهم ، كما قيد سلطة أرباب الأعمال

على العمال والموظفين ؛ فاستطاع بفضل هذه الوسائل وأمثالها — التي لم يرض عنها الأغنياء ووصفوها بأنها بمثابة مصادرة لأموالهم ، وعابها الفقراء لأنها في نظرهم غير كافية — أن ينجي المدينة من الثورة ويعيد تنظيم السلام في ربوعها[٩] . وبذل جهوداً كبيرة للقضاء على نزاع الأمراء وحروبهم ، وتوحيد بلاد الروسيا من الوجهة السياسية . ولكن هذا العمل كان أكبر من أن يقوم به في حكمه الذي لم يدم أكثر من اثني عشر عاما .

وعاد النزاع بين الأمراء وبين الطبقات بعد موته إلى ما كان عليه من قبل . وفي هذه الأثناء كانت سيطرة القبائل الأجنبية سيطرة مستمرة على المجاري الدنيا لأنهار الدنيستر ، والدنيبر ، والدُّن ؛ وكان نمو التجارة الإيطالية في القسطنطينية ، والبحر الأسود ، وموانى الشام ، قد حوّلا إلى خلجان البحر المتوسط كثيراً من التجارة التي كانت تنتقل قبل ذلك الوقت من بلاد الإسلام وبيزنطية إلى دويلات البحر البلطي مارة بأنهار الروسيا . ونقصت من جراء ذلك ثروة كيف وضعفت وسائلها المادية وروحها المعنوية ، وأخذ جيرانها الهمج منذ عام ١٠٩٦ يغيرون على ما وراءها من الأصقاع وما حولها من الضواحي ، ينهبون الأديرة ويبيعون من يأسرونهم من الفلاحين بيع الرقيق . وأضحت كيف مكاناً غير أمين ، فنقص سكانها ، وأدى هذا إلى نقص الأيدي العاملة فيها . وهاجم جيش أندري بجوليوبسكي Andrey Bogolyubski كيف في عام ١١٦٩ ، ونهبها وخربها تخريباً كاملا ، واسترق آلافاً من أهلها حتى كادت « أم المدائن الروسية » يعفو ذكرها من التاريخ مدى ثلاثة قرون . وأتم هذا الخراب الذي حل بكيف استيلاء البنادقة والفرنجة على القسطنطينية في عام ١٢٠٤ ، وغارات المغول التي امتدت من عام ١٢٢٩ إلى عام ١٢٤٠ .

وانتقلت زعامة الروسيا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر من « الروس الصغار » أهل أكرنيا إلى « الروس الكبار » الأكثر منهم غلظة وأقدر منهم

على تحمل المشقة ، وهم أهل الإقليم المحيط بمسكو والممتد على ضفتى الفلجا الأعلى . وكانت مسكو قد أنشئت فى عام ١١٥٦ ، ولم تكن فى ذلك الوقت إلا قرية صغيرة تستخدمها سوزداليا Suzdalia (التى كانت تمتد فى الجهة الشمالية الشرقية من مسكو) مركزاً أماميا على حدودها على الطريق الذى يصل مدائن ڤلادمير Vladimir وسزدال Suzdal بكيف . وحارب أندرى بجوليوبسكى (١١٥٧ — ١١٧٤) ليجعل إمارة سوزداليا الجالس هو على عرشها صاحبة السيادة على الروسيا بأجمعها . ولكنه اغتيل وهو يقاتل ليخضع نفجورود لسلطانه كما أخضع كيف من قبل .

وكانت مدينة نفجورود واقعة فى الشمال الغربى من الروسيا على ضفتى نهر ڤلخوف Volkhav قرب مخرج هذا النهر من بحيرة إلمن Ilmen . وإذ كان نهر ڤلخوف يصب فى بحيرة لدوجا Ladoga فى الشمال ، وكانت أنهار أخرى تخرج من بحيرة إلمن متجهة نحو الجنوب والغرب وإلى البحر البلطى عن طريق بحيرة لدوجا ، فإن هذه المدينة لم تكن قريبة من الحدود قرباً يهدد أمنها ، ولا هى بعيدة عنها بعداً يضر بتجارتها ، ولهذا نشأت فيها تجارة داخلية وخارجية نشيطة ، وأضحت هى المركز الشرقى لتجارة مدن العصبة الهانسية . فكانت تتجر عن طريق نهر الدنيبر مع كيف وبيزنطية ، وعن طريق نهر الفلجا مع بلاد الإسلام . وكادت تحتكر تجارة الفراء الروسية لأن سلطانها كان يمتد من پسكوف Pskov فى الغرب إلى المحيط الجامد الشمالى ، ويكاد يصل إلى جبال أورال فى الشرق . وسيطر تجار نفجورود الأقوياء الأشراف بعد عام ١١٩٦ على الجمعية التى كانت تحكم الإمارة عن طريق أميرها المنتخب . فقد كانت هذه المدينة — الدولة جمهورية حرة تطلق على نفسها اسم « سيدى نفجورود الأكبر » . فإذا لم ينل أمير لها رضاء أهلها فإن « سكانها يقدمون له واجب الاحترام ويرشدونه إلى طريق الخروج » من المدينة ؛ فإذا قاومهم زجوه فى السجن ؛ ولما أراد

اسڤياتوبولك Sviatopolk أمير كيف الأكبر أن ينصب ابنه أميراً عليهم رغم أنوفهم (١٠١٥) قال له أهل نڤجورود : « ابعثه إلى هنا إن كان له رأس ليس هو فى حاجة إليه »[١٠] . ولكن الجمهورية لم تكن دمقراطية ، لأن العمال وصغار التجار لم يكن لهم صوت فى حكومتها ، ولم يكن فى وسعهم أن يؤثروا فى سياستها إلا بالعصيان المتكرر .

وبلغت نڤجورود ذروة مجدها فى عهد الأمير ألكسندر نڤسكى Alexander Nevsky (١٢٣٨ — ١٢٦٣) فقد أراد البابا جريجورى التاسع أن يخرج الروسيا من المذهب المسيحى اليونانى إلى المذهب اللاتينى ، ودعا إلى حرب صليبية على نڤجورود ؛ وظهر جيش سويدى على نهر النيڤا ، فهزمه ألكسندر بالقرب من مدينة لينينغراد الحالية (١٢٤٠) واشتق لقبه من اسم هذا النهر . وكان نصره هذا أعظم من أن يبقيه رئيساً لجمهورية ، فنفى بسببه من المدينة ، فلما أن تولى الألمان الحرب الصليبية ، واستولوا على پسكوف وتقدموا حتى أصبحوا على بعد سبعة عشر ميلا من نڤجورود ، توسلت الجمعية المرتاعة إلى ألكسندر أن يعود ، فعاد ، واسترد المدينة ، وهزم فرسان ليڤونيا Livonie على جليد بحيرة پيپوس Peipus (١٢٤٢) وقضى سنيه الأخيرة ذليلا مهينا يتزعم أهل بلده تحت نير المغول .

ذلك أن المغول دخلوا الروسيا بقوات لا حصر لها . جاءوا من التركستان ، واخترقوا جبال القفقاس ، وأبادوا عندها جيشا من الكرج ، ونهبوا بلاد القرم : واستنجد القومان ، الذين ظلوا عدة قرون يحاربون كيف ، بالروس وقالوا لهم : « لقد امتلكوا اليوم ديارنا ، وسيملكون دياركم غداً »[١١] وعرف بعض الأمراء الروس صدق قولهم وقادوا عدة فرق يريدون أن ينضموا بها للدفاع عن القومان . وبعث المغول رسلا منهم يعرضون على الروس أن يحالفوهم ضد القومان ، فقتل الروس الرسل ودارت معركة على شاطئ نهر كلكا Kalka بالقرب من بحر آزاق Azov ، هزم فيها المغول جيش الروس والقومان ، وأسروا عدداً من قواد الروس

بالخيانة ، وكبلوهم بالأغلال ، وأقاموا فوقهم طواراً جلس عليه كبار رجال المغول ليطعموا وليمة النصر ، بينا كان الأسرى الأشراف يموتون اختناقا (١٢٢٣) .

ثم ارتد المغول إلى منغوليا ، وصرفوا جهودهم في فتح الصين ، وعاد الأمراء الروس إلى الحرب فيما بينهم ، ولكن المغول عادوا فى عام ١٢٣٧ بقيادة باتو Batu ابن ابن أخى جنكيز خان ؛ وكانت عدتهم ٥٠٠ر٠٠٠ كلهم تقريباً من الفرسان ؛ وكان الطريق الذى جاءوا منه حول الطرف الشمالى من بحر الخزر ، وأعملوا السيف فى رقاب البلغار الضاربين على ضفتى نهر الفجا ، وخربوا مدينة بلغار Bolgar عاصمتهم . وبعث باتو برسالة إلى أمير ريازان يقول فيها : إن كنت تبغى السلم فأعطنا عشر ما عندك » ، فرد عليه بقوله : « إن فى وسعك أن تأخذ كل ما عندنا بعد أن نموت »(١٢) ، واستنجدت ريازان بالإمارات الروسية ، فأبت أن تنجدها ؛ فقاتلت وحدها قتال الأبطال ، وخسرت جميع ما تملكه ، فقد نهب المغول الذين لا يغلبون جميع مدن ريازان ، ودكوا أبنيتها ، واجتاحوا سورذاليا ، وبددوا جيشها ، وحرقوا مسكو ، وحاصروا ڤلدمير ؛ وقص النبلاء شعرهم واختبأوا فى الكنائس ولبسوا مسوح الرهبان ، فلما أحرقت الكنيسة والمدينة كلها قتلوا عن آخرهم ؛ ودمرت النيران سزوال ، ورستوف ، وعدداً كبيراً من قرى الإمارة (١٢٣٨) . وزحف المغول على نفجورود ، فلما وقفت فى سبيلهم الغابات الكثيفة ، والأنهار الغزيرة المياه ، خربوا شرنجوف Chernigov وبريسلاڤن ، وبلغوا فى زحفهم مدينة كيف وبعثوا برسلهم يطلبون إلى المدينة الاستسلام ؛ ولما قتل أهل كيف الرسل ، عبر المغول نهر الدنيبر ، وتغلبوا عليها بالقوة بعد مقاومة ضعيفة ، وخربوا المدينة ، وقتلوا آلافا مؤلفة من أهلها ؛ ولما أن رأى چيوڤنى ده پيانو كرپينى هذه المدينة بعد ست سنين من ذلك الوقت ، وصفها بأنها بلدة تحتوى على مائتى كوخ ، وأن الأرض التى حولها كانت تتناثر فيها الجماجم . ولم تكن الطبقات الوسطى والعليا

تجرؤ فى يوم من الأيام على أن تسلح الفلاحين أو العامة من سكان المدينة ، فلما أن جاء المغول كان الأهلون ضعافاً عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم . فأخذ الفاتحون يقتلونهم أو يسترقونهم كما يحلولهم .

وتقدم المغول إلى وسط أوربا يَغلبون ويُغلَبون ، ثم عادوا أدراجهم مخترقين الروسيا يعيثون فيها فسادا ، وأقاموا على أحد روافد الفلجا مدينة سراى Sarai واتخذوها عاصمة لعشائر مستقلة تعرف باسم الحشد الذهبى . وظل باتو وخلفاؤه يسيطرون على الجزء الأكبر من الروسيا مدة مائتى عام وأربعين عاما من ذلك الوقت ؛ وسمح للأمراء الروس بأن يحتفظوا بأرضهم على شرط أن يؤدوا عنها جزية سنوية لخان الحشد الذهبى ، أو للخان الأعظم لقرقورم المغولية ، وأن يقوموا من حين إلى حين بزيارة لهذا أو ذاك يقدمون لهما فروض الولاء ، ويقطعون فيها مسافات طويلة . وكان الأمراء يجمعون هذا الخراج ويفرضونه على الأهلين بالمساواة القاسية ، يدفع الغنى منه بقدر ما يدفع الفقير ، ومن عجز عن الدفع بيع بيع الرقيق . واستسلم الأمراء وخضعوا لسيادة المغول لأنها حمتهم من الثورات الاجتماعية ، وانضموا إلى المغول فى هجومهم على الشعوب الأخرى ومن بينها الإمارات الروسية نفسها . وتزوج كثيرون من الروس مغوليات ، ولربما دخلت بعض ملامح الوجوه ، والأخلاق المغولية ، فى السلالات الروسية(١٣) . وأخذ بعض الروس عن المغول أساليبهم فى التحدث والملبس . ولما أصبحت الروسيا تابعة لدولة أسيوية انفصلت إلى حد كبير عن الحضارة الأوربية ، وتعاون استبداد الخان مع استبداد أباطرة بيزنطية على إيجاد « حاكم جميع الروس المطلق » فى الدولة المسكوفية المتأخرة .

وعرف زعماء المغول أنهم لايستطيعون إخضاع الروسيا بالقوة وحدها ،

فاصطلحوا مع الكنيسة الروسية ، وحموا لها ممتلكاتها ورجالها ، وأعفوا هذه الممتلكات وأولئك الرجال من الضرائب ، وجعلوا الإعدام عقابا لمن ينتهك حرماتها . وقابلت الكنيسة هذا الجميل بمثله — أو لعلها أرغمت على رده إرغاماً — فأوصت الروس بالخضوع للسادة المغول ، ودعت الله جهرة أن يهبهم السلامة(١٤) . وأراد آلاف من الروس أن يضمنوا لأنفسهم الأمن والسلام وسط عواصف الرعب فترهبوا ؛ وتوالت الهبات على المؤسسات الدينية ، حتى أثرت الكنيسة الروسية ثراء فاحشاً وسط الفقر السائد فى جميع البلاد . ونمت فى الشعوب روح الخضوع والاستسلام ، ومهدت السبيل إلى الاستبداد الذى سلط عليها قروناً طوالا . لكن الروسيا ظلت مع ذلك هى الروسيا وإن حنت رأسها لعاصفة المغول الهوجاء ، ووقفت سداً منيعاً تصد عن أوربا سيل الغزاة الأسيويين ، فقد تحطمت قوة التيار البشرى الجارف على صخرة الأجناس الصقلبية — الروس ، والبوهيميين ، والموراڤيين ؛ والپولنديين — والمجرية ؛ وقضت أوربا الغربية فترة من الزمن ترتجف من الهول ولكنها لم تكد يمسها أذى . ولعل بقية أوربا استطاعت أن تسير فى طريقها نحو الحرية السياسة والعقلية ، ونحو الثروة ، والنعيم ، والفن ، لأن الروسيا ظلت مائتى عام مغلوبة ، ذليلة ، راكدة ، فقيرة .

الفصل الرابع

بحر البلقان المضطرب

يرى الناظر إلى بلاد البلقان عن بعد أنها خليط مضطرب من العواصف السياسية والدسائس ، ومن الخداع الجذاب والمهارة التجارية ، والحروب والاغتيال ، والمذابح المدمرة . أما البلغارى ، والرومانى ، والمجرى ، واليوغسلافى فيرى كل منهم أن أمته هى ثمرة ألف عام من الكفاح للظفر باستقلالها من الإمبراطوريات المحيطة بها ، والاحتفاظ بثقافة فذة باهرة ، والتعبير عن خصائصها القومية فى البناء ، واللباس ، والشعر ، والموسيقى والغناء دون أن يعوقها عن ذلك عائق .

وظلت بلغاريا ، التى كانت من قبل دولة قوية فى عهد كروم Krum وسيميون Simeon ، ثمانية وستين عاما ومائة عام خاضعة لبيزنطية ، ووجد تذمر البلغار والفلاخ Vlach أهل ولاشيا Wallachia من يعبر عنه فى شخص أخوين هما يوحنا وبطرس آسن Asen كان لهما من الدهاء والشجاعة ما تتطلبه ظروف ذلك الوقت وما تحتاجه البلاد . ودعا الأخوان أهل ترنوڤا Trnova إلى كنيسة القديس دمتريوس وأقنعاهم بأن هذا القديس غادر مدينة سلانيك اليونانية ليتخذ ترنوفا موطنا له ، وأن فى وسع بلغاريا إذا انضوت تحت لوائه أن تستعيد حريتها . وأفلحا فى بلوغ هدفهما ، وقسما الدولة الجديدة تقسيما وديا بينهما ، فاتخذ يوحنا ترنوفا مقراً لحكمة واتخذ بطرس برسلاف Preslav . وكان أعظم ملك من نسلهما ، وفى تاريخ بلغاريا كله ، هو يوحنا آسن الثانى (١٢١٨—١٢٤١) ؛ ذلك أن هذا الملك لم يضم إلى ملكه تراقيا ، ومقدونية ، وإپيروس ، وألبانيا فحسب ، بل حكم هذه البلاد حكماً عادلا أحبه من أجله رعاياه من اليونان أنفسهم . وكسب

رضاء البابوات بإظهار الولاء لهم ، وبإغداق الأموال على الأديرة ؛ وشجع التجارة ، والآداب والفنون بمناصرتها وبما سنه لها من القوانين المستنيرة ، وجعل ترنوفا من أكثر مدائن أوربا جمالا ، ورفع منزلة بلغاريا فى الثقافة والحضارة إلى مصاف معظم الأمم الراقية فى تلك الأيام . لكن خلفاءه على العرش لم يرثوا منه حكمته ؛ وأشاعت غزوات المغول الاضطراب فى الدولة وأضعفتها (١٢٩٢ - ١٢٩٥) ، وأدى ذلك إلى خضوعها فى القرن الرابع عشر إلى الصرب أولا ثم إلى الأتراك فيما بعد .

وأفلح الزهوبان Zhupan (الزعيم) استيفن نمانيا Stephen Nemanga فى عام ١١٥٩ فى إخضاع العشائر والأقاليم الصربية المختلفة لحكمه ، فكان هو المؤسس الحقيقى لمملكة الصرب ، التى ظلت خاضعة لحكم أسرته مائتى عام . وكان ابنه سافا Sava يؤدى للأمة أعمال كبير الأساقفة والحاكم السياسى فى وقت واحد ، فأصبح فيما بعد أعظم قديسيها منزلة فى نفوس الأهلين . وكانت البلاد لا تزال فقيرة ، حتى كانت القصور الملكية نفسها تقام من الخشب . وكانت لها فرضة بحرية مزدهرة هى مدينة راجوسا Ragusa (دبرفنيك Dubrovnik الحالية) ، ولكن هذه المدينة كانت دولة مستقلة مفردة ، أصبحت فى عام ١٢٢١ خاضعة لحماية البندقية . واتخذ الفن الصربى فى خلال هذين القرنين طرازاً خاصا به وبلغ درجة عظيمة من الإتقان فى هذا الطراز الخاص ، نتبينهما فى الصور والنقوش المرسومة على جدران كنيسة القديس بنتيليمون Panteleimon ذات الدير فى نريز Nerez (حوالى عام ١١٦٤) ، فهى تكشف عن واقعية مسرحية لم نعتدها فى التصوير البيزنطى ، وتسبق بقرن من الزمان بعض أساليب التصوير التى كانت فى ظن الناس من ابتكار دشيو Duccio وجيتو Giotto . وتظهر فى هذه الصور الجدارية وغيرها مما رسم فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر صور للملوك تنم عن فردية لا تضارعها فيها أية صورة بيزنطية قبل ذلك العهد (١٥)

وبينما كانت بلاد الصرب فى العصور الوسطى تسير نحو حضارة راقية ، حطمت الاضطهادات والمروق من الدين وحدة الأمة ، ولربما كان فى وسعها لولا هذا أن تقف زحف الأتراك . كذلك أضعفت المنازعات الدينية البوسنه Bosnia بعد أن بلغت ذروة مجدها فى العصور الوسطى تحت حكم البان Ban (أى الملك) كولين Kulin (١١٨٠ — ١٢٠٤) ، وما زالت كذلك حتى خضعت إلى المجر عام ١٢٥٤ .

وعم الاضطراب هنغاريا بعد موت استيفن الأول (١٠٣٨) من جراء الفتن التى أثارها المجر الوثنيون على الملوك الكاثوليك ، وما بذله هنرى الثالث من محاولات لضم هنغاريا إلى ألمانيا . وهزم اندرو الأول Andrew I هنرى ، ولما جدد الإمبراطور هنرى الرابع هذه المحاولة فوّت الملك جيزا الأول Giza I عليه غرضه بأن أعطى هنغاريا إلى جريجورى السابع ، ثم استردها منه إقطاعية بابوية (١٠٧٦) . وأدى التنافس على العرش فى القرن الثانى عشر إلى تقوية الإقطاع فى البلاد ، فقد منح المتنافسون النبلاء إقطاعات واسعة نظير تأييدهم لهم ، حتى بلغ هؤلاء النبلاء من القوة فى عام ١٢٢٢ ما مكنهم من انتزاع « مرسوم ذهبى Golden Bull » شبيه شبهاً عجيباً بالعهد الأعظم (مجنا كارتا) الذى وقعه چون ملك إنجلترا فى عام ١٢١٥ . وقد أنكر هذا المرسوم وراثة الإقطاعيات ، ولكنه وعد أن يدعى مجلس كل عام ، وألا يسجن أى نبيل إلا بعد أن يحاكم أمام كونت من القصر الإمبراطورى ، وألا تفرض ضريبة ما على ضياع الأشراف أو رجال الدين . وظل هذا المرسوم الملكى المعروف باسم المرسوم الذهبى نسبة إلى غلافه أو خاتمه صك الحرية لأشراف هنغاريا ، وأضعف سلطة الملكية الهنغارية وقت أن كان المغول يستعدون لإيقاع أوروبا فى أزمة من أشد الأزمات فى تاريخها كله .

وفى وسعنا أن ندرك ما بلغه المغول من سعة الملك وقوة السلطان إذا ذكرنا أن أجادى Ogadi الخان الأعظم سير فى عام ١٢٣٥ ثلاثة جيوش للزحف على كوريا والصين وأوربا . وعبر الجيش الثالث بقيادة باتو نهر الفلجا فى عام ١٢٣٧ ، وكانت عدته ثلثمائة ألف مقاتل . ولم يكن هذا الجيش حشداً غير نظامى ، بل كان قوة جيدة التدريب ، حسنة القيادة مجهزة بآلات قوية للحصار وبأسلحة نارية جديدة عرف المغول طريقة استعمالها من الصينيين . وخرب هؤلاء المحاربون فى مدى ثلاث سنين الروسيا الجنوبية كلها تقريباً . وكأنما كان باتو غير قادر على أن يفكر فى الهزيمة فقسم هذا الجيش قسمين ، زحف أحدهما على پولندة ، واستولى على كركوفيا Cracow ولبلين Lubiin وعبر نهر الأودر وهزم الألمان فى ليجنتز Leignitz (١٢٤١) ؛ وتسلق الجيش الثانى بقيادة باتو نفسه جبال الكرپات ، وهاجم هنغاريا ، والتقى بقوات هنغاريا والنمسا المتحدة عند موهى Mohi وأوقع بها هزيمة منكرة قدّر مؤرخو العصور الوسطى — الذين لا يراعون قط جانب الاعتدال فيما يذكرون من الأرقام — عدد القتلى من المسيحيين بمائة ألف ، وقدّر الإمبراطور فردريك الثانى خسائر الهنغاريين بما « لا يكاد يقل عن جميع القوة الحربية للمملكة »(١٦) . ومن مخربات التاريخ أن الغالبين والمغلوبين فى هذه البلاد كانوا من دم واحد : فقد كان القتلى من أشراف هنغاريا أبناء المجر المغول الذين اجتاحوا البلاد قبل ثلاثة قرون من ذلك الوقت . واستولى باتو على پست Pesth وإزترجوم Eztergom (١٢٤١) ؛ وعبرت قوة من المغول نهر الدانوب ، وأخذت تطارد الملك الهنغارى بيلا الرابع Bela IV حتى وصلت إلى شاطئ البحر الأدرياوى ، وكانت أينما حلت تنزل الخراب والدمار . وأخذ فردريك الثانى يهيب بأوربا

أن تتحد لتستطيع الوقوف فى وجه تيار الغزو الأسيوى الجارف ، ولكن نداءه كان صرخة فى واد . وحاول أنوسنت الثالث أن يدعو المغول إلى المسيحية وإلى السلام ، ولكن دعوته هو الآخر ذهبت أدراج الرياح ؛ وكان الذى أنجى المسيحية وأوربا هو موت أجادى وعودة باتو إلى قرقورم للاشتراك فى انتخاب خان جديد . ولم يحدث فى التاريخ كله تخريب أشمل من هذا التخريب أو أوسع فقد امتد من المحيط الهادى إلى البحرين الأدرياوى والبلطى .

وعاد بيلا الرابع إلى بست المخربة وعمرها بالألمان ، ونقل عاصمة ملكه إلى بودا Buda على الضفة الأخرى من الدانوب (١٢٤٧) ؛ وأعاد على مهل اقتصاديات بلاده المحطمة . وقامت طبقة جديدة من الأشراف فأعادت تنظيم المراعى والضياع الكبرى التى كان الرعاة الفلاحون الأذلاء ينتجون منها الطعام للأمة . وهبط عمال المناجم الألمان من أرزچبرج واستخرجوا المعادن الخام الغنية من ترنسلفانيا Transylvania . وكانت حياة الأهلين وعاداتهم لا تزال خشنة غليظة ، وأدوات العمل بدائية ، والبيوت أكواخاً من الأغصان والطين . وقام الرجال فى هذه البيئة التى تضطرب فيها الأجناس واللغات ، وينقسم فيها الأهلون إلى طبقات ومذاهب دينية متنابذة متعادية ، قام الرجال فى هذه البيئة يعملون لتحصيل أرزاقهم ومكاسبهم ، ووصل أسباب الاقتصاد الذى هو منبت الحضارة .

الفصل الخامس

دول التخوم

كما أن كل نقطة في الكون اللانهائي يمكن أن تعد مركزاً له ، كذلك نرى كل أمة وكل نفس فى موكب الحضارات والدول تفسر مسرحية التاريخ والحياة تفسيراً يدور حول صفاتها هي والدور الذى قامت به فيه . وكان فى شمال جبال البلقان خليط آخر من الشعوب – من البوهيميين ، والپولنديين ؛ واللتوانيين ، والليفونيين ، والفنلنديين ، كل واحد منها يجعل تاريخه القومى المحور الذى يدور حوله العالم كله مستمسكاً فى ذلك بالعزة القومية التى تبعث الحياة فى نفوس الشعوب .

وكان الفنلنديون الذين تربطهم بالمجر والصرب صلات دم بعيدة ، يعيشون فى بداية العصور الوسطى على ضفتى نهر الفلجا الأعلى والأوكا Oka . وقبل أن يستهل القرن الثامن هاجر أولئك الأقوام إلى الأراضى الجدباء المسرحية المناظر المعروفة عند غيرهم باسم فنلندة وعندهم هم باسم السوئمى Suomi أو أرض المناقع ، ولما أخذوا يغيرون على سواحل اسكنديناوة اضطر إرك التاسع Eric IX ملك السويد إلى فتح بلادهم فى عام ١١٥٧ . وترك إرك أسقفاً عندهم فى أبسالا لينشر بينهم الحضارة ، فقتل الفنلنديون الأسقف هنرى ثم اتخذوه بعد قتله قديسهم الشفيع ، وأخذوا فى بسالة هادئة يزيلون الغابات ويجففون المناقع ، ويصرفون مياه العشرة « الآلاف بحيرة »(١٧) ويجمعون الفراء ، ويجاهدون ضد الثلوج .

وأخذت قبائل أخرى قريبة فى أصولها من الفنلنديين تعمل بالفاس والمجرف جنوب خليج فنلندة ، وهى قبائل البروسيين Borussians أو Prussians ، والإسث Esths (الإستونيين) ، واللف Livs ، (اللفونيين) ، واللتفا Litva

(اللثوانيين) واللت Letts واللتفيين . فكانوا يصيدون الحيوان من الغابات ، والسمك من مياه البحار والأنهار ، ويربون النحل ، ويفلحون الأرض ، ويتركون وراءهم تراثا من الآداب والفنون لمن هم أقل منهم قوة من خلفائهم الذين كانوا هم يكدحون من أجلهم . وظلت هذه القبائل كلها ما عدا الأستونيين وثنية حتى القرن الثانى عشر حين نشر الألمان بينهم المسيحية والحضارة بالنار والسيف . ولما وجد اللفونيون أن الألمان يتخذون الدين المسيحى وسيلة للتسلل إلى بلادهم والسيطرة عليهم قتلوا المبشرين ، ونزلوا إلى نهر الدفينا Dvina ليتطهروا فيه من دنس التعمد ، وعادوا إلى آلهتهم القدامى . ودعا إنوسنت الثالث إلى شن حرب صليبية عليهم ، ودخل الأسقف ألبرت Albert نهر الدفينا بثلاث وعشرين سفينة حربية ، وشاد مدينة ريجا Riga واتخذها عاصمة للبلاد وأخضع لفونيا لحكم الألمان ١٢٠١ . وأتمت طائفتان من الفرسان الدينيين — العسكريين طائفتا الفرسان اللفونيين ، والفرسان التيوتون إخضاع دول البحر البلطى لألمانيا ، وامتلكوا فيها أرضين واسعة ، ونشروا الدين المسيحى بين أهلها ، واتخذوهم رقيق أرض(١٨) . وقويت قلوب الفرسان التيوتون بهذا النجاح ، فتقدموا نحو الروسيا يرجون أن يخضعوا فى القليل ولاياتها الغربية لألمانيا وللمسيحية اللاتينية ، ولكنهم هزموا عند بحيرة بيبوس (١٢٤٢) فى واقعة من مواقع التاريخ الحاسمة التى لا يحصى لها عدد .

وكان بحر آخر من الصقالبة يموج حول هذه الدول البلطية . وكان منهم طائفة تسمى نفسها البولانيين أى « شعب الحقول » — وكانت تفلح أودية أنهار الوارث Warthe والأودر Oder ، وطائفة أخرى تسمى المازور Mazurs ، تسكن على ضفتى نهر الفستيولا Vistula ، وطائفة ثالثة تدعى البومرزانى Pomerzani (أى « بجانب البحر ») هى التى اشتق منها اسم بمرانيا Pomerania . وأراد الأمير البولندى ميسزكو الأول Mieszko 1 أن يجنب بلاده فتح الألمان ، فوضع بولندة تحت حماية البابا بوات ، وأدارت بولندة من

ذلك الحين ظهرها نحو صقالبة الشرق نصف البيزنطيين ، وألقت بنفسها في أحضان أوربا الغربية والمسيحية الرومانية . وفتح بلسلاف الأول Boleslav I (٩٩٢ — ١٠٢٥) ابن ميسزكو بومرانيا ، وضم إلى بلاده برسلو Breslau وكركوفيا Cracow ونصب نفسه أول ملك على پولندة . وقسم باسلاف الثالث Boleslav III (١١٠٢ — ١١٣٩) المملكة بين أبنائه الأربعة ، وضعفت الملكية بعد هذا التقسيم ، وقسم الأشراف الأرض إمارات إقطاعية ، وأخذت پولندة تتقلب بين الحرية تارة والخضوع لألمانيا وبوهيميا تارة أخرى . واندفع عليها تيار المغول الجارف في عام ١٢٤١ ، واستولوا على كركوفيا عاصمة البلاد ، ودكوها دكا . ولما انحسر تيار الأسيويين طغت في أثره موجة من المهاجرين الألمان على پولندة الغربية ، وخلقت فيها مزيجا قوياً من لغة الألمان وشرائعهم ، ودمائهم ، ورحب بلسلاف الخامس في هذا الوقت عينه (١٢٤٦) باليهود الفارين من المذابح في ألمانيا ، وشجعهم على تنمية الأعمال التجارية والمالية ، واختير ونسسلاس الثاني Wenceslas II ملك بوهيميا ملكا على پولندة في عام ١٣١٠ ، وضم الأمتين تحت تاج واحد .

واستقر الصقالبة في بوهيميا ومورافيا في القرنين الخامس والسادس ؛ وقام زعيم صقلبي يدعى سامو في عام ٦٢٣ وحرر بوهيميا من حكم الآفار وأسس فيها دولة ملكية مطلقة ماتت بموته في عام ٦٥٨ . وغزا شارلمان أرضها في عام ٨٠٥ ، وظلت بوهيميا ومورافيا جزأين من الدولة الكارولنجية زمنا لا نعرف مداه . حتى إذا كان عام ٨٩٤ أخضعت أسرة بريمزل Premysl كلا الإقليمين لسلطانها الدائم ، ولكن المجر حكموا مورافيا نصف قرن من الزمان (٩٠٧ — ٩٥٧) . وفي عام ٩٢٨ أخضع هنرى الأول بوهيميا للألمان . وعم الرخاء بوهيميا في عهد الدوق ونسسلاس الأول Wenceslas I (٩٢٨—٩٣٥) على الرغم من خضوعها للألمان. هذا الخضوع المتقطع ؛ وكانت أم هذا الدوق القديسة لدملا St. Ludmilla

قد ربته تربية مسيحية خالصة ، وظل بعد أن تولى الحكم مسيحياً مخلصاً يطعم الفقراء ويكسوهم ، ويحمى الأرامل والأيتام ، ويستضيف الغرباء ، ويحرر الأرقاء من ماله . وحاول أخوه أن يغتاله لأنه تعوزه الرذائل التى لابد من وجودها فى الملوك ، فضربه ونسسلاس بيده وعفا عنه ، ولكن غيره من المتآمرين اغتالوا الملك وهو فى طريقه لحضور القداس فى اليوم الخامس والعشرين من شهر سبتمبر عام ٩٣٥ ؛ ولا يزال أهل بوهيميا يحتفلون بهذا اليوم ويسمونه عيد ونسسلاس قديس بوهيميا وحارسها .

وخلفه أدواق ذوو نزعة حربية ، وزحف بلسلاف الأول Boleslav I (٩٣٩ — ٩٦٧) والثانى (٩٦٧ — ٩٩٩) ، وبراتسلاف الأول Bratislav I (١٠٣٧ — ١٠٥٥) من عاصمتهم ذات الموقع الحربى المنيع وفتحوا مورافيا ، وسيليزيا ، وپولندة ؛ ولكن هنرى الثالث أرغم براتسلاف على الجلاء عن پولندة والعودة إلى أداء الجزية لألمانيا . ثم حرر أتوكار الأول Attokar I ١١٩٨ — ١٢٣٠ بوهيميا وصار أول ملوكها ، وأخضع أتوكار الثانى النمسا ، واستيريا Styria وكارنثيا ؛ وكان أتوكار هذا شديد الرغبة فى تنمية الصناعة وإيجاد طبقة وسطى فى البلاد يقاوم بها النبلاء المتمردين ، فشجع الألمان على أن يهاجروا إلى بلاده حتى أصبح العنصر الألمانى هو الكثرة الغالبية من سكان مدن بوهيميا ومورافيا كلها تقريباً(١٩) ، وأصبحت مناجم الفضة فى كتناهورا Kutna Hora أساس رخاء بوهيميا ومطمع غزاتها الكثيرين ، وأعلن الألمان الحرب على أتوكار فى عام ١٢٧٤ ، وأبى أشراف بلاده أن يساعدوه على الغزاة ، فتخلى لهم عن فتوحه ، واحتفظ بعرشه بوصفه أميراً إقطاعياً خاضعاً لألمانيا . ولما أن تدخل الإمبراطور رودلف هپسبرج Rudolf of Hapsburg فى شئون بوهيميا الداخلية عبأ أتوكار جيشاً جديداً

حارب به الألمان عند درنكروت Durnkrut ؛ وتخلى عنه النبلاء للمرة الثانية ، فألقى بنفسه فى وطيس المعمعة بين صفوف الأعداء المتراصة ، ومات وهو يقاتل قتال المستيئس ؛

وصالح ونسسلاس الثانى (١٢٨٧ — ١٣٠٥) الألمان على أن يعود أميراً إقطاعياً خاضعاً لهم ، وبذل جهوداً جبارة فى إعادة النظام والرخاء إلى البلاد . وانتهى بموته عهد الأسرة البريمسلية بعد أن حكمت البلاد خمسمائة عام

كان البوهيميون ، والمورافيون ، والپولنديون هم كل من بقى من المهاجرين لصقالبة الذين كانوا يملأون من قبل ألمانيا الشرقية إلى حدود نهر الإلب ، كانوا فى الوقت الذى نتحدث عنه خاضعين لسلطان الألمان .

الفصل السادس

ألمــــانيـــــا

كان الذين كسبوا المعركة فى النزاع التاريخى القائم حول تولى غير رجال الدين المناصب الكهنوتية هم أشراف ألمانيا — الأدواق واللوردة ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة . وقد سيطر هؤلاء على الملكية الضعيفة بعد هزيمة هنرى الرابع ؛ وأقاموا فى البلاد نظاماً إقطاعياً يعمل على تفكيكها وإضعاف سلطان حكومتها المركزية ، وأدى هذا النظام إلى حرمان ألمانيا فى القرن الثالث عشر من زعامة أوربا .

وخلع هنرى الخامس (١١٠٦ — ١١٢٦) أباه عن العرش ، وواصل كفاح أبيه ضد البارونات والبابوات . ولما رفض پسكال الثانى Paschael II أن يتوجه إمبراطوراً إلا إذا نزل عن حقه فى تولية غير رجال الدين المناصب الكهنوتية ، زج بالبابا والكرادلة فى السجن . ولما مات ألغى الأشراف نظام الملكية الوراثية ، وقضوا على الأسرة الفرنكونية Franconian ، وولوا لوثير الثالث Lothair III السكسونى ملكا على البلاد ، وبعد ثلاثة عشر عاما من ذلك الوقت أسس كنراد الثالث Conrad III أسرة هوهنستاوفن Hohenstaufen السوابية أقوى أسرة ملكية فى تاريخ ألمانيا كله .

ولم يوافق الدوق هنرى الباڤارى على من وقع عليه اختيار الناخبين ، وأيده فى هذا الرفض عمه ولف Welf أو جلف Guelf ؛ وشب النزاع من هذا الوقت بين جلف وغبلين "Ghibelline" وهو النزاع الذى اتخذ فى القرنين الثانى عشر

والثالث عشر صوراً كثيرة ، وكانت له نتائج متعددة(*) .

وحاصر جيش آل هوهنستاوفن العصاة البافاريين فى بلده ويزبرج Weisberg وقلعتها . وتقول إحدى الروايات القديمة إن المدينتين المتنازعتين « هى ولف ! » و « هى ويبلنج ! » سجلتا اسم الطائفتين المقتتلتين ، وتقول القصص الظريفة إنه لما قبل السوابيون المنتصرون استسلام المدينة على أن يؤمن النساء وحدهن من القتل ، وأن يسمح لهن بمغادرتها ومعهن كل ما يستطعن حمله ، خرجت النساء القويات الأجسام يمشين وهن يحملن أزواجهن على ظهورهن[٢٠] . وعقدت هدنة فى عام ١١٤٢ حين خرج كنراد للحرب الصليبية ، ولكن كنراد أخفق فى غرضه وعاد يجلله العار . وخيل إلى الناس أن بيت هوهنستاوفن قد تلطخ اسمه بالعار حين جلس على العرش أعظم رجل من رجاله .

وكان فريدريخ Friedrich (سيد السلام) أو فردريك الأول (١١٥٢ — ١١٩٠) فى سن الثلاثين حين اختير ملكا . ولم يكن رجلا مهيب الطلعة — فقد كان قصير القامة ، أبيض البشرة ، أصفر الشعر ، ذا لحية حمراء أكسبته فى إيطاليا اسم بربرسا Barbarossa ، ولكنه كان ذا عقل صاف وعزيمة ماضية ؛ قضى حياته فى العمل لخير الدولة ، وأعاد ألمانيا إلى زعامة العالم المسيحى وإن كان قد منى بكثير من الهزائم . وإذ كان يجرى فى عروقه دم آل هوهنستاوفن وآل ولف جميعاً ، فقد نادى بسلم فى البلاد Landfried ، وصالح أعداءه ، وهدأ أصدقاءه ، وقضى بشدة على المنازعات ، والاضطرابات ، والجرائم . ويصفه معاصروه بدماثة الخلق ، وباستعداده الدائم للابتسام ابتسامة رقيقة جذابة ، وإن كان « شديد الوطأة على الأشرار » حتى كانت قسوة قوانينه الجنائية ، وهمجيتها عاملا فى تقدم الحضارة فى ألمانيا . وكان الناس يثنون بحق على حياته

(*) كانت غبلين أو فبلنجن Waiblingen قرية من أملاك أسرة هوهنستاوفن . ومعنى هذا اللفظ هو « استاوفن العالية » وهو مشتق من اسم حصن جبلى وقرية فى سوابيا .

الخاصة لما عرف عنه من تمسكه بأهداب العفة والفضيلة ، وإن كان قد طلق زوجته الأولى لقربها إليه من ناحية العصب ، وتزوج بوريثة كونت برغندية فنال بهذا الزواج مع عروسة مملكة .

وإذ كان يتوق لأن يتوّجه البابا إمبراطوراً ، فقد وعد يوجنيوس الثالث Eugenius 111 أن يساعده على الرومان المتمردين ، والنورمان المشاكسين ، إذا حقق البابا رغبته ، وقدم الملك الشاب الفخور إلى نيبي Nepi القريبة من رومة حيث التقى بهدريان الرابع البابا الجديد ، وأغفل الشعيرة المعتادة القاضية بأن يمسك الحاكم الزمنى زمام جواد البابا وركابه ويساعده على النزول . وبذلك نزل هدريان إلى الأرض من غير معونة ، وأبى على فردريك « قبلة السلام » وتاج الإمبراطورية إلا إذا أدى فردريك هذه الشعيرة . وظل أعوان البابا والملك يومين كاملين يتناقشون فى هذه المسألة ويجعلون تاج الإمبراطورية معلقاً على أداء المراسم الشكلية ، حتى خضع فردريك آخر الأمر ، فانسحب البابا وعاد إلى المدينة ممتطياً صهوة جواده ، وأمسك فردريك بزمام فرس البابا وركابه ، وظل من ذلك الحين يتحدث عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، يرجو من وراء هذا أن يعترف العالم بأن الإمبراطور هو والبابا النائبان عن الله فى الأرض .

وجعله لقبه الإمبراطورى ملكا على لمبارديا أيضاً ؛ ولم يكن حاكم ألمانى بعد هنرى الرابع يستمسك بحرفية هذا اللقب ، ولكن فردريك سرعان ما بعث إلى كل بلد من بلدان إيطاليا الشمالية حاكما يصرف أمورها باسمه . وقبلت بعض المدن أولئك السادة الأجانب ولم يقبلهم بعضها . وإذ كان فردريك يحب النظام أكثر من الحرية ، ولعله أيضاً كان يرغب فى السيطرة على المنافذ الإيطالية لتجارة ألمانيا مع بلاد الشرق ، فقد خرج فى عام ١١٥٨ ليخضع البلاد الثائرة التى تعشق الحرية أكثر من النظام . واستدعى إلى بلاطه فى رنكاجليا Roncaglia فقهاء القانون الذين كانوا يحيون الشريعة الرومانية فى بولونيا ؛ وسره أن يعرف

منهم أن هذه الشريعة تجعل الإمبراطور صاحب السلطة المطلقة على جميع أجزاء الإمبراطورية والمالك لكل ما فيها ، وتخوله حق تعديل الحقوق الشخصية أو إلغائها إذا رأى فى تعديلها أو إلغائها مصلحة للدولة . ورفض البابا اسكندر الثالث هذه الادعاءات لخوفه منها على حقوق البابوية الزمنية ، وأيد هذا الرفض بإعلانه أن هذه الحقوق هبات من پيپين وشارلمان ؛ ولما أصر فردريك على الاستمساك بمطالبه حرمه البابا من الكنيسة (١١٦٠) ؛ وانتقلت وقتئذ صيحات مدينتى جلف وغبلين لتمثل أولاهما مؤيدى البابا والثانية مؤيدى الإمبراطور . وحاصر فردريك مدينة ميلان العنيدة عامين كاملين ، حتى إذا استولى عليها آخر الأمر حرقها عن آخرها (١١٦٢) . وأغضبت هذه القسوة مدائن ڤيرونا، وڤيسنزا ، وپدوا، وترڤيزو، وفرارا ، ومانتوا ، وبرشيا ، وبرجامو ، وكرمونا ، وپياسنزا ، وپارما ، ومودينا ، وبولونيا ، وميلان ، فعقدت فيما بينهما حلف جامعة المدن اللمباردية (١١٦٧) وهزمت جيوش تلك الجامعة جيش فردريك الألمانى عند لنيانو فى عام ١١٧٦ ، وأرغمته على أن يعقد هدنة تدوم ست سنين . واصطلح الإمبراطور والبابا بعد عام من ذلك الوقت ، ووقع فردريك معاهدة صلح فى كنستانس (١١٨٣) أعاد بها الحكم الذاتى إلى المدن الإيطالية . وأقرت هذه المدن فى نظير هذا بالسيادة الاسمية للإمبراطورية عليها ، ووافقت كرما منها وشهامة على أن تمد فردريك وحاشيته بما يلزمه من الزاد فى زياراته للمبارديا .

وهكذا هزم فردريك فى إيطاليا ولكنه انتصر فى جميع البلاد الأخرى ، وأفلح فى تثبيت دعائم السلطة الإمبراطورية على بولندة ، وبوهيميا ، وهنغاريا . وفرض من جديد على رجال الدين الألمان ، بالفعل إن لم يكن بالقول ، جميع حقوق تولى المناصب التى كان يطالب بها هنرى الرابع ، وكسب معونة هؤلاء الرجال حتى على البابوات أنفسهم(٢١) . ونعمت ألمانيا بما ناله من مجد ، وسرها أن تستدعيه من إيطاليا ، واغتبطت بمواكب الفرسان التى كانت تسير فى حفلات

تتويجه ، وزيجاته ، وأعياده . وخرج الإمبراطور الشيخ فى عام ١١٨٩ على رأس مائة ألف من الرجال إلى الحرب الصليبية الثالثة ، ولعله كان يرغب فى أن يؤلف من الشرق والغرب إمبراطورية رومانية تعود إلى رقعتها القديمة ؛ ومات الإمبراطور غريقاً فى قليقية بعد عام من ذلك الوقت .

وكان فردريك كما كان شارلمان مشبعاً إلى أقصى حد بالتقاليد الرومانية ، وقد أنهك قواه بما بذله من الجهد لإحياء ماضيها الميت . وحزن أنصار الملكية المطلقة المعجبون بها لما منى به من الهزائم، وعدوها انتصاراً للفوضى ، أما عشاق الدمقراطية فيسرون بها ويرونها مراحل فى طريق الحرية ؛ وإذا ما نظرنا إلى أعماله بعينه هو رأيناه على حق فيما فعل ؛ فقد كانت ألمانيا وإيطاليا تسيران مسرعتين فى طريق الفساد واختلال النظام ، ولم تكن سلطة غير سلطة الإمبراطورية القوية تستطيع القضاء على المنازعات والاضطرابات الإقطاعية والحروب القائمة بين المدن المختلفة ، وكان لابد أن يستتب النظام ليمهد السبيل إلى نشأة الحرية القومية . ونسجت حول فردريك الأول فى عهود الضعف الألمانية المقبلة أقاصيص دالة على حب الشعب له ، وخلع على بربرسا بعد حين من الصفات ما كان القرن الثالث عشر يتصور وجوده فى حفيده : فقيل إنه لم يمت بحق بل كل ما فى الأمر أنه كان نائماً فى جبال كيفهوزر Kyffhauser بثورنجيا Thuringia ، وكان فى مقدور الناس أن يروا لحيته الطويلة تنمو مخترقة ما يغطيه من الرخام ؛ وسوف يستيقظ من نومه فى يوم من الأيام ، وينفض الثرى عن كتفيه ، ويعيد إلى ألمانيا النظام والقوة . ولما أنشأ بسمارك دولة ألمانيا الموحدة قال هذا الشعب الفخور إنه هو بربرسا نهض ظافراً من قبره[٢٢] .

وكاد هنرى السادس (١١٩٠ — ١١٩٧) يحقق حلم أبيه ، فقد انتزع فى عام ١١٩٤ جنوبى إيطاليا وصقلية من النورمان بمعونة جنوى وبيزا ، وخضعت له إيطاليا كلها عدا الولايات البابوية . وضمت پروڤانس، ودوفينيه Cauphiné ،

وبرغندية ؛ وألساس ، ولورين ، وسويسرا ، وهولندة ، وألمانيا ، والنمسا ، وبوهيميا ، ومورافيا ، وبولندة ضمت هذه كلها إلى أملاك هنرى ، واعترفت إنجلترا بسيادته عليها ، وأدى له المسلمون الموحدون الجزية ، وطلبت أنطاكية ، وقليقية ، وقبرص أن تضم إلى الإمبراطورية ، وكان هنرى ينظر بنهم إلى فرنسا وأسپانيا ، وقد وضع الخطط للاستيلاء على بيزنطية ، وكانت الفرق الأولى من جيشه قد أبحرت إلى بلاد الشرق حين أصيب بزخار البطن وقضى نحبه فى صقلية وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره .

ولم يكن هنرى قد حسب حساب مناخ هذه البلاد التى فتحها وأعد العدة لاتقاء ثأرها منه . ولم يكن له إلا ولد واحد هو طفل فى الثالثة من عمره ، وأعقبت موته فترة من الفوضى دامت نحو عشر سنين أخذ المطالبون بالعرش فيها يقتتلون فيما بينهم . ولما أن بلغ فردريك الثانى سن الرشد تجددت الحرب بين الإمبراطورية والبابوية ، تجددت فى إيطاليا على يد ملك ألمانى — نورمانى أصبح إيطاليا ، سنتحدث عنه فيما بعد حين نتكلم على إيطاليا . وأعقبت موت فردريك الثانى (١٢٥٠) نحو ثلاثين عاماً أخرى من الفوضى يسميها شلر : « العهد المرعب الذى لا سادة فيه » ، باع فيه الأمراء الناخبون عرش ألمانيا لكل مستضعف يتركهم أحراراً فى أن يوطدوا أركان سلطانهم المستقل . وتكشف عهد الفوضى عن نهاية أسرة هوهنستاوفن ، وأنشأ رودلف الهپسبرجى فى عام ١٢٧٣ أسرة جديدة واتخذ ڤينا عاصمة له . وأراد رودلف أن يكسب تاج الإمبراطورية ، فوقع فى عام ١٢٧٩ إعلانا يعترف فيه بخضوع السلطة الملكية للسلطة البابوية خضوعاً تاماً ؛ ويتخلى فيه عن جميع مطالبه فى إيطاليا الجنوبية وصقلية . ولم يصبح رودلف إمبراطوراً قط ، ولكنه استطاع بشجاعته ، وإخلاصه ، ونشاطه أن يعيد النظام والرخاء إلى ألمانيا ، وأن ينشئ أسرة قوية ظلت تحكم النمسا وهنغاريا حتى عام ١٩١٨ .

وبذل هنرى السابع (١٣٠٨–١٣١٣) آخر الجهود لتوحيد ألمانيا وإيطاليا

فعبر جبال الألب (١٣١٠) بمعونة ضئيلة من الأشراف الألمان وقوة صغيرة من فرسان الوالون Walloon ، ورحبت به كثير من مدن لمبارديا ، وكانت قد سئمت حرب الطبقات ونزاع المدن بعضها مع بعض ، وتاقت نفسها إلى التحرر من سلطان الكنيسة عليها . ورحب دانتي بالغزاة برسالة عن الملكية ، أعلن فيها بشجاعة تحرر السلطة الزمنية من السلطة الروحية ، وطلب فيها إلى هنرى أن ينقذ إيطاليا من سيطرة البابوية ، ولكن الجلف من أهل فلورنس أصبحت لهم الغلبة فى البلاد ، وسحبت المدن المشاكسة تأييدها ، ومات هنرى ، وهو محوط بالأعداء ، بحمى الملاريا وهى الداء الذى تجزى به إيطاليا بين الفينة والفينة عاشقيها المملقين .

وصدت ألمانيا فى الجنوب حواجز من طبيعة الأرض ، واختلاف العنصر ، واللغة ، فوجدت لها مخرجا وتعويضاً فى جهة الشرق ، فاستردت الهجرات والفتوح والاستعمار الألمانى والهولندى ثلاثة أخماس ألمانيا من الصقالبة ؛ وانتشر الألمان الكثيرو النسل على ضفتى الدانوب ووصلوا إلى هنغاريا ورومانيا ؛ وأقام التجار الألمان أسواقا وثغوراً فى فرانكفورت على الأودر ، وفى برسلاو ، وبراج ، ودانترج وريجا ودوربات Dorpt وريفال Reval ، ومراكز تجارية فى كل مكان فى الرقعة الممتدة من بحر الشمال والبحر البلطى إلى جبال الألب والبحر الأسود . لقد كانت فتوحهم وحشية ، ولكن النتائج أدت إلى رقى لا يستطاع تقديره فى حياة سكان الحدود الاقتصادية والثقافية .

وكان انهماك الأباطرة فى هذه الفترة السالفة الذكر فى شئون إيطاليا ، وحاجتهم المتكررة إلى ضمان تأييد الأشراف والفرسان ، أو مكافأتهم على هذا التأييد بهبات الأرض أو السلطان ، وما طرأ على سلطة الملوك الألمان من الضعف بسبب مقاومة البابا لهم وخروج اللمبارد عليهم ، كان هذا كله قد ترك الأشراف أحراراً يتملكون الأرض فى الريف ، وينزلون الفلاحين منزلة الرقيق ؛ فعلا بذلك شأن الإقطاع فى القرن الثالث عشر فى ألمانيا بينما كان سلطان الملوك يقضى عليه

فى فرنسا : وأصبح الأساقفة الذين قربهم الأباطرة الأولون ليكونوا شوكة فى ظهر الأشراف، أصبح هؤلاء طبقة ثانية من النبلاء، لايقلون ثروة وقوة واستقلالا عن الأشراف الدنيويين . ولم يحل عام ١٢٦٣ حتى عهد الإقطاعيون إلى سبعة من الأشراف — هم كبراء أساقفة مينز وتريير، وكولونى، ودوقا سكسونيا وباڤاريا، وكونت پلاتين ومارجريف(*) برندنبرج حق اختيار الملك : وحد هؤلاء الناخبون من سلطان الحاكم، واغتصبوا الامتيازات الملكية، واستولوا على أراضى التاج . ولقد كان يسعهم أن يعملوا عمل الحكومة المركزية ويهيئوا للأمة وحدتها، ولكنهم لم يفعلوا، بل كانوا فيما بين الانتخابين يسيرون كما يحلو لهم ؛ ولم تكن أمة ألمانية قد وجدت بعد، وكل ما كان موجوداً هم السكسون والسوابيون، والباڤاريون، والفرنجة . . وكذلك لم يكن هناك برلمان قومى، بل كانت فى البلاد المختلفة مجالس إقليمية تسمى لاندتاج Landtage . ولما قام مجلس ريشستاغ Reichstag أو مجلس لمجموعة البلاد الألمانية فى عام ١٢٤٧، اضمحل فيما بين عهدى الانتخاب، ولم يعل شأنه إلا فى عام ١٣٣٨، وكانت طائفة من الموظفين — من رقيق الأرض أو الأحرار المعينين من قبل الملوك . يؤلفون بيروقراطية مفككة ويكسبون نظام الحكم نوعا من الاستمرار غير المترابط . ولم يكن للبلاد عاصمة موحدة يتركز فيها ولاء الشعب واهتمامه ؛ ولم تكن هناك مجموعة موحدة من القوانين تحكم بها البلاد كلها، فقد احتفظ كل إقليم بعاداته وقوانينه رغم ما بذله بربروسا من الجهد لفرض القانون الرومانى على ألمانيا كلها . وحدث فى عام ١٢٢٥ أن صيغت قوانين سكسونيا فى كتاب واحد سمى المرآة السكسونية Sachsenspiegel، وفى عام ١٢٧٥ صيغت قوانين سوابيا وعاداتها فى « المرآة السوابية Schwabenspiegel » ؛ وأيد هذان القانونان ماكان للشعب من حق

(*) مارجريف Margrave لقب من ألقاب الأشراف فى ألمانيا يعادل لقب مركيز فى فرنسا (المترجم).

قديم فى اختيار ملوكه ، وما كان للفلاحين من حق الاحتفاظ بحريتهم وأرضهم ، وقالت المرآة السكسونية فى هذا الصدد إن رق الأرض والاستعباد يتعارضان مع الطبيعة البشرية ومع إرادة الله ، وأن أصلهما يرجع إلى القوة أو الغش (٢٣) ، لكن رق الأرض أخذ مع ذلك ينمو ويزداد :

وكان عهد آل هوهنستاوفن (١١٨٣ — ١٢٥٤) أعظم العهود الألمانية قبل بسمارك . نعم إن عادات الشعب وآدابه كانت لا تزال خشنة غليظة ، وكانت قوانينه مضطربة هى والفوضى سواء ، وأخلاقه خليطاً من الأخلاق المسيحية والوثنية ، ومسيحيته نصف ستار لانتهاب الأراضى واغتصابها من أصحابها . كذلك لم تكن ثروة الشعب أو وسائل نعيمه تضارع ثروة شعب إيطاليا أو فلاندرز إذا وازنا مدينة فى ألمانيا بمدينة مثلها فى ذينك البلدين الأخيرين . ولكن الفلاحين الألمان كانوا مجدين كثيرى النسل ، وكان التجار الألمان مغامرين ذوى إقدام ، والأشراف أكثر سكان أوربا ثقافة وقوة ، والملوك هم الرؤساء الزمنيين للعالم الغربى يحكمون بلاداً تمتد من نهر الرين إلى نهر الفستيولا ، ومن نهر الرون إلى جبال البلقان ، ومن البحر البلطى إلى الدانوب ، ومن بحر الشمال إلى صقلية : ونشأت وترعرعت مائة مدينة ومدينة بفضل حياتها الاقتصادية الناشطة ، وكان لكثير منها صكوك ومواثيق تؤيد حكمها الذاتى ؛ وأخذت على مر السنين تزداد ثروتها وتزدهر فنونها حتى كانت فى عصر النهضة فخر ألمانيا وشاهداً على عظمتها ومجدها ، وإنا ليعترينا الآن الأسى والحزن على ما كان لها من جمال زال ولم يبق له وجود :

الفصل السابع

اسكنـــديناوة

عادت الدنمرقة إلى الظهور فى التاريخ مرة أخرى فى عهد ولدمار الأول الأول Waldemar I (١١٥٧ — ١١٨٢) بعد أن ظلت مائة عام تنعم بالاختفاء عنه ، فقد استعان هذا الملك بوزيره أبسالون Absalon كبير أساقفة لند Lund على إقامة حكومة قوية ، طهرت البحار من القراصنة . واعتنت الدنمرقة بحماية التجارة وتشجيعها ، وأسس أبسالون فى عام ١١٦٧ مدينة كوبنهاجن Copenhagen أى « مرفأ السوق » — Kjoebenhaven . وردّ ولدمار الثانى (١٢٠٢ — ١٢٤١) على الاعتداءات الألمانية بالاستيلاء على هولستين Holstein ، وهمبرج ، وعلى البلاد الألمانية الواقعة فى الشمال الشرقى من نهر الإلب . ثم قام بثلاث حروب « صليبية » ضد صقالبة البحر البلطى « تكريماً للعذراء المباركة » واستولى على إستونيا الشمالية ، وأسس مدينة ريڤال Reval . وهوجم فى إحدى هذه الحروب وهو فى معسكره ؛ ويقول الرواة إنه نجا من الموت بسببين أولها شجاعته وثانيهما أنه نزلت من السماء فى وقت الهجوم عليه راية حمراء عليها صليب أبيض . وأصبحت هذه الراية المعروفة باسم الدنبرج Dannebrog أى القماش الدنمرقى علم القتال الدنمرقى ؛ وأسره الكونت هنرى الشويرينى Count Henry of Schwerin فى عام ١٢٢٣ ، ولم يطلق سراحه بعد أن قضى فى الأسر عامين ونصف عام إلا بعد أن نزل للألمان على جميع فتوحه الألمانية والصقلبية ما عدا روجن Rügen . وقضى هذا الملك بقية حياته العجيبة النافعة فى الإصلاحات الداخلية وتقنين جميع شرائع الدنمرقة . وكانت مساحة الدنمرقة حين وفاته ضعفى مساحتها فى هذه الأيام ، وكانت تشمل الجزء الجنوبى من بلاد السويد ، وكان عدد سكانها مساويا لعدد سكان السويد (٣٠٠ر٠٠٠) والنرويج (٢٠٠ر٠٠٠)

مجتمعين . ثم ضعفت سلطة الملوك بعد وفاة ولدمار الثانى ، حتى إذا كان عام ١٢٨٢ حصل الأشراف من إرك جلبنج Eric Glipping على عهد يعترف فيه بأن جمعيتهم « الدنهف Danehof » برلمان قومى .

وليس فى مقدور كائن من كان أن يجعلنا نتصور أعمال أهل اسكنديناوة فى هذه الأيام الأولى اللهم إلا إن كان قصّاصاً واسع الخيال ، وحسبنا أن نقول عنها إنها جهود جبارة تبذل فى سبيل الاستيلاء على هذه الشبه الجزيرة الوعرة الخطرة يوماً بعد يوم وقدماً بعد قدم . لقد كانت الحياة لا تزال فيها بدائية ؛ وكانت موارد الغذاء الأولية فيها هى صيد الحيوان والسمك والزراعة . وكان لا بد من تقطيع أشجار الغابات المترامية الأطراف ، وتأنيس الحيوان البرى ، وجر الماء إلى مجار تمكن الأهلين من الإنتاج ، وإنشاء المرافئ البحرية ؛ وكان لا بد من أن يعتاد الرجال الجلد وتحمل المشاق لمغالبة الطبيعة التى بدت وكأنها تغضب من تطفل الإنسان عليها وتدخله فى شئونها . وكان للرهبان السسترسيين Cistercian شأن عظيم فى هذا الكفاح الذى قضوا فيه حياتهم جيلا بعد جيل ، فكانوا يقطعون الأشجار ، ويفلحون الأرض ، ويعلمون الفلاحين أساليب الزرع الراقية . وكان من أبطال هذا الكفاح إيرل برجر Earl Birger رئيس وزراء السويد من ١٢٤٨ إلى ١٢٦٦ . فهو الذى ألغى رق الأرض ، وأقام حكم القانون ، وأسس مدينة استكهولم Stokholm (حوالى عام ١٢٥٥) ، وأنشأ أسرة فولكنج Folkung (١٢٥٠ — ١٣٦٣) بأن أجلس ابنه ولدمار على العرش . وأثرت مدينة برجن لأنها كانت منفذ تجارة النرويج ، وأضحت مدينة فزبى Visby القائمة على جزيرة جتلند Gotland مركز الاتصال بين بلاد السويد والعصبة الهانسية . وشيدت كنائس فخمة ممتازة ، وتضاعف عدد الكنائس الكبرى والمدارس ، وأخذ الشعراء يغنون قصائدهم ؛ وفى القرن الثالث عشر أضحت جزيرة أيسلندة Iceland القائمة بعيداً عن البلاد فى ضباب المحيط الجامد الشمالى أكثر المراكز الاسكنديناوية فى العالم نشاطاً فى الأدب .

الفصل الثامن

إنجلترا

١ - وليم الفاتح

حكم وليم الفاتح إنجلترا حكما جمع فيه بمهارة عظيمة بين الشدة ، والقانون ، والتقوى ، والدهاء ، والخداع . فلما أن رفعه إلى العرش الويتان Witan تحت تأثير الخوف والإرهاب ، أقسم أن يطيع القوانين الإنجليزية المعمول بها وقتئذ . وانتهز بعض الأعيان فى غربى إنجلترا وشماليها فرصة غيابه فى نورمندى وحاولوا إيقاد نار الثورة فى البلاد (١٠٦٧) ، فعاد إليهم واندفع فى البلاد ينتقم من أهلها أشد الانتقام ، فأطلق لنفسه فيه العنان بقتل الأهلين ، ويهلك الحرث والنسل ، ويدمر البيوت بأساليب منظمة محكمة لم تنج إنجلترا من آثارها كلها حتى القرن التاسع عشر[٢٤] . وقسم أخصب أراضى المملكة إلى ضياع واسعة وزعها على أعوانه النورمان ، وشجعهم على بناء قصور حصينة يتخذونها قلاعاً يدافعون بها عن أنفسهم ضد السكان المعادين(*) . واحتفظ هو بمساحات من الأرض واسعة لتكون ملكاً للتاج ، واتخذ قطعة من هذه الأرض طولها ثلاثون ميلا ، مسارح للملك يصيد فيها الوحوش . ودمر كل ما كان فى هذه البقعة من منازل ، وكنائس ، ومدارس ليفسح الطريق للخيل والكلاب ، وكان يعاقب كل من يقتل أيلا أو أيلة فى الغابة الجديدة بفقء عينه[٢٥] .

(*) وربما كان ربن هود Robin Hood ، الشهير فى القصص والغامض فى التاريخ الصحيح ، أحد الإنجليز السكسون الذين ظلوا أكثر من مائة عام يحاربون الفاتحين النورمان حرب العصابات . وكان الفقراء الإنجليز يحيون ذكراه ، بوصفه ثائراً لم يغلب يعيش فى غابة شروود Sherwood ، ولا يعترف بالقانون النورمانى وينهب مال الأعيان ، ويساعد أرقاء الأرض ، ويعبد القديسين .

وهكذا نشأت فى إنجلترا طبقة الأشراف الجدد الذين لا يزال أبناؤهم من حين إلى حين يسمون بأسماء فرنسية ، وانتشر الإقطاع الذى كان من قبل ضعيفاً نسبياً فى طول البلاد وعرضها ، وحول الشعب أرقاء أرض . وجعلت الأرض كلها ملكا للملك ، ولكنه سمح للإنجليز الذين استطاعوا أن يبرهنوا على أنهم لم يقفوا فى وجه الفاتحين بأن يعوودا إلى شراء أرضهم من الدولة . وأراد وليم أن يسجل مغانمه ويعرفها ، فأرسل عماله فى عام ١٠٨٣ ليسجلوا اسم مالك كل قطعة من الأرض فى إنجلترا ، وحالها ، ومحتوياتها ؛ وقد ورد فى هذا السجل أن الملك « شدد عليهم فى أوامره تشديداً لم تبق معه ياردة واحدة من الأرض ، لا . . . بل ولا ثور أو بقرة ، أو خنزير ، لم يكتب فى سجله »[٢٦] . وكانت نتيجة هذا العمل هو **كتاب الأعظام** وهو اسم ينذر بما سيكون له من شأن خطير إذ أصبح هو « الحكم » الأخير فى جميع المنازعات العقارية . وأراد وليم أن يضمن لنفسه معونة البلاد الحربية ، ويحد من سلطان أتباعه العظام ، فاستقدم إليه جميع كبار الملاك فى إنجلترا — وكان عددهم ستين ألفاً — إلى اجتماع عقـد فى سلزبرى Salisbury (١٠٨٦) ، وجعل كل واحد منهم يقسم يمين الإخلاص التام للملك . وكان عمله هذا احتياطاً حكيما ضد الإقطاعية الفردية التى كانت وقتئذ تقطع أوصال فرنسا .

وبعد فلابد للإنسان أن يتوقع قيام حكومة قوية بعد الفتح . وهذا ما حدث فى إنجلترا وقتئذ ، فقد أقام وليم أو خلع فرساناً ونبلاء ، وأساقفة ورؤساء أساقفة وأديرة ؛ ولم يتردد لحظة فى أن يزج فى السجن لوردة عظماء : وأن يتمسك بما له من حق تعيين رجال الدين فى مناصبهم . ويقاربه فى هذه الناحية جريجورى السابع الذى كان مثله ذا حول وطول ، والذى كان فى هذا الوقت عينه يستقدم الإمبراطور هنرى الرابع إلى كنوسا Canossa(*) . وأراد الملك أن يمنع الحرائق

(*) يشير المؤلف هنا إلى مذلة كنوسا وسيرد ذكرها فيما بعد (المترجم) .

فأمر سكان إنجلترا بإطفاء نار المدافئ أو تغطيتها(*) قبل الساعة الثامنة مساء ، ومعنى هذا أن يأوى الأهلون إلى فراشهم فى فصل الشتاء فى هذا الوقت(٢٧) . واشتدت حاجته إلى المال للإنفاق منه على حكومته الآخذة فى الاتساع ، وعلى فتوحه المترامية الأطراف ، ففرض ضرائب باهظة على جميع البيوع ، والواردات ، والصادرات ، واستخدام القناطر ، والطرق . وأعاد جميع الضرائب التى ألغاها من قبل إدورد المعترف . ولما علم أن بعض الإنجليز أودعوا أموالهم فى سراديب الأديرة ليخفوها عنه ، أمر بتفتيش جميع الأديرة وبنقل كل ما هو مخبأ فيها إلى بيت ماله ، ولم يكن بلاطه الملكى يتورع عن قبول الرشا ، وتسجيلها بأمانة فى السجل العام(٢٨) . لقد كانت حكومته فى صراحة تامة حكومة فاتحين يعتزمون أن يجعلوا مكاسب مغامرتهم تتناسب مع ما تعرضوا له من الأخطار .

وكان لرجال الدين النورمان نصيبهم من النصر ، فقد جىء بلافرانك Lafranc القدير المرن من كائن Caen ونصب كبيراً لأساقفة كنتربرى وكبيراً لوزراء الملك . فلما جاء وجد رجال الدين الأنجليسكسون مولعين بالصيد ، ولعب النرد ، والزواج(٢٩) ، فاستبدل بهم قساوسة وأساقفة ، ورؤساء أديرة من النورمان ؛ ووضع دستوراً جديداً للأديرة هو المعروف بعادات كنتربرى ، ورفع مستوى رجال الدين الإنجليز من الناحيتين العقلية والخلقية ، وأصدر وليم — بإيحاء منه فى أغلب الظن — قراراً بفصل المحاكم الكنسية عن المحاكم المدنية ، وأمر بأن ينظر فى جميع المسائل الروحية بمقتضى قانون الكنيسة ، وتعهد بأن تنفذ الدولة كل ما تحكم به المحاكم الكنسية من عقوبات . وأمر بأن تجبى العشور من الشعب لمعونة الكنيسة ، ولكنه طلب ألا يذاع أو ينفذ قرار بابوى أو رسالة بابوية فى إنجلترا بغير موافقته ، وألا يدخل إنجلترا مبعوث من قبل البابا إلا بإذن ملكى . وفصلت من ذلك الحين جمعية الأساقفة الوطنية عن الويتان وكانت من قبل جزءاً منه ، وأصبحت

(*) وتسمى هذه العملية باللغة الإنجليزية Curfew . (المترجم)

هيئة مستقلة ، لا تنفذ قراراتها إلا إذا صادق عليها الملك[٣٠] .

ووجد وليم أن حكم مملكته أيسر عليه من حكم أسرته ، شأنه فى هذا شأن الكثرة الغالبة من عظماء الرجال . فقد كانت الإحدى عشرة السنة الأخيرة من حياته مليئة بالنزاع بينه وبين زوجته الملكة ماتلدا Matilda ، وطلب ابنه ربرت أن يكون له السلطان الكامل على نورماندى ، فلما رفض طلبه هذا خرج على أبيه ، وحاربه وليم حرباً غير حاسمة ، ثم صالحه على أن يوصى له بهذه الدوقية بعد وفاته . وزاد جسم الملك زيادة صعب عليه معها أن يركب الخيل ؛ وحارب فليب الأول ملك فرنسا لخلاف على الحدود ؛ ولما طال مكثه فى رون ، وكاد يعجز عن الحركة لبدانته ، سخر منه فليب — على حد قول بعضهم — بأن قال إن ملك إنجلترا « ملازم الفراش للنفاس » ، وأن الشموع ستوقد فى الاحتفال العظيم الذى سيقام فى الكنيسة بعد أن يلد . وأمر وليم جيشه أن يحرق مانت Mantes عن آخرها هى وما جاورها ، وأن تتلف كل المحصولات والفاكهة ، ونفذ أمره بحذافيره . وبينما كان وليم يسير فوق جواده وسط مظاهر التخريب والتدمير وهو ثمل بخمرة النصر إذ عثر به الجواد فسقط فوق قربوس السرج الحديدى ، فحمل إلى صومعة القديس جرڤاس Gervase القريبة من رون ، حيث اعترف بذنوبه اعترافاً كاملا ، وأدلى بوصيته ، وكفر عن هذه الذنوب بأن وزع ثروته على الفقراء والكنيسة ، ووهب المال لإعادة بناء مانت . وترك أبناؤه جميعاً ، عدا ، هنرى ، فراش موته ليقتتلوا من أجل وراثة العرش ، وفر ضباطه وخدمه بما استطاعوا أن يستولوا عليه من المغانم ؛ وحمل جثته قروى من أتباعه إلى « دير الرجال » Abbay aux Hommes فى كائن (١٠٨٧) . ووجد أن التابوت الذى صنع له لا يتسع لجثته ؛ فلما أراد الخدم أن يحشروا جسمه الضخم فى هذا التابوت الضيق ، انفجر الجسم ؛ وملأ الكنيسة كلها برائحة الملك الكريهة[٣١] .

وكانت نتائج الفتح النورمانى كثيرة يخطئها الحصر ، فقد فرض شعب جديد

وفرضت طبقة جديدة على الدنمرقيين الذين حلوا محل الإنجليز والسكسون ، الذين غلبوا البريطانيين الرومان ، الذين فرضوا سيادتهم على الكلت(*) ؛ وكان لابد أن تمر عدة قرون قبل أن يثبت الأنجليسكسون والكلت وجودهم في الدم البريطاني واللغة البريطانية ؛ وكان بين النورمان والدنمرقيين أواشج قربى ، ولكنهم في المائة السنين التي جاءت بعد رولو Rollo أصبحوا فرنسيين ، فلما نزلوا بإنجلترا أصبحت عاداتها الرسمية ولغتها الرسمية عادات ولغة فرنسية ، وظلت كذلك ثلاثة قرون . وجاء مع الفاتحين من فرنسا إلى إنجلترا نظام الإقطاع بكل ما فيه من زينة الخيول ، وفروسية وعلامات الدروع ونقوشها ، والمفردات التي تعبر عنها . وفرض رق الأرض على إنجلترا فرضاً كاملا قاسياً إلى حد لم تعرفه من قبل في تاريخها[٣٢] ، وكان المرابون اليهود الذين جاءوا مع وليم حافزاً جديداً للتجارة والصناعة ؛ ونشأت من الاتصال الوثيق بين إنجلترا والقارة الأوربية أفكار جديدة في الأدب والفن ، وبلغ فن العمارة النورماني ذروة مجده في بريطانيا ؛ وجاء الأشراف الجدد بعادات جديدة وأخلاق جديدة ، وحيوية جديدة ، وبنظام زراعي خير مما كان في البلاد من قبل . وحسن الأشراف والأساقفة النورمان النظام الإداري للدولة تحسيناً كبيراً فقد أصبح الحكم مركزياً ، ووحدت الدولة وإن يكن هذا التوحيد قد تم عن طريق الحكم المطلق ، وأصبحت الحياة والأموال أكثر أمناً من ذي قبل ، وأقبلت إنجلترا على عهد طويل من السلام الداخلي لم تغز بعده أبداً غزواً ناجحاً .

(*) أبقينا هذا التكرار في اسم الموصول وصلته مجاراة للأصل الإنجليزي لأنه مقصود بذاته . (المترجم)

٢ – تومس أبكت

من الأقوال المأثورة فى إنجلترا أن يتوسط ملك ضعيف بين كل ملكين قويين ، ولكن الحقيقة أن الملوك الضعاف الذين يتوسطون ملكين قويين لا حد لعددهم . ومصداقاً لهذا نقول إنه لما مات وليم الفاتح استولى ابنه ربرت على نورمندى وجعلها مملكة مستقلة ، وتوج ابنه الأصغر منه وليم روفس (الأحمر ١٠٨٧ – ١١٠٠) ملكا على إنجلترا بعد أن قطع على نفسه عهداً بأن يسلك مسلكا حسناً مع لانفكرانك متوّجه ووزيره . وحكم هذا الملك حكما استبداديا حتى عام ١٠٩٣ ، ثم مرض ووعد بأن يكون حسن السلوك ، فلما شفى من مرضه ، عاد إلى استبداده وظل كذلك حتى اغتالته يد مجهولة فى أثناء صيده . وظل الرجل التقى أنسلم الذى أصبح بعد لانفكرانك كبير أساقفة كنتربرى يقاوم مقاومة طويلة ، أعيد بسببها إلى فرنسا .

ودعا ابن ثالث من أبناء وليم الفاتح يدعى هنرى (١١٠٠ – ١١٣٥) أنسلم إلى العودة ، فطلب المطران – الفيلسوف أن يمتنع الملك عن اختيار الأساقفة ، فلما رفض الملك هذا الطلب نشب بينهما نزاع طويل اتفق بعده على أن تختار جمعيات رجال الكنائس والرهبان بحضور الملك نفسه الأساقفة الإنجليز ورؤساء الأديرة ، وأن يقدموا له مراسم الولاء بوصفه مصدر أملاكهم وسلطاتهم الإقطاعية . وكان هنرى يحب المال ويكره التبذير ؛ ولهذا فرض الضرائب الفادحة ولكنه راعى جانب الاقتصاد والعدالة فى حكمه ؛ وحافظ على السلم والنظام فى إنجلترا ، عدا معركة واحدة – فى تنشبريه عام ١١٠٦ – استرد فيها نورمندى إلى التاج البريطانى . وأمر النبلاء أن « يضبطوا أنفسهم فى معاملاتهم لزوجاتهم وأبنائهم وبنات رجالهم »[٣٣] . وكان له هو أبناء غير شرعيين وبنات غير شرعيات من عشيقاته المتعددات[٣٤] ، ولكنه أوتى من الكياسة والحكمة

ما جعله يتزوج مود Maud سليلة الملوك الاسكتلنديين والإنجليز السابقين على عهد النورمان ، فطعم بذلك الأسرة المالكة الجديدة بالدم الإنجليزى القديم .

وأرغم هنرى الأشراف والقساوسة على أن يقسموا يمين الولاء لابنته ما تلدا وابنها الشاب الذى أصبح فيما بعد هنرى الثانى . فلما مات الملك غتصب العرش استيفن أمير بلوا Blois وحفيد وليم ، وظلت إنجلترا أربعة عشر عاما تعانى كوارث الموت والضرائب الفادحة فى حرب داخلية امتازت بأشد ضروب القسوة والإرهاب(٣٥) . وكبر هنرى الثانى فى هذه الأثناء ، وتزوج اليانور الأكتانية Eleanor of Aquitaine واستولى على دوقيتها ، وغزا إنجلترا ، وأرغم استيفن على الاعتراف به وارثاً للعرش . ولما توفى استيفن صار ملكا على انجلترا (١١٥٤) ؛ وبذلك انتهى عهد أسرة النورمان وبدأ عهد أسرة البلانتجنت(*) . وكان هنرى رجلا حاد الطبع ، كثير المطامع ، قوى الذهن ، يميل بعض الميل إلى الكفر بالله(٣٦) . وكانت له السيادة الاسمية على مملكة تمتد من اسكتلندة إلى جبال البرانس ، وتشمل نصف فرنسا ، ولكنه ألفى نفسه بادى العجز فى مجتمع إقطاعى ، مزق فيه كبار الأشراف بجنودهم المرتزقة وحصونهم المنيعة الدولة إلى إقطاعيات يحكمونها بأنفسهم ، ولهذا شرع الملك بنشاط رهيب يجمع المال والرجال ، ويحارب الأشراف ويخضعهم سيداً بعد سيد ، ويدمر القصور الاقطاعية الحصينة ، ويوطد أركان النظام والأمن والعدالة والسلم . وأخضع لحكم إنجلترا أيرلندة التى غلبها ونهبها قراصنة ويلز ؛ وكان فى إخضاعها حكيما مقتصداً فى ماله وفى جنده . ولكن هذا الرجل القوى ، الذى يعدّ من أعظم الرجال فى تاريخ إنجلترا كله ، قد ذل وتحطم حين التقى بتومس أبكت Thomas à Becket ، وهو رجل

(*) كان جوفرى الأنجوى Jeoffrey of Anjou والد هنرى الثانى قد لبس صولجاً من نبات الرتم (المسمى planta genêt بالفرنسيه) فى قبعته .

ذو إرادة لا تقل مضاء عن إرادته ودين أعظم قوة من أية دولة قائمة فى ذلك الوقت .

ولد تومس فى لندن عام ١١١٨ من أبوين نورمانيين من أبناء الطبقة الوسطى . واسترعى الغلام انتباه ثيوبولد **Theobald** كبير أساقفة كنتربرى بذكائه الناضج قبل الأوان ، فأرسله إلى بولونيا **Bologna** وأكسير **Auxerre** ليدرس الشرائع المدنية والكنسية . ولما عاد إلى إنجلترا انتظم فى سلك رجال الدين ، وما لبث أن ارتقى فى المناصب الدينية حتى صار كبير شمامسة كنتربرى . ولكنه كان مثل كثيرين غيره من رجال الدين فى تلك القرون الماضية ، رجل عمل أكثر مما كان رجل دين ؛ فكانت الشئون الإدارية والدبلوماسية أكثر ما تظهر فيها مهارته ؛ وأظهر فى هذين الميدانين مقدرة فائقة رفعته إلى مقام الوزارة ولم يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره . وساد الوئام بينه وبين هنرى إلى حين ، فكان المستشار الوسيم موضع ثقة الملك فى أخص شئونه ، يشاركه ألعاب الفروسية ، ويكاد يشاركه فى ثروته وسلطانه . وكانت مائدته أفخم الموائد فى إنجلترا كلها ، وكانت صدقاته للفقراء تضارع كرم ضيافته لأصدقائه . وكان فى الحرب يقود بنفسه سبعمائة من الفرسان ، ويبارز الأعداء فرداً لفرد ، ويضع الخطط الحربية ؛ ولما أرسل فى بعثة إلى باريس ارتاع الفرنسيون حين رأوا حاشيته الفخمة المؤلفة من ثمان مركبات ، وأربعين جواداً ، ومائتين من الأتباع ؛ وقالوا فى أنفسهم ترى ماذا يكون الملك الذى له مثل هذا الوزير !

وعين كبيراً لأساقفة كنتربرى فى عام ١١٦٢ ، فلم يكد يتولى منصبه حتى تبدلت أساليبه تبدلا تاماً فجائياً كاملا كأنما حدث ذلك بسحر ساحر ، فتخلى عن قصره الفخم ، وثيابه الملكية ، وأصدقائه من الأشراف ، وبعث إلى الملك باستقالته من الوزارة وارتدى الثياب الخشنة ، فلبس شعاراً من الصوف ، وعاش على الخضر ، والحبوب ، والماء ، وكان فى كل ليلة يغسل قدمى ثلاثة عشر

متسولا وأضحى من ذلك الوقت مدافعاً عن جميع حقوق الكنيسة ، وامتيازاتها ، ومصادر إيرادها . وكان من بين هذه الامتيازات عدم محاكمة رجال الدين أمام المحاكم المدنية . وثارت ثائرة هنرى ، وهو الذى كان يطمع فى أن يبسط سلطانه على كافة الطبقات ، حين وجد أن المحاكم الكنسية كثيراً ما تترك رجال الدين دون أن تعاقبهم على ما يرتكبونه من الجرائم ، ولهذا دعا فرسان إنجلترا وأساقفتها إلى اجتماع عقده فى كلارندن Clarendon (١١٦٤) ، وحملهم على أن يوقعوا دستور كلارندن الذى قضى على كثير من الحصانات التى كان يتمتع بها رجال الدين . ولكن بكت رفض أن يختم الوثائق بخاتم أسقفيته الكبرى ، فما كان من هنرى إلا أن أذاع القوانين الجديدة غير عابئ بهذا الرفض ، وقدم الرئيس الدينى المريض للمحاكمة أمام المحكمة الملكية . وجاء بكت ، وعارض فى هدوء أساقفته الذين أعلنوا مع الملك أنه مذنب لخروجه على قوانين سيده الإقطاعى ملك البلاد . ولما أمرت المحكمة بالقبض عليه أعلن أنه سيستأنف القضية أمام البابا ، ثم خرج سالماً من القاعة بثيابه الأسقفية التى لم يجرؤ أحد على لمسها . وأطعم فى ذلك المساء عدداً كبيراً من الفقراء فى بيته بلندن ، ثم فر فى أثناء الليل متخفياً سالكاً طرقاً ملتوية إلى القناة الإنجليزية ، وعبر المضيق المضطرب الماء قارب ضعيف ، ووجد ملجأ له فى دير قائم فى سانت أومر St Omer فى بلاد ملك فرنسا ، ثم قدم استقالته من منصب كبير الأساقفة إلى البابا اسكندر الثالث . وأيده البابا فى موقفه ، وأعاد تعيينه فى كرسيه ، ولكنه أرسله ليعيش مؤقتاً معيشة راهب سسترسى فى دير پنتنى Pontigny .

ونفى هنرى من إنجلترا جميع أقارب بكت ذكوراً وإناثاً ، صغاراً كانوا أو كباراً . ولما جاء هنرى إلى نورمندى خرج تومس من صومعته وصعد منبراً فى ڤيزلاى Vezelay ، وأعلن حرمان جميع رجال الدين الإنجليز الذين أيدوا دستور كلارندن (١١٦٦) . وكان جواب هنرى أن هدد بمصادرة أملاك جميع الأديرة

والصوامع القائمة فى إنجلترا ، ونورمندي ، وأنچو ، وأكتين ، والمنتسبة إلى دير پنتني إذا استمر هذا الدير على إيواء بكت . وتوسل الرئيس المرتاع إلى بكت أن يغادر الدير ، وعاش الرجل المتمرد المريض من الصدقات فى نزل قذر ببلدة سان Sens . وأغرى لويس السابع ملك فرنسا البابا اسكندر الثالث ، فأمر هنرى أن يعيد كبير الأساقفة إلى كرسيه ، وأنذره إذا رفض بأنه سيحرم إقامة جميع الصلوات والخدمات الدينية · الأقاليم الخاضعة لحكم إنجلترا (١١٦٩) . فاضطر هنرى إلى الخضوع ، وجاء إلى أڤرانش Avranches ، والتقى ببكت ، ووعده بأن يصلح كل ما يشكو منه ، وأمسك بركاب كبير الأساقفة المنتصر وهو يهم بالركوب عائداً إلى إنجلترا (١١٦٩) . فلما عاد تومس إلى كنتربرى كرر قرار الحرمان على الأساقفة الذين قاوموه . فذهب بعضهم إلى هنرى فى نورمندى وأثاروا غضبه ، ولعلهم بالغوا فى وصف مسلك بكت . فصاح هنرى قائلا : « عجباً ! . . . أيجرؤ رجل يُطعم خبزى . . . على أن يهين الملك والمملكة جميعها ، ولا يأخذ بحقى واحد من أولئك الخدم الكسالى الذين يُطعمون على مائدتى فيغسل تلك الإهانة ؟ » . وذهب إلى إنجلترا أربعة من الفرسان الذين سمعوه ، من غير علم الملك على ما يظهر ؛ ووجدوا كبير الأساقفة عند مذبح كنيسة كنتربرى فى يوم ٣٠ من ديسمبر سنة ١١٧٠ ، فقطعوا جسمه بسيوفهم وهو واقف فى مكانه .

وروعت المسيحية كلها وثار ثائرها على هنرى ودمغته من تلقاء نفسها بطابع الحرمان العام . فاعتزل الملك العالم فى حجرته ثلاثة أيام لا يذوق فيها الطعام ؛ أصدر بعدها أمره بالقبض على القتلة ، وبعث بالرسل إلى البابا يعلنون براءته من الجريمة ، ووعد بأن يكفّر عن ذنبه بالطريقة التى يرتضيها الإسكندر . ثم ألغى دستور كلارندن ، وردّ إلى الكنيسة جميع مالها فى بلاده من حقوق وأملاك . وقام الناس فى هذه الأثناء يقدسون بكت ويعلنون أن معجزات كثيرة حدثت عند قبره ، وأعلنت الكنيسة قداسته رسميا (١١٧٢) ، وسرعان ما أخذت الآلاف

المؤلفة تحج إلى ضريحه . وجاء هنرى أخيراً إلى كنتربرى حاجا نادماً ؛ ومشى الثلاثة الأميال الأخيرة من الطريق على الحجارة الصوان حافى القدمين ينزف الدم منهما ؛ ثم استلقى على الأرض أمام قبر عدوه الميت ، وطلب إلى الرهبان أن يضربوه بالسياط ، وتقبل ضرباتهم ؛ وهكذا تحطمت إرادته القوية أمام السخط العام عليه والمتاعب المتزايدة فى بلاده . وأخذت زوجته إليانور ، التى طردها الملك الزانى وسجنها ، تأتمر به مع أبنائه لتخلعه عن العرش ؛ وتزعم هنرى أكبر أبنائه فتنتين إقطاعيتين قامتا عليه فى عامى ١١٧٣ و ١١٨٣ ، ومات وهو خارج على أبيه . ثم تحالف ولداه رتشرد وچون ، بعد أن طال انتظارهما موته ، مع فليب أغسطس ملك فرنسا وانضما إليه فى حرب ضد أبيهما ، ولما طرد من لمان Le Mans جهر بالطعن على الإله الذى حرمه من البلدة التى ولد فيها وأحبها ، ومات فى شينون Chinon (١١٨٩) ؛ وكان آخر ما نطق به أن سب أولاده الذين غدروا به ، والحياة التى وهبته المجد والسلطان ، والغنى ، والعاشقات ، والأعداء ، والعار ، والغدر ، والهزيمة .

لكنه لم يخفق الإخفاق كله . نعم إنه قد سلم لبكت الميت بما لم يسلم به لبكت الحى ، لكن حجة هنرى هى التى كسبت المعركة على توالى الأيام : ذلك أن المحاكم المدنية هى التى وسعت اختصاصها وبسطت سلطانها فى عهد كل ملك جاء بعده على رعايا الملك سواء كانوا من رجال الدين أو رجال الدنيا[٣٧] . ولقد حرر القانون الإنجليزى من القيود الكنسية والإقطاعية ، ومهد السبيل لنمائه ذلك النماء الذى جعله من أجل الأعمال التشريعية التى ظهرت منذ عهد رومة الإمبراطورية . ولقد حذا حذو جده العظيم وليم الفاتح فقوّى حكومة إنجلترا ووحّدها بإخضاع الأشراف المتمردين الذين أشاعوا الفوضى فى البلاد إلى القانون والنظام . وكان نجاحه فى هذه الناحية أكثر مما يجب أن يكون : ذلك أن الحكومة المركزية قويت حتى كادت تصبح حكومة مطلقة غير مسئولة إلى أقصى حد ، وحتى

كانت الجولة الثانية فى المعركة التاريخية بين النظام والحرية هى التى قام بها الأشراف المناضلون عن الحرية .

٣ — العهد الأعظم أو مجنا كارتا

لقد ورث رتشرد الأول الملقب بلقب الأسد عرش أبيه دون أن ينازعه منازع ، وكان رتشرد ابن اليانور المغامرة المتهورة التى لا تغلب ، ولقد تتبع خطاها ولم يتبع خطا هنرى القدير النكد . وولد رتشرد فى أكسفورد ١١٥٧ وانتدبته أمه ليصرف شئون أملاكها فى أكتين ، وفيها أشربت نفسه بثقافة پروڤانس المتشككة ، و « بعلوم » الشعراء الغزليين « المرحة » ولم يعد قط رجلا إنجليزيا . وكان حبه للمغامرات والغناء أكثر من حبه للسياسة والإدارة ، وامتلأت الاثنتان والأربعون سنة التى عاشها بحوادث روائية تكفى لأن تملأ مائة عام ، وكان لشعراء زمانه مثالا يحتذونه ونصيرا يلقون منه التشجيع . وقد قضى الخمسة الشهور الأولى من حكمه فى جمع المال اللازم لحرب صليبية ؛ فخص بهذا الغرض جميع الأموال التى خلفها وراءه هنرى الثانى ، وأقصى آلافاً من الموظفين ثم أعاد تعيينهم نظير جعل يتقاضاه منهم ، وباع صكوكاً بالحرية للمدن التى تستطيع أداء ثمنها ، واعترف باستقلال اسكتلندة نظير ١٥٫٠٠٠ مارك ، ولم يقبل هذا الثمن القليل لأنه يزهد فى المال بل لأنه شديد الحب للمغامرات . ولم يمض على اعتلائه العرش نصف عام حتى أبحر إلى فلسطين ، ولم يكن حرصه على سلامته أكثر من حرصه على حقوق غيره ؛ وقد أثقل كاهل البلاد بالضرائب إلى أقصى طاقتها ، وبدد ما جمعه من المال فى الترف ، والولائم ، والمظاهر الكاذبة ، واندفع فى العمل خلال العقد الأخير من القرن الثانى عشر بجرأة وتهور جعلا زملاءه الشعراء يضعونه فى صف الإسكندر ، وآرثر ، وشارلمان .

وحارب صلاح الدين وأحبه ، وعجز عن هزيمته وأقسم أن يهزمه ، وقفل

راجعا إلى بلاده وأسره فى طريق عودته (١١٩٢) ليوپولد دوق النمسا ، وكان قد أساء إليه فى آسية ، وأسلمه ليوپولد فى بدء عام ١١٩٣ إلى الإمبراطور هنرى السادس . وكان لهنرى هذا ثأر قديم عند هنرى الثانى ورتشرد ، واحتفظ هنرى السادس بملك إنجلترا سجيناً فى حصن ببلدة درنشتين Dürnstein على نهر الدانوب على الرغم من القانون الذى كان معترفا به فى أوربا بوجه عام والذى يحرم اعتقال رجال الحروب الصليبية ؛ وطلب إلى إنجلترا فدية قدرها ١٥٠٫٠٠٠ مارك (١٥٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار أمريكى) أى نصف الإيراد السنوى لأملاك التاج البريطانى . وكان چون أخو رتشرد وقتئذ يحاول اغتصاب العرش ، فلما لقى مقاومة فر إلى فرنسا وانضم إلى فليب أغسطس فى هجومه على إنجلترا . ونكث فليب بعهد قطعه على نفسه بالمحافظة على السلم ، فهاجم الأملاك الإنجليزية فى فرنسا واستولى عليها ، وعرض رشا كبيرة على هنرى السادس ليبقى رتشرد أسيراً . وضاقت نفس رتشرد بسجنه المريح ، وكتب قصيدة من الشعر الممتاز(٣٨) ، يطلب فيها إلى بلاده أن تفتديه من الأسر . وكانت إليانور فى أثناء هذه الأحداث المضطربة تحكم البلاد حكماً ناجحاً بوصفها نائبة عن الملك معتمدة على النصائح الحكيمة التى يقدمها لها القاضى الأكبر هيوبرت ولتر Hubert Walter كبير أساقفة كنتربرى ، ولكنهما وجدا من العسير عليهما جمع الفدية المطلوبة . ولما أطلق سراح رتشرد آخر الأمر (١١٩٤) أسرع إلى إنجلترا ، وجبى الضرائب وجمع الجند وقاد بنفسه جيشاً عبر به القناة الإنجليزية ليثأر لنفسه ولإنجلترا من فليب . وتقول الرواية المأثورة إنه ظل عدة سنين يرفض القداس لئلا يطلب إليه أن يصفح عن عدوه الغادر . فلما تم له استعادة جميع الأملاك التى استولى عليها فليب ركن إلى السلم التى أمكنت فليب من أن يعيش . وتنازع فى هذه الأثناء مع أحد أتباعه الإقطاعيين وهو أدهمار Adhemar ڤيكونت مدينة ليموج Limoges ، وكان قد وجد كنزاً من الذهب مخبوءاً فى أرضه ، وعرض على رتشرد جزءاً منه ، لكن رتشرد أبى إلا أن

يأخذه كله ، وحاصر أدهمار . وأصاب رتشرد سهم منطلق من قصر أدهمار الحصين فمات رتشرد « قلب الأسد » فى الثالثة والأربعين من عمره إثر نزاع قام على كومة من الذهب .

وخلفه على العرش أخوه چون (١١٩٩ — ١٢١٦) بعد أن لقى بعض المقاومة وعدم الثقة ، وبعد أن اضطره ولتر كبير الأساقفة أن يقسم حين تتويجه أنه قد نال عرشه منتخبا من الأمة (أى الأعيان والمطارنة) وبنعمة الله . ولكن چون الذى خان أباه ، وأخاه ، وزوجه ، لم تكن تقف فى وجهه يمين أخرى بعد أيمانه الماضية أو يهتم كثيراً بهذه اليمين ، ولم يكن يبدو عليه شىء من التمسك بالعقائد الدينية شأنه فى هذا شأن هنرى الثانى ورتشرد الأول ، حتى ليقال إنه لم يتناول قط القربان المقدس بعد أن بلغ سن الرشد ، بل لم يتناوله أيضاً فى يوم تتويجه[٣٩] . واتهمه الرهبان بالكفر وقالوا إنه اقتنص مرة وعلاً سميناً وقال : « ما أسمن هذا الحيوان وما أحسن طعامه ! ولكنى أقسم أنه لم يسمع قط بالقداس » وغضب الرهبان من قوله هذا لأنه رأوا فيه سخرية ببدانتهم[٤٠] . وكان چون رجلا حاد الذهن مجرداً من الضمير ، وكان إدارياً حازماً ممتازاً « ولم يكن صديقاً حميماً لرجال الدين » ، ولهذا افترى عليه بعض الافتراء المؤرخون الإخباريون من رجال الأديرة كما يقول هولنشد Holinshed[٤١] ؛ ولم يكن مخطئاً على الدوام ، ولكنه كثيراً ما أغضب الناس بمزاجه الحاد ، وملحه ، وفكاهاته البذيئة الشائنة ، واستبداده وغطرسته ، وما فرضه من الضرائب الفادحة التى يحس أنه مضطر إليها للدفاع عن الأملاك الإنجليزية فى القارة ضد فليب أغسطس .

ونال چون فى عام ١١٩٩ على إذن من البابا إنوسنت الثالث بتطليق إزبل Isabel أميرة جلوسستر Gloucester بحجة أنها تمت إليه بصلة القرابة ، ولم يلبث

(*) ويسمى من قبيل السخرية بالذى لا أرض له Laekland لأنه لم ينل من أبيه إقطاعية فى أرض القارة كما نال أخوه .

بعد طلاقها أن تزوج بإزبلا أميرة أنجوليم Isabella of Angoulême رغم أنها كانت مخطوبة لكونت لوزنيان Lusignan . وغضب الأشراف فى كلا البلدين لهذا العمل واستنجد الكونت بفليب ليأخذ له بحقه . واحتج فى الوقت نفسه بارونات أنجو ، وتورين ، وبواتو Poitou ، ومين لدى فيليب قائلين إن جون يستبد بأقاليمهم . وكانت فروض الطاعة الإقطاعية التى ترجع إلى عهد تسليم نورمندية إلى رولو تقضى بأن يعترف الأعيان الإقطاعيون فى فرنسا ، حتى فى المقاطعات التى تملكها إنجلترا ، بملك فرنسا سيداً إقطاعياً عليهم ؛ وكان چون حسب قانون الإقطاع ، بوصفه دوق نورمندية ، تابعاً لملك فرنسا ، وأمر فليب تابعة الملكى بالقدوم إلى باريس ، ليبرئ نفسه من عدة تهم وادعاءات ، وأبى چون أن يطيع الأمر ، فقضت محكمة الإقطاع الفرنسية بمصادرة أملاكه فى فرنسا ، ومنحت نورمندية ، وأنجو ، وبواتو لآرثر كونت بريطانى Brittany وحفيد هنرى الثانى . وطالب آرثر بعرش إنجلترا ، وحشد لذلك جيشاً ، وحاصر الملكة إليانور فى ميرابو Mirabeau ، فقادت الملكة بنفسها ، وهى فى الثمانين من عمرها ، قوة للدفاع عن ولدها المشاكس . وأنقذها چون من عدوها ، وقبض على آرثر ، ويبدو أنه أمر بقتله ، فما كان من فليب إلا أن غزا نورمندية ، وكان جون وقتئذ يقضى شهر العسل فى رون وفى شغل شاغل عن قيادة جنده ، فمنوا بالهزيمة . وفرچون إلى إنجلترا ، وانتقلت نورمندية ، ومين ، وأنجو ، وتورين إلى التاج الفرنسى .

وبذل البابا إنوسنت الثالث ، ولم يكن على وئام مع فليب ، كل ما فى وسعه لمساعدة چون ، ثم دب النزاع بينه بين چون . وكان سبب هذا النزاع أنه على أثر وفاة هيوبرت ولتر (١٢٠٥) حمل الملك كبار الرهبان فى كنتربرى على أن يختاروا چون ده جراى John de Gray ، أسقف نوروك Norwich للمنصب الشاغر ، ولكن طائفة من الرهبان الشبان اختارت رجنلد Reginald نائب رئيس ديرهم ليكون كبيراً للأساقفة . وأسرع المرشحان المتنافسان إلى رومة

يطلب كل منهما تأييد البابا ؛ ولكن إنوسنت رفض أن يؤيدهما جميعاً ، وعين فى المنصب الشاغر استيفن لانجتن Stephen Langton ، وهو مطران إنجليزى قضى الخمس والعشرين سنة الأخيرة مقيماً فى باريس ، وكان وقت اختياره أستاذاً للاهوت فى جامعتها . واحتج چون على هذا الاختيار وقال إن لانجتن لم يكن لديه ما يؤهله لأن يشغل أكبر منصب دينى فى إنجلترا ، وهو منصب يجمع بين الوظائف السياسية والدينية . وتجاهل إنوسنت احتجاج چون ، ودشن استيفن كبيراً لأساقفة كنتربرى (١٢٠٧) فى ڤيتربو Viterpo من أعمال إيطاليا . وتحدى چون لانجتن بأن يطأ بقدمه أرض إنجلترا ، وأنذر رهبان كنتربرى العصاة بحرق الأديرة فوق رؤوسهم ، وأقسم « بأسنان الله » بأن ينفى كل قس كاثوليكى من إنجلترا إذا أصدر البابا قراراً بحرمانها ، ويسمل أعين بعضهم ويجدع أنوفهم جزاء وفاقاً لهم على فعل رئيسهم . وأصدر البابا قرار الحرمان (١٢٠٨) ، وامتنعت كل الخدمات الدينية فى إنجلترا ما عدا التعميد والمسح وقت الوفاة . وأغلق القساوسة الكنائس ، وسكنت الأجراس ، ودفن الموتى فى أرض لم تدشن ؛ ورد چون على هذه الأعمال بمصادرة جميع أملاك الكنائس والأديرة وأعطاها لغير رجال الدين ؛ وحرم إنوسنت الملك من حظيرة المسيحية ، ولكن چون لم يعبأ بقرار الحرمان ، وانتصر فى عدة وقائع حربية أيرلندة ، واسكتلندة وويلز . ووجفت قلوب الشعب هلعاً من قرار الحرمان ، ولكن الأشراف رضوا بانتهاب أملاك الكنيسة لأن ذلك الانتهاب يحول نهم الملك إلى حين عن أملاكهم هم .

واختال چون عجباً بانتصاره المؤقت، وأساء إلى الكثيرين بتطرفه عنته ؛ فقد هجر زوجته الثانية ليلد أطفالا غير شرعيين من عشيقات مستهترات ، وزج اليهود فى السجن لينتزع منهم أموالهم ، وترك بعض المطارنة السجناء

يموتون من فرط المشقة ، وأغضب الأشراف بأن أضاف الإهانات إلى الضرائب الفادحة ، وتشدد فى تنفيذ قانون الغاباب البغيض . ولجأ إنوسنت فى عام ١٢١٣ إلى آخر ملجأ له ، فأصدر مرسوماً بخلع الملك الإنجليزى عن العرش ، وأعفى رعايا چون من يمين الطاعة التى أقسموها له ، وأعلن أن أملاك الملك أضحت غنيمة مشروعة لكل من يستطيع انتزاعها من يديه النجستين . وقبل فليب أغسطس الدعوة ، وحشد جيشاً رهيباً ، وزحف به على شاطئ القناة الإنجليزية . واستعد چون لصد الغزو ، ولكنه تبين وقتئذ أن أعيان البلاد لن يساعدوه فى حرب ضد بابا مسلح بقوة مادية ودينية معاً . واستشاط الملك غضباً من فعلتهم ، ورأى فى الوقت نفسه خطر الهزيمة محدقاً به . فعقد اتفاقا مع پندلف Pandulf ، مبعوث البابا مضمونه أنه إذا ألغى إنوسنت قرار الحرمان الصادر على الملك وعلى إنجلترا ، وقرار الخلع ، واستحال من عدو إلى صديق ، فإن چون يتعهد بأن يرد إلى الكنيسة كل ما صادره من أملاكها ، وأن يضع تاجه ومملكته تحت سيادة البابا الإقطاعية . واتفق الطرفان على هذا ، وأسلم چون إنجلترا كلها للبابا ، ثم استعادها منه بعد خمسة أيام بوصفها إقطاعية بابوية تدين للبابا بالولاء وتؤتى الجزية عن يد وهى صاغرة (١٢١٣) .

وأقلع چون إلى بواتو ليهاجم فليب ، وأمر بارونات إنجلترا أن يتبعوه بالسلاح والرجال ، ولكنهم لم يطيعوا أمره . وأدت هزيمة چون عند بوڤين Bouvines إلى حرمانه من الألمان وغيرهم من أحلافه الذين كان يتطلع إلى معونتهم ضد توسع فرنسا ، فعاد إلى إنجلترا ليواجه الأشراف الحانقين . واستاء النبلاء من فدح الضرائب المفروضة عليهم لتمويل حروبه المخربة ، ومن خروجه على السوابق القديمة والقوانين المرعية ، وتسليمه إنجلترا ليشترى به عفو البابا وتأييده . وأرد چون أن يحسم الأمر فيما بينه وبينهم فطلب إليهم أن يؤدوا اه قدراً من المال بدل الخدمة العسكرية ، ولكنهم بعثوا إليه بدلا من هـذا المال بوفد يطلب إليه العودة إلى

قوانين هنرى الأول ، التى حمت حقوق الأشراف وحددت سلطات الملك . فلما لم يتلق الأشراف جواباً مرضياً حشدوا قواتهم المسلحة عند استامفورد Stamford ، وبينا كان جون يتلكأ فى أكسفورد بعثوا برسلهم إلى لندن ، فنالوا تأييد حكومة المدينة وحاشية الملك . وعسكرت قوات الأشراف مقابل مؤيدى الملك القلائل عند رنيميد Runnymede على نهر التامز . وهنا استسلم جون استسلامه الثانى الكبير ، ووقع (١٢١٥) العهد الأعظم أشهر وثيقة فى التاريخ الإنجليزى كله :

من جون ملك إنجلترا بعناية الله تعالى . . . إلى كبار أساقفته ، وأساقفته ، ورؤساء أديرته ، وحملة ألقاب إيرل وبارون . . . وجميع رعاياه الأوفياء . تحية . اعلموا أننا بهذا العهد الحاضر نؤكد عنا وعن ورثتنا إلى أبد الدهر :

١ — أن ستكون كنيسة إنجلترا حرة لا يعتدى على شىء من حقوقها وحرياتها . . . .

٢ — أننا نمنح جميع الأحرار فى مملكتنا ، عنا وعن ورثتنا إلى أبد الدهر ، جميع الحريات المدونة فيما بعد . . . .

١٢ — ألا يفرض بدل خدمة أو معونة . . . إلا المجلس العام لمملكتنا .

١٤ — لكى يجتمع المجلس العام المختص بتقدير المعونات وبدل الخدمات . . . سنأمر باستدعاء كبار الأساقفة ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، وحملة ألقاب إيرل ، وكبار البارونات فى البلاد(*) . . . وغيرهم ممن هم تحت رياستنا . . .

١٥ — لن نجيز فى المستقبل لكائن من كان أن يأخذ معونة من مستأجريه الأحرار (غير الأرقاء) ، إلا إذا كان ذلك لافتدائه ، أو تنصيب ابنه الأكبر فارساً ، أو مرة واحدة لزواج ابنته الكبرى ؛ ولن تكون المعونة فى هذه الحالة إلا معونة معقولة . . .

(*) أصبحت هذه الطوائف الخمس المذكورة هنا مجلس اللوردات الإنجليزى فيما بعد .

١٧ — لن تعرض الشكاوى العادية على محكمتنا ، بل ينظر فيها فى مكان محدد ؛

٣٦ — لن يعطى أو يؤخذ بعد الآن شىء نظير أمر يطلبه شخص ببحث حاله . . . بل يجب أن يعطى هذا الأمر بغير مقابل (أى أنه يجب ألا يطول حبس إنسان من غير محاكمة) .

٣٩ — لا يقبض على رجل حر ، أو يسجن ، أو ينزع ملكه ، أو يخرج من حماية القانون ، أو ينفى ، أو يؤذى بأى نوع من الإيذاء . . . إلا بناء على محاكمة قانونية أمام أقرانه (أى المساوين له فى المدينة) أو بمقتضى قانون البلاد ؛

٤٠ — لن نبيع العدالة أو حقاً من الحقوق لإنسان ما ولن نحرم منها إنساناً ما .

٤١ — يتمتع جميع التجار بحق الدخول فى إنجلترا والإقامة فيها والمرور بها براً أو بحراً سالمين مؤَمَّنين للشراء والبيع . . . دون أن تفرض عليهم ضرائب غير عادلة ؛

٦٠ — كل العادات والحريات السالفة الذكر . . . يجب أن يراعيها أهل مملكتنا كلهم ، سواء منهم رجال الدين وغير رجال الدين ، كل فيما يخصه ، نحو أتباعهم .

وقعناه بيدنا بحضور الشهود ، فى المرج المعروف باسم رينميد فى اليوم الخامس عشر من شهر يونية من السنة السابعة عشرة من حكمنا(٤٢) .

والعهد الأعظم أساس الحريات التى يتمتع بها العالم الناطق باللغة الإنجليزية فى هذه الأيام ، والحق أنه خليق بهذه الشهرة . نعم إنه مقيد ببعض القيود ، فهو ينص على حقوق النبلاء ورجال الدين أكثر مما ينص على حقوق الشعب كله ، ولم تبين فيه الوسائل الكفيلة بتنفيذ الإشارة الدالة على التقى والصلاح الواردة فى المادة رقم ٦٠ من العهد ؛ ولقد كان العهد انتصاراً للإقطاع لا للدمقراطية .

كل هذا صحيح ولكنه نص على الحقوق الأساسية وحماها ، وقرر عدم إطالة حبس إنسان بلا محاكمة ، كما أقر نظام المحلفين ، وأعطى البرلمان الناشىء سلطة على المال اتخذتها الأمة فيما بعد سلاحا لمقاومة الاستبداد ، وبدل الملكية المطلقة ملكية دستورية مقيدة .

بيد أن چون لم يفكر قط فى أنه قد خلد اسمه بالنزول عن سلطاته ومطالبه الاستبدادية ، فقد وقع العهد وهو مرغم ، وأخذ غداة توقيعه يأتمر لإلغائه . فقد لجأ إلى البابا ، وكانت سياسة إنوسنت الثالث وقتئذ تهدف إلى استعانة إنجلترا على فرنسا ، فخف لمعونة تابعه الذليل المهان بأن أعلن أن العهد باطل لا قيمة له ، وأمر چون ألا يخضع لشروطه ، كما أمر الأشراف ألا ينفذوها ، فلما رفض البارونات إطاعة أمره ، أصدر قراراً بحرمانهم هم وأهل لندن والثغور الخمسة ؛ غير أن استيفن لانجتن الذى كانت له اليد الطولى فى صياغة العهد أبى أن ينشر قرار الحرمان ؛ وقرر مبعوثو البابا فى إنجلترا وقف لانجتن عن العمل ، وأذاعوا قرار البابا ، وجندوا جيشاً من المرتزقة فى فلاندرز وفرنسا ، وهاجموا النبلاء الإنجليز ، وأعملوا فيهم النار والسيف ، والسلب والقتل والفسق . ويبدو أن الأشراف لم يلقوا من الشعب معونة خليقة بأن يعتمدوا عليها ؛ ولهذا فإنهم بدل أن يقاوموا الغزاة بقواهم الإقطاعية ، دعوا لويس ابن ملك فرنسا ليغزو إنجلترا ، ويدافع عنهم ، ويستولى على عرش البلاد جزاء له على عمله ؛ ولو نجحت هذه الخطة لأصبحت إنجلترا جزءاً من فرنسا . وحذر مبعوثو البابا لويس من عبور القناة ، فلما خالف أمرهم حرموه هو وجميع أتباعه من حظيرة الدين . ووصل لويس إلى لندن ، وتقبل ولاء البارونات وخضوعهم ، ولكن چون انتصر فى كل مكان خارج عن مدينة لندن التجارية ، وكان حين ينتصر قاسياً مجرداً من الرحمة ، ولكنه وهو فى عنفوان نشاطه ونصره أصيب بزحار البطن ، واتخذ طريقه وهو فى شدة

الألم إلى أحد الأديرة ، ومات فى نيوارك Newark فى التاسعة والأربعين من عمره .

وتوج قاصد رسولى ابنا لجون لايتجاوز السادسة من عمره ملكا على إنجلترا باسم هنرى الثالث (١٢١٦ — ١٢٧٢) ؛ وعين له مجلس وصاية برياسة إيرل بمبروك Pembroke . وشجع الأشراف ارتقاء واحد منهم إلى هذا المنصب ، فانحازوا إلى هنرى وأرجعوا لويس إلى فرنسا . وشب هنرى وكان ملكا فنانا ، خبيراً بالجمال ، وكان هو الموحى ببناء دير وستمنستر وواهب المال لهذا البناء . وحسب العهد قوة تعمل على التفكك وحاول إلغاءه ولكنه عجز . وفرض الضرائب على النبلاء وأرهقهم إرهاقا أوشكوا من أجله أن يثوروا عليه ، وكان كلما فرض ضريبة أقسم أنها ستكون آخر الضرائب . وكان البابوات أيضاً فى حاجة إلى المال ، وأخذوا يجبون العشور من الأبرشيات الإنجليزية برضاء الملك ليمدوا البابوية بالمال فى حربها مع فردريك الثانى . وكانت ذكرى هذا الابتزاز هى التى مهدت السبيل لثورة ويكلف Wycliffe وهنرى الثامن .

وكان إدورد الأول (١٢٧٢ — ١٣٠٧) أقل شغفا بالعلم وأكثر عناية بشئون الملك من أبيه . كان رجلا طموحا ، قوى الإرادة ، صبوراً فى الحرب . داهية فى السياسة ، خبيراً بالفنون العسكرية وجر المغانم ، ولكنه يستطيع إذا شاء أن يكون معتدلا حذراً ، بعيد النظر فى أهدافه ؛ ولهذا كان حكمه من أكثر الأحكام نجاحا فى التاريخ الإنجليزى كله . فقد أعاد تنظيم الجيش ، ودرب قوة كبيرة من الرماة على استخدام القوس السمحة ، وأنشأ قوة من الجيش المرابط بأن أمر كل إنجليزى قادر على حمل السلاح أن يكون لديه سلاح وأن يتعلم طريقة استخدامه . ولقد وضع بهذا العمل على غير علم منه أساسا عسكريا للدمقراطية . ولما تمت له هذه القوة فتح بها بلاد ويلز ، وكسب اسكتلندة ثم فقدها ، ورفض أداء الجزية التى تعهد جون بأدائها للبابوات ، وألغى سيادة البابا على إنجلترا .

ولكن أهم ما حدث فى حكمه هو نمو البرلمان ، ولعل إدورد قد صار بغير رضاه أهم شخصية فى أعظم ما حدث فى إنجلترا من أعمال جليلة — وهو التوفيق ، فى الحكم وفى الأخلاق ، بين الحرية والقانون .

٤ — نشأة القانون

وهذه الفترة — من فتح النورمان إلى إدورد الثانى — هى التى اتخذ فيها قانون إنجلترا واتخذت فيها حكومتها الصورتين اللتين احتفظتا بهما حتى القرن التاسع عشر . فقد أصبح القانون الإنجليزى قومياً للمرة الأولى بعد أن بسط القانون الإقطاعى النورمانى سلطانه على القانون الإنجليسكسونى المحلى . فلم يعد القانون الإنجليزى بعدئذ هو قانون إسكس Essex أو مرسيا Mercia أو القانون الدنمرقى بل أصبح « قانون البلاد وعاداتها » ، وإن من العسير علينا أن ندرك الآن ما تنطوى عليه هذه العبارة السالفة الذكر حين نطق بهما رانلف ده جلانفيـــل Ranulf de Glanville (المتوفى عام ١١٩٠)(٤٣) . ولقد اشتهر القانون الإنجليزى والمحاكم الإنجليزية بفضل الدفعة القوية التى دفعها بها هنرى الثانى وبفضل قيادة جلانفيل كبير القضاة ، اشتهرا بالإنصاف وسرعة الفصل فى المنازعات (مع شىء من الفساد والرشوة) شهرة حملت ملوك أسبانيا المتخاصمين على أن يعرضوا منازعاتهم على محاكم إنجلترا(٤٤) . ولربما كان جلانفيل هو مؤلف « **رسالة فى القانون** » Tractatus de Legibus التى تعزوها إليه الرواية المأثورة ، وسواء كان ذلك أو لم يكن فإن هذه الرسالة هى أقدم ما لدينا من الكتب فى القانون الإنجليزى . وبعد نصف قرن من ذلك الوقت (١٢٥٠ — ١٢٥٦) أخرج هنرى ده براكتن Henry de Bracton أول خلاصة منظمة للقانون الإنجليزى فى كتابه « **فى قوانين إنجلترا وعاداتها** » Delegibus et Consuetudinibus Anglise وهو كتاب فى خمسة مجلدات ومرجع من أهم المراجع فى القانون الإنجليزى .

وكانت حاجة الملك المتزايدة إلى المال والجند هى التى أدت إلى اتساع الوتنجموت Witengemot الإنجليسكسونى حتى أصبح هو البرلمان الإنجليزى . ذلك أن هنرى الثالث أراد أن يحصل على المال أكثر مما يرغب الأعيان فى أن يمدوه به ، وألا يصبر حتى يوافقوا على طلباته ، فاستدعى فارسين من كل مقاطعة لينضموا إلى البارونات والمطارنة فى المجلس العظيم الذى عقد فى عام ١٢٥٤ . ولما تزعم سيمون ده منت فورت Simon de Montfort ، وهو ابن محارب صليبى من الأسرة الألبجنسية ، ثورة قام بها النبلاء على هنرى الثالث فى عام ١٢٦٤ ، أراد أن يضم الطبقات الوسطى إلى قضيته ، فلم يكتف بدعوة فارسين من كل مقاطعة بل دعا أيضاً اثنين من المواطنين البارزين من كل قصبة مقاطعة أو كل بلدة لينضموا إلى البارونات فى جمعية وطنية . وكان خليقاً بهؤلاء الرجال أن يستشاروا هل يؤدون المال أو يكتفون بالكلام ، وذلك لأن البلدان كانت آخذة فى النماء ، وكان التجار ذوى مال . وأفاد إدورد الأول من المثل الذى ضربه له سيمون ، فلما أن تورط فى الحرب مع اسكتلندة ، وويلز ، وفرنسا فى وقت واحد ، اضطر أن يطلب المال من جميع طبقات الأمة ، فدعا لهذا الغرض « البرلمان النموذجى » فى عام ١٢٩٥ وهو أول برلمان كامل فى تاريخ إنجلترا . وقال فى مرسوم الدعوة إن « ما يمس الناس جميعاً يجب أن يوافقوا جميعاً عليه ، وإن الأخطار العامة يجب أن تقابل بوسائل يتفقون عليها جميعاً »[٤٥] . ولهذا دعا إدورد اثنين من أهل « كل مدينة ، وقصبة مقاطعة ، وبلدة كبيرة » للحضور فى المجلس الأكبر الذى سيعقد فى وستمنستر ، ونص على أن يختار أولئك الرجال ذوو المكانة من المواطنين فى كل منطقة ، ذلك أنه لم يكن أحد يحلم وقتئذ بحق الانتخاب العام فى مجتمع لا تعرف القراءة فيه إلا أقلية صغيرة ، بل إن « العامة » فى « البرلمان النموذجى » نفسه لم يكن لهم من السلطان ما للأشراف . ولم يكن قد وجد بعد برلمان سنوى يجتمع بمحض

إرادته ويكون هو المصدر الوحيد للتشريع . ولكن اتفق فى عام ١١٩٥ على المبدإ القائل بأن القانون الذى يقره البرلمان لا يمكن أن يلغيه إلا البرلمان ، ثم اتفق فى عام ١٢٩٧ على ألا تجبى الضرائب إلا بعد موافقة البرلمان ؛ هذه هى المبادئ البسيطة التى قامت عليها أكثر الحكومات دمقراطية فى تاريخ العالم .

ولم يحضر رجال هذا البرلمان الواسع إلا وهم كارهون . وكانوا يجلسون فيه منفصلين عن سائر الطبقات ، ويأبون أن يقترعوا على الأموال المطلوبة إلا فى جمعياتهم الإقليمية ، وظلت المحاكم الكنسية تنظر فى جميع القضايا التى للقانون الكنسى شأن فيها ، وفى معظم القضايا التى يكون أحد رجال الدين طرفاً فيها . وكان فى الاستطاعة محاكمة رجال الدين إذا ارتكبوا جناية كبرى أمام السلطات الزمنية ؛ أما من يحكم عليهم فى جرائم أقل من جريمة الخيانة العظمى فكانوا حسب « ميزات رجال الدين » يسلمون إلى محكمة كنسية من حقها وحدها أن تعاقبهم على جرائمهم . يضاف إلى هذا أن الكثرة الغالبة من القضاة كانت من رجال الكنيسة ، لأن دراسة القانون كانت مقصورة فى الغالب على رجال الدين . ثم أصبحت المحاكم المدنية فى عهد إدورد الأول أكثر مدنية مما كانت قبله ، ولما امتنع رجال الدين عن أن ينضموا إلى غيرهم من الطبقات فى الاقتراع على الأموال المطلوبة ، قال إدورد الأول إن على الذين يتمتعون بحماية الدولة أن يتحملوا نصيبهم من أعبائها ، ثم أمر محاكمه ألا تنظر فى القضايا التى يكون المدعى فيها أحد رجال الكنيسة ، وأن تنظر فى كل قضية يكون أحد رجال الكنيسة هو المدعى عليه فيها[٤٦] . وزاد مجلس إدورد المنعقد فى سنة ١٢٧٩ على هذا بأن حرم بمقتضى قانون مورتمين Mortmain أن تمنح الهيئات الكنيسية أرضاً بغير موافقة الملك .

ونما القانون الإنجليزى نمواً سريعاً فى أيام وليم الأول ، وهنرى الثانى ، وچون ، وإدورد الأول على الرغم من تعدد جهات الاختصاص على النحو

السالف الذكر . وكان هذا القانون إقطاعياً محضاً شديد الوطأة على رقيق الأرض ، فقد كانت الجرائم التى يرتكبها الأحرار على أرقاء الأرض يعاقب عليها بالغرامة ؛ وكان القانون يجيز للنساء أن يمتلكن المال ويورثنه ويتصرفن فيه بالوصية ، كما أجاز لهن أن يتعاقدن ، ويقاضين غيرهن ويُقَاضين ، وجعل من حق المرأة أن ترث ثلث أملاك زوجها العقارية بعد وفاته ، ولكن جميع المنقولات التى جاءت بها إلى البيت وقت زواجها ، أو حصلت عليها فى أثناء الزواج ، تصبح ملكا للزوج(٤٧) . وكانت الأرض كلها من الناحية القانونية ملكا للملك ينالها أصحابها منه إقطاعاً . وكانت ضيعة السيد الإقطاعى كلها فى العادة يوصى بها لابنه الأكبر ، ولم يكن يقصد بهذا أن تبقى الأملاك غير مجزأة ، بل كان يقصد به فوق ذلك حماية السيد الإقطاعى الأعلى من تجزئة التبعة الإقطاعية فى جباية المكوس وأداء التزامات الحرب . أما الفلاحون الأحرار فلم يمكن ثمة قانون يلزمهم بأن يورثوا أملاكهم أكبر أبنائهم .

وظل قانون التعاقد غير ناضج فى هذا التشريع الإقطاعى . وكانت محكمة للمقاييس والموازين تحدد مستوى الموازين ، والمقاييس ، والنقود ؛ وتفرض رقابة الدولة على استعمالها . وبدأ التشريع التجارى المستنير فى إنجلترا « بقانون التجار » (١٢٨٣) و « عهد التجار » Carta Mercatoria (١٢٠٣) — وهما عملان جليلان آخران من الأعمال التى تمت فى عهد إدورد الأول .

وتحسنت طرق الإجراءات القانونية تحسناً بطيئاً ، واتبعت لتنفيذ القوانين عدة وسائل ، فجعل لكل حى « رقيب » ولكل حاضرة إقليم شرطى (كنستبل Constable) ولكل إقليم حاكم . وكان القانون يفرض على جميع الرجال أن يرفعوا عقيرتهم «بصرخة وزعقة» إذا شهدوا اعتداء على القانون ، وأن يشتركوا فى مطاردة المعتدى ، وأجيزت الكفالة . ومن فضائل القانون الإنجليزى أن التعذيب لم يكن يلجأ إليه فى مناقشة المتهمين أو الشهود . من ذلك أنه لما أغرى

فليب الرابع ملك فرنسا إدورد الثانى بأن يقبض على فرسان المعبد الإنجليز ، ولم يجد هذا الملك دليلا يأخذهم به ، كتب البابا كلمنت الخامس ، بتحريض فليب بلا ريب ، إلى إدورد يقول : « ترامى إلينا أنك تحرم التعذيب لأنه مخالف لقانون بلدك ، ولكن ما من قانون للدولة يمكن أن يسمو على القانون الكنسى ، قانوننا . ولهذا آمرك أن تعذب هؤلاء الرجال »(٤٨) . وخضع إدورد لأمر البابا ، ولكن التعذيب لم يلجأ إليه مرة أخرى فى الإجراءات القانونية الإنجليزية إلا فى عهد ميرى « اللعينة » (١٥٥٣—١٥٥٨) .

وأدخل النورمان إلى إنجلترا نظام الفرنجة القديم ، نظام التحقيق القضائى أمام المحلفين ، وهم طائفة من المواطنين المحليين ، وذلك فى شئون الأقاليم المالية والقانونية . وارتقت محكمة كلارندن (حوالى عام ١١٦٦) بنظام « المحلفين » بأن أجازت للمتقاضين ألا يقرروا صدقهم أو كذبهم عن طريق القتال ، بل أمام لجنة محكمين أى محلفين مؤلفة من اثنى عشر فارساً يختارهم من بين المواطنين فى الإقليم أمام المحكمة نفسها أربعة من الفرسان يعينهم حاكم الإقليم . وكانت هذه هى الدورة القضائية الكبرى ، أما فى الدورة الصغرى التى كانت تعقد للنظر فى القضايا العادية فكان حاكم الإقليم نفسه يختار اثنى عشر من أحرار الإقليم المجاور للمحكمة . وكان الناس وقتئذ يعارضون فى نظام المحلفين كما يعارضونه الآن ، ولم يكن يدور بخلدهم قط أن هذا النظام سيصبح أساساً من أسس الدمقراطية . ولم ينته القرن الثالث عشر حتى كان حكم المحلفين قد حل فى إنجلترا كلها تقريباً محل أنظمة التحقيق القديمة التى كانت تجرى حسب الشريعة الهمجية .

٥ — البلاد الإنجليزية

كانت تسعة أعشار إنجلترا فى عام ١٣٠٠ ريفا ، وكان بها مائة بلدة تعد فى نظر المدائن التى خلفتها فى هذه الأيام قرى صغيرة ، وكان بها مدينة واحدة هى لندن

تزهو على غيرها بسكانها البالغين أربعين ألفاً[٤٩] — أى أربعة أضعاف أية مدينة أخرى فى ذلك الوقت ، ولكنها كانت أقل كثيراً فى ثروتها وجمالها من باريس ، أو بروج ، أو البندقية ، أو ميلان ، دع عنك القسطنطينية أو پالرم ، أو رومة . وكانت بيوتها من الخشب ، تعلو طبقتين أو ثلاث طبقات ، ذات سقف هرمية ، وكثيراً ما كانت الطبقات العليا تبرز عن الطبقات التى تحتها . وكانت قوانين المدن تحرم إلقاء فضلات المطابخ ، أو حجر النوم ، أو الحمامات من النوافذ ، ولكن سكان الطبقات العليا كثيراً ما كانوا يلجأون إلى هذه الوسيلة الهينة للتخلص من فضلاتهم . وكانت مياه المنازل القذرة تتخذ طريقها إلى مياه المطر التى تجرى عند حافة الإفريز ، وكان إلقاء البراز فى هذه المياه الجارية محرماً أما البول فكان إلقاؤه فيه مسموحا به[٥٠] . وكانت المجالس البلدية تبذل جهدها لتحسين وسائل الصحة العامة — فكانت تأمر أهل المدن بتنظيف الشوارع أمام بيوتهم ، وتفرض الغرامات على من يهملون منهم أمرها هذا ، وتستأجر عمالا يجمعون الفضلات والأقذار ويحملونها فى عربات إلى قوارب الفضلات فى نهر التاميز . وكان كثيرون من السكان يربون الخيل ، والماشية ، والخنازير ، والدجاج ، ولكن هذا العمل لم يكن كثير الضرر ، لأن الأماكن الخالية كانت كثيرة ، ولأن كل بيت تقريباً كانت له حديقة . وكانت تقوم فى أماكن متفرقة أبنية من الحجارة ، مثل كنيسة المعبد Temple Church ، ودير وستمنستر ، وبرج لندن الذى بناه وليم الفاتح ليحمى عاصمته ويضع فيه المسجونين الممتازين . وكان أهل لندن من ذلك الوقت البعيد يفخرون بمدينتهم ، وسرعان ما قال عنهم فرواسار Froissart « إنهم أعظم خطراً من جميع سكان بقية إنجلترا ، لأنهم أقوى أهل البلاد مالا ورجالا » ، ووصفهم الراهب تومس الولسنجهامى Thomas of Walsingham بأنهم « يكادون يكونون أكثر الناس كبرياء ، وغطرسة ، وشرها ، وأقلهم استمساكاً بالعادات القديمة وإيماناً بالله »[٥١] .

وأنتج امتزاج سلالات النورمان ، والأنجليسكسون ، والدنمرقيين ، والكلت ، ولغاتهم ، وأساليبهم فى الحياة ، أنتج هذا الامتزاج الأمة الإنجليزية ، واللغة الإنجليزية ، والأخلاق الإنجليزية . ولما انفصلت نورمندية عن إنجلترا ، نسيت أسر النورمان المقيمة فى إنجلترا بلاد نورمندية ، وتعلمت حب بلادها الجديدة . وظلت صفات الكلت الصوفية الشعرية باقية ، وبخاصة عند الطبقات الوسطى ، ولكنها قد خفف منها بأس النورمان ودنيويتهم ، وظل فى مقدور البريطانى الناشئ من هذا المزيج ، وسط نزاع الأمم ، والطبقات ، وكوارث القحط والوباء ، ظل فى مقدور البريطانى أن يجعل من « إنجلترا المرحة » ، كما يسميها هنرى الهنتنجدونى Henry of Huntingdon (١٠٨٤ — ١١٥٥) أمة جمة النشاط ، والفكاهة النابية ، والألعاب الصاخبة ، والرفقة الطيبة ، والمحبة للرقص والأغانى الشعرية ، والجعة . ومن هذه الأصلاب والأجيال القوية نشأت شهوانية حجاج تشوسر Chaucer العارمة ، والعبارات الطنانة المزوقة التى كان ينطق بها رجال العصر الإلزبيثى المتفاخرون .

الفصل التاسع

إنجلترا - اسكتلندة - ويلز

(١٠٦٦ - ١٣١٨)

جلس هنرى الثانى على عرش إنجلترا فى عام ١١٥٤ وتولى البابوية فى العام نفسه إنجليزى يدعى نقولاس بريكسپير Nicholas Breakspear وسمى باسم هدريان الرابع ؛ وبعد عام من ذلك الوقت بعث هنرى جون السلزبرى إلى رومة برسالة تنم عن كثير من الدهاء قال فيها إن أيرلندة فى حال يرثى لها من الفوضى السياسية ، والاضمحلال الأدبى ، والانحطاط الخلقى ، وعدم الاستقلال الدينى والانحلال ؛ وسأل البابا هل يسمح له بالاستيلاء على هذه الجزيرة التى تسودها النزعة الفردية ، ويعيد إليها النظام الاجتماعى ، ويرغمها على طاعة البابا ؟ وأجاب البابا هنرى إلى طلبه ، إذا جاز لنا أن نصدق جرالدس كمبرنسس Giraldus Cambrensis وأصدر مرسوماً بابويا منح فيه هنرى أيرلندة ، مشترطاً عليه أن يعيد إليها الحكومة النظامية ، وأن يجعل رجال الدين الأيرلنديين أكثر تعاوناً مع رومة ، وأن يُفرض بنس واحد ، أى ما يعادل الآن ($\frac{٨٣}{١٠٠}$ من الدولار الأمريكى) فى كل عام على كل بيت فى أيرلندة يؤدى إلى كرسى القديس بطرس[٥٢] . ولم تكن مشاغل هنرى وقتئذ تمكنه من أن يفيد من حالة الفوضى السائدة فى أيرلندة ، ولكنه ظل متحفزاً للإفادة منها .

وحدث فى عام ١١٦٦ أن هزم تيرنان أورورك Tiernan O'Rourke ، ملك بوفنى Bnefni درموت ماك مرو Dermot Mac Murrough ملك لينستر فى حرب قامت بين الملكين لأن ثانيهما أغوى زوجة الأول . ولما طرد رعايا درموت مليكهم من البلاد فرّ هو وابنته الحسناء إيفا Eva إلى إنجلترا وفرنسا ، وحصل على خطاب من هنرى الثانى يؤكد فيه عطفه على فرد من رعاياه

يساعد درموت على استرداد عرش لينستر . وكانت نتيجة هذا التأكيد أن تلقى درموت من رتشرد فتز جلبرت Richdrd Fitz Gilbert إيرل پمبروك پويلز الملقب « بالقوس السمحة » وعداً بالمساعدة العسكرية إذا تعهد له بأن يزوجه بإيڤا وأن يخلفه على عرش مملكة درموت . وزحف رتشرد فى عام ١١٦٩ على رأس قوة صغيرة من أهل ويلز إلى أيرلندة ، وأعاد درموت إلى عرشه بمساعدة قساوسة لينستر ، ولما توفى درموت (١١٧١) ورث مملكته . فما كان من رورى أوكنور Rory O,Connor ملك أيرلندة الأعلى وقتئذ إلا أن سار على رأس جيش لقتال الغزاة من أهل ويلز ، وحاصرهم فى دبلن وسد عليهم جميع المسالك . وهجم المحاصَرون هجمة صادقة على الأيرلنديين وفكوا الحصار ، وفرَّ الإيرلنديون السيئو التدريب الناقصو العتاد . واستدعى هنرى الثانى رتشرد فعبر البحر إلى ويلز ، وقابل الملك ، ووافق على أن يسلمه دبلن وغيرها من الثغور الأيرلندية ، وأن يتولى ما بقى من لينستر إقطاعية من التاج البريطانى . ونزل هنرى إلى البر قرب ووترفورد Waterford (١١٧١) على رأس قوة تبلغ أربعة آلاف رجل ، وتلقى معونة رجال الدين الأيرلنديين ، وقدمت له أيرلندة كلها عدا كونوت Connought والستر Ulster فروض الولاء ، وتبدل فتح ويلز لأيرلندة فتحاً نورمانيا — إنجليزيا دون إراقة دماء . وعقد المطارنة الأيرلنديون مجلسا دينيا أعلنوا فيه خضوعهم للبابا خضوعاً تاماً ، وقرروا أن تكون شعائر الكنيسة الأيرلندية من ذلك الحين متفقة مع شعائر كنيستى إنجلترا وروما . وسمح للكثرة الغالبة من ملوك أيرلندة أن يحتفظوا بعروشهم ، على شريطة أن يعلنوا ولاءهم الإقطاعى لملك إنجلترا ، وأن يؤدوا إليه جزية سنوية .

ونال هنرى بغيته بمهارة فائقة واقتصاد فى المال والأرواح ، ولكنه أخطأ إذ ظن أن القوة التى تركها وراءه تستطيع المحافظة على السلم والنظام . يضاف إلى هذا أن عماله أخذوا يقتتلون لاقتسام الغنائم ، كما شرع أعوانهم وجنودهم ينهبون

البلاد دون أن تفرض عليهم إلا أقل رقابة ، وسخر الفاتحون جهودهم لتحويل أهل أيرلنده إلى أرقاء أرض . وعمد الأيرلنديون إلى حرب العصابات يقاومون بها الفاتحين ، وكانت نتيجة هذا أن هوت البلاد فى وهدة الفوضى والدمار ، وظلت كذلك قرناً من الزمان ، حتى عرض بعض الزعماء الأيرلنديين بلادهم على اسكتلندة فى عام ١٣١٥ . وكان ربرت بروس Robert Bruce الاسكتلندى قد هزم الإنجليز توا عند بنكبرن Bannockbnrn قبل ذلك . ونزل إدورد أخو ربرت فى أيرلندة ومعه ستة آلاف رجل ؛ وأصدر البابا يوحنا الثانى عشر قراراً بحرمان كل من يساعد الأسكتلنديين ، ولكن لأيرلنديين جميعهم تقريباً ثاروا إجابة لنداء إدورد ، وتوجوه ملكاً على البلاد فى عام ١٣١٦ . ولكنه هزم وقتل بعد عامين من ذلك الوقت ، وأخفقت الثورة وسط مظاهر الفقر واليأس .

ويقول رانلف هجدن Ranulf Higden ، وهو رجل بريطانى عاش فى القرن الرابع عشر ، إن الاسكتلنديين شعب « مرح » ، رجاله أقوياء ، غلاظ إلى حد كبير ، ولكنهم إذا امتزجوا بالإنجليز صلحت حالهم كثيراً . وهم قساة على أعدائهم ، يكرهون القيود أكثر من كراهيتهم كل شىء آخر ، ويرون أن العار كل العار أن يموت منهم رجل فى فراشه ، والفخر كل الفخر أن يموت فى ميدان القتال[٥٣] .

وبقيت أيرلندة أيرلندية ولكنها فقدت حريتها ، وأصبحت اسكتلندة بريطانية ولكنها بقيت حرة ؛ وتضاعف عدد الإنجليز ، والسكسون ، والنورمان فى الأراضى المنخفضة ، وأعادوا تنظيم الحياة الزراعية حسب الأساليب الإقطاعية . وكان ملكولم الثالث Malcolm III (١٠٥٨ — ١٠٩٣) رجلا محارباً غزا إنجلترا عدة مرات ، ولكن زوجته الملكة مرجريت كانت أميرة أنجليسكسونية نشرت اللغة الإنجليزية فى البلاط الاسكتلندى ، وجاءت إلى البلاد برجال الدين الذين يتكلمون اللغة الإنجليزية ، وربت أبناءها على أسس التربية الإنجليزية واتخذ داود الأول David I ، (١١٢٦ — ١١٥٣) آخر هؤلاء الأبناء وأقواهم

الكنيسة أداته المختارة لحكم البلاد ، وأنشأ فى كلسو Kelso ، ودراى برج Dryburgh ، وملروز Melrose ، وهولى رود Holyrood أديرة يتكلم رهبانها اللغة الإنجليزية ، وجبى العشور (للمرة الأولى فى اسكتلندة) لمعونة الكنيسة ، وأغدق المال على الأساقفة ورؤساء الأديرة إغداقا جعل الناس يحسبونه من القديسين وإن لم يكن منهم ؛ وأضحت اسكتلندة فى عهد داقد الأول كلها عدا مرتفعاتها ولاية إنجليزية(٥٤) .

لكنها لم تكن أقل استقلالا مما كانت قبل ، فقد استحال المهاجرون الإنجليز اسكتلنديين محبين لوطنهم الجديد ، وخرج من بينهم آل استيورت Stuart وآل بروس Bruce . وغزا داقد الأول نورثمبرلند وافتتحها ، ثم فقدها ملكولم الرابع (١١٥٣ — ١١٦٥) ؛ وحاول وليم الأسد William the Lion (١١٦٥ — ١٢١٤) أن يستردها ، فأسره هنرى الثانى ولم يطلقه إلا بعد أن تعهد بإخضاع التاج الاسكتلندى لملك إنجلترا (١١٧٤) . وبعد خمسة عشر عاما من ذلك الوقت استطاع أن يتحلل من هذا العهد بأن ساعد رتشرد الأول بالمال فى الحرب الصليبية الثالثة ، ولكن الملوك الإنجليز ظلوا يطالبون بسيادتهم الإقطاعية على اسكتلندة . واسترد اسكندر الثالث (١٢٤٩ — ١٢٨٦) جزائر هبريدة Hebrides من النرويج ، واحتفظ بصلات الود والصداقة مع إنجلترا ، ووهب اسكتلندة عصراً ذهبيا يسوده السلم والرخاء .

وتنازع ربرت بروس ، وجون بليول John Balliol ولدا داقد الأول على العرش بعد وفاة اسكندر . وانتهز إدورد الأول ملك إنجلترا هذه الفرصة وتدخل فى النزاع وأصبح بليول ملكا على اسكتلندة بفضل تأييده له ، واعترف بليول بسيادة إنجلترا العليا على بلاده (١٢٩٢) . فلما أمر إدورد بليول أن يجهز جيشاً ليقاتل مع إنجلترا فى فرنسا ، تمرد النبلاء والأساقفة الاسكتلنديون ، وأمروا بليول أن يعقد حلفاً مع فرنسا على إنجلترا (١٢٩٥) ، وهزم إدورد الاسكتلنديين عند

ودنبار (١٢٩٦) ، وتقبل خضوع أشراف البلاد ، وخلع بليول عن العرش ، وعين ثلاثة من الإنجليز ليحكموا اسكتلندة بالنيابة عنه ، وعاد بعد ذلك إلى إنجلترا .

وكان كثيرون من النبلاء الاسكتلنديين يملكون أرضاً فى إنجلترا ، فكان عليهم لهذا السبب واجب الطاعة لمليكها . ولكن قدماء الغاليين الاسكتلنديين ساءهم هذا الاستسلام أشد الاستياء ، فأعدّ واحد منهم يدعى وليم ولاس William Wallace جيشاً من عامة الاسكتلنديين» ، وبدد شمل الحامية الإنجليزية ، وظل عاما كاملا يحكم إنجلترا نائبا عن بليول . ثم عاد إدورد وهزم ولاس فى فولكيرك Falkirk (١٢٩٨) ، وقبض عليه فى ١٣٠٥ ، وأمر به فبقرت بطنه وقطعت أطرافه عملا بقانون الخيانة الإنجليزى .

وأرغم مدافع آخر عن استقلال أيرلندة على الخروج إلى الميدان بعد عام من ذلك الوقت . ذلك أن ربرت بروس حفيد بروس الذى كان يطالب بالعرش فى عام ١٢٨٦ تنازع مع جون كومين John Comn ، من كبار ممثلى إدورد الأول فى اسكتلندة ، وقتله . ولم يكن أمام بروس بعد هذا العمل إلا العصيان ، فتوّج نفسه ملكا على اسكتلندة ، وإن لم يؤيده إلا نفر قليل من أعيان البلاد ، وإن كان البابا قد حرمه جزاء له على جريمته . وزحف إدورد مرة أخرى صوب الشمال ولكنه مات فى الطريق (١٣٠٧) . وكان عجز إدورد الثانى نعمة على بروس وبركة ، فقد انضوى رجال اسكتلندة ورجال الدين فيها تحت لواء طريد القانون ، واستولت جيوشه يقودها أخوه إدورد وسير جيمس دجلاس Sri James Douglas ببسالة عظيمة على إدنبرة ، وغزت نورثمبرلند ، وانتزعت درهام من الاسكتلنديين . وزحف إدورد الثانى فى عام ١٣٠٤ على اسكتلندة بأكبر جيش شهدته البلاد فى تاريخها الماضى كله ، والتقى بالاسكتلنديين عند بنكبيرن Bannockburn . وكان بروس قد أمر رجاله بأن يحفروا أمام موقعه

حفراً يخفونها عن الأعين ، فلما هجم عليه الإنجليز سقط الكثيرون منهم فى هذه الحفر ، وهلك الجيش الإنجليزى حتى لم يكد يبقى منه أحد . واشتبك الأوصياء على إدورد الثالث فى حرب مع فرنسا فى عام ١٣٢٨ ، ووقعوا معاهدة نورثمبتون Northampton ، وتحررت اسكتلندة مرة أخرى .

وقام فى هذه الأثناء نزاع آخر فى ويلز أسفر عن نتيجة تختلف عن النتيجة السابقة . ذلك أن وليم الأول طالب بالسيادة عليها بوصف كونها جزءاً من مملكة هرولد Harold المنهزم . ولم يتسع له الوقت لضمها إلى فتوحه ، ولكنه أقام على حدودها الشرقية ثلاث مقاطعات على رأس كل منها إيرل Earl ، وشجع رؤساء هذه المقاطعات على أن يوسعوا حدودها فى ويلز . وكان القراصنة النورمان يجتاحون وقتئذ ويلز الجنوبية ، وهم الذين تركوا فتز Fitz (أى ابن) فى بعض أسماء أهل تلك البلاد . ثم أخضع كدرجان آب بلدين Cadwgan ap Blepyn أولئك النورمان فى عام ١٠٩٤ ؛ وهزم أهل ويلز الإنجليز عند كروين Corwen فى عام ١١٦٥ ؛ وشغل هنرى الثانى بالنزاع مع بكت ، فاعترف باستقلال ويلز الجنوبية تحت حكم مليكها المستنير رايس آپ جرفيد Rhys ap Graffyd (١١٧١) ، وبسط لويلين الأكبر Llywelyn the Great حكمه على جميع البلاد بفضل مقدرته العظيمة فى الحرب والسياسة ؛ ثم تنازع أبناؤه فيما بينهم وأشاعوا الاضطراب فى أنحاء البلاد ، ولكن حفيده لويلين آب جرفيد (المتوفى عام ١٢٨٢) رد إلى البلاد وحدتها ، وعقد الصلح مع هنرى الثالث ، وأنشأ لنفسه لقب أمير ويلز . وعقد إدورد الأول عزمه على أن يضم ويلز واسكتلندة إلى إنجلترا ، فغزا ويلز بجيش ضخم وعمارة بحرية قوية (١٢٨٢) ؛ وقُتِل لويلين حين التقى مصادفة بقوة صغيرة على الحدود ، وقبض إدورد على أخيه داڤد ، وعلق رأسه بعد أن فصل عن جسمه هو ورأس لويلين من برج لندن ، وتركهما حتى نحلت شعرهما الشمس والرياح والأمطار . وأضحت ويلز جزءاً من إنجلترا (١٢٨٤) ،

وخلع إدورد فى عام ١٣٠١ لقب أمير ويلز على ولى عهد إنجلترا .

واحتفظ أهل ويلز فى أثناء هذا الارتفاع والهبوط بلغتهم وعاداتهم ، وظلوا يفلحون أرضهم الصلبة بشجاعة وجلد ، ويسلون أنفسهم فى الليل والنهار بالأقاصيص ، والشعر ، والموسيقى ، والغناء . وصاغ شعراؤهم فى ذلك الوقت قصص مابينوجيون Mabinogion ، ومزجوا الأدب مزجاً فذاً مقطوع النظير بالحنان الصوفى ذى النغم الجميل . وكان الشعراء والمغنون الجائلون يجتمعون فى كل عام فى مجلس وطنى نستطيع أن نرجع بتاريخه إلى عام ١١٧٦ ، تعقد فيه المباريات فى الخطابة ، والشعر ، والغناء ، والعزف على الآلات الموسيقية ؛ وكان أهل ويلز مقاتلين بواسل ، ولكنهم لم يكونوا يصبرون على الحرب الطويلة الأمد ، وكانوا يتوقون إلى العودة إلى أوطانهم يحمون بأنفسهم نساءهم وأطفالهم وبيوتهم ، وكان من أمثالهم مثل يتمنون فيه أن يكون « كل شعاع من أشعة الشمس خنجراً يطعن صدور المحبين للحرب »(٥٥).

الفصل العاشر

بلاد نهر الرين (١٠٦٦ – ١٣١٥)

كانت الأقاليم المحتشدة حول حوض الرين الأدنى ومصابه الكثيرة من أغنى أقاليم العالم فى العصور الوسطى . فقد كان فى جنوب الرين إقليم فلاندرز الممتد من كاليه Calais مخترقاً بلجيكا الحالية إلى نهر الشلد Sheldt . وكان هذا الإقليم من الوجهة الرسمية إقطاعية من ملك فرنسا ، ولكنه كان من الوجهة الفعلية تحت حكم أسرة مالكة من النبلاء المستنيرين لا يحد من سلطتهم إلا ما كان للمدن من استقلال ذاتى تفخر به . وكان الأهلون القريبون من الرين ينتمون إلى العنصر الفلمنكى ، وأصلهم من عنصر ألمانى يسكن البلاد المنخفضة ويتكلمون لهجة ألمانية ؛ أما من كانوا يقطنون فى غرب نهر ليس Lys فكانوا من الولون Walloons — وهم خليط من الألمان والفرنسيين امتزجوا بأصل كلتى — ويتكلمون لهجة فرنسية • وأثرت غنث وأودنارد Audenaarde ، وكورتربه ، وإيبرس ، وكاسل Kassel فى الإقليم الشمالى الشرقى الفلمنكى ؛ وبروج ، وليل ، ودويه فى الإقليم الجنوبى الغربى الولونى ، أثرت هذه البلدان من تجارتها وصناعتها وإن كانتا قد سببتا لها الاضطراب . وكانت كثافة السكان فى هذه المدن أكثر منها فى سائر المدن الأوربية القائمة فى شمال جبال الألب ، وكانت هذه المدن تسيطر على حكامها الأشراف فى عام ١٣٠٠ ؛ فقد كان قضاة المقاطعات الكبرى يؤلفون من بينهم محكمة عليا للبلاد ويتفاوضون مستقلين مع المدن والحكومات الأجنبية(٥٦) . وكان أولئك الحكام الأشراف فى العادة يتعاونون مع المدن ، ويشجعون التجارة والصناعة ، وكانت لهم عملة مستقرة ،

ووضعوا منذ عام ١١٠٠ — أى قبل إنجلترا بمائتى عام — نظاماً عاماً للمقاييس والموازين يعمل به فى جميع المدن .

لكن حرب الطبقات قضت فى آخر الأمر على حرية المدن وحرية حكامها الأشراف . والسبب فى ذلك أن صعاليك المدن زاد عديدهم ، واشتد غضبهم وسلطانهم ، وأن الحكام الأشراف انضموا إليهم ليناهضوا بهم الطبقة الوسطى الغنية المغترة بنفسها ؛ فلجأ التجار إلى فليب أغسطس يطلبون إليه المعونة ، فوعدهم بها يرجو بذلك أن يخضع فلاندرز إلى التاج الفرنسى خضوعاً أتم من ذى قبل . وكانت إنجلترا تحرص على أن تبقى أهم سوق تصرف فيها صوفها بعيدة عن سيطرة ملك فرنسا ، فعقدت حلفاً مع حكام فلاندرز ، مع هينولت Hainault دوق برابانت Brabant وأتو الرابع Otto IV إمبراطور ألمانيا . وهزم فليب جيوش هذا الحلف عند بوڤين (١٢١٤) ، وأخضع حكام فلاندرز ، وحمى النظام الألجركى للتجار . ولم ينقطع نزاع السلطات والطبقات بعد هذه الهزيمة ؛ حتى إذا كان عام ١٢٩٧ تحالف الكونت جى ده دمپير Guy de Dampierre مرة أخرى مع فلاندرز وإنجلترا ؛ فما كان من فليب الجميل إلا أن غزا فلاندرز ، وزج جى فى السجن ، وأرغمه على تسليم البلاد إلى فرنسا . فلما أن زحف الجيش الفرنسى لاحتلال بروج ، ثار العامة عليه ، وهزموا الجنود ، وذبحوا أغنياء التجار ، واستولوا على المدينة . وبعث فليب بجيش قوى ليغسل هذه الإهانة التى لحقته ؛ وألف عمال المدن من أنفسهم جيشاً مرتجلا عاجلا هزموا به الفرسان والجنود المرتزقة التى بعثت بها فرنسا فى معركة كورتريه (١٣٠٢) ؛ وأخرج جى ده دمپير الشيخ من سجنه وأعيد إلى منصبه ، واستمتع الحلف العجيب بين الحكام الأشراف والصعاليك الثوار بالنصر عشر سنين .

وظلت البلاد المعروفة لنا الآن باسم هولندة جزءاً من مملكة الفرنجة من القرن الثالث حتى القرن التاسع ؛ ثم أصبحت فى عام ٨٤٣ هى الطرف الشمالى

لدولة لورين الحاجزة(*) التى أنشأتها معاهدة فردون Verdun . وقسمت تلك البلاد فى القرنين التاسع والعاشر إقطاعيات كى تستطيع صد غارات الشماليين. وقطع الألمان الأشجار من الإقليم الكثيف الغابات الواقع فى شمال نهر الرين ، واستقروا فيه ، وأطلقوا عليه اسم هولندة ، أى أرض الغابات . وكان معظم أهله أرقاء أرض ، منهمكين فى كدحهم لانتزاع القوت من أرضين لابد لهم أن يقيموا الحواجز حولها لوقايتها من ماء البحر أو لتجفيفها بعد أن تطغى المياه عليها . غير أنها كانت تضم أيضاً مدناً ليست كالمدن الفلمنكية ثروة أو اضطراباً ، بل تعتمد اعتماداً سليماً على الصناعة المستقرة والتجارة المنتظمة . وكانت دوردرخت Dordrecht أكثر هذه المدن رخاء ؛ كما كانت أوترخت Utrecht مركزاً للعلوم ، وهارلم مقر كونت هولندة ؛ وأضحت دلفت Delft عاصمة البلاد إلى حين ، ثم انتقلت العاصمة حوالى عام ١٢٥٠ إلى لاهاى The Hague(**) . وكان أول ظهور أمستردام فى عام ١٢٠٤ حين شاد أحد الأعيان الإقطاعيين قصراً حصينا عند مصب نهر أمستل Amstel ؛ واجتذب هذا الموقع الأمين على الزيدرزى Zuider Zee والقنوات الكثيرة التى تخترقه فى كل مكان — اجتذب هذا الموقع التجارة ، ثم جعلت المدينة فى عام ١٢٩٧ ثغراً حراً تفرغ فيه المتاجر ويعاد شحنها دون أن تؤدى ضرائب جمركية ؛ وأضحى لهولندة الصغيرة من ذلك الحين شأن عظيم فى شئون العالم الاقتصادية ، وفيها غذت التجارة الثقافة كما يحدث فى غيرها من البلدان ، فنحن نسمع فى القرن الثالث عشر عن شاعر هولنــدى يدعى مارلانت Maerlant ، يهجو حياة رجال الدين المترفين هجاء لاذعاً . وبدأ الفن

(*) الدولة الحاجزة هى الدولة المحايدة القائمة بين دولتين ليست علاقتهما فى العادة ودية أو قد تصير غير ودية buffer state لمنع الصدام بينهما . (المترجم)

(**) وكان الكونت قد اتخذ هذا المكان ليلتقى فيه برفاق الصيد ، وسميت لذلك جرافن هاج s'Graven Haag أى مأوى الكونت وتسمى الآن دن هاج den Haag

الهولندى حياته الفذة العجيبة فى الأديرة ، وكان يشمل النحت ، وصناعة الخزف ، والتصوير ، وتزيين الكتب .

وكانت دوقية برابانت تقوم إلى جنوب هولندة ، وكانت تشمل وقتئذ مدائن أنفرس Antwerp ، وبركسل ولوفن Louvain . أما لييج فكان يحكمها أساقفتها حكماً مستقلا ، وكانوا يتركون لها قسطا كبيراً من الحكم الذاتى ؛ وكان إلى جنوب برابانت مقاطعات هينولت ، ونامور Namur ، ولمبرج Limburg ، ولكسمبرج ؛ ثم دوقية لورين ومدائنها ترير Trier ، ونانسى Nancy ، ومتز ؛ ثم عدة إمارات أخرى خاضعة خضوعاً اسميا لإمبراطور ألمانيا ، ولكنها كانت متروكة فى الأغلب الأعم لأشرافها الحكام . وكان لكل من هذه الأقاليم تاريخه الحافل بأحداث السياسة ، والحب ، والحرب ؛ فلنودعها ولننتقل إلى غيرها . وكان فى جنوبها وغربها إقليم برغندية التى تكون الآن الجزء الشرقى من وسط فرنسا ؛ وكانت حدودها تتبدل على الدوام تبدلا لا يشجعنا على تعيينها ، أما أحداثها السياسية فإنها كفيلة بأن تملأ مجلدات ضخمة عديمة الفائدة . وحسبنا أن نقول عنها إن رودلف الأول جعلها مملكة مستقلة فى عام ٨٨٨ ؛ وإن رودلف الثالث أوصى فى عام ١٠٣٢ بضمها إلى ألمانيا . ولكن جزءاً منها ضم إلى فرنسا فى هذا العام نفسه وأصبح دوقية تابعة لها . وكان أدواق برغندية ، كما كان ملوكها السابقون يحكمونها ، حكما يدل على الحكمة والذكاء ، وكانت الكثرة الغالبة منهم تحرص على السلم . ويقع أزهى عصورهم فى القرن الخامس عشر .

وكانت سويسرا فى العصور القديمة موطن عدد من القبائل المختلفة — الهلفيتى Helvetii ، والرئيتى Raeti ، والليپنتى Lepouti — وهم خليط من الأصول الكلتية ، والتيوتونية ، والإيطالية . واحتلت قبائل الألمانى Alemani الهضبة الشمالية وصبغتها بالصبغة الألمانية ؛ ثم قسمت البلاد بعد انهيار الدولة

الكارولنجية إلى إقطاعات خضعت للدولة الرومانية المقدسة . غير أن استعباد سكان الجبال من أشق الأعمال ، ولذلك فإن أهل سويسرا سرعان ما حرروا أنفسهم من الاسترقاق الإقطاعى وإن ظلوا يؤدون بعض الالتزامات الإقطاعية . وكان أهل القرى المجتمعون فى جمعيات دمقراطية يختارون موظفيهم ، ويحكمون أنفسهم بمقتضى الشرائع الألمانية القديمة شرائع الألمانى Alemanni والبرغنديين . وألف الفلاحون المجاورون لبحيرة لوسرن Lucerne « مقاطعات غابية » (Waldstälte) للدفاع المتبادل — وهذه المدن هى : أورى Uri ، وندولدن Nidewalden ، وشويز Schwyz . ومن هذه المدينة الأخيرة اشتق اسم دولة سويسرا . وكان الأهلون الأشداء سكان المدن التى نشأت عند ممرات الألب — چنيف ، وكنستانس ، وفريبورج ، وبرن ، وبازل — ينتخبون موظفيهم ، وينفذون قوانينهم الخاصة بهم ، ولم يكن سادتهم الإقطاعيون يعترضون على هذا الأسلوب من الحكم ، ما دامت الضرائب الإقطاعية الأساسية تؤدى لهم .

غير أن كونتات آل هبسبرج الذين كانوا يسيطرون على الأقاليم الشمالية منذ عام ١١٧٣ لم يكونوا يسيرون على هذه القاعدة ، ولما أن حاولوا فرض الالتزامات الإقطاعية بأشد ضروب القسوة ، أغضبوا أهل شويز ، فألفت الثلاث المقاطعات الغابية فى عام ١٢٩١ « حلفاً أبدياً » وأقسم أهلها أن يتعاونوا على صد الغارات الأجنبية ، والقضاء على الفتن الداخلية ، وأن يفضوا كل منازعاتهم بالتحكيم ، وألا يعترفوا بقاض يُنصب عليهم إذا كان من غير أهل واديهم ، أو كان قد ابتاع منصبه . وسرعان ما انضمت مدائن لوسرن ، وزيورخ ، وكنستانس إلى هذه الجامعة . وسيّر أدواق هبسبرج فى عام ١٣١٥ جيشين على سويسرا ليرغموا أهلها على أداء جميع الالتزامات الإقطاعية ، ولكن مشاة شويز وأورى المسلحين بالرماح ذات البلط فى رؤوسها هزموا الفرسان النمساويين فى

« مراثون سويسرا » ، هزيمة انسحبت على أثرها القوات النمساوية ، وجددت المقاطعات الثلاث يمين المساعدة المتبادلة (٩ ديسمبر سنة ١٣١٥) ، وأنشأت الاتحاد السويسرى . ولم تكن سويسرا قد أصبحت بعد دولة مستقلة ، فقد كان المواطنون الأحرار يعترفون ببعض الالتزامات الإقطاعية ، وبسيادة إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ولكن السادة الإقطاعيين والأباطرة المقدسين عرفوا كيف يحترمون أسلحة المقاطعات والمدن السويسرية وحرياتها ، ومهد انتصار مورجارتن السبيل لقيام أكثر الدمقراطيات استقراراً وأعظمها تمسكاً بالعقل والاتزان فى التاريخ كله(*) .

(*) يبدو أنه ليس ثمة سند تاريخى دال على وجود وليم تل William Tell(٥٨)

الفصل الحادى عشر

فرنسا (١٠٦٠ — ١٣٢٨)

١ — فليب أغسطس

كانت فرنسا حينما جلس على عرشها فليب الثانى أغسطس (١١٨٠) دولة صغرى تكتنفها الصعاب ، ولا يكاد أحد يرجو لها عظمة فى مستقبل الأيام . فكانت إنجلترا تمتلك نورمندية ، وبريطانى ، وأنجو ، وتورين ، وأكتين — وهى أملاك تعادل مساحتها ثلاثة أضعاف الممتلكات التى يسيطر عليها ملك فرنسا سيطرة مباشرة . وكان الشطر الأكبر من برغندية فى حوزة ألمانيا ، وكانت مقاطعة فلاندرز المزدهرة إمارة مستقلة فى واقع الأمر ، شأنها فى هذا شأن مقاطعات ليون Lyons ، وسافوى Savoy ، وشامبيرى Cnambery . وكانت هذه أيضاً حال پروڤانس — الجنوب الشرقى من فرنسا — الغنية بالخمر والزيت ، والفاكهة ، والشعراء ؛ ومدائن أرل Arles ، وأڤنيون ، وإيكس ، ومارسيليا : وكان إقليم الدوفنيه المحيط بڤينا قد ترك لألمانيا بوصف كونه جزءاً من برغندية ، وكان فى هذا الوقت إقليما مستقلا يحكمه دوفن dauphin اشتق لقبه من الدلفين dolphin (الدّخس) الذى كان شعار أسرته .

وكانت فرنسا الأصلية مقسمة إلى مقاطعات تحمل أسماء مختلفة — دوقيات ، وكنتيات ، وسنيوريات . وسنسكلتيات sensechalties ، وبيلياچات (مأموريات) Bailliages يحكمها بترتيب أهميتها أدواق ، وكونتون counts ، وسنيورون (سادة) وسنسكالون sensechal (رؤساء خدم الملوك) . ومأمورون bailiffs وكان هذا الحشد المفكك ، الذى كان يسمى فرنسيا Francia منذ القرن التاسع ، خاضعاً لملك فرنسا خضوعاً متفاوت الدرجات ،

مقيداً بقيود كثيرة . وكانت باريس عاصمة الملك فى عام ١١٨٠ مدينة ذات مبان من الخشب ، وشوارع كثيرة الأوحال ، وكان معنى لوتيتيا Lutetia اسمها الرومانى « بلدة الوحل » ، واشمأزت نفس فليب أغسطس من الروائح الكريهة المنبعثة من الشوارع المارة بجوار نهر السين ، فأمر أن ترصف شوارع باريس كلها بالحجارة الصلدة(٥٩) .

وكان فليب أول ملوك ثلاثة رفعوا فرنسا فى ذلك الوقت إلى مكان الزعامة الذهنية ، والأدبية ، والسياسية فى أوربا ، ولكن ملوكاً أقوياء قد سبقوه فى فرنسا ، منهم فليب الأول (١٠٦٠ — ١١٠٨) الذى خلد اسمه فى التاريخ بأنه طلق امرأته وهو فى سن الأربعين وأرغم فولك Fulk كونت أنجو بأن يسلم له الكونتة برتراد Bertrade . ووجد القس الذى يبارك هذا الزنى ويعدّه زواجاً ، ولكن إربان الثانى حين جاء إلى فرنسا داعياً إلى الحرب الصليبية الأولى حرم الملك . وأصر فليب على إثمه اثنتى عشرة سنة ، ثم طرد بعدها برتراد ورفع عنه الحرمان ، ولكنه لم يلبث أن تاب من توبته ، واسترد ملكته ، وسافرت معه إلى أنجو ، وعلمت زوجها أن يتصافيا ، ويخيل إلينا أنها متعت كل منهما بكل ما فيها من مفاتن(٦٠) .

وتضخم جسم فليب وهو فى سن الأربعين ، فترك شئون الدولة الخطيرة لابنه لويس السادس (١١٠٨ — ١١٣٧) ، المعروف باسم لويس البدين . لكنه كان خليقاً بخير من هذا الاسم ، فقد ظل يحارب أربعاً وعشرين سنة ، يحارب البارونات الذين كانوا يسلبون المسافرين وانتصر عليهم آخر الأمر ؛ وقوى الملكية بأن نظم لها جيشاً قوياً ، وبذل كل ما فى وسعه لحماية الفلاحين ، والصناع ، والحكومات المحلية للمدن ، وأوتى من الحكمة ما جعله يتخذ سوجر Suger رئيس الدير وزيراً له وصديقاً . وكان سوجر رئيس دير القديس دنيس Denis (١٠٨١ — ١١٥٠) ريشليو القرن الثانى عشر ، دبر شئون فرنسا بحكمة

وعدالة وبعد نظر ؛ وشجع التجارة وأصلح أحوالها ، وخطط وشاد إحدى روائع المبانى القوطية التى تعد أجمل مبانى ذلك الطراز وأقدمها عهداً ؛ وكتب وصفاً ممتعاً للسنين التى قضاها فى الوزارة ولأعماله فيها : وكان فى الواقع خير ما أورثه لويس البدين ولدَه الذى ظل سوجر يخدمه إلى وقت مماته .

وكان لويس السابع (١١٣٧ — ١١٨٠) هو الرجل الذى قالت عنه إليانور الأكتانية إنها تزوجت ملكا فلم تجده إلا راهباً . لقد كان يعمل جادا فى أداء واجباته الملكية ، ولكن فضائله قضت عليه ، فقد بدا لإليانور أن انهماكه فى شئون الحكم إهمال منه للواجبات الزوجية ، وأضاف بصبره على علاقتها بعشاقها الإهانة إلى هذا الإهمال ، فما كان منها إلا أن طلقته ، وأسلمت يدها ودوقية أكتين التى تمتلكها إلى هنرى الثانى ملك إنجلترا . وخابت آمال لويس فى الحياة فوجه همه إلى الدين وإلى الصلاح ، وترك العمل لبناء فرنسا القوية إلى ولده .

وكان فليب الثانى أغسطس شبيها بفليب الآخر(*) الذى كان سميذعا من الطبقة الوسطى : كان رجلا ذكياً عملياً يلطف ذكاءه نبلُ عواطفه ، كان يناصر العلوم ولا يتذوقها ، يجمع بين الحذر والدهاء وبين الشجاعة والحزم ، حاد الطبع سريع المغفرة ، لايتردد فى أن يسلك أى سبيل تؤدى به إلى التملك ، ولكنه لم يكن شرها فى هذه الناحية ، وكان معتدلا فى تقواه يستطيع أن يكون سخياً للكنيسة دون أن يسمح لسلطان الدين أن يطغى على شئون السياسية ، ذا صبر ومثابرة نال بهما ما لم يكن يستطيع أن يناله بالمغامرة الجريئة . وكان هذا الرجل عادياً وعظيما (أوجست August)(**) معا ، عنيداً فى لطف ، قاسياً فى حكمة ؛ وبهذا كان هو الرجل الذى تحتاجه بلاده فى وقت أحاطت بها إنجلترا أيام

(*) يقصد لوى فليب ملك فرنسا فى القرن التاسع عشر . (المترجم)

(**) هذا هو اللقب الذى منحه إياه راعى كنيسته ولم يشتهر به فى العصور الوسطى غير أن المؤرخين الفرنسيين قد لقبوه به .

هنرى الثانى وألمانيا فى عهد بربروسا ، ولعل الأقدار قد ساقته إلى فرنسا فى هذا الوقت العصيب ، ولولاه لكان من الجائز ألا يبقى لها وجود .

وارتاعت أوربا لزيجاته ؛ فقد ماتت إزبلا زوجه الأولى فى عام ١١٨٩ ، وبعد أربع سنين من وفاتها تزوج انجبورج Ingeborg الأميرة الدنمرقية . وكان زواجه هذا وذاك زواجاً سياسياً ، فيه من التملك أكثر مما فيه من الغرام . ولم ترق إنجبورج فى عين فليب ، فهجرها بعد يوم واحد ، ولم يمض على زواجه بها أكثر من عام حتى أقنع مجلساً من الأساقفة الفرنسيين أن يجيز له طلاقها ، ولكن البابا سلستين الثالث Celestine III أبى أن يوافق على هذا القرار . غير أن فليب تحدى البابا وتزوج فى عام ١١٦٩ بأنى الميرانية Agnes of Meran ؛ فحرمه سلستين ، ولكن فليب ظل على عناده وقال فى ساعة من ساعات حنانه : « خير لى أن أفقد نصف أملاكى من أن أفارق أنى » . وأمره إنوسنت الثالث أن يرجع إنجبورج ، فلما عصى فليب الأمر حرم البابا الصلب العنيد جميع الخدمات الدينية فى أملاك فليب . وثارت ثائرة فليب فخلع جميع الأساقفة الذين أطاعوا أمر الحرمان ، وقال فى حسرة : « ما أسعد صلاح الدين الذى ليس له من فوقه بابا » ، وهدد بأن يعتنق الإسلام(٦١) . وواصل حربه الدينية أربع سنين بدأ الشعب بعدها يتذمر خوفاً من عذاب النار ، فطرد فليب محبوبته أنى (١٢٠٢) ولكنه أبقى إنجبورج محبوسة فى إيتامب Etampes حتى عام ١٢١٣ حين ردها إلى عصمته .

وبين هذه الأفراح والاضطرابات فتح فليب نورمندية واسترد هامن إنجلترا (١٢٠٤) ، وضم فى السنتين التاليتين بريطانى ، وأنجو ، ومين ، وتورين ، وپواتو ، إلى أملاكه التى تحت سلطانه المباشر ، وأصبح له وقتئذ من القوة ما يستطيع به أن يسيطر على الأدواق ، والكونتة ، والسادة فى جميع أنحاء مملكته . وكان مأموروه وعماله يشرفون على الحكومات المحلية ، وصارت

مملكته قوة دُوَلية كبرى ، ولم تعد رقعة من الأرض ممتدة على ضفتى نهر السين . ولم يسكت چون ملك إنجلترا على ما أصابه من ضياع ملكه ، فأقنع أتو الرابع إمبراطور ألمانيا ، وكونتى بولونى وفلاندرز أن ينضما إليه فى الوقوف فى وجه هذا التوسع الفرنسى ، واتفقوا على أن يهاجم چون فرنسا من أكتين (وكانت لا تزال ملكا لإنجلترا) وأن يهاجمها حلفاؤه من الشمال الشرقى . ولم يوزع فليب قوّته لملاقاة هذه الهجمات المتفرقة ، بل سار على رأس جيشه الرئيسى لقتال حلفاء چون ، وهزمه عند بوڤين ، بالقرب من ليل Lille (١٢١٤) . وأسفرت هذه المعركة عن كثير من النتائج الهامة ، أسفرت عن خلع أوتو ، وتولى فردريك الثانى عرش ألمانيا ، وقضت على زعامة ألمانيا للقارة الأوربية ، وعجلت اضمحلال الدولة الرومانية الشرقية ، وأخضعت كونت فلاندرز وخلفاءه لطاعة ملوك فرنسا ، وضمت أمين ، ودويه ، وليل ، وسان كنتن إلى أملاك التاج الفرنسى ، ووسعت رقعة فرنسا الشمالية الشرقية بالفعل حتى وصلت إلى نهر الرين ، وتركت چون عديم الحول والطول أمام باروناته ، وأرغمته على توقيع العهد الأعظم ، وأضعفت المَلَكية وقوّت الإقطاع فى إنجلترا وألمانيا ، على حين أنها قوّت الملكية وأضعفت الإقطاع فى فرنسا ، ويسرت قيام حكومات المدن المحلية والطبقات الوسطى التى عاونت فليب أعظم معاونة فى السلم والحرب .

ولما أن ضاعف فليب أملاكه ثلاثة أضعاف ما كانت عليه من قبل شرع يحكمها حكما طابعه المهارة والإخلاص . وقضى الرجل نصف وقته فى نزاع مع الكنيسة واستبدل برجال الدين فى مجلسه وفى الوظائف الإدارية رجالا من طبقة المحامين الناشئة . ومنح كثيراً من المدن عهوداً بالحكم الذاتى ، وشجع التجارة بما منح التجار من امتيازات ، وحمى اليهود تارة ، ونهبهم تارة أخرى ، وملأ خزائنه بالمال بأن استبدل بالخدمات الإقطاعية إتاوات نقدية ، وزاد إيراد الملك من ٦٠٠ جنيه فرنسى إلى ١٢٠٠ (نحو ٢٤٠٠٠٠ ريال أمريكى) فى اليوم

وتمت فى أيامه واجهة كنيسة نوتردام Notre Dame ، وبنى اللوفر ليكون حصناً يحرس نهر السين[٦٢] . ولم يمت فليب حتى كانت فرنسة هذه الأيام قد ولدت .

٢ — القديس لويس

ولم يتمكن ابنه لويس الثامن (١٢٢٣ — ١٢٢٦) فى حكمه القصير من أن يفعل الشىء الكثير . وأهم ما يذكره به التاريخ أنه تزوج بلانش القشتالية Blanche of Castille ، وأنه أنجب منها الرجل الوحيد فى العصور الوسطى الذى أفلح كما أفلح أشوكا فى الهند القديمة فى أن يكون فى واقع الأمر قديساً وملكا جميعاً . وكان لويس التاسع فى الثانية عشرة من عمره ، وكانت والدته فى الثانية والثلاثين حين توفى لويس الثامن . وحافظت بلانش على ما يجرى فى عروقها من دم ملكى ؛ فقد كانت ابنة ألفنسو التاسع Alfonso IX ملك قشتالة ، وحفيدة هنرى الثانى وإليانور الأكتانية ، وكانت ذات جمال ، وفتنة ، ونشاط ، وأخلاق قويمة ، ومهارة فائقة . وكانت فى الوقت عينه ذات أثر كبير فى عصرها لما اتصفت به من الفضائل بوصفها زوجة وأرملة ، وإخلاص لبنيها الأحد عشر . ولم تكن فرنسا تكرمها لأنها بلانش الملكة الصالحة Blanche la bonne reine فحسب ، بل كانت تكرمها أيضاً لأنها بلانش الأم الصالحة Blanche la bonne mère . وقد أعتقت فى حياتها كثيرين من أرقاء الأرض الذين يعملون فى الضياع الملكية ، وتصدقت بالأموال الكثيرة ، وأدت من مالها البائنات لكثير من البنات التى يحول فقرهن دون تشجيع الشبان على حبهن . وأعانت بالمال بناء كنيسة شارتر Chartres الكبيرة . وبفضل نفوذها أظهر زجاج الكنيسة الملوّن العذراء مريم فى صورة الملكة لا فى صورة العذراء[٦٣] . وكانت مفرطة فى حب ابنها لويس ، ولم تكن كريمة فى معاملتها زوجته . وقد عكفت

على تربيته على الفضائل المسيحية ، وكانت تقول له إنها تفضل أن تراه ميتاً عن أن تراه يرتكب أحد الذنوب البشرية[٦٤] . على أن أعمالها هذه لم تكن هي التي جعلت لويس رجلا متديناً مخلصاً لدينه ؛ وذلك أنها هي نفسها قلما كانت تضحي بالسياسة في سبيل العاطفة ؛ فقد انضمت إلى الحرب الألبجنسية الدينية ، لكي تبسط سلطان التاج على فرنسا الجنوبية . وظلت تحكم المملكة تسع سنين (١٢٢٦ — ١٢٣٥) كبر في أثنائها لويس ، وقلما استمتعت فرنسا بحكم خير من حكمها . وثار البارونات في بداية حكمها نائبة عن ولدها ، ظنا منهم أن في مقدورهم أن يستعيدوا من امرأة ما انتزعه فيليب الثاني منهم من سلطات ؛ ولكنها تغلبت عليهم بحكمتها وسياستها وطول أناتها ؛ وقاومت إنجلترا مقاومة شديدة ؛ ثم وقعت معها هدنة بشروط عادلة . ولما بلغ لويس التاسع سن الرشد ، وتولى شئون الحكم ، ورث مملكة قوية ، مستمتعة بالسلم والرخاء .

وكان لويس شاباً وسيماً ، أطول من معظم الفرسان بمقدار طول رأسه ، حسن الملامح دقيقها ، أبيض لون البشرة ، ذا شعر أشقر غزير ، وكان ذا ذوق راق ، مغرماً بالأثاث الفخم المترف ، والثياب الملونة ؛ ولم يكن مكباً على مطالعة الكتب ، بل كان يميل إلى اقتناص الحيوان وصيد الطير ، وضروب التسلية والألعاب الرياضية ؛ ولم يكن قد أصبح بعد قديساً ، وشاهد ذلك أن راهباً شكا بلانش من مغازلة ولدها للفتيات ، فبحثت له عن زوجة ، وعاش معها عيشة الهدوء والاستقرار ، وأصبح مضرب المثل في وفاء الأزواج ونشاط الآباء . وكان له أحد عشر ولداً كان له هو نصيب موفور في تربيتهم ؛ فتخلى على الترف شيئاً فشيئاً ، واعتاد بالتدريج عيشة البساطة المتزايدة ، وصرف همه في شئون الحكم ، والصدقات ، والتقوى . وكان يرى أن الملكية أداة للوحدة القومية واتصالها ، وحماية الفقراء والضعفاء من الأقلية العليا المحظوظة .

وكان يحترم حقوق النبلاء ، ويشجعهم على الوفاء بالتزاماتهم لأرقاء الأرض ،

والأتباع ، والسادة ؛ ولكنه لا يطيق الاعتداء على سلطة الملك الحديثة العهد ؛ ويمنع بعزيمته الماضية أن يقع ظلم من سيد على تابع . وكثيراً ما أنزل أشد العقاب بالبارونات الذين قتلوا أتباعهم من غير محاكمة . ولما أن شنق إنجران ده كوسى Enguerrand de Coucy ثلاثة طلاب فلمنكيين لقتلهم بضعة أرانب برية فى ضيعته ، أمر لويس بسجنه فى برج اللوفر ، وهدده بالشنق ، ولم يطلقه إلا بعد أن اشترط عليه أن يبنى ثلاث كنائس صغيرة تتلى فيها الصلوات كل يوم لأرواح ضحاياه ، وأن يهب الغابة التى صاد فيها الطلبة الشبان الأرانب لدير القديس نقولاس ، وأن يفقد فى مزرعته حق الصيد والحقوق القضائية ، وأن يخدم ثلاث سنين فى فلسطين ، ويؤدى إلى الملك غرامة قدرها ١٢,٥٠٠ جنيه[٦٥] . وحرم لويس الثأر الإقطاعى والحروب الإقطاعية بين الأمراء ، ونهى عن المبارزة بوصفها وسيلة من الوسائل القضائية . . . ولما حلت المحاكمة عن طريق الأدلة والبراهين محل القتال ، تخلت محاكم البارونات عن مكانها شيئاً فشيئاً للمحاكم الملكية التى نظمها فى كل مقاطعة مأمورو الملك ، وتقرر حق استئناف أحكام القضاة البارونات إلى محكمة الملك المركزية ؛ وشهد القرن الثالث عشر فى فرنسا ، كما شهد إنجلترا استبدال قانون الدولة العام بالقانون الإقطاعى . وقصارى القول أن فرنسا لم تنعم منذ أيام الرومان بما نعمت به فى عهد لويس التاسع من أمن ورخاء ؛ وحسبنا دليلا على هذا أن ثروة فرنسا فى أيامه بلغت من الوفرة درجة ارتفعت بها العمارة القوطية إلى أقصى حدود الكثرة والكمال .

وكان يعتقد أن فى مقدور الحكومة أن تكون عادلة كريمة فى علاقاتها الخارجية دون أن تفقد بذلك هيبتها وقوتها . وكان يتجنب الحرب أطول أمد مستطاع ؛ فإذا لاح خطر الاعتداء عليه نظم جيوشه أحسن تنظيم ، ووضع خططه الحربية ، وقادها — فى أوربا — بجد ومهارة نال بهما سلماً كريمة لم تترك فى نفوس أعدائه رغبة فى الانتقام . وما كادت فرنسا تتأكد من سلامتها ، حتى

عهد الملك إلى سياسة المصالحة التى قبل بمقتضاها التوفيق بين الحقوق المتعارضة ورفض التهدئة الناشئة من إجابة المطالب غير العادلة . وقد رد إلى إنجلترا وأسپانيا أقاليم اغتصبها منهما أسلافه ، وأسف لذلك مستشاروه ، ولكنه ضمن بعمله هذا استتباب السلام ، ونجت فرنسا من الهجوم حتى فى أثناء غياب لويس فى الحروب الصليبية . ويقول عنه وليم الشارتريسى William of Chartres إن « الناس كانوا يخشونه لأنهم موقنون بعدله »[٦٦] . ولم تشتبك فرنسا من ١٢٤٣ إلى ١٢٧٠ فى حرب مع عدو لها مسيحى ؛ ولما أن أخذ جيرانها يحارب بعضهم بعضاً بذل لويس ما يستطيع من جهد للتوفيق بينهم ، وسخر من قول مجلسه إن من الواجب إثارة هذا النزاع لكى تضعف بذلك قوة من قد يصبحون أعداءه فى مستقبل الأيام[٦٧] . وكان الملوك الأجانب يحكمونه فيما يشجر بينهم من نزاع ، وكان الناس يعجبون كيف يستطيع هذا الرجل الصالح أن يكون ملكا صالحاً .

ولم يكن لويس « ذلك الوحش الكامل الذى لم يعرفه العالم قط » — أى الرجل المبرأ من جميع العيوب . فقد كان يغضب أحياناً ، ولعل سوء صحته هو سبب غضبه . وكانت سذاجته تصل فى بعض الأحيان إلى حد الجهالة أو السذاجة اللتين يستحق عليهما أشد اللوم ، ودليلنا على ذلك ما ارتكبه من خطأ شنيع إذ تورط فى الحروب الصليبية والمعارك الخاسرة فى مصر وتونس ، حيث ضاعت أرواح كثيرة فضلا عن روحه هو ؛ ومع أنه راعى واجب الشرف والأمانة فى معاملته أعداءه المسلمين ، فإنه لم تطاوعه نفسه على أن يطبق فى معاملته إياهم روح التفاهم الكريم الذى نجح به أيما نجاح مع أعدائه المسيحيين . وقد دفعه إيمانه الدينى القوى الشبيه بإيمان الأطفال إلى درجة من عدم التسامح الدينى ساعدت على إنشاء محكمة التفتيش فى فرنسا ، وهدأت ما تنطوى عليه نفسه من رحمة نحو ضحايا الحروب الصليبية الألبجنسية . وقد امتلأت خزائنه بالبضائع

والأموال التى صادرها من المارقين الذين حكم بإدانتهم[٦٨] ، وقد خانته روحه المرحة وفكاهته فى معاملته اليهود الفرنسيين .

فإذا أسقطنا من صحيفته هذه العيوب رأينا أنه قد اقترب قربا يشرفه من المثل المسيحى الأعلى ، انظر إلى ما يقوله عنه چوانفيل Joinville « لم أسمعه قط فى يوم من أيام حياتى يقول قالة السوء عن أى إنسان[٦٩] » . ولما أن قبل آسروه المسلمون خطأ منهم عشرة آلاف جنيه فرنسى (أى نحو ٢٫٨٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) أقل من الفدية المتفق عليها ، أرسل لويس بعد أن أطلق سراحه جميع القدر الناقص من مال الفداء ، وأغضب بذلك مستشاريه[٧٠] . وقبل أن يغادر البلاد للقتال فى حربه الصليبية الأولى ، أمر موظفيه فى جميع أنحاء مملكته « أن يتلقوا كتابة ، وأن يحققوا ، كل ما عساه أن يقدم فينا أو فى أسلافنا من الشكاوى . وكذلك جميع ما يقام على مأمورينا أو محافظينا أو حراس غاباتنا ، أو رؤساء جنودنا أو مرءوسيهم من دعاوى خاصة بمظالم ارتكبوها أو اغتصاب للأموال »[٧١] . ويقول جوانفيل « وكثيراً ما كان يخرج بعد الصلاة ، ويجلس مستنداً إلى شجرة فى غابة ڤنسن Vincenne ويأمرنا بالجلوس حوله . ويقبل عليه كل من له مظلمة ويتحدث إليه دون أن يحول بينه حائل أو يقدمه حاجب » . ثم يفصل فى بعض القضايا بنفسه ، ويحيل بعضها إلى مستشاريه الجالسين حوله ، ولكنه كان يعطى كل شاك حق استئناف الحكم للملك نفسه[٧٢] . وقد أنشأ المستشفيات والملاجئ ، والأديرة ، والمضايف للغرباء ، وبيتاً للمكفوفين ، وآخر للعاهرات التائبات « بنات الله » ؛ وأمر عماله فى كل مقاطعة أن يبحثوا عن العجزة والفقراء ، وينفقوا عليهم من الأموال العامة . وكان أينما سار يجعل من مبادئه المقررة أن يطعم مائة وعشرين فقيراً فى كل يوم . وكان يأمر بأن يجلس معه على مائدته ثلاثة منهم ، يتولى هو تقديم الطعام لهم ويغسل بنفسه أقدامهم[٧٣] . وكان يفعل ما يفعله هنرى الثالث ملك إنجلترا فيقف على المائدة فى خدمة المجذومين ، ويطعمهم بيديه . ولما حل القحط

بنورمندية ، أنفق الأموال الطائلة فى توفير الطعام للمحتاجين من أهلها . وكان يقدم الصدقات كل يوم للمرضى ، والفقراء ، والأرامل ، والنساء اللاتى فى حالات النفاس ، والعاهرات ، والعاجزين من العمال « حتى ليتعذر علينا أن نحصى صدقاته »[٧٤] . ولم يكن ليفسد هذه الصدقات بإذاعتها بين الناس . وكان الفقراء الذين يغسل أقدامهم يختارون من بين المكفوفين ، وكان يعمل عمله هذا خفية ، و يقال لهؤلاء إن الملك هو الذى يخدمهم ؛ ولم يكن أحد من الناس يعرف زهده وتعذيبه نفسه حتى شوهدت آثارهما على جسمه بعد وفاته[٧٥] .

وأصيب أثناء حروبه فى عام ١٢٤٢ بالملاريا فى مناقع سانتونج Saintonge ؛ وأسفر هذا المرض عن إصابته بفقر دم خبيث ، وأوشك على الموت فى عام ١٢٤٤ . ولعل هذه المصائب قد زادت روحه الدينية تدريجاً ، فإنه ما كاد يشفى من مرضه حتى أقسم أن يشن الحرب الصليبية ، وأضعف صحته بانهماكه زهده وتعذيب نفسه . ولما عاد من حربه الصليبية الأولى ولما يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره كان قد انحنى جسمه وأصابه الصلع ، ولم يبق من نضرة شبابه وجماله إلا ما يخلعه عليه إيمانه الساذج من خلق جميل وإرادة طيبة . وكان يرتدى قميصاً من الشعر ، تحت مئزر الرهبان الرمادى ، ويأمر بأن يُضرب بسلاسل صغيرة من الحديد ، ويحب طائفتى الرهبان الجديدتين — الفرنسسكان والدمنيكان ، ويهبهم المال بلا حساب ، ولم يمتنع عن أن يكون هو راهباً فرنسسكانيا إلا بعد جهد جهيد . وكان يحضر الصلوات مرتين كل يوم ، ويتلو الأدعية المقررة أدعية الساعات الثالثة والسادسة والتاسعة ودعاء المساء ، ويتلو صلاة العذراء(*) خمسين مرة قبل أن يأوى إلى فراشه ، ويصحو فى منتصف الليل لينضم إلى قساوسته فى صلاة السحر فى كنيسة قصره[٧٦] . وكان يمتنع من مباشرة زوجه فى صيام الميلاد

(*) AveMaria ومطلعها « السلام لك يا مريم » . (المترجم)

والصوم الكبير : وبلغ من تمسكه بشعائر الدين أن كان معظم رعاياه يبتسمون من تقواه ويلقبونه « الأخ لويس » . وقالت له امرأة جريئة : « إن من الخير أن يكون فى مكانك ملك غيرك ، فلست أنت إلا ملك الفرنسسكان والدمنيكان : . إن من العار أن تكون أنت ملك فرنسا ، ومن أعجب العجائب ألا يخلعوك » : فأجابها لويس بقوله : « لقد قلت حقاً . . . فلست خليقاً بأن أكون ملكاً . . ولو أراد منقذنا لوضع فى مكانى رجلا غيرى يعرف خيراً منى كيف يحكم المملكة »(٧٧) .

وكان شديد التحمس لخرافات أهل زمانه ويشاركهم فيها . من ذلك أن دير القديس دنيس كان يدعى أن لديه مسماراً من الصليب الحق ، وحدث أن وُضع المسمار فى غير موضعه بعد احتفال عُرض فيه على الشعب ؛ فثارت لهذا الحادث ضجة كبيرة ، ثم وُجد المسمار وارتاح الملك كثيراً لوجوده ، حتى قال : « لقد كان خيراً لى من هذا أن تبتلع الأرض أحسن مدينة فى ملكى »(٧٨) . وفى عام ١٢٣٦ احتاج بولدون الثانى إمبراطور القسطنطينية إلى المال لينقذ دولته المتداعية ، فباع للويس تاج الأشواك الذى لبسه المسيح فى آلامه بأحد عشر ألف جنيه فرنسى (٢,٢٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) . واشترى لويس من الدلاّل نفسه بعد خمس سنين من ذلك الوقت قطعة من الصليب الحقيقى ، ولربما كان المقصود بهذا الشراء وذاك أن يكون المال هبة من لويس لدولة مسيحية تفرج به أزمتها . وأمر لويس بطرس المنتربلى Peter of Montreuil ليبنى سينت شابل Sainte Chapelle ليُودع فيها هذان الأثران .

ولم يكن لويس رغم صلاحه هذا أداة طيعة فى أيدى رجال الدين ، فقد كان يدرك ما فى طبيعتهم البشرية من عيوب ، ويعاقبهم عليها بالقدوة الطيبة والتقريع العلنى(٧٩) . وقد قيد سلطات المحاكم الكنسية ، وبسط سلطة القانون على جميع المواطنين ، سواء كانوا من رجال الدنيا أو من رجال الدين ، وأصدر فى عام

١٢٦٨ أول الأوامر العالية التي قيد بها حق البابا في تعيين أصحاب المناصب الدينية وجباية الضرائب في فرنسا : « تقرر أنه لا يجوز لأحد أن يفرض أو يجبي بأية طريقة كانت فروضاً أو ضرائب مالية فرضتها محكمة رومة . . . إلا إذا كانت القضية معقولة ، متفقة مع أصول الدين ، وعاجلة جداً . . . ونالت موافقتنا الصريحة من تلقاء أنفسنا ، وموافقة كنيسة مملكتنا »(*) .

وقد بقي لويس الملك على الدوام رغم زهده وميوله الدينية ؛ ولقد حافظ على جلال الملك حتى ساعة أن ظهر واقفاً على قدميه ، مرتدياً ثياب الحاج ، وبيده عصا الحاج ليبدأ حربه الصليبية الأولى (١٢٤٨) . وهو صاحب « الجسم الرفيع » النحيل ، والوجه الشبيه بوجوه الملائكة الأطهار ، والمحيا المليء بشراً وسماحة »(٨١) كما يصفه فراسلمبين Fra Salimbene . وقد بكت الملكة بلانش وهو يفارقها بعد أن أنابها عنه في البلاد وإن كانت في سن الستين وقالت : « يا أحب الأبناء وأجملهم ، يا أجمل الأبناء وأرقهم قلباً ، إني لن أراك بعد اليوم »(٨٢). وأسر لويس في مصر ، وظل في الأسر حتى افتدى بمبلغ من المال جمعته بلانش بعد عناء كبير ، ولكنه لما عاد إلى فرنسا مهزوماً ذليلا وجد أن أمه قد توفيت . ثم أقدم في عام ١٢٧٠ رغم ضعفه ومرضه على حرب صليبية أخرى ونزل هذه المرة في تونس . ولم تكن هذه مغامرة جنونية سخيفة كما بدت للناس بسبب خيبتها . ذلك أن لويس قد سمح لأخيه شارل دوق أنجو أن يقود جيشاً فرنسياً إلى إيطاليا ، وكان يبغي من وراء هذا أن يضعف سيطرة الألمان عليها ، ويرجو أن يتخذ صقلية قاعدة تغزو بها فرنسا بلاد تونس ، وبعد أن وصل المحارب العظيم المحطم الجسم الصغير السن إلى أرض تونس ، مات بزحار البطن . وسلكته

(*) ملمان Milman في ص ١١٩ من المجلد السادس من كتاب « تاريخ المسيحية اللاتينية History of Latin Christianity » . والرأي السائد أن هذا القرار صحيح من الوجهة التاريخية(٨٠) ، ولكن ربما كان المدافعون عن فليب الرابع قد اخترعوه من عندهم ليكون سلاحا يشهرونه في وجه بنيفاس الثامن . انظر دائرة المعارف الكاثوليكية في اسم لويس التاسع .

الكنيسة بعد سبع وعشرين سنة من موته فى عداد القديسين . وظل الناس بعد وفاته أجيالا وقروناً يرون أن حكمه هو العصر الذهبي فى تاريخ فرنسا ، ويعجبون كيف لا تتيح الأقدار التى لا يفقهون تصريفها لأمور البشر ملكاً آخر لفرنسا يماثله . ذلك أنه كان ملكاً مسيحياً بحق .

٣ — فليب الجميل

زادت الحروب الصليبية من قوة فرنسا ، وكان لها فيها شأن كبير . وأكسبها طول حكم فليب أغسطس ولويس التاسع استقراراً واتصالا فى الحكم فى الوقت الذى كانت فيه إنجلترا تعانى الأمرين من إهمال رتشرد الأول ، واستهتار چون ، وعجز هنرى الثالث ، وكانت فيه ألمانيا مفككة الأوصال من أثر الحروب الناشبة بين الأباطرة والبابوات ، فلم يحل عام ١٣٠٠ حتى كانت فرنسا أقوى دول أوربا كلها .

وكان فليب الرابع يلقب بالجميل le Bel لجمال جسمه ووجهه ، لا لدهائه السياسى وجرأته وقسوة قلبه . وكان ذا آمال واسعة : كان يأمل أن يخضع كل الطبقات — الأشراف ، ورجال الدين ، وأهل المدن ، وأرقاء الأرض — لحكم القانون وسيطرة الملك مباشرة ، وأن يقيم نماء فرنسا وتقدمها على أساس التجارة والصناعة لا الزراعة ، وأن يمد حدودها إلى المحيط الأطلنطى ، وجبال البرانس ، والبحر المتوسط ، وجبال الألب ، ونهر الرين . ولم يختر أعوانه ومستشاريه من كبار رجال الدين والأشراف الذين ظلوا يخدمون ملوك فرنسا طوال الأربعة القرون الماضـــية ، بل اختارهم من طبقة المحامين الذين أقبلوا عليه وعقولهم مفعمة بالأفكار الاستعمارية التى أوحى إليهم بها القانون الرومانى . فكان پيير فلت Pierre Flotte وجيوم ده نوجاريه Guilluame de Nogaret من ذوى العقول النابهة الذين لا يبالون بالمبادئ الأخلاقية أو السوابق ؛ وشاد فليب بفضل توجيههم صرح القانون الفرنسى ، وأحلّ الشريعة الملكية محل

الشريعة الإقطاعية ، وانتصر على أعدائه بسياسته الحصيفة ، وحطم فى نهاية الأمر سلطان البابوية ، وجعل البابا فى الواقع سجيناً فى فرنسا . وحاول أن يفصل جوين Guienne عن إنجلترا ، ولكنه وجد إدورد الأول قوياً لا يُغلب ، وحصل على شمبانيا Champagne ، وبرى Brie ، وتبرة بطريق الزواج ، وابتاع بالمال شارتر ، وفرانش كمتيه Franch - Comté ، وإقليم ليون وجزءاً من اللورين .

وكان دائم الحاجة إلى المال ، ولهذا وجّه نصف ذكائه ونصف وقته إلى اختراع الضرائب وجمع الأموال ، واستبدل المال بالفروض الإقطاعية الواجب أداؤها للتاج ؛ وكم من مرة خفض قيمة النقد ، وأصر على أن تؤدى الضرائب سبائك أو بالنقد الصحيح القيمة ، ونفى اليهود واللمبارد وقضى على فرسان المعبد ليصادر أملاكهم ، وحرم إصدار المعادن النفيسة من بلاده ، وفرض رسوماً باهظة على الصادرات والواردات ، والمبيعات ، وضريبة حربية مقدارها بنس على كل جنيه فرنسى فى ثروة الأفراد فى فرنسا . ثم فرض أخيراً ضريبة على الكنيسة دون أن يستشير البابا ، وكانت الكنيسة وقتئذ تمتلك ربع أرض فرنسا . وسنروى قصة هذا الصراع عند الكلام على بنيفاس الثامن . ولما مات البابا الطاعن فى السن بعد أن حطمه الكفاح ، استخدم فيليب ماله وأعوانه فى اختيار رجل فرنسى لقب كلمنت الخامس فى مكانه ، كما استطاع أن ينقل مقر البابا إلى أفنيون ، وهكذا انتصر فيليب على البابوية انتصاراً لم يظفر به من قبل على الكنيسة رجل من غير أهلها ، وأصبح رجال القانون فى فرنسا من هذا الوقت هم الذين يحكمون رجال الدين .

وتنبأ الرئيس الأكبر لفرسان المعبد وهو سائر إلى الخشبة التى يشد عليها من يراد إحراقهم بأن فليب سيتبعه فى خلال عام واحد . وقد صدقت النبوءة ، ولم يمت فيليب وحده فى عام ١٣١٤ بل مات فيها كلمنت أيضاً — ولم يكن الملك

المنتصر قد تجاوز وقتئذ السادسة والأربعين من عمره . وكان الشعب الفرنسى يعجب بشجاعته وصلابة رأيه . وأيده فى صراعه مع بنيفاس ، ولكنه يصب اللعنات على ذكراه ويراه أشد الملوك استبداداً فى تاريخه كله . وكادت انتصاراته تحطم كيان فرنسا . وقد كان تخفيضه قيمة النقد سبباً فى اضطراب الاقتصاد القومى . وكانت الأجور العالية للأراضى الزراعية والأثمان المرتفعة سبباً فى فقر الشعب ، وأضرت الضرائب الفادحة بالصناعة ، كما كان نفى اليهود واللمبارد سبباً فى شل حركة التجارة وفى خراب الأسواق وتعطيل المواسم التجارية . وجملة القول أن الرخاء الذى ازداد فى عهد القديس لويس قد نقص واضمحل فى عهد فليب الذى يتقن جميع ما فى القانون والسياسة من ألاعيب(٨٣) .

وجلس على العرش ثلاثة أبناء لفليب ووراهم الثرى فى خلال الأربعة عشر عاماً التى أعقبت وفاته ، ولم ينجب واحد منهم أبناء يرثون ملكه ، بل ترك شارل الرابع (المتوفى عام ١٣٢٨) بنات ، اتخذ القانون السالى القديم ذريعة لحرمانهم من التاج . وكان أقرب وريث من الذكور للأسرة المالكة هو فليب الفالوازى Philip of Valois ابن أخى فليب الجميل ، فلما تولى الملك انتهت بموته الأسرة المالكة التى تناسلت من الملوك الكابيتيين مباشرة وبدأ عهد أسرة ڤالوا .

وإذا ألقينا نظرة عامة عاجلة على أحوال فرنسا فى ذلك الوقت رأينا أنها تقدمت تقدماً عجيباً فى النواحى الاقتصادية ، والتشريعية ، والتعليمية ، والأدبية ، والفنية . فقد كان نظام رقيق الأرض يختفى من البلاد بخطى سريعة ، لأن نمو الصناعات فى المدن كان يغرى الناس بالنزوح إليها من المزارع ، حتى بلغ سكان باريس مائتى ألف فى عام ١٣١٤ ، وبلغ سكان فرنسا ٢٢,٠٠٠,٠٠٠(٨٤) ؛ ولما قدم برونتو لاتينى إلى فرنسا فاراً من الاضطهاد السياسى فى فلورنس دهش مما كان يسود شوارع باريس فى عهد لويس التاسع من أمن وطمأنينة ، وما كان فى

المدن من تجارة وصناعة ، وما كان فى الريف الجميل المحيط بالعاصمة من حقول وكروم مثمرة [٨٥] .

وأوشكت الطبقتان الناشئتان ، طبقتا الموظفين ورجال الأعمال ، أن تضارعا فى الثراء طبقة رجال الأعمال ، فاضطرت الدولة إلى تمثيل هاتين الطبقتين فى مجلس الطبقات Etats Generaux الذى دعاه فليب الرابع إلى الانعقاد فى باريس عام ١٣٠٢ ليقدم له المعونة الأدبية والمالية فى نزاعه مع بنيفاس . ولم تكن هذه المجالس العامة التى تمثل فيها الطبقات — الأعيان ، ورجال الدين ، والعامة — لم تكن هذه المجالس تدعى إلى الانعقاد إلا فى الضرورات القصوى (١٣٠٢ ، ١٣٠٨ ، ١٣١٤ . . .) وكان المحامون الذين يخدمون الملك بوصفهم مجلسا للدولة Conseil d'etat يوجهونها توجيهاً ماهراً نحو الهدف الذى يريدونه . أما برلمان باريس الذى اتخذ شكله المعروف به فى عهد لويس التاسع فلم يكن جمعية نيابية ، بل كان هيئة مؤلفة من أربعة وتسعين من المحامين ورجال الدين يعينهم الملك ويجتمع مرة أو مرتين فى العام ليكون محكمة عليا . وقد نشأت من أحكامه مجموعه من التشريعات القومية تعتمد على القانون الرومانى لا على شرائع الفرنجة ، وتهب الملكية المعونه الكاملة المستمدة من التقاليد القانونية القديمة ٥

وقد بقيت الفورة العقلية التى سادت عهد فليب الرابع محفوظة لأهل هذا الجيل فى الرسائل السياسية التى كتبها أحد أنصاره — پيير دوبوا Pierre Dubois (١٢٥٥ — ١٣١٢) ، وهو محام مثل كوتانس Coutances فى مجلس الطبقات الذى عقد فى عام ١٣٠٢ . فقد عرض دوبوا فى رسالتين من رسائله « ملتمس مقدم من شعب فرنسا إلى الملك ضد البابا بنيفاس Supplication de peuple de France Contre le pape Boniface (١٣٩٤) » وفى نبذة عن

« استرداد الأرض المقدسة » (١٣٠٦) آراء تكشف لنا عن الثغرة الواسعة التى كانت تفصل فى ذلك الوقت عقلية رجال القانون عن عقلية رجال الكنيسة فى فرنسا . من ذلك ما قاله دوبوا من أن الكنيسة يجب ألا تحبس عليها الأموال ، وأن تجرى عليها من الآن معونة مالية من الدولة ؛ ويجب أن تفصل الكنيسة الفرنسية عن رومة ؛ وأن تجرد البابوية من جميع السلطات الزمنية ، وأن تكون الدولة صاحبة السلطة العليا . وقال أيضاً إن فليب يجب أن يعين إمبراطوراً لدولة أوربا الموحدة ، وأن تكون القسطنطينية عاصمته ؛ وأن تؤلف محكمة دولية لتفصل فيما يشجر بين الأمم من نزاع ، وأن تعلن المقاطعة الاقتصادية على أية أمة مسيحية تحارب أمة مسيحية أخرى ؛ وأن تنشأ فى رومة مدرسة للدراسات الشرقية ؛ وأن يتاح للنساء جميع ما يتاح للرجال من فرص تعليمية ، وأن يتساوين مع الرجال فى جميع الحقوق السياسية[٨٦] .

وكان هذا العصر عصر شعراء الفروسية الذين يتغنون بالحب العذرى فى پروڤانس ؛ وعصر قصاصى الملاحم فى شمالى فرنسا ، وعصر أغنية رولان Chanson de Roland ، وغيرها من الأغانى الرمزية ؛ وأغنية أوكسان ونيقولت Aucassin et Nicolette ، وقصة الوردة Roman de la Rose ، والعصر الذى ظهر فيه المؤرخان اللذان يعدان طليعتى المؤرخين الفرنسيين البارزين وهما ڤلاردوين Villardhouin وچوانڤيل . ونظمت فى هذا العهـــد الجامعات الكبرى فى باريس وأورليان ، وأنچير Angers ، وطولوز (طلوشة) ، ومنپلييه . بدأ هذا العصر بروسلن Roscelin وأبلار Abélare وانتهى بأعلى ما وصلت إليه الفلسفة المدرســـية Scholastic Philosophy . وكان عصر النشوة القوطية — التى ظهرت فى الكنائس الفخمه الكبرى فى سان دنيس ، وتشارتر ، ونوتردام ، وأمين ،

وريمس ، وفى النحت القوطى فى أكمل مظاهره الروحية . وكان الفرنسيون وقتئذ يفخرون فخراً لا نلومهم عليه بوطنهم ، وعاصمتهم ، وثقافتهم ؛ وكانت وطنية قومية تعمل لوحدة البلاد تحل تدريجاً محل النعرة الإقليمية التى كانت تسود عصر الإقطاع ؛ وأخذ الناس ذلك الحين يتحدثون حديث الحب والإعزاز عن « فرنسا الحلوة » ، كما نرى ذلك فى أغنية رولان . وملاك القول أن الحضارة المسيحية قد بلغت عظمتها فى فرنسا وإيطاليا .

الفصل الثانى عشر

أسبانيا : ١٠٩٦ - ١٢٨٥

سار المسيحيون فى فتح أسبانيا بالسرعة التى أمكنتهم منها الفوضى الناشئة من تطاحن الملوك الأسبان ، ومنح البابوات من عاونوا على إخراج المسلمين من أسبانيا لقب المحاربين الصليبيين وامتيازاتهم ؛ وأقبل بعض فرسان المعبد من فرنسا للانضمام إلى أهل البلاد المسيحيين ؛ وتكونت فى القرن الثانى عشر ثلاث جماعات دينية حربية — فرسان كلاترافا Calarrava ، وفرسان سنتياجو ، وفرسان القنطرة ؛ واستولى ألفنسو الأول (الأذفنش) فى عام ١١١٨ ملك أرغونة على مدينة سرقسطة ؛ وفى عام ١١٩٥ هزم المسيحيون ، ولكنهم كادوا يبيدون جيش الموحدين الأكبر فى واقعة العقاب Las Navkas de Tolosa فى عام ١٢١٢ . وكان نصرهم فى هذه الواقعة نصراً حاسماً ، تحطمت على أثره مقاومة المسلمين وسقطت قلاعهم واحدة بعد واحدة فى أيدى المسيحيين : قرطبة (١٢٣٦) ، وبلنسية (١٢٣٨) ، وإشبيلية (١٢٤٨) ، وقادس (١٢٥٠) ، ثم وقف فتح المسيحيين نحو قرنين ليفسح الوقت إلى حروب الملوك .

ولما هزم ألفنسو (الأذفنش) الثامن ملك قشتالة هجم على مملكته ملكا ليون ونبرة وكانا قد وعداه من قبل بأن يخفّا لمساعدته ، واضطر ألفنسو إلى عقد الصلح مع المسلمين ليحمى نفسه من غدر المسيحيين[٨٧] . وأعاد فرنندو الثالث Fernando III (١٢١٧ — ١٢٥٢) توحيد ليون Leon وقشتالة ، ووسع حدود المملكة الكاثوليكية إلى غرناطة ، واتخذ إشبيلية عاصمة لملكه ، وحول مسجدها العظيم إلى كنيسة ، واتخذ القصر Alcazar مسكناً له ، وكانت الكنيسة تعدّه وقت مولده ابناً غير شرعى ، ولكنه عدّته قدساً بعد

وفاته . وكان ابنه ألفنسو (الأذفنش) العاشر (١٢٥٢ — ١٢٨٤) عالماً ممتازاً ، ضعيف العزيمة ؛ وأعجب الأذفنش الحكيم (el Sabio) بما وجده فى إشبيلية من علوم المسلمين ، فتحدى المتعصبين من أهل ملته باستخدام العلماء من العرب واليهود والمسيحيين على السواء لترجمة كتب المسلمين إلى اللغة اللاتينية كى تستطيع أوربا أن تفيد من هذه العلوم . وقد أنشأ هذا الملك مدرسة لعلم الهيئة هى صاحبة « الأزياج الأذفنشية » الخاصة بالأجرام السماوية وحركاتها التى أضحت المرجع الذى يعتمد عليه علماء الهيئة المسيحيون . ونظم هذا الملك هيئة من المؤرخين ، وضعت كتاباً سمته باسمه جمعت فيه تاريخ أسپانيا ، وتاريخاً عاماً واسعاً للعالم كله ، ونظم نحو ٤٥٠ قصيدة ، بعضها بلغة قشتالة ، وبعضها باللغة الجليقية — البرتغالية ؛ ولُحِّنَ الكثير منها ، ولا تزال هذه القصائد باقية حتى اليوم ، أثراً خالداً لأغانى العصور الوسطى . وفاضت حماسته الأدبية فى عدة كتب ألفها هو أو أمر بتأليفها ، فى ألعاب الداما ، والشطرنج ، والنرد ، والموسيقى ، والملاحة ، والكيمياء ، والفلسفة . ولعله أيضاً قد أمر بترجمة الكتاب المقدس من اللغة العبرية إلى القشتالية مباشرة . وقد رفع اللغة القشتالية إلى المرتبة العليا التى أمكنتها من أن تسيطر من ذلك الوقت إلى يومنا هذا على الحياة الأدبية فى أسپانيا ؛ ولقد كان هو فى واقع الأمر منشئ الأدب الأسپانى والبرتغالى ، وعلم التاريخ الأسپانى ، والمصطلحات العلمية الأسپانية . ولكنه لوّث تاريخه الوضّاء بما حاكه من الدسائس للاستيلاء على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وأنفق فى هذه المحاولة كثيراً من أموال أسپانيا ، وعمل على ملء خزائنه بزيادة الضرائب وتخفيض قيمة النقد ، ثم خُلِع ورُفع ابنه إلى العرش ، وعاش بعد سقوطه عامين ، ثم مات محطما كسير القلب .

وارتفع شأن أرغونة بزواج ملكتها پترونلا Petronella من الكونت رامون برنجر Ramon Barenger صاحب برشلونة (١١٣٧) ؛ وحصلت أرغونة

بفضل هذا الزواج على قطلونية المشتملة على أعظم الثغور الأسپانية . وعم الرخاء هذه المملكة الجديدة على يد پدرو الثانى Pedro II (١١٩٦ — ١٢١٣) ، بتأمين الموانى ، والأسواق ، والطرق ، وبصرامته فى تنفيذ القانون على من يعبث بهذه المرافق ، وجعل بلاطه فى برشلونة مركز الفروسية والأسپانية والشعراء الغزليين ، وزاد من بهجته أن كان ملتقى المحبين ، ثم تقرب إلى الله — وضمن لنفسه لقبه — بأن قدم أرغونة إلى إنوسنت الثالث على أن يأخذها منه إقطاعية . وكان ابنه چيم Jaime أوچيمس James الأول (١٢١٣ — ١٢٧٦) فى الخامسة من عمره حين قتلى پدرو فى ميدان القتال ؛ واغتنم أشراف أرغونة هذه الفرصة السانحة ليستعيدوا استقلالهم الإقطاعى ؛ ولكن چيمس تولى زمام الأمور وهو فى العاشرة ، وسرعان ما أخضع الأشراف لسلطان الملك . وكان لا يزال شابا فى سن العشرين حين استولى على جزائر البليار ذات الموقع الحربى المنيع من المسلمين (١٢٢٩ — ١٢٣٥) ، واسترد منهم بلنسبة وأليقانط . وقام فى عام ١٢٦٥ بحركة من محركات الفروسية التى هيأتها له الوحدة الأسپانية ، فاستولى على مرسية من المسلمين وأهداها إلى ملك قشتالة . وكان أكثر حكمة من الفنسو الحكيم ، حتى أصبح بفضل هذه الحكمة أقوى ملوك أسپانيا فى ذلك القرن ، لا يقل فى ذلك عن فردريك الثانى ولويس التاسع ، فقد كان يشبه أولهما فى ذكائه ودهائه ، وبسالته المجردة من الضمير . لكن تحلله من قيود الأخلاق . وكثرة طلاقه نساءه ، وحروبه العوان ، وما كان يلجأ إليه من الأعمال الوحشية فى بعض الأحيان تجعل الفرق بينه وبين القديس لويس كبيراً من هذه الناحية .

وقد دبر المؤامرات للاستيلاء على الجزء الجنوبى الغربى من فرنسا، ولكن لويس استطاع أن يتغلب عليه بقوة صبره وإن كان قد نزل له عن منبلييه . ودبر فى أخريات أيامه مؤامرة أخرى للاستيلاء على صقلية ليتخذها قاعدة حربية، ومركزاً تجارياً ، وليجعل البحر المتوسط الغربى بحيرة أسپانية . ولكن هذا

الحلم لم يتحقق إلا فى عهد ولده . ذلك أن پدرو الثالث (١٢٧٦ — ١٢٨٥) ، تزوج ابنة مانفرد ملك صقلية ابن فردريك ، وظن أن هذه الجزيرة من حقه هو حين استولى عليها شارل كونت أنجو ؛ وبارك البابا استيلاءه عليها ، فما كان من پدرو إلا أن ألغى سيادة البابا على أرغونة ، وارتضى الحرمان البابوى ، وركب البحر إلى صقلية .

وشهدت هذه الفترة فى أسپانيا ما شهدته فى إنجلترا وفرنسا من قيام الإقطاع واضمحلاله . بدأه الأشراف بأن تجاهلوا أو كادوا يتجاهلون السلطة المركزية ، فقد كانوا هم ورجال الدين معفين من الضرائب التى كان عبؤها الباهظ واقعاً على عاتق المدن والتجارة ، ثم انتهوا بأن خضعوا للملوك المسلحين بجيوشهم هم ، تؤيدهم موارد المدن وحاجياتها ، ويعلى من مكانتهم إحياؤهم القانونى الرومانى ، الذى كان يفترض أن الحكم الملكى المطلق من بداثه نظام الحكم . ولم يكن ثمة قانون أسپانى فى بداية تلك الفترة ، بل كانت هناك قوانين متفرقة لكل دولة من دول أسپانيا ، ولكل طبقة من طبقات كل دولة . ثم شرع فردريك الثالث يضع نظاماً جديداً لقانون قشتالة ، وأتم ألفنسو العاشر هذا النظام الذى عرف باسم قانون السبعة الأقسام (Siete Partidas) لأنه كان مقسما سبعة أقسام (١٢٦٠ — ١٢٦٥) ، وهو من أتم القوانين وأعظمها شأناً فى تاريخ التشريع . وقد أسس قانون السبعة الأقسام على قوانين القوط الغربيين الأسپان ولكنه عدل لكى يتفق مع قوانين چستنيان ، وكان أرقى من العصر الذى وُضع فيه ، ولهذا ظل مهملا إلى حد كبير ؛ ولكنه أصبح فى عام ١٣٣٨ قانون قشتالة النافذ ، ثم صار فى عام ١٤٩٢ قانون أسپانيا كلها . ثم أدخل چيمس الأول قانوناً مثله فى أرغونة ، فقد نشرت أرغونة فى عام ١٢٨٣ قانوناً تجاريا وبحريا نافذاً ، وأقامت فى بلنسية ثم فى برشلونة وميورقة بعدئذ محاكم تدعى محاكم « قنصلية البحر » .

وتزعمت أسپانيا بلاد العالم فى العصور الوسطى فى إقامة المدن الحرة والأنظمة

النيابية . ذلك أن الملوك أرادوا أن يحصلوا على تأييد المدن فى صراعهم مع الأشراف ، فمنحوا كثيراً من البلدان عهوداً بالحكم الذاتى . وأصبح استقلال المدن بشئونها شهوة جامحة فى أسبانيا كلها ، فأخذت البلدان الصغرى تطالب بتحررها من البلدان الكبرى أو من الأشراف أو الكنيسة ، أو الملك ؛ فلما أفلحت فى نيل هذه الحرية أقامت مشانقها فى السوق العامة رمزاً لحريتها . وكان يحكم برشلونة فى عام ١٢٥٨ مجلس مؤلف من مائتى عضو ، تمثل كثرتهم الغالبةشئون الصناعة والتجارة[٨٨] . وبلغت سيادة المدن زمنا ما حد الاستقلال ، وأخذت تشن الحرب على المسلمين أو بعضها على بعض ؛ ولكنها بالإضافة إلى هذا الاستقلال ألفت من نفسها أخوة hermandades للتعاون على العمل أو للمحافظة على أمنها وسلامتها . ولما أن حاول الأشراف فى عام ١٢٩٥ أن يخضعوا حكومات المدن المحلية ألفت ثلاث وأربعون مدينة « أخوة قشتالة » ، وتعهدت كلها بالاشتراك فى الدفاع عن استقلالها ، وأنشأت لها جيشاً مشتركا . ولما أن هزمت هذه « الأخوة » الأشراف ، فرضت رقابتها على موظفى الملك وكبحت جماحهم ، وسنت قوانين تراعيها المدن المنضمة إلى هذا الحلف التى بلغ عددها مائة مدينة فى بعض الأحيان .

ولقد جرت عادة الملوك الأسبان من زمن بعيد أن يعقدوا من حين إلى حين جمعية من الأشراف ورجال الدين ؛ وأطلق اسم كورتز Cortes أى المحاكم لأول مرة على إحدى هـــذه الجمعيات التى عقدت فى عام ١١٣٧ . وضم كورتز ليون الذى اجتمع فى عام ١١٨٨ بعض رجال الأعمال يمثلون المدن . وأكبر الظن أن هذا هو أقدم مثل من أمثلة النظم النيابية السياسية فى أوربا المسيحية . ووعد الملك فى هذا المجلس التاريخى ألا يعلن الحرب أو يعقد الصلح ، أو يصدر قراراً إلا بعد موافقة الكورتز[٨٩] . واجتمع فى قشتالة أول مجلس من هذا النوع مؤلف من الأعيان ، ورجال الدين ، ورجال المال من الطبقة الوسطى فى عام ١٢٥٠

أى قبل اجتماع « برلمان » إدورد الأول « النموذجى » بخمس وأربعين سنة . ولم يكن الكورتز هو الذى يضع القوانين بنفسه ، ولكنه كان يصوغ « الملتمسات » ويعرضها على الملك ، وكثيراً ما كان لهذا المجلس سلطان على المال يحمل الملك على أن يوافق على هذه « الملتمسات » . وأصدر كورتز قطلونية فى عام ١٢٨٣ قراراً صادق عليه ملك أرغونة بألا يصدر بعد ذلك الوقت أىّ تشريع قومى بغير رضاء المواطنين (cives) ، ثم صدر قرار آخر يطلب إلى الملك أن يدعو الكورتز إلى الاجتماع كل عام ، وسبقت هذين القرارين مثلهما من القرارات التى أصدرها البرلمـــان الإنجليزى (١٣١١ ، ١٣٢٢) بأكثر من ربع قرن من الزمان . هذا إلى أن الكورتز عيّن أعضاء يختارهم من كل طبقة من الطبقات الاجتماعية يؤلفون چنتا (Junta) أى اتحاداً ليشرف فى أثناء الفترات التى تقع بين أدوار انعقاد الكورتز على تنفيذ القوانين وإنفاق الأموال التى وافق عليها[٩٠] .

وكان من العوامل التى عقدت مشكلة الحكم فى أسبانيا قيام الجبال التى قسمتها أقساماً منفصلة ، وعرقلت تنفيذ قانون عام موحد فى جميع ربوعها . يضاف إلى هذا أن عدم استواء أرضها ، وجفاف هضبتها ، وما كان يحل بها من الدمار حيناً بعد حين بسبب الحروب ، كل هذا قد عطل الزراعة ، وجعل أسبانيا فى معظم أجزائها مراعى للماشية والضأن ؛ وكانت قطعان الضأن الجميلة الصوف تغذى آلاف الأنوال فى البلدان ؛ ولقد حافظت أسبانيا على شهرتها العالمية القديمة بجمال أصوافها . وكانت التجارة الداخلية تقف فى سبيلها صعاب النقل ، واختلاف الموازين والمقاييس والنقد ، غير أن التجارة الخارجية تمت فى موانئ برشلونة ، وطرقونة ، وبلنسية ، وإشبيلية ، وقادس ؛ وكان تجار قطلونية يجوبون جميع الأقطار ؛ وكان لتجار قشتالة فى عام ١٢٨٢ مركز فى بروج لا يضارعه إلا مركز العصبة الهانسية[٩١] . وأصبح التجار والصناع أعظم من يمدون التاج بالمعونة

المالية ، ونظم صعاليك المدن لهم نقابات طوائف Gremios ، ولكن الملوك كانوا يسيطرون سيطرة قوية على هذه النقابات ، وكانت الطبقات العامة تعانى مساوئ الاستغلال الاقتصادى دون أن تستمتع بحق التمثيل النيابى السياسى .

وكانت كثرة الصناع إما من اليهود أو المسلمين المقيمين فى أسبانيا المسيحية . فأما اليهود فقد أثروا فى أرغونة ، وقشتالة ؛ وأسهموا بحظ موفور فى حياة المملكتين العقلية ؛ وكان عدد كبير منهم تجاراً أغنياء ، ولكن قيوداً متزايدة فى شدتها فرضت عليهم فى نهاية هذه الفترة . وأما المسلمون المقيمون فى أسبانيا المسيحية فقد ترك لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، وقسط كبير من الاستقلال بحكم أنفسهم ؛ وكان منهم أيضاً تجار أغنياء ، ودخل عدد قليل منهم فى بلاط الملوك ، كما كان لأرباب الحرف منهم أثر قوى فى العمارة الأسبانية ، وأعمال النجارة الدقيقة ، وأشغال المعادن ، ونتج من أثرهم هذا طراز أسبانى إسلامى أدى إلى استخدام الموضوعات والأشكال الإسلامية فى الفن المسيحى . وقد سمّى ألفنسو السادس نفسه فى إحدى نشواته الدينية « إمبراطور العقيدتين Emperador de los Dos Cultos(٩٢) » . ولكن المسلمين فى أسبانيا المسيحية كانوا يرغمون فى العادة على لبس زى خاص ، وعلى أن تكون منازلهم فى كل مدينة فى حى منعزل عن سائر أحيائها ، وكانت تفرض عليهم ضريبة فادحة أكثر مما تفرض على غيرهم ؛ وأخيراً أشعلت الثروة التى جمعوها بفضل مهارتهم فى الأعمال الصناعية والتجارية نار الحسد فى قلوب الأغلبية المسيحية ؛ فأصدر جيمس الأول عام ١٢٤٧ أمراً بطردهم من أرغونة ، فغادرها أكثر من مائة ألف يحملون معهم حذقهم الفنى ، وتدهورت الصناعة فى أرغونة من ذلك الحين .

وبعث امتزاج الحضارة الأسبانية بجزء غير قليل من الثقافة الإسلامية ، والقوة الناشئة من الانتصار على عدو قديم ، وتقدم الصناعة وازدياد الثروة ، وارتقاء العادات والأذواق ، بعث هذا كله فى الحياة العقلية بأسبانيا نشاطا عظيما ؛

فشهد القرن الثالث عشر نشأة ست جامعات · أسبانيا ، وكان ألفنسو الثانى ملك أرغونة (١١٦٢ — ١١٩٦) أول الشعراء الغزلين الأسبان ، وسرعان ما أصبح هؤلاء الشعراء يعدون بالمئات ؛ ولم يكن هؤلاء يقرضون الشعر فحسب ، بل صاغوا من احتفالات الكنيسة مسرحيات زمنية ، ومهدوا بذلك السبيل إلى روائع لوبى ده ڤيجا Lope de Vega وكلدرون Calderon . وكان من روائع ذلك العصر أيضاً ملحمة السيد Cid ملحمة أسبانيا القومية . وكان خيراً من هذا كله فنون الموسيقى ، والغناء ، والرقص التى كانت تفيض من قلوب الشعب فى المنازل والشوارع ، والتى كانت مصدر العظمة والفخامة فى قصور الملوك . وكانت أول مصارعة للثيران على الطراز الحديث سجلت فى تاريخ أسبانيا هى المصارعة التى أقيمت فى أبيلا عام ١١٠٧ فى حفلة عرش ؛ وقبل أن يحل عام ١٣٠٠ كانت تلك المصارعة من الألعاب العامة فى المدن الأسبانية . وجاء الفرسان الفرنسيون الذين أقبلوا على أسبانيا ليساعدوا أهلها فى حروبهم مع المسلمين ، جاءوا معهم فى الوقت عينه بمبادئ الفروسية واحتفالاتها ، فأصبح احترام النساء ، أو احترام ملكية الرجل دون غيره لامرأة بعينها من مسائل الشرف لا تقل فى هذا عن افتخار الرجل بشجاعته أو استقامته ، وأضحت المبارزة للاحتفاظ بالشرف عاملا أساسيا فى الحياة الأسبانية . وكان امتزاج الدم الأوربى بالدم الأفريقى والسامى ، والثقافة الغربية بالثقافة الشرقية ، والأساليب السورية والفارسية بأصول الفن القوطى ، والخشونة الرومانية بالعواطف الشرقية ؛ كان هذا الامتزاج هو الذى تولد منه الخلق الأسبانى ، والذى جعل الحضارة الأسبانية فى القرن الثالث عشر عنصراً فذاً بارزاً فى موكب الحياة الأوربية .

الفصل الثالث عشر

البرتغال ١٠٩٥

سُرَّ ألفنسو السادس ملك قشتالة وليون فى عام ١٠٩٥ من الكونت هنرى البرغندى أحد الفرسان الصليبيين الأسبان سروراً جعله يزوجه بابنته تريزا ، وأن يجعل من بائنتها مقاطعة من مقاطعات ليون تدعى البرتغال(*) أعطاه إياها إمارة إقطاعية . ولم يكن هذا الإقليم قد استرد من المسلمين إلا قبل ذلك الوقت بإحدى وثلاثين سنة ، وكان المسلمون لا يزالون يحكمون جزأه الواقع جنوب نهر منديجو Mondego . وساء الكونت هنرى أن يكون أقل من ملك ، فأخذ هو وزوجته منذ قرانهما يأتمران ليجعلا من إقطاعياتهما دولة مستقلة ؛ ولما مات هنرى (١١١٢) واصلت تريزا سعيها لنيل الاستقلال ، وعلمت أعيان بلادها وأتباعها أن يفكروا على الدوام فى حريتهم القومية ، وشجعت مدنها على أن تحصن نفسها وتدرس فنون الحرب وأساليبها ، وقادت بنفسها جنودها فى حرب إثر حرب ؛ وكانت فى فترات السلم تحيط نفسها بالموسيقيين ، والشعراء ، والعشاق[٩٣] . وهُزمت ، وأُسرت ، ثم أُطلق سراحها ، وأعيدت إلى إقطاعياتها ؛ وأنفقت المال جزافاً فى حب محرَّم ، وخُلعت عن عرشها ، ونُفيت مع حبيبها ، وماتت فقيرة معدمة (١١٣٠) .

وكان إلهامها واستعدادها هما اللذين أمكنا ولدها أفنسو الأول هنريك Affonsol Henriqnes (١١٢٨ — ١١٨٥) أن يحقق أغراضه : ذلك أن ألفنسو السابع صاحب قشتالة وعده بأن يعترف به حاكماً مستقلا تام السيادة على جميع البلاد التى ينتزعها من المسلمين جنوبى نهر الدوو . فهاجم هنرى المسلمين

(*) هذا الاسم مشتق من ثغرها المسمى پورتس كالى Portus Cale عند الرومان والمسمى اليوم أپرتو Oporto (الثغر) .

بكل ما ورثه عن أبيه من شجاعة وتهور ، وعن أمه من روح عالية وصلابة ، وهزمهم فى أوتريك Outrique (١١٣٩) ، ونادى بنفسه ملكا على البرتغال . وأقنع رجال الدين الملكين بأن يعرضا الأمر على البابا إنوسنت الثالث ، فكان حكمه لصالح قشتالة ، فما كان من أفنسو هنريك إلا أن نقض هذا الحكم بأن عرض مملكته الجديدة على البابا إقطاعياً له . وقبل إسكندر الثالث هذا العرض واعترف به ملكاً على البرتغال (١١٤٣) على شريطة أن يؤدى جزية سنوية إلى كرسى رومة[٩٤] . وواصل أفنسو هنريك حروبه مع المسلمين ، واستولى على سنترية Santarem ولشبونة ، ومد رقعة مملكته إلى نهر التاجه Tagus . ووصلت البرتغال فى عهد أفنسو الثالث (١٢٤٨ — ١٢٧٩) إلى حدودها الأرضية التى لها فى الوقت الحاضر ، وأصبحت لشبونة ثغرها وعاصمتها لموقعها الحربى على مصب نهر التاجه (١٢٦٣) . وتقول إحدى الأساطير القديمة إن يولسيز — أوديسيوس Ulysses - Odysseus ، هو الذى أنشأ المدينة وسماها باسمها القديم يولسپو Ulissipo الذى حرفه الناس فيما بعد بإهمالهم فكان أولسپو Olisipo أو لشبونة Lisbon .

ونغصت سنى أفنسو الثانى الأخيرة الحربُ الأهلية التى شبت نارها بينه وبين ابنه دنيز Dinliz الذى كان يأخذه العجب من أن والده قد طال عمره أكثر مما يجب . وانتقل دنيز من هذه البداية المريبة إلى حكم صالح طويل (١٢٧٩ — ١٣٢٥) عقد فيه الصلح بين ليون وقشتالة بحلف بينهما سببه الزواج ، وامتنع النزاع بينه وبين وارث آخر للعرش بفضل توسط إزبل Isabel ، زوجة دنيز الصالحة ، وترك دنيز مجد الحروب ووجّه جهوده إلى إصلاح حال بلاده من الناحيتين الثقافية والاقتصادية ، فأنشأ مدارس زراعية وعلّم الأهلين طرقاً للزراعة خيراً من الطرق التى كانوا يجرون عليها ، وغرس الأشجار لتمنع تعرية التربة ، وشجع التجارة ، وأنشأ السفن والمدن ، ونظم للبرتغال أسطولا حربياً ، وعقد

معاهدة تجارية مع إنجلترا ، فاستحق بذلك اللقب الذى أطلقه عليه شعبه حباً فيه وهو Re Lavrador أى الملك العامل . والحق أنه كان إدارياً مجداً ، وقاضياً عادلا ، يعين الشعراء والعلماء ، وقد كتب هو أحسن ما كتب من الشعر فى زمنه وبلاده ، وبفضله ارتقت اللغة البرتغالية ، فلم تعد كما كانت من قبل لهجة جاليقية بل أضحت لغة أدبية ؛ وقد صاغ فى أغانيه الرعوية pastorellas أغانى شعبه صياغة أدبية ، وشجع الشعراء الغزلين فى بلاطه على أن يتغنوا بمباهج الحب وآلامه . وكان دنيز نفسه عليما بأحوال النساء ، وكان يفضل أبناءه غير الشرعيين على ابنه الشرعى الوحيد . ولما أن خرج هذا الابن على أبيه ؛ وحشد جيشاً ليخلع به أباه عن عرشه ، ركبت إزبل ، وكانت تعيش بعيدة عن مرح بلاط الملك ومباهجه ، ووقفت بين القوتين المتحاربتين ، وعرضت أن تكون أولى ضحايا نزاعهما وعنفهما . فاستحى زوجها وابنها من فعلهما وامتنعا عن القتال (١٣٢٣) ؛

الباب السادس والعشرون

إيطاليا قبل النهضة

١٠٥٧ – ١٣٠٨

الفصل الأول

صقلية فى عهد النورمان

من أعجب الأشياء أن النورمان قد استطاعوا أن يكيفوا أنفسهم بما ينفق مع البيئات الكثيرة المختلفة التى حلوا بها من اسكتلندة إلى صقلية ، وأنهم أيقظوا بنشاطهم القوى العنيف الأقاليم والشعوب الراقدة ، وأن رعاياهم قد امتصوهم امتصاصاً كاملا فى عدد قليل من القرون حتى اختفوا من التاريخ .

لقد ظلوا مائة عام مفعمة بالاضطرابات يحكمون جنوبى إيطاليا التى كانوا فيها خلفاء للبيزنطيين ، وصقلية التى ورثوها عن المسلمين . فقد شرع روچر جسكارد Roger Guescard يغير على هذه الجزيرة بجماعة قليلة العدد من القراصنة فى عام ١٠٦٠ ، فلم يحل عام ١٠٩١ حتى تم له الاستيلاء عليها ، واعترفت إيطاليا بحكمه فيها عام ١٠٨٥ ، فلما مات (١٠١١) كانت « الصقليتان » – الجزيرة وجنوبى إيطاليا – قد أصبحتا ذواتى شأن فى السياسة الأوربية . وكانت سيطرة مضيق مسينا والخمسين ميلا الفاصلة بين صقلية وأفريقية ، قد أكسبت النورمان ميزات تجارية وحربية عظيمة ، وأضحت مدائن أملنى ، وسلرنو ، وبالرم مراكز للتجارة الناشـــطة مع ثغور البحر المتوسط بما فيها

مراكز التجارة الإسلامية فى بلاد تونس وأسبانيا . وأضحت صقليه وقتئذ إقطاعية بابوية فحولت المساجد الإسلامية كنائس فخمة زاهية ، وحل القساوسة الروم الكاثوليك محل المطارنة اليونان فى إيطاليا الجنوبية .

واتخذ روجر الثانى (١١٠١ — ١١٥٤) مدينة بالرم عاصمة لملكه ووسع أملاكه فى إيطاليا حتى ضمت نابلى وكپوا ، ورفع لقبه فى عام ١١٣٠ من كونت إلى ملك . وكان له من الطموح والشجاعة ، والدهاء وسعة الحيلة ما لعمه ربرت جسكارد ؛ فقد كان نابها يقظاً فى تفكيره ، نشيطاً فى عمله إلى حد جعل الإدريسى المسلم كاتب سيرته يقول عنه إنه قد أنجز وهو نائم مالم ينجزه غيره من الرجال وهم أيقاظ . وكان يقاومه البابوات لأنهم يخشون اعتداءه على الولايات البابوية ، ويقاومه الأباطرة الألمان الذين ساءهم استيلاؤه على أبرزى Abruzzi ، والبزنطيون الذين كانوا يحلمون باسترجاع إيطاليا الجنوبية ، ومسلمو أفريقية الذين كانوا يتوقون إلى استرجاع صقلية . وقد حارب هؤلاء جميعاً ، وكان فى بعض الأحيان يحارب عدة طوائف منهم فى وقت واحد ، وخرج من حربهم ومملكته أعظم مما كانت حين جلس على عرشها ، وقد ضم إليها أملاكاً جديدة هى مدائن تونس ، وصفاقس ، ووهران ، وطرابلس . واستعان بمن فى صقلية من النابهين المسلمين ، واليونان ، واليهود ، لتنظيم أداة حكومية مدنية وبيرقراطية إدارية أفضل مما كان لأية أمة أخرى فى أوربا وقتئذ . وأبقى على نظام الزراعة الإقطاعى فى صقلية ، ولكنه كبح جماح البارونات بفضل المحكمة الملكية التى كانت قوانينها تفرض على جميع الطبقات . وقد أصلح نظام صقلية الاقتصادى بأن جاء إليها بناسجى الحرير من بلاد اليونان ، ووسع نطاق التجارة بتأمين الناس على حياتهم فى حلهم وترحالهم وعلى أملاكهم . ومنح المسلمين واليهود ، واليونان ، والكاثوليك حريتهم الدينية واستقلالهم الثقافى ، وفتح أبواب المناصب العليا لذوى المواهب على اختلاف أديانهم وطبقاتهم ، ولبس هو الثياب الإسلامية التى يلبسها رجال الدين

المسلمون ، وعاش معيشة ملك لا تيني فى بلاط شرقى . وظلت مملكته جيلا من الزمان « أغنى دول أوربا وأعظمها حضارة[٢] » ، وكان هو أكثر ملوك زمانه استنارة[٣] ، ولولاه لما وجد فردريك الثانى ، وهو ملك أعظم منه .

وفى وسعنا أن نعرف ما كانت عليه صقلية فى عهد النورمان باطلاعنا على كتاب رجارى[*] للإدريسى . فقد كان فيها فلاحون أقوياء مجدون يفلحون أرضها الخصبة ويخرجون الزرع ويمونون المدن . نعم إنهم كانوا يعيشون فى أكواخ حقيرة ويعانون ما يعانيه النافعون على أيدى الماهرين من استغلال ، ولكن تقواهم المشرقة كانت تكسب حياتهم كرامة ، وأعيادهم وحفلاتهم وأغانيهم كانت تملأ هذه الحياة بهجة وبهاء . فقد كان لكل موسم من مواسم السنة الزراعية رقصه وأغانيه ، وكان يصحب موسم جنى الكروم أعياد خمرية تجمع بين الساترناليا Saturnalia القديمة وحفلات التنكر الحديثة ، وحتى الفقراء أنفسهم بنى لهم الحب ، والأغانى الشعبية التى تختلف من الفحش والهجاء إلى الأناشيد الشعرية الموفية على الغاية القصوى من الحنان والعفة . ويقول الإدريسى عن بلدة « شنت ماركو »[**] (إن لها بادية ومزارع واسعة ومياه نابعة) وينبت بها من جميع جهاتها البنفسج الزكى الرائحة العطر الفائحة .

وعادت مسينا ، وقطانيا ، وسرقوسة إلى الازدهار كعهدها أيام القرطاجنيين واليونان ، والرومان ؛ وخيل إلى الإدريسى أن بالرم « هى المدينة السنية العظمى والمحلة البهية الكبرى ، والمنبر الأعلى فى بلاد الدنيا ، وإنها فى المفاخر النهائية

(*) هكذا يسميه المستشرقون أما اسمه الحقيق فهو « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » لأبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس ، وتوجد منه فى دار الكتب المصرية نسخة مطبوعة فى إيطاليا ومعها ترجمتها باللغة الإيطالية ، وهى التى نقلنا عنها النصوص الوارة هنا . (المترجم)

(**) هكذا يكتبها الإدريسى فى نزهة المشتاق والجزء المحصور بين قوسين غير موجود فى الأصل الإنجليزى ولكنا نقلناه للفائدة . (المترجم) .

القصوى ذات المحاسن الشرائف ودار الملك فى الزمان المؤتنف والسالف »(*)

وقال عنها « ولها حسن المبانى التى سارت الركبان بنشر محاسنها فى بناءاتها ودقائق صناعاتها ، وبدائع مخترعاتها » وقال عن شارعها الأوسط : « فالسماط الأوسط يشتمل على قصور منيفة ، ومنازل شامخة شريفة ، (وكثير من المساجد) والفنادق ، والحمامات ، وحوانيت التجار الكبار . . . وشيدت بنيانها ونمقت بأعجب المغتربات ، وأودعت بدائع الصفات ، فشهد لها بالفضل المسافرون ، وعلّى فى وصفها المتجولون ، وقطعوا قطعا ألا مبانى أشرف من مغانيها ، وأن قصورها مشارف القصور ، وأن دورها مفازة الدور » . « ومبانيها ومتنزهاتها حسنة تعجز الواصفين ، وتبهر عقول العارفين ، وهى بالجملة فتنة للناظرين »(**) .

ولما شاهد ابن جبير الرحالة المسلم مدينة بالرمة فى عام ١١٨٤ صاح قائلا : إنها أم الحضارة والجامعة بين الحسنين غضارة ونضارة . . . تروق الأبصار بحسن منظرها البارع ، عجيبة الشأن . . . قد زخرفت فيها لملكها دنياه . تنتظم بلبتها قصوره انتظام العقود فى نحور الكواعب »(†) .

وكان من يزورون بالرم يدهشون من كثرة اللغات المختلفة التى يتكلمها أهلها ، ومن اختلاط الأجناس والأديان اختلاطاً لا يعكر صفوه ما بينهم من اختلاف ، ومن تجاور الكنائس المسيحية ، والمعابد الإسرائيلية ، والمساجد

(*) هذا الوصف هو المقابل لقول المؤلف إن الإدريسى يصف بالرم بأنها اجمل مدينة فى العالم . (المترجم)

(**) أضاف مؤلفنا هذا الجزء الأخير من وصف الإدريسى لبالرم فى آخر ما نقله عنه ، ولكن موضعه الصحيح من وصف الإدريسى قبل الجزء السابق . (المترجم)

(†) نقلنا هذا النص من كتاب رحلة ابن جبير المعروفة باسم « رسالة اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك » تأليف أبى الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنانى البلنسى وهو يسميها بالرمة ، وتشتهر باسم المدينة ، ولكن الإدريسى يكتبها بالرم من غير تاء . (المترجم)

الإسلامية واختلاطها بعضها ببعض ، من ثياب أهلها الرشيقة ، وشوارعها الكثيرة النشاط والحركة ، وحدائقها الهادئة ، وبيوتها المريحة .

وكانت فنون الشرق تستخدم فى تزيين القصور والبيوت التى يقيم بها الفاتحون من أهل الغرب . كذلك كانت أنوال بالرم تنسج الأقمشة الحريرية الفخمة والثياب المطرزة بالذهب ، وكان صناع العاج يصنعون أقداحاً صغيرة مشكلة أو محفورة ذات صور خيالية غريبة أو فنية دقيقة . كما كان صناع الفسيفساء يغطون أرض البيوت ، وجدرانها ، وسقفها بالرسوم التى تمثل موضوعات شرقية . وكان المهندسون والصناع اليونان والمسلمون يشيدون الكنائس ، والأديرة ، والقصور ، فلا يظهر فى هندستها أو فى زخرفها أثر للطراز النورمانى بل تجمع بين ما تركه الطراز البيزنطى أو العربى من آثار الألف العام السابقة . وشاد الفنانون اليونان فى عام ١١٤٣ ديراً للراهبات اليونانيات بأموال وهبها چورج أمير بحرية روچر وأهداه إلى سانتا ماريا دل أمرجليو Santa Maria dell Ammiraglio ولكنه يعرف الآن بالمرتورانا Martorana نسبة إلى مؤسسه . ولقد جدد بناء هذا الدير مراراً كثيرة حتى لم تبق إلا القليل من عناصره التى كان عليها فى القرن الثانى عشر . ويحيط بقبته الداخلية نقش عربى من ترنيمة مسيحية يونانية . وأرض الدير من الرخام البراق المختلف الألوان ، وبه ثمانية عمد من الحجر السماقى الملون تحيط بأقباء ثلاث ؛ وتيجان الأعمدة منحوتة نحتاً جميلا ؛ أما الجدران ، والأجزاء المثلثة التى بين العقود ، والقباب فتتلألأ فيها الفسيفساء الذهبية المشتملة على صورة شهيرة للملك السكورد فى قبة المحراب . وأجمل من هذا الدير نفسه كنيسة القصر الخاصة Capella palatina التى بدأها روچر الثانى فى عام ١١٣٢ ، فكل ما فى هذه الكنيسة غاية فى الرونق والجمال : من رسوم الأرضية الرخامية البسيطة ، إلى العمد الرفيعة الدقيقة البالغة حد الكمال ، وتيجانها المختلفة الأشكال ، وقطع الفسيفساء البالغ عددها ٢٨٢ قطعة والتى تملأ كل فراغ ، وصورة المسيح الرهيبة

القائمة فوق المذبح والتى تعد من أروع ما فى العالم من نقوش الفسيفساء ، يعلو هذا كله سقف من الخشب على شكل قرص العسل ، منحوت أو مذهب ، أو مرسوم عليه بالألوان صور فيلة ، وريم ، وغزلان ، و « ملائكة » ، أكبر الظن أنها كانت صوراً مما يحلم به المسلمون فى جنات النعيم . وليس فى فنون العصور الوسطى أو الحديثة كنيسة ملكية تضارع هذه التحفة الفنية التى هى أثمن جوهرة فى صقلية النورمانية .

ومات رچار (روچر) فى عام ١١٥٤ وهو فى التاسعة والثلاثين من عمره . واستحق ابنه وليم الأول (١١٥٤ — ١١٦٦) لقب « الخبيث » ؛ ويرجع بعض السبب فى هذا إلى أن سيرته قد كتبها أعداؤه ، وبعضه الآخر إلى أنه ترك مقاليد الحكم لغيره وعاش هو مترفاً منعما بين الخصيان والمحاظى . وثار فى أيامه المسلمون فى تونس على المسيحيين ، وقضوا على سلطان النورمان فى أفريقية . وعاش وليم الثانى (١١٦٦ — ١١٨٩) عيشة أشبه ما تكون بعيشة وليم « الخبيث » ، ولكن كاتبى سيرته لقبوه وليم « الطيب » ، ولعلهم لم يكن لهم غرض من وراء هذه التسمية إلا أن يحولوا دون اختلاط الأسماء . وأراد أن يكفّر عن انحلال أخلاقه بما أنفق من المال فى عام ١١٧٦ على دير منريل Monreale — « الجبـــل الملكى » — وكنيسته وهما على بعد خمسة أميال فى خارج پالرم . ويتألف بناء هذا الدير وتلك الكنيسة من خليط مشوّه من القواعد والعمد المتشابكة ؛ أما الأروقة فذات قوة وجلال ، وجمال ، ونقوش الفسيفساء ذائعة الصيت رغم فجاجتها ؛ وتيجان العمد غنية بالنقوش المحفورة التى تمثل الحياة الواقعية — فيها نوح ثَمِل ونائم ، وراعى خنازير يعنى بخنزير ، وبهلوان واقف على رأسه .

ولعل ما انغمس فيه ملوك صقلية النورمان من النعم قد أوهن بنيتهم وقصر آجالهم ، فقد ماتت أسرة روچر الثانى ميتة غير شريفة بعد أربعين عاماً من موته ،

ولم يعقب وليم الثانى أبناء فاختير للجلوس على العرش ابن غير شرعى لأحد أبناء روچر الثانى يدعى تانكرد Tancaed (١١٨٩) . وكان هنرى السادس إمبراطور ألمانيا قد تزوج فى هذه الأثناء من كنستانس Constance ابنة عمه وليم الثانى . وكان يتوق إلى توحيد إيطاليا كلها تحت تاج الإمبراطور ، فطالب بعرش الصقليتين ؛ وعقد حلفاً مع پيزا وجنوى اللتين كانت تجارتهما ترزح تحت سيطرة النورمان على وسط البحر المتوسط ؛ وفى عام ١١٩٤ وقف أمام پالرم بقوة عظيمة لا تقهر ، وأقنع أهلها بأن يفتحوا له أبوابها ، وتوّج فيها ملكا على صقلية . ولما مات (١١٩٧) ترك عروشه لابنه فردريك البالغ من العمر ثلاث سنين ، والذى صار فيما بعد أقوى الملوك المستبدين وأعظمهم استنارة فى القرن الثالث عشر الغنى بملوكه الأقوياء .

الفصل الثانى

الولايات البابوية

كانت دولة مدينة بنفنتو تقوم فى شمالى إيطاليا النورمانية ، وكان يحكمها أدواق من أصل لمباردى . وكان من ورائها الأراضى التى تخضع لحكم البابوات الزمنى — « ميراث بطرس » — وتشمل أنيانى ، وتيفولى ، وروما ، ثم تمتد من المدينة الأخيرة إلى پروجيا Perugia .

وكانت رومة مركز المسيحية اللاتينية ، ولكننا لا نستطيع أن نعدّها أنموذجاً للمسيحية ؛ ذلك أنه لم تكن فى العالم المسيحى مدينة أقل منها احتراماً للدين ، إلا باعتباره إحدى مصالحها المكتسبة ، ولم يكن لإيطاليا فى الحروب الصليبية نصيب كبير ، فلم تشترك مدينة البندقية مثلا فى الحرب الصليبية الرابعة إلا لتستولى على القسطنطينية ، ولم تكن المدن الإيطالية تنظر إلى هذه الحروب إلا على أنها فى الأغلب الأعم فرص تمكنها من إنشاء ثغور ، وأسواق ، وتجارة فى بلاد الشرق الأدنى . وقد أجل فردريك الثانى حملته الصليبية إلى أبعد أجل مستطاع ، ثم أقدم عليها وفى قلبه أضعف قسط من العقيدة الدينية . ولسنا ننكر أنه كان فى رومة رجال ذوو روح دينية رحيمة يساعدون الحجاج على تعهد أضرحة القديسين والاحتفاظ بها ، ولكن أصوات هؤلاء الرجال لم تكن تعلو على صخب السياسة وضجيجها .

وإذا ماغضضنا النظر عن البابوية ، وجدنا رومة فى ذلك الوقت مدينة فقيرة ، فقد كان انتهاب النورمان إياها خاتمة ستة قرون من الدمار والإهمال ، نقص فيها عدد السكان إلى أربعين ألفاً أو نحوها ، وكان عددهم فى العهد القديم مليوناً . ولم تكن مركزاً للتجارة أو الصناعة ؛ وبينا كانت مدن إيطاليا الشمالية تتزعم الثورة

الاقتصادية ، كانت الولايات البابوية لاتزال تتلكأ متوانية فى النظام الزراعى الساذج ؛ فكانت حدائق الخضر ، والكروم ، وحظائر الماشية تختلط بالبيوت والخربات داخل أسوار أوريليا . وكانت الطبقات الدنيا من أهل العاصمة تعيش إما من صناعاتها اليدوية أو من الصدقات الكنسية ؛ أما الطبقات الوسطى فكانت خليطاً من التجار ، والمحامين ، والمدرسين ، ورجال المصارف ، وطلاب العلم والقساوسة المقيمين فيها أو الذين يأتون لزيارتها ؛ وأما الطبقة العليا فكانت من كبار رجال الدين وكبار الملاك الزراعيين . وكانت العادة الرومانية القديمة ، عادة امتلاك الأرض فى الريف والإقامة فى المدن ، لا تزال سائدة . وكان أشراف الرومان قد تجردوا من زمن بعيد من النزعة الوطنية العامة التى تؤلف بين قلوبهم وتدعوهم إلى الدفاع عن أنفسهم ، فانقسموا لهذا السبب شيعاً وأحزاباً تتزعمها الأسر الغنية القوية — الفرنجيپانى Frangipani ، والأرسينى Orsini ، والكولنا Colonna ، والبيرليونى Pierleoni ، والكيتانى Caetani ، والسافلى Savilli ، والكرسى Carsi ، والكنتى Conti ، والأنيبلدى Annibaldi . وجعلت كل أسرة مسكنها قلعة حصينة ، وسلحت أفرادها وأتباعها ، وكثيراً ما كانت تشتبك هى وغيرها من الأسر فى شجار فى الشوارع ، وتشتبك من حين إلى حين فى حروب أهلية . أما البابوات فلم تكن لهم إلا أسلحة روحية قلما يخشاها أحد فى رومة ، وأخذوا يكافحون عبثاً ليحفظوا النظام فى المدينة . وكثيراً ما كانوا يتلقون فيها الإهانات ، ويعتدى عليهم فى بعض الأحيان . وفر كثير منهم إلى أنانيى ، أو فيتربو Viterbo أو بروچيا بل إن منهم من فروا إلى ليون وأخيراً إلى أفنيون لينجوا من الموت أو يعيشوا فى هدوء وسلام .

وكان البابوات يحلمون بأن يقيموا حكماً دينياً تكفى أن تكون فيه كلمة الله ، كما يفسرونها هم ، هى القانون ؛ ولكنهم وجدوا أنفسهم لاحول لهم ولا طول بين استبداد الأباطرة وأجركية الأشراف ، ودمقراطية الشعب . وحافظت بقايا السوق

الكبرى والكبتول بين الرومان على ذكرى جمهوريتهم القديمة ، وكانت جهود تبذل من حين إلى حين لإعادة نظم الحكم الذاتى وأشكاله القديمة . وظل الأشراف القدماء يسمون الشيوخ وإن كان مجلس الشيوخ قد اختفى من الوجود . وكان القناصل ينتخبون أو يعينون ، وإن لم يكن بيدهم شيء من السلطان ، وكانت بعض مخطوطات قديمة ، نسيت أو كادت تنسى ، تحفظ للبلاد الشرائع الرومانية . وبعث قيام المدن الحرة فى شمالى إيطاليا فى أهل رومة روحاً جديدة ، فأخذوا يطالبون بالعودة إلى الحكم الذاتى المدنى لا الدينى ، واختاروا فى عام ١١٤٣ مجلس شيوخ مؤلف من ستة وخمسين عضواً ، وظلوا عدة سنين بعد هذا التاريخ يختارون له أعضاء جدداً فى كل عام . وكانت أحوال ذلك الوقت تتطلب صوتاً يرتفع بتغييرها ، ووجدت هذا الصوت فى رجل من أهل بريشيا Brescia يدعى أرنولد Arnold . وتقول الرواية المتواترة إنه درس على أبيلار Abelard فى فرنسا ثم عاد إلى بريشيا راهبا ، وبلغ من زهده وتقشفه أن وصفه برنار بأنه رجل « لا يأكل ولا يشرب » . وكان شديد التمسك بالدين القويم ، ولكنه ينكر صحة العشاء الربانى إذا قدمه القساوسة المذنبون . وكان يرى أن مما يجافى القانون الأخلاقى أن يكون للقس أملاك ، ويطالب بأن يعود رجال الدين إلى الفقر الذى كان يتصف به الحواريون ، وأشار على الكنيسة بأن تنزل للدولة عن جميع أملاكها المادية وسلطانها السياسى . وأدانه إنوسنت الثانى فى مجلس لاتران عام ١١٣٩ وأمره أن يلزم الصمت ، ولكن البابا أوجنيوس الثالث Eugenius III عفا عنه على شريطة أن يحج إلى عدد من الكنائس فى رومة . وكان هذا خطأ كريماً من البابا ؛ لأن منظر معالم الجمهورية القديمة ألهب خيال آرنلد ، فأهاب بالرومان وهو واقف وسط خرائب المدينة بأن ينبذوا حكم رجال الدين ، ويعيدوا الجمهورية الرومانية (١١٤٥) . وافتتن الشعب بحماسته فاختار قناصل وتريبيونين ليكونوا هم حكامه الحقيقيين ، وأقام طائفة من هيئة من الفرسان ليكونوا قادة

فى جيش إقليمى للدفاع . وسكر أتباع آرنلد بخمرة هذا النصر الهين فلم يكتفوا بنبذ سلطة البابوات الزمنية بل نبذوا أيضاً سلطة أباطرة الدولة الرومانية الشرقية الألمان فى إيطاليا . ثم ذهبوا إلى أبعد من هذا فقالوا إن الجمهورية الرومانية يجب ألا تحكم إيطاليا وحدها بل أن تحكم « العالم » كما كانت تحكمه فى الزمن القديم(٥) . وأعادوا بناء الكبتول ، واستولوا على كنيسة القديس بطرس ، وأحالوها قلعة ، واستولوا على الفاتيكان ، وفرضوا الضرائب على الحجاج ؛ وفر أوچنيوس الثالث إلى ڤيتربو وپيزا (١١٤٦) بينا كان القديس برنار يصب اللعنات من كليرڤو Clairvaux على شعب رومة ، ويذكرهم بأن كيانهم موقوف على وجود البابوية ، وظلت حكومة رومة الذاتية عشر سنين تحكم مدينة القياصرة والبابوات .

واستجمع أوچنيوس الثالث شجاعته وعاد إلى رومة فى عام ١١٤٨ ، وقصر واجباته وقتاً ما على الواجبات الروحية ، وأخذ يهب الصدقات ، وكسب بذلك قلوب الشعب . وغضب خليفته هدريان الرابع أشد الغضب من مقتل كردينال فى شجار عام ، فأصدر قراراً بحرمان العاصمة (١١٥٥) ، وخشى مجلس الشيوخ أن تقوم فى المدينة ثورة لا يستطيع الأشراف تحمل آثارها ، فألغى الجمهورية واستسلم إلى البابا . واختبأ آرنلد المطرود من حظيرة الكنسية فى كمپانيا ؛ ولما أن اقترب فردريك بربرسا من رومة طلب إليه هدريان أن يقبض على هذا الرجل المتمرد ؛ وكشف مخبأ آرنلد وقبض عليه ، وأسلمه الإمبراطور إلى صاحب شرطة البابا فى رومة ، وشنقه (١١٥٥) . ثم حرقت جثته ، وألقى برماده فى نهر التيبر « خشية أن يجمعها الناس ويكرموها بوصفها رماد شهيد » كما يقول أحد معاصريه(٦) . وعاشت آراؤه بعد موته ، وعادت إلى الظهور عند زنادقة لمباردى الپاترين Paterine والوالدنسيين Waldensian ، وعند الألبجنسيين فى فرنسا ، وفى مرسليوس Marsilius من أهل پدوا ، وفى زعماء حركة الإصلاح . وظل مجلس الشيوخ قائماً حتى عام ١٢١٦ حين أفلح إنوسنت الثالث فى أن

يستبدل به شيخاً أو شيخين من المناصرين لقضية البابا . وظلت سلطة البابوات الزمنية قائمة حتى عام ١٨٧٠ .

وكانت الولايات البابوية فى أوقات مختلفة تشمل أمبريا Umbria بما فيها اسپليتوا Spoleto وپروچيا ؛ وأرض التخوم المشتملة على أنكوتا الواقعة على البحر الأدرياوى ، ورومانيا Romagna ، أو الإقليم الخاضع لحكم رومة والمشتمل على مدائن رمينى Rimini ، وإمولا Imola ، وراڤنا Ravenna ، وبولونيا Bologna ، وفرارا ferrare . وظلت راڤنا فى هذا الوقت آخذة فى الانحطاط ، بينا أخذت فرارا تزداد شهرة بحكمة زعمائها من آل إست Este . وقامت فى بولونيا حياة ناشطة قوية فى ظل حكومتها الذاتية بزعامة رجالها القانونيين العظام خريجى جامعاتها . وكانت من أولى المدائن التى اختارت لها حاكماً ذا سلطان Podesta يتولى الشئون الداخلية فى حكومتها الذاتاة ، ورئيساً Capitano ليشرف على شئونها الخارجية . وكانت تشترط فيمن يتولى الشئون الداخلية صفات خاصة : كان يجب أن يكون من الأشراف ، وأن يكون من غير أهل المدينة ، وأن تزيد سنه على ستة وثلاثين عاما ؛ وألا تكون له أملاك فى داخل نطاق البلدة ذات الحكم الذاتى ، وألا يكون له أقارب بين الناخبين ، وألا يكون من أقارب الحاكم السابق أو من موطنه . وكانت هذه القواعد الغريبة التى وضعت لتضمن النزاهة فى إدارة شئون المدينة هى المتبعة فى كثير من المدن الإيطالية ذات الحكم الذاتى . أما « رئيس الشعب (قبطانه) » فلم يكن يختاره مجلس المدينة ، بل يختاره حزب الشعب الذى تسيطر عليه نقابات التجار الطائفية ؛ ولم يكن يمثل الفقراء بل كان يمثل طبقة رجال الأعمال . وقد بسط سلطانه فى القرون التالية بإضعاف سلطان البودستا ، وذلك بعد أن تفوق رجال الطبقة الوسطى الرأسمالية على الأشراف فى الثروة والنفوذ .

الفصل الثالث

البندقية تنتصر : ١٠٩٦ — ١٣١١

كان إقليم ڤنيتو Veneto يقع إلى شمال كرارا ونهر البو ، وكان هذا الإقليم يفخر بمدائنه الهامة — البندقية ، وترڤيزو ، وپدوا ، وڤيسنزا ، وڤيرونا .

وفى هذا العصر بالذات عظمت قوة البندقية ، فأمكنها حلفها مع بيزنطية من أن تصل إلى ثغور بحر إيجه والبحر الأسود ، حتى ليقال إن بنيها الذين كانوا فى القسطنطينية فى القرن الثانى عشر زادوا على مائة ألف ، وإنهم كانوا يشيعون الرعب فى أحد أحياء المدينة بوقاحتهم ومشاحناتهم . ثم انقلب مانيول Manuel إمبراطور الروم فجاءة على البنادقة المقيمين فى عاصمته ، وألقى القبض على عدد كبير منهم ، وأمر بأن تصادر بضائعهم كلها (١١٧١) ، وكان أهل جنوى هم الذين حرضوه على هذا العمل غيرة منهم وحسداً . وأعلنت البندقية الحرب ، وأخذ أهلها يعملون ليلا ونهاراً لإنشاء أسطول ، فلما كان عام ١١٧١ قاد الدوچ ڤيتالى ميشيلى الثانى Doge Vitale Michieli II عمارة بحرية مؤلفة من ١٣٠ سفينة لقتال جزيرة عوبية Euboea ليتخذها قاعدة بحرية لأعماله المقبلة ضد المضيقين . ولكن جنوده أصيبوا وهم على سواحل عوبية بمرض يقال إن سببه تسمم اليونان موارد الماء فى الجزيرة ! وهلك منهم آلاف مؤلفة بلغ من كثرتها أن السفن لم تجد بعد ذلك من يحاربون على ظهرها . وقاد الدوچ عمارته عائداً إلى البندقية ، وفشا الطاعون فيها وأهلك عدداً كبيراً من أهلها ؛ ولما أن اجتمعت الجمعية وجهت اللوم إلى الدوچ على هذه الكوارث ، وأصيب بطعنة قاتلة (١١٧٢)[٧] . ومن واجبنا ألا نغفل عن هذه الحوادث حين ندرس ما حدث فى الحملة الصليبية الرابعة ، والثورة الألجركية التى غيرت دستور البندقية .

وخشى كبار التجار أن تنهار إمبراطوريتهم التجارية إذا دامت هذه الهزائم، فعقدوا النية على أن ينتزعوا من الجمعية العمومية حق انتخاب الدوج، وأن ينشئوا مجلساً من صفوة الأهلين يكون أقدر على بحث شئون الدولة وتصريفها ، وعلى الوقوف فى وجه أهواء الشعب واستبداد الدوج ، ثم أقنعوا أكابر قضاة الجمهورية الثلاثة بأن يعينوا لجنة تضع للبلاد دستوراً جديداً . وأوصت هذه اللجنة فى تقريرها أن يختار كل حى من أحياء دولة المدينة الستة اثنين من كبار الأهلين يختار كل منهم أربعين من خيرة الرجال ، وأن يتألف من الأربعمائة والثمانين عضواً الذين يختارون على هذا النحو مجلس أعظم Maggior Conscglio يكون هو الهيئة التشريعية العامة للأمة ثم يختار المجلس الأعظم ستين عضواً من أعضائه يكونون مجلس الشيوخ الذى يشرف على الشئون التجارية والمالية والعلاقات الخارجية . وكان من هذه التوصيات ألا تجتمع الأرنجو Arrengo أى الجمعية الشعبية إلا للتصديق على اقتراحات الحرب والسلم أو رفضها ، وأن يختار رجل من كل حى من الأحياء الستة يتألف منهم جميعاً مجلس خاص يحكم الدولة إذا ما أصبح عرش الدوج شاغراً ، وكان لا بد من أن يقر هذا المجلس كل عمل حكومى يقوم به الدوج لكى يصبح هذا العمل مشروعاً . واختار أول مجلس أعظم انتخب بالطريقة السالفة الذكر أربعة وثلاثين من أعضائه ، اختاروا من بينهم أحد عشر عضواً ، عقدوا اجتماعاً علنياً فى كنيسة سان ماركو اختاروا فيه الدوج (١١٧٣) . ورفع الشعب عقيرته باحتجاج لحرمانه من حق اختيار رئيس الدولة ، ولكن الدوج الجديد وجه الاضطراب وجهة أخرى بأن نثر النقود على الجموع المحتشدة[٨]، ولما اختار المجلس الأعظم أنريكو دندولو Enrico Dandolo دوجاً فى عام ١١٩٢ طلب إليه أن يقسم فى يمين تتويجه أن يطيع جميع قوانين الدولة ، وبهذا أضحت ألجركية التجارة صاحبة السلطة العليا فى البلاد .

وأثبت دندولو ، وكان وقت اختياره فى الرابعة والثمانين من عمره ، أنه من أقدر الزعماء فى تاريخ البندقية ؛ فقد استطاعت البندقية فى أيامه ، وبفضل سياسته المكيڤلية ، وبسالته الشخصية ، أن تثأر لنفسها من الكارثة التى حلت بها عام ١١٧١ ، فتستولى على القسطنطينية وتنهبها فى عام ١٢٠٤ ، وبهذا أصبحت البندقية القوة المسيطرة على الجزء الشرقى من البحر المتوسط ، والبحر الأسود ؛ وانتقلت الزعامة التجارية فى أوربا من بيزنطية إلى إيطاليا . وساعد أهل چنوى فى عام ١٢٦١ اليونان على استعادة القسطنطينية ، وكوفئوا على عملهم هذا بأن منحوا فيها ميزات تجارية ؛ ولكن أسطول البندقية هزم أسطول چنوى بالقرب من صقلية بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت ، وأرغم إمبراطور الروم على أن يرد إلى البندقية مركزها الممتاز فى عاصمة ملكه .

وتوجت الألجركية الظافرة هذه الانتصارات الخارجية بضربة دستورية جديدة . فقد عرض الدوج پيترو جرادنجو Pietro Gradenigo فى عام ١٢٩٧ على المجلس الأعظم اقتراحاً ، حمله على الموافقة عليه ، يقضى بألا يختار لعضوية هذا المجلس إلا من كان من أعضائه منذ عام ١٢٩٣ أو كان من أبنائهم الذكور(٩) . وكان من أثر « إغلاق المجلس » فى وجه المواطنين أن حرمت الكثرة الغالبة من الشعب من الوظائف العامة ، وأن وجدت طبقة مغلقة لايستطيع الانتماء إليها إلا أبناء أعضائها . وأنشئ « **كتاب ذهبى** » Libro d'oro لتسجيل عقود الزواج والوفيات بين أفراد هذه الطبقة الأرستقراطية ليضمن به نقاءها واحتكارها للسلطان ، وبهذا جعلت الألجركية التجارية نفسها ألجركية المولد . ولما أن دبر الشعب ثورة على هذا الدستور الجديد ، سمح لزعمائه بأن يدخلوا قاعة المجلس ثم شنقوا من فورهم (١٣٠٠) .

ولا يسعنا إلا أن نقر بأن هذه الألجركية السافرة القاسية قد أحسنت الحكم ، فقد كانت فى محافظتها على الأمن والنظام ، وفى حسن توجيهها للسياسة العامة ،

وفى العمل على استقرار القانون وبسط سلطانه ؛ تفضل غيرها من المجتمعات الإيطالية فى العصور الوسطى . وسبقت القوانين التى سنتها البندقية لتنظيم أعمال الأطباء والصيادلة أمثالها فى فلورنس بنصف قرن من الزمان ؛ وحرمت القوانين فى عام ١٣٠١ قيام الصناعات المضرة بالصحة بين المساكن ، وأخرجت من البندقية جميع الصناعات التى تنفث الدخان المؤذى فى الهواء . وكانت قوانين الملاحة شديدة مفصلة ، كما كانت جميع الواردات والصادرات خاضعة لرقابة الدولة وسيطرتها ، وكانت التقارير الدبلوماسية تعنى بأحوال التجارة أكثر من عنايتها بالشئون السياسية ، وأصبحت الإحصاءات الاقتصادية للمرة الأولى جزءاً من الحكم فى هذه المدينة[١٠] .

وكادت الزراعة تكون غير معروفة فى البندقية ، أما الصناعات اليدوية فكانت متقدمة لأن هذه المدينة استوردت من مدن البحر المتوسط القديمة فنوناً وحرفاً كادت تقضى عليها الاضطرابات السياسية فى الغرب ، واشتهرت مصنوعات الحديد ، والشبه ، والزجاج ، والأقمشة المنسوجة من خيوط الذهب والحرير ، واشتهرت كلها فى القارات الثلاث ، وأكبر الظن أن بناء القوارب للتنزه ، أو الاتجار ، أو الحرب كان أعظم صناعات البندقية . وقد وصلت هذه الصناعة إلى مرحلة الإنتاج الرأسمالى بالجملة ، والتمويل الجماعى ، وكادت تصل إلى المرحلة الاشتراكية لسيطرة أكبر عميل لهذه الصناعة وهو الدولة . وكانت سفائن جميلة المنظر عالية الجؤجؤ ، منقوشة الأشرعة ، فى بعضها مائة وثمانون مجذافاً تربط البندقية بالقسطنطينية ، وصور ، والإسكندرية ، ولشبونة ، ولندن ، وعشرات من المدن الأخرى بسلسلة ذهبية من المرافئ والمتاجر . وكانت بضائع من وادى الپو تصل إلى البندقية كى يعاد شحنها منها إلى الخارج ؛ وكانت بضائع مدن نهر الرين تأتيها بعد أن تجتاز جبال الألب لتنتشر من موانيها فى عالم البحر المتوسط ؛ وكان مصفق المدينة Rialto أكثر الأماكن حركة فى سائر أنحاء أوربا ،

يزدحم بالتجار ، والملاحين ورجال المصارف القادمين من مائة قطر ، ولم تكن ثروة شمالى أوربا تضارع غناء هذه المدينة التى يرتبط كل شىء فيها بعجلة التجارة والمال ، والتى كانت السفينة الواحدة من سفنها التى ترسل إلى الإسكندرية تعود منها بربح يعادل ألفاً فى المائة من المال المستثمر فى بضائعها — إذا لم تلاق عدواً ، أو قرصاناً ، أو عاصفة مدمرة[١١] . وقصارى القول أن البندقية كانت أغنى المدن الأوربية فى العصور الوسطى ، ولعلها لم يكن يضارعها فى ثرائها إلا المدائن الصينية التى وصفها ماركو پولو ابن البندقية وصفاً لا نستطيع تصديقه .

إلا أن العقيدة تضمحل كلما زادت الثروة . ولقد كان البنادقة يكثرون من استخدام الدين فى الحكم ، ويواسون من لا أصوات لهم فى إدارة الشئون العامة بالمواكب ويعنونهم بجنة النعيم ؛ غير أن الطبقات الحاكمة قلما كانت تسمح للمسيحية أو للحرمان من حظيرة الكنيسة بأن يعترض سبيل الحرب أو الأعمال المالية ، فقد كان شعارها « نحن بنادقة ، ونحن بعد ذلك مسيحيون Siamo Veneziani poi Cristiani »[١٢] . وتطبيقاً لهذا الشعار لم يكن لرجال الدين نصيب ما فى الحكم[١٣] ، وكان التجار البنادقة يبيعون السلاح والرقيق ، ويمدون المسلمين الذين يقاتلون المسيحيين بالمعلومات الحربية[١٤] . وكان شىء من التسامح يصحب هذا الحرص على الكسب المتميز بسعة الأفق ؛ فقد كان فى وسع المسلمين أن يأتوا إلى البندقية وهم آمنون ، وكان اليهود — وخاصة فى الجيودكا Giudecca جزيرة أسپنالنجا Spinalunga يقيمون شعائر دينهم فى معابدهم وهم آمنون .

وقد ندد دانتى بـ « فجور البنادقة الطليق »[١٥] ، ولكن ليس من حقنا أن نصدق ما يوجهه من نقد رجل يصب اللعنات ذات اليمين وذات الشمال . وأكثر من أقوال دانتى دلالة على أخلاق البنادقة تلك العقوبات الصارمة الواردة

فى الشرائع البندقية لتوقع على الآباء الذين يحرضون أبناءهم على الفسق ، وتلك القوانين التى تكرر وضعها بلا جدوى لمنع الارتشاء فى الانتخابات[١٦] . والصورة التى تنطبع فى أذهاننا منها هى صورة أرستقراطية صارمة ساطعة اعتادت منظر بؤس الجماهير فلم تعد تتأثر به ؛ وسوقة تخفف من حدة الفقر بمباهج الحب الطليق . ونحن نسمع منذ عام ١٠٩٤ عن مواكب « الكرنفال » وذكرت « المساخر » لأول مرة فى عام ١٢٢٨ ؛ وفى عام ١٢٩٦ جعل مجلس الشيوخ اليوم السابق للصوم الكبير عيداً شعبياً . يزدان فيه السكان — رجالا ونساء — بأغلى أثوابهم وأبهى زينتهم ، فكانت النساء ذوات الثراء يتوجن أنفسهن ، بتيجان أو قلانس أو عمائم منسوجة بخيوط الذهب ، وتتلألأ عيونهن تحت أقنعة من نسيج الذهب أو الفضة ، وفى أعناقهن عقود من اللؤلؤ ، وفى أيديهن قفازات من جلد الشموا Chamois أو نسج الحرير ، وفى أقدامهن أخفاف أو أحذية من الجلد ، أو الخشب ، أو الفلين ، حمراء اللون أو ذهبية ؛ وأثوابهن من نسيج التيل الرفيع أو الحرير العادى أو المشجر أو المطرز ، والمنثورة ، عليه الجواهر ، يكشف عن أعناقهن وما تحت أعناقهن ، فكن بذلك فتنة لأهل زمانهن وشاهداً على ما فيه من فضائح وآثام . وكن يضعن على رؤوسهن شعراً مستعاراً ، ويستعملن الأدهان الملونة والمساحيق ، ويصمن لكن تصبح أجسامهن نحيلة رشيقة[١٧] . وكن يسرن بكامل حريتهن وسط الجماهير فى أى وقت يردن ، ويشتركن فى غواية وخفر فى حفلات اللهو والتنزه فى القوارب ، ويستمعن فى سرور إلى الشعراء الغزلين الذين أدخلوا أساليب الغناء البروفنسية فى موضوعات الحب الأبدية .

ولم يكن البنادقة يميلون فى هذا الوقت إلى الثقافة . نعم إنهم كانت لهم مكتبة عامة طيبة ، ولكن يبدو أنهم قلما كانوا يفيدون منها ، ولم يسهموا بنصيب فى العلوم ، ولم يخلفوا وراءهم شعراً خالداً ظهر فى وسط هذا الثراء المنقطع النظير .

وكانت المدارس كثيرة عندهم فى القرن الثالث عشر ، ولدينا ما يدل على أنهم كانوا يعطون الطلاب الفقراء منحاً تمكنهم من مواصلة الدرس ، ولكننا نعرف أنه كان لديهم فى القرن الرابع عشر قضاة لا يعرفون القراءة[١٨] . وكانوا يقدرون الموسيقى أعظم تقدير ، أما الفن فلم يكن قد وصل إلى الدرجة العالية التى بلغها فيما بعد ؛ غير أن الثراء كان يأتى إلى البندقية بالفن من بلاد كثيرة ، وكان ذوق الأهلين آخذاً فى الارتقاء ؛ وكانت أسسه توضع فى هذه الفترة وبخاصة فن الزجاج ، وقد بقى لهم بعض ما كان للرومان الآخرين من حذق فيه .

وليس من حقنا أن نصور البندقية فى ذلك العصر بتلك الصورة الجميلة التى وجدها عليها ڤاجنر Wagner أو نتشه فى القرن التاسع عشر . فقد كانت بيوتها مقامة من الخشب ، وشوارعها من الأرض العادية ؛ وإن كان طريق سان ماركو قد رصف بالآجر فى عام ١١٧٢ ؛ وكان الحمّام موجوداً فى المدينة منذ عام ١٢٥٦ . وبدأ البنادقة يقيمون الجسور على القنوات وكان أصحاب القوارب ينقلون الناس فى القناة العظمى . أما القنوات الجانبية الصغرى فالراجح أنها كانت أقل بهجة مما هى عليه الآن ؛ ذلك أن النضوج الكامل فى كل شىء يتطلب بعض الوقت . غير أن ما فى الشوارع والقنوات من عيوب لا يمكن أن يحجب عن العين عظمة مدينة ترتفع جيلا بعد جيل من مناقع البحر الضحل وضبابه ، أو يحول بين الإنسان وبين الدهشة من شعب يدفع هامته من الخراب والعزلة ليغطى سطح البحر بسفنه ويجبى المال ويستورد الجمّال من نصف العالم .

وكانت مدينة ترڤيزو Treviso وتخومها تقع بين البندقية وجبال الألب ، ولن نقول عن هذه المدينة إلا أن أهلها كانوا يحبون الحياة حباً جماً ، ويسمونها بلد الحب ويقولون إن المدينة احتفلت فى عام ١٢١٤ بعيد

قصر الحب ، فأقيم قصر من الخشب علقت فيه الطنافس والأقمشة المزركشة ، وتيجان الزهر ، وجاءت نساء المدينة فأمسكن بالقصر وهن مسلحات بالماء المعطر ، والفاكهة ، والأزهار ، ثم أقبل الفرسان الشبان من أهل البندقية ينافسون شباب پدوا المرح الجرىء فى حصار السيدات ، ويمطرونهن وابلا مماثلا لقذائفهن ؛ ويقال إن البنادقة كسبوا المعركة بأن خلطوا الأزهار بقطع النقود الذهبية . ومهما يكن سبب هذا النصر فقد سقط الحصن وحامياته الحسان فى أيديهم(١٩) .

الفصل الرابع

من منتوا إلى چنيوى

كانت المدائن الشهيرة فى لمباردية تحكم السهول الواقعة فى غرب ڤنيتو والمحصورة بين نهر البو وجبال الألب وهى : منتوا ، وكرمونا ، وبريشيا ، وبرجامو ، وكومو ، وميلان ، وپاڤيا . وكانت فى جنوب نهر البو ، فى المقاطعة المعروفة باسم إميليا Emilia فى هذه الأيام ، مدائن مودينا ، ورجيو ، وپارما ، وپياسنزا ، ولسنا نعتقد أن من يحبون إيطاليا سيملون من تكرار هذه الأسماء على مسامعهم . وكانت ولاية بيدمونت Piedmont المحصورة بين لمباردية وفرنسا تضم فرسلى Vercelli وتورين ، وفى جنوبى هاتين البلدتين كانت تنحنى حول خليج چنوى ومدينة چنوى نفسها . وثروة هذا الإقليم هدية من نهر البو الذى يخترق شبه الجزيرة من الغرب إلى الشرق ، يحمل المتاجر ، ويملأ القنوات ويروى الحقول . وكان نشاط الصناعة والتجارة فى هذه المدن هو الذى حباها بالثروة والعزة اللتين جعلتاها تغض الطرف فى معظم الأوقات عما كان للإمبراطور الألمانى من سيادة اسمية عليها وأمكنتاها من أن تخضع الأشراف شبه الإقطاعيين المقيمين خلفها .

وكانت كنيسة كبرى تقوم عادة فى وسط كل بلدة من هذه البلدان الإيطالية ، لكى تخلع البهجة والسرور على الحياة بمواكب التقى وقوة الأمل . وكان إلى جانبها مكان التعميد الدال على تمتع الطفل بمزايا المواطنية المسيحية وتبعاتها ، وبرج الأجراس التى تدعو الناس إلى العبادة أو الاجتماع أو حمل السلاح . وفى الميدان العام المجاور للكنيسة الكبرى كان الفلاحون والصناع يعرضون

بضاعتهم ، والممثلون ، واللاعبون على الحبال ونحوها ، والشعراء الجائلون يمثلون أدوارهم ، والمنادون يعلنون ما يريدون ، والمواطنين يثرثرون بعد قداس أيام الآحاد ، والشبان أو الفرسان يتبارون فى الألعاب الرياضية أو البرجاس . وكانت قاعة عامة للمدينة ، وبضعة حوانيت وبيوت ومساكن مشتركة يتكون منها سياج من الآجر حول الميدان . ومن هذا المكان الوسط تمتد الشوارع المتعرجة الملتوية التى يبلغ من ضيقها أنه إذا سار فيها راكب فرس أو مرت بها عربة اضطر الراجلون إلى الانزواء فى مدخل بيت أو الالتصاق بجدار . ولما تقدم القرن الثالث عشر وازدادت ثروة الأهلين استخدمت قطع القرميد فى تسقيف البيوت المطلية جدرانها بالمصيص فراق منظرها فى أعين من يستطيعون نسيان الوحل والروائح الكريهة . وكان الميدان والشوارع الكبرى دون غيرها هى المرصوفة ، وكان يحيط بالمدينة سور ذو أبراج وشرفات لأن الحروب كانت كثيرة فى تلك الأيام ، وكان من واجب الإنسان أن يعرف كيف يقاتل إذا لم يشأ أن يكون راهباً .

وكانت ميلان وجنوى أكبر هذه المدن كلها . وكانت جنوى — الفخمة كما كان يسميها أحباؤها — ذات موقع ممتاز للعمل والمتعة . فقد كانت تقوم على تل مواجه للبحر الذى يغرى بالاتجار ، وتستمتع بجو الرڤييرا الدافئ الذى يمتد إلى رابلو Rapallo فى الشرق وسان ريمو San Remo فى الغرب . وكانت جنوى منذ أيام الرومان ثغرا نشيط الحركة ، ولهذا كان سكانها تجاراً ، وصناعاً ، ورجال مصارف ، وصناع سفن ، وبحارة ، وجنوداً ، وساسة . ونقل مهندسو جنوى الماء النقى إليها من الألب الليجورية Ligurian Alps فى قناة مسقفة لاتقل عن قنوات رومة القديمة ، وأقاموا حاجزاً ضخماً فى الخليج المسمى باسمها ليجعلوا مرفأها العظيم آمناً فى أثناء العواصف والحروب . وقلما كان أهل جنوى يعنون بالآداب أو الفنون فى تلك الأيام ؛ شأنهم فى هذا شأن البنادقة المعاصرين لهم ؛ فقد كانوا يصرفون جهودهم كلها فى التغلب على منافسيهم وارتياد سبل جديدة

للكسب . وكاد مصرف چنوى يكون هو الدولة ، فقد كان يقرض المدينة المال بشرط أن يحصل هو إيراداتها ، وكان يفضل سلطانه هذا يسيطر على الحكومة ، وكان كل حزب يتولى السلطة يتعهد بأن يكون وفياً مخلصاً للمصرف ؛ ولكن أهل چنوى كان لهم من الشجاعة بقدر ما لهم من حب الكسب ، فقد تعاونوا مع أهل پيزا على إخراج المسلمين من غربى البحر المتوسط (١٠١٥ — ١١١٣) ، ثم حاربوا بيزا حروبا منقطعة حتى قضوا على القوة المنافسة لهم فى واقعة ملوريا Meloria البحرية (١٢٨٤) . وجندت پيزا فى هذه الحرب الأخيرة كل من كان فيها من الرجال بين العشرين والستين من العمر ، كما جندت چنوى كل من كان فيها بين الثامنة عشرة والسبعين . وتلك حقيقة فى وسعنا أن نعرف منها روح ذلك العصر وحالته النفسية . وكتب الراهب سلمبينى Salimbene فى ذلك يقول « بين أهل پيزا وأهل چنوى ، وكذلك بين أهل بيزا وأهل لوكا Lucca ، من الحقد والاشمئزاز الطبيعى بقدر ما بين الآدميين والأفاعى[٢١] » . وظل الرجال يقتتلون يدا بيد فى هذه الواقعة الأخيرة التى حدثت فى البحر قرب ساحل قورسقة حتى هلك نصف المحاربين « وارتفعت فى چنوى وبيزا أصوات الحزن والعويل كما لم ترتفع فى هاتين المدينتين من يوم أنشئنا إلى أيامنا هذه »[٢٢] . ولما علم أهل لوكا وفلورنس الأخيار بالكارثة التى حلت بپيزا وفلورنس ظنوا أنهم قد لاحت لهم أحسن فرصة لإرسال حملة لقتال تلك المدينة البائسة ، ولكن البابا مارتن الرابع أمرهم أن يكفوا عن القتال ، واندفع أهل چنوى فى هذه الأثناء نحو الشرق وتضاربت مصالحهم مع مصالح البنادقة ، فنشأت بينهم أشد الأحقاد ، وتنازع أهل المدينتين فى عام ١٢٥٥ على امتلاك عكا ، وانحاز فرسان المستشفى فى المعركة إلى جانب أهل چنوى ، كما انضم فرسان المعبد إلى البنادقة ؛ وسقط فى هذه المعركة وحدها عشرون ألف رجل[٢٣] ، وكانت سبباً فى تحطيم وحدة المسيحيين فى بلاد الشام ، ولعلها هى التى قررت

إخفاق الحروب الصليبية . وظل النزاع قائماً بين جنوى والبندقية حتى عام ١٣٧٩ ، حين منيت جنوى بهزيمة ساحقة لا تقل فى ذلك عما لحق ببيزا على يديها قبل ذلك بمائة عام .

وكانت ميلان أغنى مدائن لمباردية وأقواها ؛ وكانت من قبل إحدى العواصم الرومانية ، ولهذا كانت تفخر بقدم عهدها وتقاليدها . ذلك أن قناصل جمهوريتها قد تحدوا الأباطرة ، وأساقفتها تحدوا البابوات ، وآوى أهلُها الملحدين الذين تحدوا المسيحية نفسها أو اشتركوا معهم فى إلحادهم . وكان فيها فى القرن الثالث عشر مائة ألف من الأهلين ، وثلاثة عشر ألف بيت وألف حانة[٢٤] . وكانت هى مولعة بالحرية حريصة عليها ، فلم تتخل عنها راضية إلى غيرها ، وكان جنودها يطوفون بالطرق ليرغموا القوافل ، أيا كانت وجهتها ، على أن تعرج على ميلان أولا . وقد دمرت كومو ولودى Lodi ، وحاولت أن تخضع بيزا ، وكرمونا ، وبافيا ، ولم تركن إلى السكون حتى سيطرت على جميع تجارة نهر البو[٢٥] . ووقف رجلان من أهل لودى أمام مجمع كنستانس عام ١١٥٤ وتوسلوا إلى فردريك بربرسا أن يحمى مدينتهم ؛ وبعث الإمبراطور إلى ميلان يحذرها من مواصلة العدوان على لودى ؛ فرفضت المدينة رسالته فى سخرية ووطئتها بالأقدام . واغتنم فردريك هذه الفرصة ليحقق رغبته التى طالما تاقت نفسه إليها وهى تدمير ميلان (١١٦٢) ، ولم تمض خمس سنين على هذا التدمير حتى أعاد الباقون من أهلها هم وأصدقاؤهم بناء المدينة ، وابتهجت لمباردية جميعها ببعثها ، ورأت فيه رمزاً لتصميم إيطاليا على ألا يحكمها قط ملك ألمانى . وخضع فردريك ، ولكنه قبل أن يموت زوج ابنه هنرى السادس من كنستانس ابنة روجر الثانى ملك صقلية ؛ ووجدت العصبة اللمباردية فى ابن هنرى رجلا أشد رهبة من فردريك .

الفصل الخامس

فردريك الثانى ١١٩٤ – ١٢٥٠

١ – الصليبي المحروم

كانت كنستانس فى سن الثلاثين حين تزوجت هنرى ، وكانت فى الثانية والأربعين حين ولدت ابنها الوحيد . وخشيت أن يرتاب الناس فى حملها وفى شرعية طفلها فأمرت بأن تنصب خيمة فى السوق العامة أيزى lesi (القريبة من أنكونا) ؛ وفيها وعلى مرأى من الحاضرين جميعاً ولدت الغلام الذى أصبح فيا بعد أكثر الناس فتنة فى القرن الأخير من العصور الوسطى . وكان يجرى فى عروق الوليد دم ملوك النورمان الإيطاليين ممتزجا بدماء أباطرة هوهنستاوفن الألمان .

وكان فى الرابعة من عمره حين توج فى پالرم ملكا على صقلية (١١٩٨) ؛ وذلك لأن والده مات قبل عام من ذلك الوقت ثم ماتت والدته بعد عام من تتويجه . وأوصت قبل موتها أن يكون البابا وصيا على ابنها ، وأن يتولى تعليمه وحمايته السياسية ، وعرضت عليه فى نظير ذلك راتباً مجزيا ، وأن ينوب عنه فى الحكم ، وأن تعاد له السيادة على صقلية . وقبل البابا هذا العرض مسروراً ، واستخدم مركزه فى إنهاء ذلك الاتحاد بين صقلية وألمانيا الذى أقامه والد فردريك ؛ ذلك أن البابوات كانوا يخشون بحق قيام دولة كبرى تحيط بولايات البابا من جميع الجهات ، وتكون فى الواقع سجنا للبابوية وصاحبة السلطان عليها . وأعد إنوسنت العدة لتعليم فردريك ، ولكنه أيد أتو الرابع فى أن يتولى عرش ألمانيا . وشب فردريك محوطا بالإهمال وبالفقر فى بعض الأحيان ؛ حتى كان ذوو القلوب

الرحيمة من أهل پالرم يأتون الطعام لهذا الغلام الملكى البائس[٢٦] . وكان يسمح له بأن يجرى فى شوارع العاصمة المتعددة الأجناس واللغات وفى أسواقها كما يشاء ، وأن يختار أصدقاءه كما يشتهى . ولم يتلق الغلام تعليما منتظما ، ولكن عقله المتعطش للمعرفة كان يتعلم من كل ما يرى ويسمع ، حتى لقد دهش العالم فيما بعد من اتساع معلوماته ودقتها . فقد تعلم فى تلك الأيام وبالطريقة السالفة الذكر اللغتين العربية واليونانية ، وبعض معارف اليهود ، وعرف فى أيام شبابه خلقا من شعوب مختلفة ، ذوى ملابس ، وعادات ، وعقائد متباينة ، ولم يتخل قط عن عادة التسامح التى ألفها فى صغر سنه . وقرأ كثيراً من كتب التاريخ ، وأصبح كاتبا بليغا ومثاقفا ماهراً ، ومغرما بالخيل والصيد . وكان قصير القامة ، قوى البنية ، « ذا وجه جميل جذاب »[٢٧] ، وشعر متلو أحمر طويل ، نشيطا ، فخوراً ، سريع البت فى الأمور . ولما بلغ الثانية عشرة من عمره ، فصل الرجل الذى انتدبه البابا لينوب عنه فى الوصاية عليه وتولى زمام الأمور بنفسه . وبلغ الحلم فى الرابعة عشرة وتزوج فى الخامسة عشرة من كنستانس الأرغونية Constance of Aragon ، وشرع يعمل ليسترد عرش الإمبراطورية .

وواتاه الحظ فنال بغيته ، ولكن ذلك لم يكن من غير ثمن . وتفصيل ذلك أن أتو الرابع نقض العهد الذى قطعه على نفسه بأن يحترم سيادة البابا فى الولايات البابوية ، فحرمه البابا من الكنيسة ، وأمر بارونات الإمبراطورية وأساقفتها أن يختاروا لعرشها فردريك الشاب الذى تحت وصايته « لأن له حكمة الشيوخ وإن كان لا يزال فى سن الشباب »[٢٨] . ولكن إنوسنت ، وقد مال فجأة إلى فردريك ، لم يتحول عن غرضه الأول وهو حماية البابوية من كل عدوان عليها . ولهذا طلب إلى فردريك نظير تأييده إياه (١٢١٢) أن يتعهد له أن تظل صقلية إقطاعية للبابوات تؤدى لهم الجزية ، وأن يحمى الولايات البابوية من كل عدوان ؛ وأن تظل « الصقليتان » — وهما إيطاليا الجنوبية النورمانية والجزيرة — منفصلتين

انفصالا دائماً عن الإمبراطورية ؛ وأن يقيم فى ألمانيا بوصفة إمبراطوراً عليها ، ويترك الصقليتين لابنه الطفل هنرى ليكون مكاً على صقلية ، وأن ينوب عنه فى حكمها نائب يعينه إنوسنت ؛ وتعهد فردريك فضلا عن هذا كله أن يحافظ على جميع حقوق رجال الدين وسلطانهم فى دولته ، وأن يعاقب المارقين ، وأن يحمل الصليب ويخرج إلى الحرب الصليبية . ودخل فردريك ألمانيا بعد أن أمده البابا بالمال اللازم لرحلته ورحلة حاشيته . وكانت لا تزال تحت سلطان جيوش أتو . لكن هذه الجيوش منيت بالهزيمة فى بوڤين على يدى ڤليب أغسطس ؛ فانهارت مقاومة أتو ، وتوج فردريك إمبراطوراً باحتفال فخم مهيب فى آخن (١٢١٥) . وفيها جدد الوعد الذى قطعه على نفسه من قبل بأن يشن حرباً صليبية . وتأثر كثير من الأمراء بحماسة النصر الذى ناله الشاب فأقسموا يميناً مثل يمينه . وخيل إلى ألمانيا حيناً من الدهر أنه داود ثان بعثه الله لينقذ أورشليم بلد داود من ورثة صلاح الدين .

لكن الأمور لم تسر بالسرعة المطلوبة ، فقد حشد هنرى أخو أتو جيشاً ليخلع به فردريك ، ووافق هونوريوس الثالث Honorius III البابا الجديد على أن يدافع الإمبراطور الشاب عن عرشه . وانتصر فردريك على هنرى ، ولكنه تورط وقتئذ فى الشئون السياسية للإمبراطورية ، ويلوح أنه كان يحن إلى موطنه الأول فى إيطاليا ، فقد كان دم الجنوب وحرارة الجنوب ممتزجين بطبعه ، وكانت ألمانيا تضايقه ، فلم يقض فيها من سنيه الست والخمسين إلا ثمانية أعوام لا أكثر . وقد أعطى البارونات سلطات إقطاعية واسعة ، ومنح عدداً من المدن عهوداً بالحكم الذاتى ، وعهد بحكم ألمانيا إلى إنجلبرت كبير أساقفة كولونى ، وهرمان السالزى Herman of Salza الرجل الحازم القدير كبير الفرسان التيوتون . وتمتعت ألمانيا بالسلم والرخاء فى السنين الخمس والثلاثين التى تولى فيها العرش على الرغم من إهماله الظاهرى لشئونها . وبلغ من رضاء البارونات

والأساقفة عن سيدهم الغائب أن توّجوا مرضاة له ابنه هنرى البالغ من العمر سبع سنين « ملكاً على الرومان » — أى وارثاً لعرش الإمبراطورية (١٢٢٠) . وعين فردريك نفسه فى الوقت عينه نائباً فى صقلية عن هنرى الذى بقى وقتئذ فى ألمانيا . وبدّل هذا العمل خطط إنوسنت تبديلا تاماً ، ولكن إنوسنت كان قد فارق هذا العالم . وخضع هونوريوس للأمر الواقع ، ولم يكتف بالخضوع له بل توّج فردريك إمبراطوراً فى رومة ، لأنه كان شديد الرغبة فى أن يرحل فردريك من فوره لإنقاذ الصليبيين فى مصر . لكن بارونات إيطاليا الجنوبية ومسلمى صقلية خرجوا عليه وقتئذ ، وقال فردريك إنه لا بد له أن يعيد النظام فى مملكته الإيطالية قبل أن يخاطر بالغياب عنها زمناً طويلا . يضاف إلى هذا أن زوجته ماتت فى ذلك الوقت (١٢٢٢) . وأراد هونوريوس أن يغريه بأن يبرّ بقسمه فأقنعه بأن يتزوج إزابلا Isabella ، وارثة عرش أورشليم الضائعة ، ووافق فردريك على هذا الزواج وأضاف لقب « ملك أورشليم » إلى لقبيه الآخرين وهما ملك صقلية وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ثم أخرت سفره مرة أخرى متاعب قامت فى المدن اللمباردية . ومات هونوريوس فى عام ١٢٢٧ واعتلى عرش البابوية جريجورى التاسع الرجل الصارم القوى الشكيمة . وأخذ فردريك وقتئذ يعد العده فى جد ، فأنشأ أسطولا عظيما ، وحشد أربعين ألفاً من المحاربين الصليبيين فى برنديزى ، لكن وباء مروعاً فشا فى جيشه ، مات منه آلاف ، وفرّت منه آلاف أكثر منها . وأصيب بهذا الوباء الإمبراطور نفسه ، وكبير قوّاده لويس الثورنچيائى Louis of Thuringia . ومع هذا فقد أصدر فردريك أمره بالرحيل ، ومات لويس ، وساءت حال فردريك ، وأشار عليه أطباؤه ومن كان معه من كبار رجال الدين بأن يعود إلى إيطاليا ، فعمل بمشورتهم ، وطلب العلاج من مرضه فى پزيولى Pozzuoli . ونفد صبر البابا جريجورى ؛ فلم يستمع إلى أقوال رسل فردريك وأعلن فى العالم حرمان الإمبراطور .

وبعد سبعة أشهر من ذلك الوقت أبحر فردريك إلى فلسطين (١٢٢٨) وهو لا يزال مطرودا من حظيرة الدين . فلما سمع جريجورى بوصوله بلاد الشام أحل رعايا فردريك وابنه هنرى من يمينى الولاء لهما ، وأخذ يعمل لخلع الإمبراطور . وعد نائب فردريك فى إيطاليا هذه الأعمال إعلانا للحرب من جانب البابا ، فهاجم الولايات البابوية . ورد جريجورى على هذا العمل بأن أرسل جيشاً لغزو صقلية ، وأشاع الرهبان أن فردريك قد مات ؛ وما لبث جزء كبير من صقلية وإيطاليا الجنوبية أن سقط فى يدى البابا . ووصل مندوبان عن البابا من رهبان الفرنسسكان مدينة عكا بعد أن وصلها فردريك بزمن قليل ، وحرما على كل رجل فى صفوف المسيحيين أن يطيع أمر الرجل الطريد . ودهش الكامل قائد جيوش المسلمين إذ وجد حاكما أوربيا يعرف اللغة العربية ، ويقدر الآداب والعلوم والفلسفة العربية أعظم التقدير ، فعقد صلحا مواتيا مع فردريك ، دخل على أثره الإمبراطور بيت المقدس فاتحا دون أن يريق فى هذا الفتح قطرة دماء . ولم يجد فردريك من رجال الدين من يرضى بتتويجه ملكا على بيت المقدس فما كان منه إلا أن توج نفسه كنيسه الضريح المقدس . وأعلن أساقفة قيصرية أن وجود فردريك فى الضريح والمدينة قد دنسهما ، فحرما إقامة الخدمات الدينية فى بيت المقدس وعكا . وترامى إلى بعض فرسان المعبد أن فردريك يعتزم زيارة المكان الذى يقال إن المسيح قد عمد فيه فى نهر الأردن ؛ فبعث برسالة سرية إلى الكامل يقول فيها إن الفرصة قد واتته لأسر فردريك . فما كان من القائد المسلم إلا أن بعث بالرسالة إلى فردريك . وأراد الإمبراطور أن ترفع اللعنة عن بيت المقدس فغادرها فى اليوم الثالث بعد التتويج وسافر إلى عكا ، وفيها أخذ عامة المسيحيين يلقون عليه الأقذار وهو خارج منها إلى سفينته(٢٩) .

ولما وصل فردريك برنديزى جيش فيها من فوره جيشا جديداً . وزحفه

به ليسترد المدن التى استسلمت للبابا . وفرجيش البابا أمامه وفتحت له المدن أبوابها ، ولم يقاوم منها إلا سورا Sora فضرب عليها الحصار حتى استولى عليها عنوة وأشعل فيها النار فدمرتها تدميرا . ووقف فردريك عند حدود الولايات البابوية ، وأرسل إلى البابا يدعوه إلى الصلح ، فأجاب البابا دعوته ووقعا معاهدة سان چرمانو San Germano (١٢٣٠) ، وألغى قرار الحرمان ورفرف لواء السلم إلى حين .

٢ — أعجوبة العالم

ثم وجه فردريك عنايته للشئون الإدارية ، فأخذ يعالج من مقره فى فجيا Foggia من أعمال أپوليا Apulia مشاكل دولته التى اتسعت فوق ما ينبغى أن تتسع . وزار ألمانيا فى عام ١٢٣١ وأيد فى « قانون لمصلحة الأمراء » ما كان هو وولده قد منحه من سلطان البارونات ؛ وذلك بأنه كان يرضى أن يسلم ألمانيا للإقطاع إذا كان تسليمه يتيح له السلم التى تمكنه من أن ينفذ ما يريده لإيطاليا ، ولعله أدرك أن معركة بوڤين قد أنهت زعامة ألمانيا لأوربا ، وأن القرن الثالث عشر هو عصر فرنسا وإيطاليا ؛ وقد جوزى على إهماله شئون ألمانيا بتمرد ابنه وانتحاره .

واستطاع أن يؤلف بين عواطف الصقليين المتعددة وينشئ منها صرحا من النظام والرخاء يعيد إلى الأذهان مجدها فى أيام روچر الثانى . فقد ألقى القبض على المسلمين الثائرين المعتصمين بالجبال ، ونقلهم إلى إيطاليا ، ودربهم ليجعل منهم جنوداً مرتزقة ، فأصبحوا خير من يعتمد عليهم فى جيش فردريك . وفى وسعنا أن نتصور غضب البابوات حين يرون الجنود المسلمين يقودهم الإمبراطور ويحارب بهم جنده . وظلت پالرم حتى ذلك الوقت عاصمة الصقليتين من الوجهة القانونية ، ولكن فجيا كانت هى العاصمة الحقيقية . وكان فردريك يحب إيطاليا حبا لا يعادله حب معظم الإيطاليين ، وكان يعجب كيف يقدر يهوه فلسطين هذا التقدير العظيم وإيطاليا على ظهر الأرض ؛ وكان يسمى إيطاليا الجنوبية « قرة عينه وملجأ وسط السيول »

وجنة وسط برية من الأشواك »[٣٠] ، وشرع فى عام ١٢٢٣ يشيد فى فجيا القصر الحصين الهائل الذى لم يبق منه اليوم إلا مدخله ؛ وسرعان ما قامت حول بيته مدينة من القصور يسكنها أعوانه ، ودعا أشراف مملكته الإيطالية ليكونوا وصفاء فى بلاطه ، وما زالوا يرقون فى خدمته حتى كان منهم عماله الذين تولوا شئون الحكومة الإدارية . وكان على رأس هؤلاء جميعاً پيرو دلى ڤجنى Piero delle Vigne خريخ مدرسة الحقوق فى بولونيا . وقد عينه فردريك أميناً على بيت المال وأحبه كحبه ابنه أو أخاه ، وحل رجال القانون محل رجال الدين فى دولاب الحكم فى باريس بعد سبعين عاما من ذلك الوقت ؛ فهنا فى أقرب الدول إلى كرسى القديس بطرس انتقل الحكم انتقالا تاما من أيدى رجال الدين إلى أيدى رجال الدنيا .

وإذ كان فردريك قد نشأ فى عصر الفوضى ، وتشبع بالآراء الشرقية ، فإنه لم يخطر بباله قط أن النظام المعروف باسم الدولة يستطاع المحافظة عليه بغير سلطان الملوك . ويبدو أنه كان يعتقد مخلصاً أنه إذا انعدمت السلطة المركزية القوية أهلك الناس أنفسهم ، أو افتقروا المرة بعد المرة بسبب الإجرام والجهل ، والحرب ؛ وكان مثل بربرسا يرى أن نظام المجتمع أعظم قيمة من حرية الشعب ، ويحس أن الحاكم الحازم الذى يستطيع المحافظة على النظام يستمتع بكل ما فى ملكه من نعيم . وكان يسمح للشعب بقدر من التمثيل فى حكومته : فقد أنشأ جمعيات تنعقد مرتين كل عام فى خمسة مواضع من مملكته ، لتعالج المشاكل ، والشكاوى والجرائم المحلية . ولم يدع إلى هذه الجمعيات أشراف الإقليم ومطارنته فحسب ، بل كان يدعو إليها بالإضافة إليهم أربعة مندوبين عن كل مدينة كبيرة ، ومندوبين اثنين عن كل بلدة . أما فيما عدا هذا فقد كان فردريك ملكا مطلق السلطان ، يرى أن القاعدة الأساسية التى يقوم عليها القانون الرومانى — وهى أن الأهلين قد عهدوا إلى الإمبراطور دون غيره الحق المطلق فى التشريع —

يرى أن هذه القاعدة من البدائه التي لا تقبل الجدل . وأصدر للدولة من ملفي Melfi عام ١٢٣١ الكتاب الأعظم وهو أول مجموعة منظمة للقوانين بعد جستنيان ، وأتم كتاب في فقه التشريع في تاريخ القانون كله . ويرجع أكبر الفضل في صدوره إلى مهارة پيرودلي فجني وحسن مشورته . وكان هذا القانون رجعياً من بعض الوجوه ؛ فقد أقر ما في النظام الإقطاعي من فروق بين الطبقات . وأيد ما كان للسيد الإقطاعي من حقوق قديمة على أرقاء أرضه ، لكنه كان في كثير من النواحي قانونا تقدمياً : فقد حرم الأشراف من سلطاتهم التشريعية والقضائية ، وحقهم في سك العملة ، وركز هذه الحقوق كلها في الدولة ؛ وألغى نظام التقاضي بالقتال أو التحكيم الإلهي ، وأنشأ نظام المدعين العموميين المعينين من قبل الدولة لتعقب الجرائم التي ظلت حتى ذلك الوقت تفلت من العقاب إذا لم يتقدم مواطن ما بعرضها على القضاء . وندد الكتاب بالتباطؤ في إصدار الأحكام ، ونصح القضاة بتقصير خطب المحامين ، وحتم على محاكم الدولة أن تعقد جلساتها في كل يوم ما عدا أيام العطلة الرسمية .

وعني فردريك كما عني معظم الحكام في العصور الوسطى بتنظيم شئون الاقتصاد القومي ، فحدد « ثمناً عادلا » لعدد من مختلف الخدمات والسلع . وأممت الدولة إنتاج الملح ، والحديد ، والصلب ، والقنب ، والقار ، والمنسوجات المصبوغة ، والأقمشة الحريرية[٣١] ؛ وأقامت الدولة مصانع للنسيج تعمل فيها إماء مسلمات على أعين رؤساء من الخصيان[٣٢] ؛ وكانت تمتلك وتدير مذابح الحيوانات والحمامات العامة ؛ وأنشأت مزارع نموذجية ، وشجعت زراعة القطن وقصب السكر ، وطهوت الغابات والحقول من الحيوانات الضارة ، وشقت الطرق وأقامت القناطر ، وحفرت الآبار لتزيد موارد المياه[٣٣] . وكان الجزء الأكبر من التجارة الخارجية في يد الدولة تنقله سفن تمتلكها الحكومة ، كان في واحدة منها ثلثمائة من الملاحين[٣٤] . وخفضت المكوس المفروضة على التجارة الداخلية إلى الحد

الأدنى ، ولكن العوائد المفروضة على الصادرات والواردات كانت أكبر مورد من موارد الدولة . وكان ثمة ضرائب أخرى كثيرة ، لأن هذه الحكومة كانت تستطيع أن تجد على الدوام ، كما تجد سائر الحكومات ، منافع للمال . ومن بين الأعمال التى تعلى من قدر فردريك أنه وضع نظاماً سليماً للنقد روعيت فيه واجبات الشرف والأمانة .

وكان فردريك وحده سيد هذه الدولة والمدير لجميع شئونها ، وأراد أن يجعلها ذات جلال وقداسة دون أن يعتمد على المسيحية التى كانت فى العادة مغاضبة له ، فبذل غاية فى جهده فى أن يخلع على نفسه كل ما كان يحيط بالإمبراطور الرومانى من رهبة وجلال . فلم يطبع على نقوده الجميلة الشكل شعاراً أو لفظاً مسيحياً ، بل طبع حول أحد وجهيها تلك الأقصوصة Aug Cesar Rom Imp (الإمبراطور الرومانى قيصر أغسطس) وطبع على الوجه الآخر النسر الرومانى يحيط به اسم Fredericus (فردريكوس) . ولقن الناس أن الإمبراطور كان بمعنى ما ابن الله ، وأن شرائعه هى العدالة الإلهية مقننة ، وكانوا يشيرون إليه بلفظ Iustitia وهى كلمة تكاد تكون صيغة الغائب الثالوث جديد . وكان فردريك يحرص على أن يوضع إلى جانب أباطرة الرومان فى التاريخ ومعارض الفن ، فأمر المثالين بأن ينحتوا له تماثيل من الحجارة ، وزينت رأس قنطرة فى ڤلتورنو Volturno ، وفتحة باب فى كپوا ، بنقوش من الطراز القديم تمثله هو وأعوانه ؛ ولم يبق من هذا كله إلا رأس أنثى ذو جمال بارع(٣٥) . لكن هذه المحاولة التى بذلت قبل عصر النهضة لإحياء الفن القديم أخفقت لأن تيار الفن القوطى قد اكتسحها أمامه .

واستطاع فردريك ، رغم اقترابه من الألوهية ، وجده المتواصل فى شئون الملك أن يستمتع بالحياة بمختلف نواحيها فى بلاطه بفجيا . فقد كان لديه جيش من الأرقاء ، كثرتهم من المسلمين ، يقومون على خدمته ، ويشرفون على

دولاب حكومته وموظفيه . ولما توفيت زوجته الثانية تزوج بإزبلا الإنجليزية عام ١٢٣٥ ؛ ولكن إزبلا الإنجليزية لم يكن فى مقدورها أن تفهم عقليته أو أخلاقه ، فآثرت الانزواء وتركت فردريك يستمتع بعشيقاته حتى ولد له ابن غير شرعى . وكان أعداؤه يتهمونه بأنه أنشأ لنفسه « حريماً » ، كما اتهمه جريجورى التاسع باللواط(٣٦) ؛ ورد فردريك على ذلك بقوله إنه يحتفظ بجميع أولئك النساء البيض والسود ، والغلمان لبراعتهم فى الغناء ، والرقص ، والألعاب البهلوانية ، أو غيرها من ضروب التسلية المعتادة فى بلاط الملوك . وكان يحتفظ فضلا عن هذا كله بحديقة للحيوان البرى ، وكان يسافر أحياناً وفى صحبته عدد من الفهود ، والوشق ، والآساد ، والنمورة الرقطاء ، والقردة ، والدببة ، مسلوكة فى السلاسل يقودها عبيد من المسلمين . وكان فردريك مولعاً باقتناص الحيوان وصيد الحيوان بالصقورة ، وجمع الطيور الغريبة ، وقد كتب لابنه مانفرد Manfred رسالة علمية فى الصيد بالبزاة جديرة بالإعجاب .

وكان أعظم ما يستمتع به بعد الصيد هو الحديث الظريف المهذب — delico parlare ، فكان يفضل التقاء العقول الحصيفة على المبارزة بالسلاح ، وكان هو نفسه أعظم المحدثين ثقافة فى أيامه ، وقد اشتهر بفكاهته وسرعة بديهته ، وكان هو ڤلتير نفسه(٣٧) . وكان يتحدث بتسع لغات ويكتب سبعاً منها ، ويراسل الكامل باللغة العربية ، ويقول له فى رسائله إنه أعز أصدقائه بعد أولاده ، ويكتب باللغة اليونانية إلى چون ڤاتتزس John Vatatzes زوج ابنته وإمبراطور الروم ؛ وباللغة اللاتينية إلى العالم الغربى . وكان رفاقه — وبخاصة پيرودلى ڤجنى — يصوغون أسلوبهم اللاتينى البليغ على نمط الكتب الرومانية القديمة ؛ لأنهم كانوا يحسون بروح الكتاب الرومان الأقدمين تسرى فى نفوسهم ويعملون على محاكاة هؤلاء الكتاب ، وكادوا يكونون هم الرواد السباقين لكتاب عصر النهضة ذوى النزعة الإنسانية . وكان فردريك نفسه شاعراً ، أثنى دانتى

على شعره اللاتيني ، وقد أدخل غزل پروڤانس والشعراء المسلمين الغزلين فى بلاطه ، وتعلق به ، وقلده النبلاء الشبان الذين كانوا فى خدمة المليك . وكان الإمبراطور نفسه يحب أن يستريح من العناء بعد أن يقضى يوماً فى تصريف شئون الملك أو الصيد أو الحرب ومن حوله النساء الحسان والشعراء يتغنون بأمجاده ومفاتن نسائه ، كما كان يفعل بعض الأمراء فى بغداد .

وكان فردريك كلما تقدمت به السن يوجه قسطاً متزايداً من اهتمامه إلى العلوم والفلسفة . وكان أكبر ما يبعث فيه هذه الرغبة العلمية هو التراث الذى خلفه المسلمون فى صقلية . وقد قرأ بنفسه كثيراً من روائع الكتب العربية الخالدة ، واستدعى إلى بلاطه كثيرين من العلماء والفلاسفة المسلمين واليهود ، وأجاز العلماء على ترجمة المراجع الهامة اليونانية والإسلامية إلى اللغة اللاتينية . وقد بلغ من ولعه بالعلوم الرياضية أن أقنع سلطان مصر بأن يبعث له بأحد الرياضيين الذائعى الصيت ، كما كان على صلة ودية وثيقة بليوناردو فيبوناتشى Leonards Fibonacci أعظم علماء الرياضة المسيحيين فى أيامه . لكنه كان يشارك أهل زمانه فى بعض خرافاتهم ، واشتغل بالتنجيم والكيمياء الكاذبة ، وأغرى ميخائيل اسكت Michael Scot الذى كان واسع المعرفة فى علوم مختلفة بأن يجىء إلى بلاطه ، وأخذ يدرس معه بعض العلوم الخفية بالإضافة إلى الكيمياء ، والتعدين ، والفلسفة . وكان شغوفاً بالإطلاع فى جميع العلوم ، فكان يبعث بالأسئلة العلمية والفلسفية إلى العلماء المقيمين فى بلاطه وإلى غيرهم فى البلاد النائية كمصر ، وبلاد العرب ، والشام والعراق . وكانت لديه حديقة للحيوان يتخذها للدرس لا للهو ، ونظم تجارب علمية فى تربية الدجاج ، والحمام ، والخيل ، والجمال ، والكلاب ، ووضع قوانين لتحريم الصيد فى مواسم معينة قائمة على أساس سجلات دقيقة خاصة بمواسم التزاوج والتوالد عند الحيوان حتى قيل إن حيوانات أپوليا كتبت إليه تشكره على حسن صنيعه . وقد تضمنت شرائعه تنظيما مستنيراً لمهنة الطب ، والجراحات

الطبية وبيع العقاقير . ولم يكن يرى حرجاً فى تشريح جثث الموتى ، وكان الأطباء المسلمون يعجبون من سعة علمه بالتشريح . أما الفلسفة فحسبنا دليلا على واسع علمه بها أنه طلب إلى بعض علماء المسلمين أن يفسروا ما بين آراء أرسطو والإسكندر الأفروديسى من تناقض فى خلود العالم . ولقد حياه ميخائيل اسكت بقوله : « أيها العاهل المحظوظ ، إنى لقوى الاعتقاد بأنه لو كان فى مقدور رجل ما أن يفر من الموت بعلمه لكنت أنت ذلك الرجل »(٣٨) .

وكان فردريك يخشى أن تضيع بحوث العلماء الذين جمعهم عنده بعد موتهم ، فأنشأ فى عام ١٢٢٤ جامعة ناپلى — وهى أنموذج نادر من جامعات العصور الوسطى ، أقيمت من غير حاجة إلى موافقة السلطات الدينية على إنشائها . وقد استدعى إليها علماء متبحرين فى جميع الفنون والعلوم ، ومنحهم مرتبات عالية ، ورتّب إعانات مالية ليمكن الناهين من الطلاب الفقراء من الدرس . وحرّم على شباب مملكته أن يخرجوا منها فى طلب التعلم العالى ؛ وكان يأمل أن تنافس ناپلى بعد وقت قصير مدينة بولونيا فتصبح مدرسة كبرى للقانون وتدرّب الناس على أعمال الإدارة العامة .

وبعد فهل كان فردريك ممن ينكرون وجود الله ؟ لقد كان فى شبابه من الأتقياء الصالحين ، ولعله ظل مستمسكا بالعقائد الأساسية فى الديانة المسيحية إلى أيام حربه الصليبية . ثم يبدو أن اتصاله الوثيق بزعماء المسلمين ومفكريهم قضى على عقيدته المسيحية . وقد افتتن بعلوم المسلمين ورآها أسمى قدراً من أفكار المسيحيين ومعارفهم أيامه . ومما يدل على ذلك أنه لما عقد مجمع الأمراء الألمان فى فريولى Friuli (١٢٣٢) استقبل وفداً من المسلمين أحسن استقبال ، ثم اشترك على رأى من الأساقفة والأمراء مع هؤلاء المسلمين فى وليمة أقيت للاحتفال بأحد الأعياد الدينية الإسلامية(٣٩) . ويقول عنه ماثيوپاريس Matthew Paris : « ويقول أعــداء الإمبراطور إنه يوافق على شريعة محمد

ويؤمن بها أكثر من إيمانه بشريعة المسيح عيسى . . . وإن صداقته للمسلمين أقوى من صداقته للمسيحيين »[٤٠] . وشاعت عنه شائعة صدقها جريجورى التاسع تتهمه بأن قال إن « ثلاثة من المشعوذين ساقوا بدهائهم أهل زمانهم ليسودوا بهم العالم — موسى ، وعيسى ، ومحمداً ! » . ودوى هذا السباب والكفران فى جميع أنحاء أوربا ، وأنكر فردريك التهمة ، ولكنها ساعدت على نفور الرأى العام منه فى آخر أزمات حياته . وما من شك فى أنه كان حر الفكر إلى حد ما ، فقد كانت لديه شكوكه فى العقيدة القائلة بأن العالم خلق دفعة واحدة فى زمن معين ، وفى خلود الفرد ، وفى ولادة العذراء ، وفى أمثالها من العقائد الواردة فى الدين المسيحى[٤٢] . وقال حين رفض مبدأ التحكيم الإلهى : « منذا الذى يصدق أن الحرارة الطبيعية الكامنة فى فى الحديد المتوهج تبرد من غير سبب كاف ، أو أن عنصر الماء يرفض قبول (غمر) المتهم لأنه ميت الضمير »[٤٣] . ولم ينشئ فى حياته كلها إلا كنيسة واحدة .

وقد منح جميع أصحاب العقائد المختلفة فى مملكته حرية العبادة ببعض القيود ، فقد كان الروم الكاثوليك ، والمسلمون ، واليهود يمارسون شعائر دينهم دون أن يصيبهم أذى ، ولكنهم لم يكن فى مقدورهم (إلا فى حالة واحدة) أن يدرّسوا فى الجامعة ، أو أن يرقوا إلى منصب رسمى فى الدولة . وكان يحتم على جميع المسلمين والعبرانيين أن يرتدوا ثيابا تميزهم عن المسيحيين ، وألزم المسلمين واليهود بأن يؤدوا نظير إعفائهم من الخدمة العسكرية ضريبة الفرضة التى كان الحكام المسلمون يفرضونها على المسيحيين واليهود ؛ وكانت شرائع فردريك تعاقب من يعتنق الدين اليهودى أو الإسلامى من المسيحيين أشد العقاب ، غير أنه لما اتهم يهود فلدا Fulda فى عام ١٢٣٥ بأنهم يقتلون طفلا مسيحياً ليستخدموا دمه فى عيد فصحهم هب فردريك لإنقاذهم ، وكذب القصة وقال إنها خرافة اخترعها غلاظ القلوب ، وكان عنده فى بلاطه عدد من العلماء اليهود[٤٤] .

وأشد ما يلاحظ من تناقض فى حكم هذا المليك الذى يجرى على سنن العقل هو اضطهاده الإلحاد والملحدين . ذلك أن فردريك لم يكن يسمح فى بلاده بحرية التفكير أو القول لإنسان ما حتى أساتذة جامعته ، بل اختص نفسه ورفاقه دون غيرهم بهذه الميزة ، فقد كان كمعظم الحكام يرى أن الدين ضرورى لا غنى عنه للنظام الاجتماعى ، ولم يكن يقبل أن يقوض علماؤه دعائمه ؛ يضاف إلى هذا أن القضاء على الإلحاد ييسر قيام السلام المتقطع مع البابوات ؛ وجرياً على هذه السياسة أيد فردريك محكمة التفتيش كل التأييد على حين أن بعض الملوك فى القرن الثالث عشر ترددوا فى معاونتها ، وبذلك اتفق البابوات هم وعدوهم الألد فى هذه المسألة وحدها .

٣ – النزاع بين الإمبراطورية والبابوية

وأخذت أهداف فردريك البعيدة الواسعة المدى تزداد وضوحاً كلما تقادم حكمه فى فوجيا : كان يبغى أن يبسط سلطانه على إيطاليا بأجمعها ؛ وأن يوحد إيطاليا وألمانيا تحت سلطان الإمبراطورية الرومانية بعد أن يعيدها إلى الوجود ، ولعله كان يبغى أيضاً أن يجعل رومة كما كانت قبل عاصمة العالم الغربى السياسية والدينية معاً . ولما أن دعا الأعيان الإيطاليين والمدن الإيطالية إلى مجمع فى كرمونا Cremona عام ١٢٢٦ كشف عن أغراضه بأن أرسل الدعوة أيضاً إلى دوقية اسپليتو ، وكانت وقتئذ ولاية بابوية ، وبأن سير جنوده فى أراضى البابوات . وأمر البابا أعيان اسبليتو ألا يحضروا الاجتماع . وارتابت مدن لمباردية فى الدعوة فرأت فيها وسيلة يبغى بها فردريك أن يخضعها للإمبراطور خضوعاً حقيقياً لاخضوعاً اسمياً فحسب ، فأبت أن ترسل مندوبين عنها إلى الاجتماع ؛ ولم تكتف بهذا بل ردت على هذه الدعوة بأن ألفت العصبة اللمباردية الثانية التى تعهدت فيها مدائن ميلان ، وتورين ، وبرجامو ، وبرشيا ، ومانتوا ، وبولونيا ، وفيسنزا ،

وڤيرونا ، وبدوا ، وتڤيزو أن تعقد فيما بينها حلفا دفاعيا هجوميا يدوم خمساً وعشرين سنة ؛ وبهذا لم يجتمع المجمع قط .

وخرج هنرى على أبيه فردريك فى عام ١٢٣٤ ، وتحالف مع العصبة اللمباردية ، فركب فردريك من جنوبى إيطاليا إلى رمز Worms وليس معه جنود ، بل كان معه بدلا منهم مال كثير ؛ وخمدت الفتنة حين ترامت إلى القائمين بها أخبار قدومه أو حين مست أيديهم ذهبه ؛ وزج هنرى فى السجن ، وظل يكتوى بناره سبع سنين ؛ وبينا كان ينقل إلى مكان آخر يحبس فيه ، عدا بجواده فوق جرف عال وهوى إلى أسفله جثة هامدة . وواصل فردريك سيره إلى مينز ، ورأس فيها مجمعاً ، أقنع فيه كثيرين من النبلاء الحاضرين أن ينضموا إليه فى حملة يعيد بها سلطة الإمبراطورية على لمباردية . واستطاع بفضل هذه المعونة أن يهزم جيش العصبة اللمباردية (١٢٣٧) ؛ واستسلمت له جميع مدنها ما عدا ميلان وبريشيا ، وعرض جريجورى التاسع وساطته بين الطرفين ، غير أنه لم يكن من المستطاع التوفيق بين آمال فردريك فى الوحدة وحب الإيطاليين الحرية .

وقرر جريجورى فى هذه الساعة الفاصلة أن ينضم إلى جانب العصبة ، وأن يجعل مصير سلطة البابوات الزمنية موقوفة على نتيجة هذه الحرب ، مع أنه كان وقتئذ رجلا مريضاً فى سن التسعين . ولم يكن جريجورى مولعاً بحب المدن اللمباردية ، فقد كان مثل فردريك يرى أن حريتها هى الطريق المؤدى إلى النزاع والفوضى ، ويعرف أنها تأوى الملحدين الذين يعارضون جهرة فى ثروة الكنيسة وسلطته الزمنية . وفى هذا الوقت بالذات كان الملحدون من أهل ميلان المحاصرة يدنسون مذابح الكنائس ويقلبون الصلبان التى تحمل صورة المسيح[٤٥] . ولكن جريجورى كان يعتقد أنه إذا تغلب فردريك على هذه المدن ، ابتعلت إيطاليا الموحدة الولايات البابوية ، وتألفت منها كلها إمبراطورية موحدة يسيطر عليها عدو للمسيحية وللكنيسة . ولهذا أقنع جريجورى مدينتى البندقية وجنوى

بالانضمام إليه هو والعصبة فى حرب يشنها على فردريك ؛ ثم أصدر منشوراً عاماً شديد اللهجة ، اتهم فيه فردريك بالكفر ، والتجديف ، والاستبداد ، وبالرغبة فى القضاء على سلطة الكنيسة ، ثم حرمه فى عام ١٢٣٩ ، وأمر كل مطران من مطارنة الروم الكاثوليك أن يعلن أنه خارج على القانون ، وأعفى رعاياه من يمين الولاء التى أقسموها له . ورد فردريك على هذا برسالة دورية بعث بها إلى ملوك أوربا ينفى فيها تهمة الكفر ، ويتهم البابا بأنه يريد أن يخضع جميع الملوك لسلطان البابوية ، وأخذ النزاع الأخير بين الإمبراطورية والبابوية يجرى فى مجراه .

وأظهر ملوك أوربا عطفهم على فردريك ، ولكنهم لم يهتموا بما طلبه إليهم من معونة . كذلك انحاز أعيان ألمانيا وإيطاليا إلى جانبه ، لأنهم كانوا يرجون أن يعيدوا مدنهما إلى طاعتهم الإقطاعية ؛ أما فى المدن نفسها فقد انحازت الطبقتان الوسطى والدنيا بوجه عام إلى جانب البابا ، وعادت إلى الوجود عبارتا ويبلنج وولف Waibling and Welf بعد أن تحولتا إلى لفظى جبلين وجلف Ghibelline and Gulf ليدل أول اللفظين على أنصار الإمبراطورية ، والثانى على المؤيدين للبابوية . ولم تخل رومة نفسها من هذا الانقسام ، فقد كان فيها كثيرون من المؤيدين لفردريك ؛ ولما أن اقترب من رومة بجيش صغير أخذت المدن واحدة بعد واحدة تفتح له أبوابها لأنها رأت فيه قيصراً ثانياً . وتوقع فردريك أن يلقى القبض عليه ، فاخترق العاصمة على رأس موكب حزين من رجال الدين . وتأثرت قلوب الرومان بشجاعة البابا الشيخ وضعفه ، وعمد الكثيرون منهم إلى أسلحتهم للدفاع عنه . ولم يشأ فردريك أن يحسم الموقف فى ذلك الوقت فمر برومة دون أن يعرج عليها وقضى الشتاء فى فجيا .

وكان قبل ذلك قد أقنع الأمراء الألمان بأن يتوجوا ابنه كنراد ملك الرومان (١٢٣٧) ، ووضع زوج ابنته على رأس حكومة ڤيسنزا ، وبدوا ،

وتريفيزو ، كما وضع على رأس حكومة المدن الأخرى التى استسلمت له انزيو أحب أبنائه إليه وهو « صورة منا فى وجهه وقوامه » ، فقد كان وسيما ، فخوراً ، مرحاً ، شجاعاً فى الحرب ، بارعاً فى قول الشعر . واستولى الإمبراطور على راڤنا وفائنزا فى عام ١٢٤٠ ، وخرب فى عام ١٢٤١ بنفنتو مركز القوات البابوية . واعترض أسطوله قافلة بحرية من جنوى تنقل إلى رومة طائفة من الكرادلة ، والمطارنة ، ورؤساء الأديرة ، والقساوسة الفرنسيين والأسبان والإيطاليين ، وحجزهم فردريك فى أپوليا ليتخذهم رهائن يساوم بهم ؛ وما لبث أن أطلق الفرنسيين منهم ، ولكنه أطال احتجاز الباقين ، ومات عدد منهم فى السجن ، فارتاعت أوربا التى طالما رأت أن رجال الدين محصنون يجب ألا يعتدى عليهم ، وكثر وقتئذ عدد الذين يعتقدون أن فردريك هو المسيح الدجال الذى تنبأ بظهوره يواقيم الفلورى Joochim of Flora الصوفى منذ بضع سنين . وعرض فردريك أن يطلق رجال الدين إذا رضى جريجورى أن يعقد معه الصلح ولكن البابا لم يتزحزح عن موقفه إلى يوم مماته (١٢٤١) .

وكان إنوسنت الرابع أكثر مسالمة من سلفه ، فقد وافق بتحريض القديس لويس على شروط للصلح (١٢٤٤) ، ولكن مدن لمبارديا امتنعت عن التصديق على الاتفاق ، وذكرت إنوسنت بأن جريجورى قد تعهد بألا تعقد البابوية صلحاً منفردا مع فردريك . وغادر إنوسنت رومة سراً ، وهرب إلى ليون Lyons ، وواصل فردريك الحرب ، وبدا أن ليس ثمة قوة تستطيع منعه من فتح الولايات البابوية وضمها إلى دولته وإقامة سلطانه فى رومة . ودعا إنوسنت رجال الدين إلى مجلس عقد فى ليون ، وكرر هذا المجلس حرمان الإمبراطور وخلعه لأنه رجل فاسد الأخلاق ، عاق ، وتابع عديم الولاء لسيده البابا الذى يقر بسيادته عليه (١٢٤٥) . واختار النبلاء الألمان ، بتحريض البابا ، هنرى راسپ Henry Rapse إمبراطوراً بدل فردريك ، فلما مات نادوا بوليم الهولندى William of Holland

خلفاً له . وأصدر البابا قراراً بحرمان كل من يساعد فردريك ، وحرمت الخدمات الدينية فى كل الأقاليم الموالية له ؛ وأعلنت عليه هو وإنزيو حربا صليبية ، ومنح الذين حملوا الصليب للقتال فى فلسطين إذا اشتركوا فى قتال الإمبراطور الكافر جميع المزايا التى تمنح الصليبيين .

وأطلق فردريك العنان لحقده وشهوة انتقامه ، وأقدم على أعمال قطعت عليه خط الرجعة . فأصدر « منشوراً للإصلاح » يعلن فيه أن رجال الدين « عبيد للدنيا منهمكون فى ملذاتهم ، لم تبق ثروتهم المتزايدة على شىء من تقواهم »[٤٦] . ثم صادر ما للكنيسة من أملاك فى الصقليتين ليستخدم ثمنها فى حربه ، ولما أن تزعمت بلدة فى أپوليا مؤامرة للقبض عليه ، أمر برؤساء المتآمرين فاقتلعت عيونهم وبترت أعضاؤهم ثم قتلوا . ولما أن استنجد به ابنه كنراد ، اتخذ سبيله إلى ألمانيا ، ولكنه علم وهو فى تورين أن پارما قد انتقضت على حاميته التى بها ، وأن الخطر محدق بإنزيو ، وأن الثورة قد اندلع لهيبها فى إيطاليا الشمالية كلها وصقلية نفسها ، فأخذ يقلم أظفار فتنة بعد فتنة فى مدينة تلو مدينة ، ويأخذ الرهائن من كل واحدة منها ، ويقتل أولئك الرهائن حين تثور عليه مدنهم . وإذا وجد فى الأسرى رسلا للبابا أمر بقطع أيديهم وأرجلهم[٤٧] .

وبينا كان الحصار مضروباً على پارما سئم فردريك طول البطالة فخرج هو وإنزيو وخمسين من الفرسان لصيد طيور الماء فى المستنقعات المجاورة للمدينة . وبينا هم فى صيدهم خرج رجال پارما ونساؤها على المحاصرين وهجموا عليهم هجوم اليائسين ، فتغلبوا على قوات الإمبراطور المختلة النظام المعدومة القيادة ، واستولوا على أموال الإمبراطور وحريمه ووحوشه ، فما كان منه إلا أن فرض ضرائب فادحة ، وجهز جيشاً جديداً ، وواصل القتال . وجاءته الأنباء بأن پيرو دلى ڤجنى وزيره الأول وموضع ثقته قد غدر به وأخذ يدبر المؤامرات ضده ؛ فأمر بالقبض عليه وفقء عينيه ، فما كان من پيرو بعد أن فعل به هذا إلا أن أخذ يضرب

برأسه جدران سجنه حتى مات (١٢٤٩) . وجاءته الأنباء فى تلك السنة نفسها أن سكان بولونيا قد أسروا إنزيو فى المعركة التى قامت عند لافسالتا La Fossaalta ، وحدث فى الوقت عينه أن حاول طبيب فردريك أن يقتله بالسم ؛ وحطمت هذه الضربات المتوالية السريعة روح الإمبراطور ، فارتد إلى أبوليا ولم يشترك بعدئذ فى الحرب القائمة . وانتصر قواده فى عدة معارك عام ١٢٥٠ ، ولاح أن الحظ قد عاد يواتيه . فقد طلب القديس لويس وهو فى أسر المسلمين فى مصر إلى إنوسنت الرابع أن يضع حداً للقتال حتى يستطيع فردريك أن يخف لنجدة الصليبيين . ولكن صحة الإمبراطور أخذت فى الوهن ولم تفدها هذه الآمال المنعشة ، فقد حطم الزحار — وهو البلية التى طالما أذلت ملوك العصور الوسطى — ، جسم الإمبراطور المتغطرس . وطلب أن تغفر له ذنوبه ، فأجيب إلى طلبه ، ولبس الإمبراطور الملحد مسوح الرهبان السسترسيين ، ومات فى فلورنتينو فى الثالث عشر من ديسمبر سنة ١٢٥٠ . وتهامس الناس بأن روحه قد حملتها الشياطين واخترقت بها فوهة بركان إتنا إلى الجحيم .

ولم يظهر بعد موته ما له من نفوذ ، فسرعان ما انهارت إمبراطوريته ، وتفشت فيها الفوضى أشد مما كانت عليه حين جلس على عرشها ، واختفت الوحدة التى قضى حياته يحارب من أجلها حتى من ألمانيا نفسها ، وسارت المدن الإيطالية فى ركب الحرية وقوتها الناشطة المبدعة ، وسلكت طريق الفوضى ، فأدى بها إلى استبداد الأدواق والزعماء اللصوص الذين ورثوا ، وهم لايكادون يدركون ، فساد فردريك الخلقى ، وحريته الفكرية ، ومناصرته الآداب والفنون . والحق أن ما كان يتصف به طغاة عصر النهضة من ذكاء قوى مجرد من الضمير كان صدى لخلق فردريك وعقله خالياً من ظرفه وفتنته . وإنا لنستبين فى تفكير فردريك وفى حاشيته حلول الكتب اليونانية والرومانية القديمة محل الكتاب المقدس ، والعقل محل الإيمان ، والطبيعة محل الله ، والضرورة محل العناية الإلهية ،

ثم استولت هذه النزعة بعد فترة من الاستمساك بالدين على عقول فلاسفة النهضة وكتابها الإنسانيين . وملاك القول أن فردريك كان « رجل النهضة » قبل أن يحل عهد النهضة بمائة عام . نعم إن مكيڤلى كان يتحدث فى كتاب الأمير وفى عقله سيزارى بورچيا Coesar Borgis ولكن فردريك هو الذى مهد السبيل لفلسفة كتاب الأمير . وكذلك كان نتشة ينظر بعين فكره إلى بسمارك ونابليون ، ولكنه لم يكن ينكر أثر فردريك — « أول من يوافق هواى من الأوربيين »(٤٨) . وقد ارتاعت الأجيال التى جاءت بعده بأخلاقه ، وافتتنت بعقله ، وقدرت بعض التقـــدير عظمة مطامعه الإمبراطورية ، فوصفته المرة بعد المرة بالصفات التى ابتدعها ماثيو باريس حين قال عنه إنه الرجل « العجيب الذى بدل العالم وأثار عجبه super mundi et immutator mirabilis » .

الفصل السادس

تمزق إيطاليا

أوصى فردريك لابنه كنراد بعرش الإمبراطورية ، وعين مانفرد Manfred ابنه غير الشرعى نائباً عن الإمبراطور فى إيطاليا ، وشبت نار الفتنة فى كل مكان تقريباً فى إيطاليا ، وخضعت نابلى ، واسپليتو ، وأنكونا ، وفلورنس لمبعوثى البابا ، ونادى إنوسنت الرابع : « فلتبتهج السماء ولتفرح الأرض ! » وعاد البابا منتصراً إلى إيطاليا ، واتخذ نابلى مقر قيادته الحربية ، وزحف منها ليضم الصقليتين إلى الولايات البابوية ، ووضع الخطط ليفرض على مدن إيطاليا الشمالية سيادة أقل سفوراً من سيادته على تلك الولايات . ولكن هذه المدن عقدت العزم على أن تحمى استقلالها من البابوات والأباطرة على السواء ، وإن رضيت أن تشترك مع البابا فى الصلوات . وكان إزلينو Ezzlino وأبرتر پلاڤيسينو Uberto Pallavicino يسيطران على عدد من المدن ويدينا فيها بالولاء لكنراد . ولم يكن فى قلب كلا الرجلين شىء من الاحترام للدين ، فنشأ الإلحاد فى أيامهما ، وكان يخشى أن تفقد الكنيسة شمالى إيطاليا كله . وهبط كنراد الشاب فجاءة بجيش جديد من جبال الألب ، وأعاد فتح البلدان الإيطالية المتذمرة ، ودخل مملكة الصقليتين منتصراً ، ولكنه لم يدخلها إلا ليموت بالملاريا (مايو سنة ١٢٥٤) . وتولى مانفرد قيادة قوات الإمبراطور ، وبدد شمل جيش بابوى بالقرب من فُجيا (٢ ديسمبر) . وبلغت هذه الهزيمة مسامع البابا وهو على فراش الموت فمات بائساً مغموماً (٧ ديسمبر) يقول بصوت خافت : « رباه لقد أفسدت الإنسان عقاباً له على ظلمه » .

أما ما بقى من القصة فهو الفوضى السافرة ، فقد شن البابا إسكندر الرابع (١٢٥٤ — ١٢٥٦) حرباً صليبية على إزلينو ، جرح فيها هذا الطاغية ووقع فى الأسر ، وأبى أن يعوده الأطباء أو القساوسة أو أن يتناول الطعام، وأمات نفسه جوعا ، دون أن يتوب أو يقبل منه الاعتراف (١٢٥٩) . وأسر أيضا أخوه ألبريجو Alberigo ، وكان مثله فى وحشيته وجرائمه ، وأرغم على أن يشهد بعينيه تعذيب أسرته ؛ ثم انتزع لحمه من جسمه بالكلاليب ، وشد وهو لا يزال حيا إلى جواد ؛ وجر على الأرض حتى مات(٤٩) . واندفع المسيحيون والكافرون وفتئذ فى الأعمال الوحشية ما خلا مانفرد المرح النَّغِل ، وبقى مانفرد طوال الست السنين التالية سيد إيطاليا الجنوبية بعد أن أوقع بالجيوش البابوية هزيمة أخرى عند منتابرتو Montaperto (١٢٦٠) . وكان يجد متسعاً من الوقت للغناء وكتابة الشعر « ولم يكن له مثيل على ظهر الأرض » على حد قول دانتى « فى العزف على الآلات الوترية »(٥٠) . ولما يئس إربان الرابع (١٢٦١ — ١٢٦٤) من أن يجد فى إيطاليا من يرد مانفرد عن غيه ، وأدرك أن البابوية يجب أن تعتمد من ذلك الوقت على حماية فرنسا إياها ، طلب إلى لويس التاسع أن يقبل ملك الصقليتين إقطاعية من البابا . ورفض لويس هذا العرض ، ولكنه أجاز لأخيه شارل دوق أنجو أن يقبل من إربان « مملكة نابلى وصقلية » (١٢٦٤) . واخترق شارل إيطاليا عل رأس ثلاثين ألفا من الجنود الفرنسيين وبدد شمل جيش مانفرد الذى كان أقل من جيشه عددا وقفز مانفرد فى وسط أعدائه ومات ميتة أشرف من ميتة أبيه . ونزل فى العام الثانى صبى فى الخامسة عشرة من عمره وهو كنرادين Conradin من ألمانيا ليتحدى شارل ، ولكنه هزم عند تجليا كزو Tagliacozzo وضرب رأسه علنا فى ميدان السوق بنابلى عام ١٢٦٨ . وانتهى بمقتله وموت إنزيو الذى طال سجنه بعد أربع سنين من ذلك الحين أجل بيت هوهنستاوفن نهاية محزنة ، وأصبحت الدولة الرومانية المقدسة شيئاً لا وجود

له إلا فى المظاهر والحفلات ، وانتقلت زعامة أوربا إلى فرنسا .

واتخذ شارل نابلى عاصمة له ، وأوجد فى الصقليتين أرستقراطية وبيرقراطية فرنسيتين ، وأقام فيها جيشاً فرنسيا ، ورهباناً وقساوسة فرنسيين ، وحكم البلاد وجبى الضرائب بوسائل استبدادية جعلت أهلها يتمنون لو بعث فردريك حيا ، كما جعلت البابا كلمنت الرابع يتمنى لو أن البابوية لم تنتصر . وبينا كان شارل يستعد لقيادة أسطوله لفتح القسطنطينية إذ ثار العامة فى بالرم يوم الاثنين التالى لعيد القيامة من عام ١٢٨٢ بعد أن انطلق حقدهم الكامن فى صدورهم لأن جنديا فرنسيا أساء الأدب مع عروس صقلية ، وقتل الغوغاء كل فرنسى فى المدينة . وليس أدل على الحقد الدفين الذى كان يغلى فى صدور الصقليين من الوحشية التى كانت تدفع رجالهم لأن يشقوا بسيوفهم أرحام النساء اللاتى حملن من الجنود أو الموظفين الفرنسيين ثم يطأون الأجنة الأجنبية حتى تموت تحت أقدامهم (٥١) . وحذت مدن أخرى حذو بالرم حتى قتل ثلاثة آلاف من الفرنسيين فى مذبحة تعرف باسم « مذبحة صلاة المساء » لأنها بدأت فى ساعة تلك الصلاة . ولم ينج من القتل رجال الدين فى الجزيرة ؛ فقد هاجم الصقليون المعروفون بالتقى والصلاح الكنائس والأديرة وذبحوا الرهبان والقساوسة دون أن يعبأوا بكرامة رجال الدين . وأقسم شارل دوق أنجو أن ينتقم من الجزيرة انتقاما لا تنمحى آثاره مدى ألف عام ، وتوعدها بأن يتركها « صخرة صماء جرداء خالية من السكان » (٥٢) . وحرم البابا مارتن Martin الرابع العصاة من حظيرة الدين وأعلن حربا صليبية على صقلية . ولما عجز الصقليون عن حماية أنفسهم عرضوا الجزيرة على بدرو الثالث صاحب أرغونة . وجاء بدرو إلى الجزيرة بجيش وأسطول وثبت أسرة أرغونة ملوكا على صقلية (١٢٨٢) . وبذل شارل كل ما فى وسعه ليسترد الجزيرة ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح ، فقد دمر أسطوله ، ومات وهو منهوك القوى مغموماً حزيناً

فى فجيا (١٢٨٥) . واكتفى خلفاؤه بعد سبعة عشر عاما من الكفاح غير المجدى بمملكة نابلى .

أما المدن الإيطالية القائمة فى شمال رومة فقد أخذت تثير الخصام بين الإمبراطورية والبابوية ، واستطاعت بذلك أن تحتفظ بنوع من الحرية الطائشة الجموحة . وظلت أسرة دلا تورى Della Torre تحكم ميلان عشرين عاماً حكما ارتضاه سائر أهلها ، ثم استولت على زمام الأمور عصبة من النبلاء بزعامة أتوفسكنتى Otto Visconti عام ١٢٧٧ ، وأنشأ آل فسكنتى الملقبين بالكبتانى (الرؤساء) أو الدوتشى duci حكومة أبلجركية حازمة قديرة حكمت المدينة مائة وسبعين عاماً . وكانت الكونتة ماتلدا قد أوصت للبابوية بإقليم تسكانيا بما فيه مدائن أرزو Arezzo ، وفلورنس ، وسينا Siena ، وبيزا ، ولوكا (١١٠٧) ؛ ولكن هذه السيادة البابوية الصورية قلما كانت تنقص من حق مدائن الإقليم فى أن تحكم نفسها أو تولى عليها من تختارهم من الطغاة .

وكان لسينا كما كان لكثير غيرها من المدن التسكانية ماض تعتز به ، يرجع إلى أيام التسكانيين الأقدمين . وكانت غارات البرابرة قد خربت تلك المقاطعة ، ولكنها انتعشت فى القرن الثامن لأنها أضحت محطة وسطى فى طريق الحج والتجارة بين فلورنس ورومة . ونحن نسمع عن وجود نقابات طائفية للتجار بتلك المدينة فى عام ١١٩٢ثم بمثلها للصناع ثم لأصحاب المصارف ، حتى أصبح بيت بونسنيورى Buonsignori الذى أنشئ فيها عام ١٢٠٩ من أشهر المؤسسات التجارية والمالية فى أوربا كلها ، وكان له وكلاء فى جميع أنحائها ، وبلغت القروض التى أمد بها التجار ، والمدن ، والملوك ، والبابوات مبلغاً لا يكاد يصدقه العقل . وكانت فلورنس وسينا تتنازعان السيطرة على طريق فرنسيسا Via Francesa الذى يصل كلتيهما بالأخرى ، وظلت المدينتان التجاريتان تحارب كلتاهما الأخرى حروبا منقطعة منهكة من عام ١٢٠٧ إلى عام ١٢٧٠ ؛ وانضمت سينا إلى الأباطرة فى الكفاح

القائم بين البابوية والإمبراطورية لأن فلورنس انحازت إلى جانب البابوية ، وكان انتصار مانف د عند منتابرتو Montaperto (١٢٦٠) فى واقع الأمر نصراً لسينا على فلورنس . ومع أن أهل سينا كانوا يقاتلون البابا ، فإنهم كانوا يعزون ما نالوه من نصر فى تلك الواقعة إلى قديستهم الشفيعة العذراء أم الإله . ووهبوا مدينتهم لمريم إقطاعية لها ، وطبعوا على نقدهم تلك العبارة الدالة على الزهو والخيلاء وهى **دولة العذراء** ، وضعوا مفاتيح المدينة تحت قدمى العذراء فى الكنيسة الكبرى التى سموها باسمها . وكانوا فى كل عام يحتفلون بذكرى انتقالها إلى السماء ويقيمون لذلك احتفالا رهيباً مثيراً . فقد كان جميع المواطنين من سن الثامنة عشرة إلى سن السبعين يسيرون إلى الكنيسة (duomo) فى ليلة العيد وبيد كل منهم شمعة مضاءة فى موكب فخم وراء قساوستهم وكبار موظفيهم ، فإذا أتوا الكنيسة جددوا يمين الولاء والطاعة إلى العذراء . وكان موكب آخر يسير فى يوم العيد نفسه ويتألف من ممثلين للمدن والقرى والأديرة المفتوحة أو التابعة لسينا ، وكان هؤلاء المندوبون يسيرون أيضاً إلى الكنيسة يحملون الهدايا ، ويجددون يمين الطاعة والخضوع لحكومة مدينة سينا ولملكتها . وكانت سوق عامة تقام فى ميدان المدينة فى هذا اليوم ، ويستطيع الأهلون أن يشتروا فيها بضائع آتية من مائة مدينة ، ويقوم فيها البهلوان والمغنى والموسيقى بأدوارهم ، ولم يكن يزيد عن عدد الذين يؤمون وكر الميسر فى المدينة إلا من يؤمون ضريح مريم نفسها .

وكانت الأعوام المائة التى بين ١٢٦٠ ، ١٣٦٠ هى التى بلغت فيها ذروة عظمتها ، ففى هذه السنين المائة شادت كنيستها (١٢٤٥ — ١٣٣٩) ، وأنشأت قصرها العام الذائع الصيت (١٣١٠ — ١٣٢٠) ؛ وبرج الأجراس الجميل (١٣٢٥— ١٣٤٤) . ونحت نقولو بيزانو Nccolo Pisano فسقية فخمة للكنيسة فى عام ١٢٦٦ ؛ ولم يحل عام ١٣١١ حتى كان دوتشيو دى بيوننسنيا Duccio di Buoninsegna قد شرع يزين كنائس المدينة بعدد من أقدم روائع صور النهضة

الزيتية . بيد أن هذه المدينة الفخورة كانت تقوم بأعمال لا تحتملها مواردها ، وكان نصر منتابرتو ضربة قاضية على سينا ، فقد أصدر البابا المهزوم قرار الحرمان على المدينة ، وحرم دخول البضائع فيها أو أداء الديون لها ، وأفلس عدد كبير من مصارفها ، حتى إذا كان عام ١٢٧٠ ضم شارل دوق أنجو المدينة المعذبة إلى عصبة الجلف (أو العصبة البابوية) . وظلت سينا من ذلك الحين تسيطر عليها وتفوقها منافستها القوية الفاتحة في الشمال والتي لا تشعر نحوها بشيء من الرحمة .

الفصل السابع

نهضة فلورنس : ١٠٩٥ – ١٣٠٨

سميت فلورنس بهذا الاسم لكثرة أزهارها ، وقد نشأت قبل المسيح بمائتى عام لتكون محطة تجارية على نهر الآرنو حيث يلتقى برافده المنيون Magnon ، وخربتها غارات البرابرة ، ولكنها استفاقت فى القرن الثامن وصارت ملتقى الطرق على ڤيا فرنسيسا Via Francesa بين فرنسا وروما .

وكانت سهولة اتصالها بالبحر المتوسط عاملا فى تشجيع تجارتها البحرية . وأنشأت فلورنس أسطولا تجارياً كبيراً يحمل إليها الأصباغ والحرير من آسية ، والصوف من إنجلترا وأسپانيا ، ويحمل منها المنسوجات إلى نصف بلاد العالم . واحتفظت فلورنس ببعض الأسرار الصناعية التى أمكنت صباغيها من أن يلونوا الأقمشة الحريرية والصوفية بظلال من الألوان الجميلة ، لا تعلو عليها ألوان أخرى حتى فى بلاد الشرق التى برعت فى هذه الصناعة من زمن بعيد . وكانت نقابتا الصوف الشهيرتان — وهما **نقابة الصوف ونقابة الحارة الخبيثة**(*) . تستوردان حاجتهما من الصوف وتجنيان مكاسب طائلة من نسجه وتحويله بضائع جاهزة . وكان الجزء الأكبر من العمل يجرى فى مصانع صغيرة بعضها فى بيوت المدن أو الريف . وكان التجار هم الذين يوردون إليها المواد الغفل ، ويجمعون البضائع التى تباع فى الأسواق ، ويدفعون أثمانها قطعة قطعة . وكانت المنافسة القائمة بين الصناع الذين يعملون فى منازلهم — وخاصة السيدات العاملات — سبباً فى بقاء مستوى الأجور منخفضاً فى هذه

(*) وسميت بهذا الاسم نسبة إلى مركز المعروضات فيها المسمى بهذا الاسم والذى كان من قبل مكاناً مخصصاً للعاهرات .

المصانع ؛ ولم يكن يسمح للنساجين بأن يقوموا بعمل إجماعى لرفع أجورهم أو تحسين أحوال أعمالهم ؛ وكانت الهجرة محرمة عليهم . وأراد أصحاب هذه المصانع أن يزيدوا من تأديب الصناع وإرغامهم على حفظ النظام ، فأقنعوا الأساقفة بأن يصدروا رسائل دينية تتلى من فوق المنابر أربع مرات فى العام وتنذر العامل الذى يعتاد إتلاف الصوف بغضب الكنيسة وبالحرمان نفسه[٥٣] .

وكانت هذه الصناعة والتجارة محتاجان إلى رءوس الأموال لتستثمر فيهما ، وسرعان ما أدى هذا إلى قيام التنافس بين التجار وأصحاب المصارف للسيطرة على الحياة فى فلورنس . واستطاع أصحاب المصارف أن يمتلكوا ضياعا واسعة باستيلائهم على الأراضى المرهونة التى يعجز أصحابها عن فك رهونها ، كما أصبحوا ممن لا غنى عنهم للبابوات لسيطرتهم المالية على أملاك الكنائس المرهونة لهم ، وكادوا فى القرن الثالث عشر يحتكرون شئون البابوات المالية فى إيطاليا[٥٤] . ولهذا فإن تحالف فلورنس مع البابوات بصفة عامة فى نزاعهم مع الأباطرة كان الباعث عليه هذه العلاقة المالية من جهة وخشية الفلورنسيين من اعتداء الأباطرة والأشراف على حرية البلد والتجار من جهة أخرى . ومن أجل هذا كان رجال المصارف أكبر المؤيدين لحزب البابا فى فلورنس ، فهم الذين قدموا المال اللازم لحملة شارل دوق أنجو على إيطاليا إذ أقرضوا البابا إربان الرابع ١٤٨٫٠٠٠ جنيه فرنسى (أى ٢٩٫٦٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) . ولما استولى شارل على نابلى سمح لأصحاب المصارف الفلورنسيين أن يسكوا النقود ويجبوا الضرائب فى المملكة الجديدة ، وأن يحتكروا تجارة الأسلحة ، والحرير ، والشمع ، والزيت ، والحبوب ، وتوريد الأسلحة والمؤن للجنود ، كل ذلك ليضمنوا تحصيل قرضهم السالف الذكر[٥٥] . وإذا جاز لنا أن نصدق دانتى ، فإن هؤلاء الماليين الفلورنسيين لم يكن لهم ما لأمثالهم فى هذه الأيام من ظرف وكياسة ، بل كانوا قناصة للمال ، غلاظا شرهين ، يجنون الأرباح الطائلة بالاستيلاء على الأراضى التى يغلق رهنها ، ويتقاضون فوائد باهظة

عن القروض دون أن يكون لهم وازع من دين أو ضمير – وما أشبههم بفلكو بوتنارى Folco Potinari متبنى بيتريس Beatrice فى ملهاة دانتى(٥٦) . وكانوا يقومون بأعمالهم فى إقليم واسع الرقعة ، فنحن نجد مصرفين فلورنسين – مصرف برونلسشى Brunelleschi ومصرف ميديشى Medici يسيطران على الأعمال المالية فى نيمر Nimes » وأمديت فرانزيسى Franzesi الفلورنسى فليب الرابع بما يحتاجه من المال لحروبه ودسائسه ، وظل الماليون الإيطاليون من بداية حكمه يسيطرون على الشئون المالية الفرنسية حتى القرن السابع عشر . كذلك استدان إدورد الأول ملك إنجلترا ٢٠٠ر٠٠٠ فلورين ذهبى (٢ر١٦٠ر٠٠٠ ريال أمريكى) من بيت فرسكوبلدى Frescobaldi الفلورنسى عام ١٢٩٥ . وكانت هذه القروض معرضة للخطر ، كما كانت تخضع الحياة الاقتصادية فى فلورنس إلى الحوادث النائية التى ليست لها فى ظاهر الأمر أية صلة بها . وعقدت عدة صفقات استثمار سياسية ، وعجزت بعض الحكومات عن الوفاء بالتزاماتها المالية ، ثم سقط بنيفاس الثامن وانتقل مقر البابوية إلى أفنيون (١٣٠٧) فأدى هذا إلى إفلاس عدد من المصارف فى إيطاليا وإلى حلول كساد عام وحرب عوان بين الطبقات :

وكانت ثلاث طبقات تقتسم الحياة المدنية غير الدينية فى فلورنس : « الشعب الصغير popolo minuto – ويشمل أصحاب الحوانيت ، والشعب السمين popolo grasso ويشمل أصحاب الأعمال ورجال الصناعة والتجارة ، والعظماء grandi أى النبلاء . وكان الصناع يؤلفون النقابات الصغرى ويستغلهم فى الأعمال السياسية أصحاب الأعمال والتجار ورجال المال الذين يملأون النقابات الطائفية الكبرى . وكان « الشعب الصغير » و « الشعب السمين » يأتلفان وقتاً ما للوقوف فى وجه الأعيان فى التنافس القائم للسيطرة على الحكومة . وكان هؤلاء الأعيان يطالبون لأنفسهم بمكوس إقطاعية من المدينـــة ، وقد أيدوا فى أول الأمر الأباطرة ثم أيدوا البابوات ضد حركات المدينة . ونظمت هاتان الطبقتان

المؤتلفتان جيشاً إقليمياً كان على جميع الصحيحى الأجسام من أهل المدينة أن ينضموا إليه وأن يتعلموا فيه فنون الحرب . فلما تهيأت أسباب القوة بهذا الاستعداد استولوا على قصور الأشراف الحصينة القائمة فى الريف ، ودمروها وأرغموا أصحابها على السكنى داخل أسوار المدينة والخضوع للقوانين البلدية . وكان النبلاء لا يزالون أغنياء بما يحصلون عليه من ريع أملاكهم فى الريف ، فشادوا لهم قصوراً حصينة فى المدن ، وانقسموا أحزاباً ، وأخذوا يتقاتلون فى الشوارع ، ويتنافسون ليروا أى حزب يسبق الآخر لقلب الدمقراطية الضيقة المدى القائمة فى فلورنس وإحلال دستور أرستقراطى محلها . وتزعم حزب الأوبرتى Uberti ثورة قام بها الغبليون ليقيموا فى فلورنس حكومة موالية لفردريك ، واستبسلت الطبقتان المؤتلفتان فى المقاومة ، ولكن كتيبة من الفرسان الألمان أوقعت بهما هزيمة ساحقة ، وسقطت الدمقراطية الفلورنسية ، وفر زعماء الحلف من المدينة ، وهدمت بيوتهم انتقاماً لما قاموا به من تدمير قصور رجال الإقطاع منذ مائة عام ؛ وجرى الأهلون من ذلك الوقت عقب كل انتصار فى حروب الطبقات والأحزاب على أن يحتفلوا بالنصر بنفى زعماء الطبقة المغلوبة ومصادرة أملاكهم أو تخريبها[٥٧] ؛ وظل أشراف الغبليين ثلاث سنين يحكمون المدينة تؤيدهم حامية من جنود الألمان ، فلما مات فردريك قامت ثورة جلفية من الطبقتين الوسطى والدنيا واستولى الثوار على زمام الحكم (١٢٥٠) وعينوا زعيما للشعب ليراقب أعمال البودستا كما كان التربيونون فى رومة القديمة يراقبون أعمال القناصل . واستدعى زعماء الحلف المنفيون ، وأيدت الطبقات الوسطى المنتصرة ما نالته من نصر داخلى بحروب شنتها على بيزا وسينا للسيطرة على طريق تجارة فلورنس إلى البحر وإلى رومة ، وأصبح أغنى أغنياء التجار نبلاء جدداً ، وعملوا على احتكار وظائف الدولة لأنفسهم .

ولما هزم مانفرد وسينا مدينة فلورنس فى منتابرتو أعقب ذلك فرار زعماء

الجلف مرة أخرى ، وظلت فلورنس بعد فرارهم ست سنين يحكمها مندوبون عن مانفرد . فلما خسرت الإمبراطورية قضيتها فى عام ١٢٦٨ عادت السلطة مرة أخرى إلى أيدى الجلف الخاضعين خضوعا اسميا لشارل دوق أنجو . وأرادوا أن يقيدوا سلطان اليودستا المعين من قبل شارل فأقاموا إلى جانبه هيئة مؤلفة من اثنى عشر من الأنزيانى anziani (أى « الأقدمين » أو الكبراء) ليسدوا النصح إلى ذلك الموظف ، ومجلساً مكونا من مائة عضو « لا ينفذ عمل من الأعمال الهامة ولا ينفق أى اعتماد مالى إلا إذا وافق عليه أولا »(٥٨) . واغتنمت الطبقات الوسطى الرأسمالية فرصة انشغال شارل « بالمذبحة المسائية » فقاموا فى عام ١٢٨٢ بانقلاب دستورى أصبحت بمقتضاه هيئة مؤلفة من الرؤساء ومختارة من النقابات الطائفية الكبرى هى المسيطرة بالفعل على حكومة المدينة . وظل منصب اليورستا باقيا فى خلال هذه التقلبات ، ولكنه كان مجردا من السلطان ، لأن السلطة العليا انتقلت إلى أيدى التجار وأصحاب المصارف .

وأعاد حزب الأشراف القدامى المغلوب تنظيم نفسه برياسة كرسو دونارى الرجل الوسيم المتغطرس ، وأطلق عليهم لسبب غير معروف اسم « النرى Neri » أى السود ، وسمى النبلاء الجدد أصحاب المصارف والتجار الذين تزعمتهم أسرة شرشى Cherchi باسم البيض Blanchi . ويئس النبلاء القدامى من معونة الإمبراطورية المحطمة فولوا وجههم شطر البابا يستعينونه على الطبقة الوسطى الرأسمالية . ودبر دوناتى Donati ، بوساطة آل سبينى Spini وكلائه فى فلورنس ، تدبيره مع بنيفاس الثامن للاستيلاء على فلورنس ؛ وكانت الأحزاب التسكانية قد امتد نفوذها إلى الولايات البابوية فلم تترك لبنيفاس أملا فى إعادة النظام إليها إلا إذا كان له صوت مسموع فى حكومات تسكانيا البلدية(٥٩) . وعرف أحد رجال القانون الفلورنسيين خبر هذه المفاوضات فاتهم ثلاثة وكلاء من أسرة سبينى فى رومة بخيانة فلورنس ، وأدانت الهيئة الحاكمة المؤلفة من مندوبى النقابات

الطائفية الكبرى ثلاثتهم (إبريل ١٣٠٠) فهدد البابا من اتهموهم بالحرمان ؛ وهاجمت جماعة من النبلاء المسلحين من حزب دوناتى عدداً من كبار رجال النقابات ، فقررت هيئة المندوبين السالفى الذكر ، وكان دانتى وقتئذ من أعضائها ، نفى عدد من النبلاء متحدية بذلك البابا (يونية ١٣٠٠) : واستنجد بنيفياس بشارل دوق ڤالوا Valois وطلب إليه أن يدخل إيطاليا ، ويخضع فلورنس ، ويسترد صقلية من أرغونة .

ووصل شارل فلورنس فى نوفمبر من عام ١٣١٠ ، وأعلن أنه لم يأت إليها إلا لإعادة النظام والسلم فى ربوعها ، ولكن كرسو دوناتى دخل المدينة بعد قليل من ذلك الوقت على رأس جماعة مسلحة ، ونهب بيوت المندوبين الذين نفوه ، وفتح أبواب السجون ، ولم يطلق أصدقاءه وحدهم ، بل أطلق كل من أراد الخروج منها . وساد الهرج والمرج المدينة ، واشترك النبلاء والمجرمون فى السرقة ، وخطف الآدميين ، وقتلهم ؛ ونهبت مخازن التجارة ، وأرغمت الوارثات على الزواج من خطاب مفاجئين ، واضطر الآباء إلى إمضاء وثائق ببائنات كبيرة . وأخرج كرسو آخر الأمر هيئة مندوبى النقابات والپودستا من وظائفهم ، واختار السود مندوبين جدداً يعرضون جميع اقتراحاتهم على زعماء السود ، وظل كرسو سبع سنين حاكما بأمره لا معقب لحكمه فى فلورنس . وحوكم المندوبون المعزولون وأدينوا ، وحكم عليهم بالنفى ومنهم دانتى نفسه (١٣٠٢) ، وحكم على ٣٥٩ من البيض بالإعدام ، ولكن أجيز لمعظمهم النجاة من الموت بالنفى من البلاد .. وقبل شارل ڤالوا هذه الحوادث راضيا ، وقبل معها ٤٤٫٠٠٠ فلورين (٤٫٨٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) مكافأة له على ما عانى من مشقة ، وغادر فلورنس إلى الجنوب . وفى عام ١٣٠٤ أحرق السود الذين أفلت زمامهم بيوت أعدائهم ، فدمر فى هذه الحرائق ١٤٠٠ بيت ، وأصبح وسط فلورنس رماداً وخرائب . ثم تفرق السود

أحزاباً جدداً ، وحدثت أعمال من العنف لا حصر لها طعن فيها دوناتى طعنة أردته قتيلا (١٣٠٥) .

* * *

وبعد فإن علينا أن نذكر مرة أخرى أن المؤرخ كالصحفى ينزع على الدوام إلى أن يضحى بما هو طبيعى وعادى فى سبيل ما هو مسرحى مثير ؛ وأنه لا يرسم أبدا صورة وافية لأى عصر من العصور . لكن من واجبنا أن نسجل فى ختام هذا الفصل أن إيطاليا كانت تستند فى أثناء هذا النزاع بين البابوات والأباطرة ، وبين الجلف والغبليين ، وبين السود والبيض ، إلى الفلاحين الكادحين ، ولربما كانت حقول إيطاليا فى ذلك الوقت كما هى الآن ميداناً للعمل الزراعى الفنى والجدى ، وأنها كانت مقسمة ومنظمة تسر العين وتطعم الفم . فقد كانت التلال والصخور والجبال تحفر وتدرج لتزرع فيها الكروم ، وأشجار الفاكهة ، وبساتين الجوز واللوز ، وأشجار الزيتون ؛ وكانت الحدائق تسور لمنع عوامل التعرية من اكتساح تربتها والاحتفاظ بالمطر الثمين . وكان فى الحواضر عدد لا يحصى من الصناعات يستوعب الكثرة الغالبة من الرجال ، ولا يترك إلا القليل من الوقت يصرف فى الخطب والانتخابات ، والمدى ، والسيوف . كذلك لم يكن التجار وأصحاب المصارف كلهم رجالا شرهين قساة القلوب ، وكانوا هم أيضاً ممن جعلوا المدينة تعج بالأعمال وتنمو وتتسع رقعتها لما يضطرم فيها من حمى الكسب إن لم يكن لشىء سواها ؛ وكان فى وسع النبلاء أمثال كورسو دوناتى ، وجيدو كفلكنتى Guido Covalcanti ، وكان جراندى دلا اسكالا Can Grandi della Scala أن يكونوا رجال ثقافة ، وإن عمدوا إلى سيوفهم من حين إلى حين ليحسموا أمراً من الأمور . وكانت النساء ينخطرن بكامل حريتهن فى هذا المجتمع المرح ؛ ولم يكن الحب فيه لفظاً أجوف يردده الشعراء الغزلون أو يتمشدق به الفلاحون الكادحون ، أو خدمات يؤديها فارس لمعبودته الضنينة ؛ بل كان

هياماً سامياً حماسياً ينتهى بالاتصال الكامل بين الرجل والمرأة ، وبالأمومة غير المتعمدة . وكان المدرسون فى أماكن متفرقة من هذا البحر العجاج يجاهدون صابرين ليلقنوا المعارف إلى الشباب المحجم عن معارفهم ،والعاهرات يخففن من شبق الرجال الواسعى الخيال ؛ والشعراء يستعيضون عن آمالهم الخائبة بقرض الشعر ، والفنانون يعيشون على الطوى وهم يسعون وراء الكمال ، والقسيسون ينهمكون فى السياسة ويواسون الفقراء والمنكوبين ، والفلاسفة يجاهدون ليخرجوا من متاهة الأساطير إلى سراب الحقيقة البراق . وكان فى هذا المجتمع دوافع للعمل ، وأسباب لإثارة النفوس ، وللتنافس ، تقوى أذهان الرجال وألسنتهم ، وتستثير ما لديهم من قوى مختزنة لم يكن لأحد يتوقع وجودها فيهم ، وتغريهم بتمهيد السبيل للنهضة وتهيئة أسبابها . وهكذا جاء البعث الجديد بعد أن عانت المجتمعات فى أوربا كثيراً من الآلام ، وأريقت فى سبيله أنهار من الدماء .

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد فى المراجع المجملة فى الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت فى بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية فى القرآن أو الكتاب المقدس .

CHAPTER XXIII

1. Thompson *Middle Ages*, I, 565.
2. Le Strange, *Palestine under the Moslems*, 202.
3. Coulton, *Panorama*, 327.
4. Lacroix, *Military aud Religious Life*, 108.
5. Ogg. 282-8.
6. William of Malmesbury, 358.
7. *Chanson de Roland*, II. 848f. in French Classics, Paris, n.d.Lib. Hatier.
8. Munro, D. C., in *N. Y. Herald Tribune*, Apr. 26, 1931.
9. Thompson, *Social and Economic History*, 389.
10. Guizot, *France*, I, 384.
11. Lacroix P. *History of Prostitution*, 904.
12. Guizot, *France*, 338.
13. *Cambridge Medieval History*, IV.
14. Gibbon, VI. 334.
15. *Gesta Francorum*, app.
16 Thompson, *Social and Economic History* , 396.
17. Gibbon, VI, 75.
18. William of Tyre, *Sieg. of Jerussalem*, ch. clxi,
19. In Taylor, *Medieval Mind*, I,551.
20. Albertus Aquens in Milman, IV, 38n.
21. Thompson, *Economic History*, 897.
22. Archer aud Kingsford, *Crusades* 171.
23. Milman, IV, 251.
24. William of Tyre, xxi, 7.
25. Archer 176.
26. Muir *Caliphate*, 587.
27. Guizot, *France*, 427 f; *Cambridge Medieval History*, V. 307.
28. Adams, B. *Law of Civilization and Decay*, 94.
29. In Munro and Sellery, 275f.
30. Lane-Poele, *Saladin*, 175.
31. Ibid., 205f.
32. 232.
33. 236.
34. De Vaux, Carra, *Pensears d'Islam* I, 26.
35. Guizot, *France*, 439f ; Gibbon, VI, 119.
36. Lane-Poele. *Saladin*, 307.
37. Ibid., 351f.
38. 357.
39. Ibid.
40. De Vau, I, 27.
41. Lane-Poele, *Saladin*, 367.
42. Giraldus Cambrensis, *Itinerary through Wales*, i, 3.
43. Adms, *Civilization and Decey*,
44. Gibbon, ed. Bury, VI. 528.
45. Villehardouin, Introd., xvii.
46. Adams. *Civilzation and Decay*, 130.
47. Gibbon, VI. 100.

48. Oman, C. W. C., *Byzantine Empire*, 280-2.
49. Robert of Clari in Villehardouin, Introd., xxiv.
50. Villehardouin, 31.
51. Jackson, Sir T. C., *Byzantine and Romanesque Architecture*, I I, 101.
52. Diehl, *Manuel*, 635.
53. Dalton, *Byzantine Art*, 538.
54. Gibbon VI. 171.
55. Beard Miriam, *History of the Business Man*, 109.
56. Encyclopaedia Britannica, VI. 788; MacLaurin,C., *Mere Mortals*, II, 215f.
57. Kantorowicz, E. *Frederick II* 185f.
58. Villehardouin, 177
59. Ibid., 220.
60. 320.
61. Day, Clive, *History of Commerce*, 88.
62. Hitti 346.
63. Guizot, *Civilization*, I, 534.
64. Lea, *Auricular Confession*, III, 152.
65. *Speculum*, Oct. 1938, 391.
66. In Gibbon., VI. I, 25n.
67. *Speculum*, Oct. 1938, 403.
68. Hitti, 665.
69 Arnold, *Legacy of Islam*, 60.

CHAPTER XXIV

1. Day, *Commerce*, 57; Pirenne, *Medieval Cities*, 87.
2. Boissonnade, 173.
3. Thompson, *Economic History*, 577.
4. *Speculum*, Apr. 1940.
5. Boissonnade, 173.
6. Coultron, *Panorama*, 325.
7. Ibid, 322. *History*, VI. 491.
8. Beard, 79.
9. Zimmern, J. W., *The Hansa Towns*, 183.
10. Ibid., 95.
11. Ibid., 152, 200.
12. Thompson, J. W, *Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages*, 451.
13. Id. *Economic and Social History of the Middl Ages*, 581.
14. *Cambridge Medieval History*, VI, 478.
15. Gest, A. P. *Roman Engineering*, 142.
16. Haskins C. H., *Studies in Medieval Culture*, 101.
17. Usher *History of Inventions*, 135,
18. Thompson, *Later Middle Ages*,
20. Rickard, *Man and Metals*, II,
21. Salzman, L. F., *English Industries of the Middle Ages*, 1.
22, Rickard, II. 595.
23. Ibid., 615.
24. *Cambridge Medieval History*, VI, 500.
25. Renard, G., *Guilds in the Middle Ages*, 24.
26. Pirenne, H., *Economic and Social History of Medieval Europe*, 211.
27. Thompson, J. W., *Later Middle Ages*, 5.
28. Boissonnade. 187.
29. Ibid., 186.
30. Pirenne, H., *Economic History*, 118.
31. *Anglo-Saxon Chronicle*, 198.
32. Schoenchof, J. *History of Money and Prices*, 98.
33. Jusserand, J. J. *English Wayfaring Life, in the middle Ages*. 192.
34. Boissonnade, 221.

35. Coulton, *Panorama*, 285.
36. Id., *Five Centuries of Religion*, V, 282.
37. Pirenne, *Economic History*, 120
38. Coulton, *Panorama*, 343.
39. Boissonna de, 167.
40. Pirenne, 128.
41. Pirenne, *Cities*, 223.
42. Mathew Paris, *Historia maior*, 1235, I. p. 2.
43 Ashely, *English Economic History and Theory*, I, 201.
44. Pirenne, *Economic History*, 130.
45. Ibid., 135.
46. Thompson, *Economic History, of the Middle Ages*, 15.
47. Ibid.
48. Id., *Later Middle Ages*, 449; Day, 93.
49. Schoenhof, 63.
50. Ibid., 57; Thompson, *Later Middle Ages*, 432.
51. Adams, *Law of Civilization*, 167.
52. Lacroix, *Manners, Customs, and Dress*. 272.
53. Davis, *Medieval England*, 376.
54. Zimmern, *Hansa*, 165; Thompson. *Later Middle Ages*, 449.
55. Molmenti, *Venice*, Par. I, Vol. I. Vol. I, 149; Thompson, C.G., *Legacy of the Middle Ages*, 441.
56. Thompson, *Economic History of Middle Ages*, 449-50.
57. Aristotle *Politics*, i, 10.
58. Luke *vi*, 34.
59. In Ashely. *Economic History and Theory*, I, 126.
60. Ibid., 128.
61. Ibid.
62. 138.
63. 149.
64. 411.
65. Coulton, G.G., *Medieval Scene*, 146.
66. Ashley, I, 149, 157.
67. Ibid., II, 405.
68. Pirenne *Economic, History*, 137.
69. Thompson *Economic History of the Middle Ages*, 638.
70. Coulton, *Medieval Village*, 284.
71. Pirenne *Economic History*,
72. Ashely, I, 198.
73 *Cambridge Medieval History*, VI 491.
74. Thomas Apuinas *Summa Theologica*, II iiae, lyxviii, 2.
75. Ashley, I, 196; Coulton, *Panorama*, 336.
76. Boissonnade, 166.
77. Ashely, I, 203.
78. Abbott, G. F., *Israel in Egypt*, 112.
79. Baron, S. *Social and Religious of the Jews* II, 16.
80. Rivoira, G., *Lombardic Architecture*, I, 108.
81. Doosch, 333.
82. *Cambridge Medieval History*, VI, 484.
83. Thompson *Economic History of the Middle Ages*, 792.
84. Lethaby, W., *Medieval Art*, 145.
85. Richard, E., *History of German Civilization*, 195; Lacrox, *Manners* 271.
86. Saunders, O.E., *History of English. Art in the Middle Ages*, 85.
87. Thompson. *Economic History of the Middle Ages*. 493.
88. Id., *Later Middle Ages*, 196.
89. Day, 47.
90. Coulton, *Medieval Scene*, 92.
91. Walsh, J. J., *Thirteenth the Greatest of Centuries*, 437.
92. Barnes, *Economic History*, 184; Renard, *Guilds*, 87.

93. Ashley, I, 81.
94. Addison J., *Arts and Crafts*, 2.
95. Power Eileen, and Power, R., *Cities and Their Stories*, 74
96. Bebel, 59.
97. Villari, P , *Two First Centuries of Florentine History*, 35.
98. Guibert of Nogent, *Autobiography*, 6-bis, 7-9.
99. Pirenne, H., *History of Europe*, 276.
100. Boissonnade, 207 ; Renard, *Guelds*, 92;Coulton, *Panorama*, 293; Schevill, *Siena*, 68.
101. Barnes. *Economic History*, 162-3.
102. Gay, 51.
103. Headlam. C., *Story of Nuremberg*, 152.
104. Salzman, 335.
105. Pirenne, *Economic History*, 213.
106. Coulton, *Chaucer*, 128 ; *Medieval Village*, 329.
107. Boissonnade 237.
108. Pirenne, *Cities*, 75.
109. Barnce, *Economic History*, 163.
110. Clapham and Power, 337.
111. Ibid.
112. Matthew aris. I, 11, 42, 48, 156, 164, etc.
113. Coulton, *Panorama*, 456.
114. Porte, *Medieval Architecture*, II, 149.
115. Thompson, *Economic History of the Middle Age*, 801.
116. Guizot, *France*, I, 614.
117. Beard , 85,
118. In Zimmern, *Hansa*, 49.
119. Coulton, *Social Life in Britain*, 11 ; Schoehof, 125.
120. Rogers J. E. T., *Six Centuries of Work and Wages*, 92 ; Jusserand, 99; Schoenhof 119.
121. Rogers, 73; Renard 16.
122. Matthew Paris, 1251 : *Middle Ages*, I, 270.
123. Munro and Sellery, 498.
124 Pirenne.*Economic History*, 203.
125. Ashley, I. 82.
126. Ralph Higben's *Chronicle*, viii, 145, in Coulton, *Social Life*, 356.
127. Beard, 145,

CHAPTER XYV

1. Benjamin of Tudela in Konroff, *Contemporaries*, 265; Diehl.*Manuel*, 390.
2. *Cambridge Medieval History*, IV, 760.
3. Vasiliev, A, A., *History of the Byzantine Empire*, II, 151.
4. Matt. Paris *Chronica, maiora* 83.
Historia minor, ril, 38-9, in *Cambridge Medieval History*, IV, 493.
5. Vasiliev, II, 237, 241.
6, Finlay, G., *History of Greece* III, 372.
7. Kluchevsky, I, 185 ; Pokrovsky, 78.
8. Ramband, I, 96.
9. Vernadsky, G., *Kievan Russia*, 93-5.
10. Ramband, I, 129; Kluchevsky, I 323.
11. Vasiiev, II, 237.
12. Ramband, I, 154.
13. Affirmed by Karamsin, denied by Soloviev cf. Rambaud. I, 169
14. Rambaud I, 172.
15. Morey, *Medieval Art*. 156f.
16. *Cambridge Medieval History*, VI, 468.
17. Lönnrot, E., *Kalevala*, I, vii.
18. Rambaud, I. 144.
19. Lützow, *Bohemia*. 44

20. *Cambridge Medieval History*, V, 348.
21. Richard, *German Civilization*, 186; Thompson *Feudal Germany* 161.
22. Richard, 186.
23. Carlyle, R. W *Medieval Political Theory*, V. 88 ; III, 86.
24. Freeman, *Norman Conquest*, II, 181.
25. *Anglo-Saxon Chronicle*, 168.
26. Ibid,, 163.
27. Voitaire, *Works* XIII, 274.
28. Hume, D., *History of England*, I. 504.
29. Davis, *Medieval England*, 355 ; IV, 298, 302.
30. Stubbs, *Constitional History*, I, 303; Ereeman,*Norman Conquset*, IV, 430.
31. Ibid., 714.
32. Vinogradoff, P,, *English Society in the Eleventh Century*, 472, Coulton, *Medieval Village*, 11.
33. Stubs, I, 330.
34. Encyciopaedia Britannica, XI, 432.
35. Cf. *Anglo - Saxon Chronicle*, 206-8.
36. Coulton, *Life* III, 5-7 *Panorama*, 229.
37. Ppllock and Maitland, I, 104 ; Freemau, *Historical Essays*, 2d. Series, 114.
38. Text in Rowbotham. 62.
39. Coulton, *Panorama*, 231.
40. Hume D., *I*, 478.
41. Holinshed, *Chrouicle*, 18.
42. Ogg., 304-10.
43. Jenks. 35.
44. Poilock and Maitland, I, 138.
45. Encyclopedia, Britannica, VIII, 9a.
46. Draper, *Intellectual Development of Europe*, II, 81.
47. Pollock and Malt'and, I, 465.
48. Coulton, *Panorama*, 379.
49. Home, *Roma London*, 118.
50. *Speculam* Jan 1937, 20.
51. Coulton, *Panorama*, 297.
52. Joyce *Irland* 246 - 8 ; Hume, I, 356. Cardinal Gapequet *(Monoslic Life in the M. Ages* 169) argnes unconvincingly against the authenticity of this bull.
53. In Colton, *Panorama*, 66.
54. Brown, P.H. *History of Scotland* I, 88.
55 Thierry, A , *Conquest of England by the Normans*, I. 21.
56. Blok, P. J. *History of . . . the Netherlands*, I, 230.
57. May, Sir T., *Democracy in Encope*, I, 338-9.
58. Encyclopaedia Britannica, XXI, 912 c.
59. Guizot. *France*, I, 524.
60. Ibid. 312.
61. 522.
62. Belloc, *Paris*, 154.
63. Adams, H. *Mont St. Michel and Chartres*, 177.
64. Joninville, *Chronicle*, 153.
65. Lacroix, *Manners*, 32.
66. In Munro and Sellery, 520.
67. Joiniville 308.
68. *Cambridge Modievul History*, VI, 347.
69. Joinville, 139.
70. Taylor, H. O. *Medieval Mind*, I, 365.
71. *Cambrldge Medieval History*, VI, 349.
79. Joinville, 149.

73, Ibid., 310; Guizor, *France I*, 556; Munro and Selly, 496.

74. Joinville, 316

75. Munro and Sellery, 498.

76. Joinviile, 148.

77. Munro and Sellery, 493, 500.

78. Guizot, *France*, I, 543.

79. Joinville 150.

80. Gnizot, *Civilization*, I, 148; Lacroix, *From St. Francis*, 140.

81. Coulton, *From St. Francis*, 140.

82. Guizot, *France*' I, 452.

83. Thompson, *Economic Histoy of the Middle Ages*, 44; Porter, *Medieval Architecture*, II, 264

84. Thompson, 40.

85. Ibid 22.

86. Hearnshaw, F., *Medieval Contributions to Modern*, *Civilization*, 67; Encyclopaedia Britanica, X, 702b; Hearnshaw. *Social and Political Ideas of Some Great Medieval Thinaers*.145, 157, 163.

87. *Cambridge Medieval History*, VI, 409.

88. Thompson, 349.

89. Chaoman, C. E., *History of Spain*, 90.
Carlyl, R W., *Political Theory*, V. 134.

90. *Cambridge Medieval History* VII, 695 - 702,

91 Pirenne. J., *Les grands courants*, II, 157.

92. Lea, H. C., *History of the Imquisition in Spain*, I, 58.

93. Sterling, M. B., *Story of Parzival*, of.
32. 310,

CHAPTER XXXVI

1. In Wern, *Sicily*, 36.

2. *Cambridge Medieval History*. VI, 131.

3. Sarton, II (1), 119.

4. In Waern. 50f.

5. Bryce. 292.

6. Catholic Encyclopedia I, 749a.

7. Hazlitt, W C, *Venetian Republic*, I, 190f.

8. Molmenti, I (1), 82.

9. Ibid., 841.

10. 145.

11. Thompsod, *Eonomic History of the Later Middle Ages*, 11,

12. Beard, 107.

13. Ruskin, *Stones of Venic*, I, 8.

14. Beard, 102–5.

15. Dante, *Eleven Letters*, 190, letter of March 1314 to Guido

16. Molmenti, I (2), 49, 53.

17. Ibid, 9, 13 - 15; Sedgwick, H.D., *Italy in the thirteenth Century*, II, 200.

18. Molmenti, I (2), 139, 154, 157.

19. Molmenti. I (1), 204.

20. Beard. 146.

21. Coulton, *From St. Fraucis*, 215.

22. Ibid.

23. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 421.

24. Sedgwick, I, 175.

Cambridge Medieval History, V, 230.

26 Kantorowicz, 26.

27. Ibid., 30.

28. *Cambridge Medieval History*, VI, 137.

29. Kantorowicz, 204.

30. Ibid , 219.

31. 282.

32. 310.

Cambridge Medieval History, VI, 150.

34. Kantorowicz, 288.

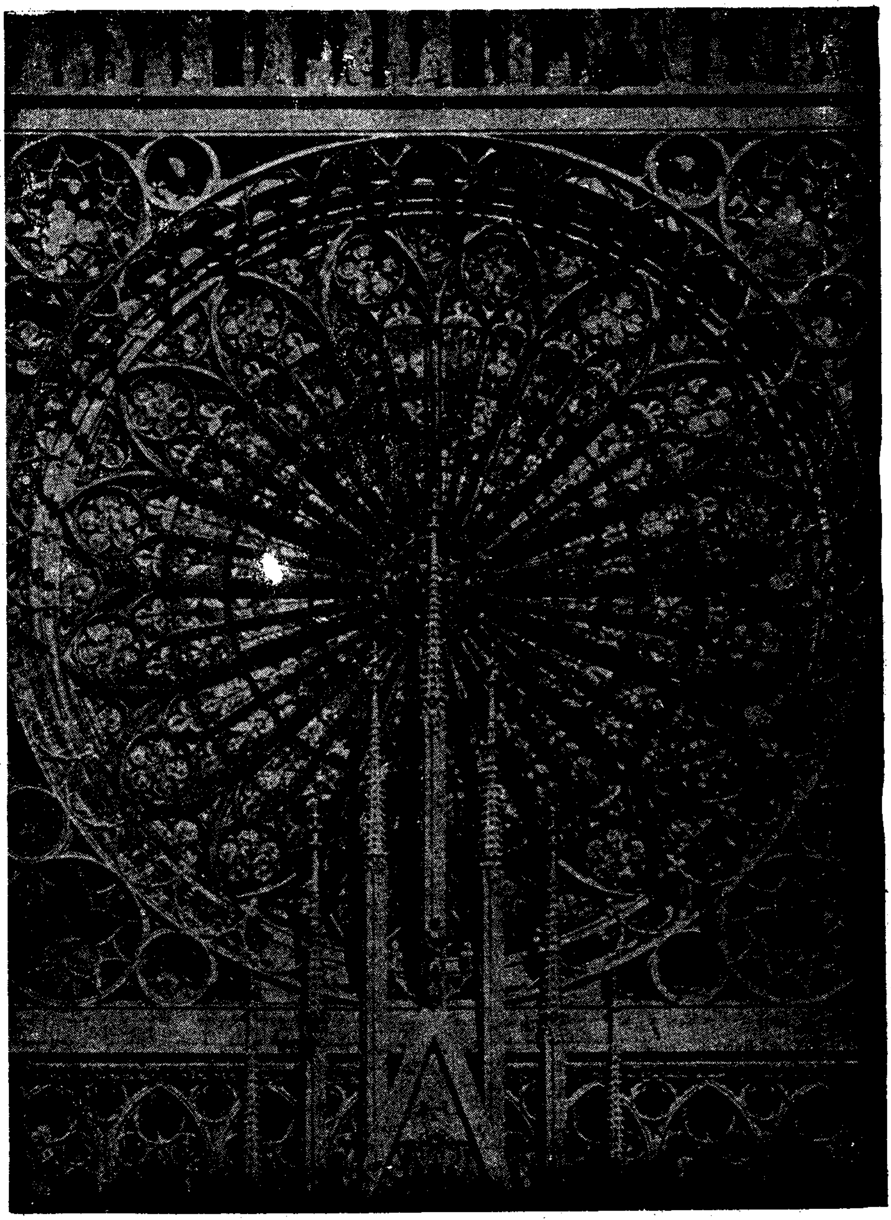
3 . Ibid , 529.

36. Pirenne, J., *Grands courants*, II, 114; Kantorowicz, 311.

37. Ibid. 30.
38. 365.
39. 366.
40. Matt. Paris, 1228, 157.
41. Ibid.
42. Sedgwick, I, 133; Kantorowicz, 308.
43. Ibid., 251.
44. 343.
45. 460.
46. 615.
47. 624 - 32.
48. Nietzsche, F., *Beyond Good and Evil*, // 200.
49. Kantorowicz, 611.
50. Sedgwick. I, 440; Kantorowicz, 332.
51. Ibid., 292.
52. Milman, VI, 240f.
53. Renard. 42; *Cambridge Medieval History* VI, 496.
54. Thompson, *Later Middle Ages*, 259.
55. Beard, 140.
65. Thompson, *Economic History of the Middle Ages* 471.
67. Vi lari, *First Centuries of Florentine History*, 178.
58. Ibid , 221.
59. 598.

قصة الحضارة

دائرة معارف كبرى فى حضارة العالم من أقصى طرفة الشرق فى اليابان والصين إلى أقصى طرفه الغربى فى أمريكا ومن أقدم الأزمنة إلى وقتنا الحاضر . وهى أهم مؤلفات الكاتب الأمريكى الكبير ول ديورانت الذى خصها بالجزء الأكبر من حياته ، وطاف من أجلها العالم كله أكثر من مرة . وستتألف بعد تمامها من سبعة مجلدات .



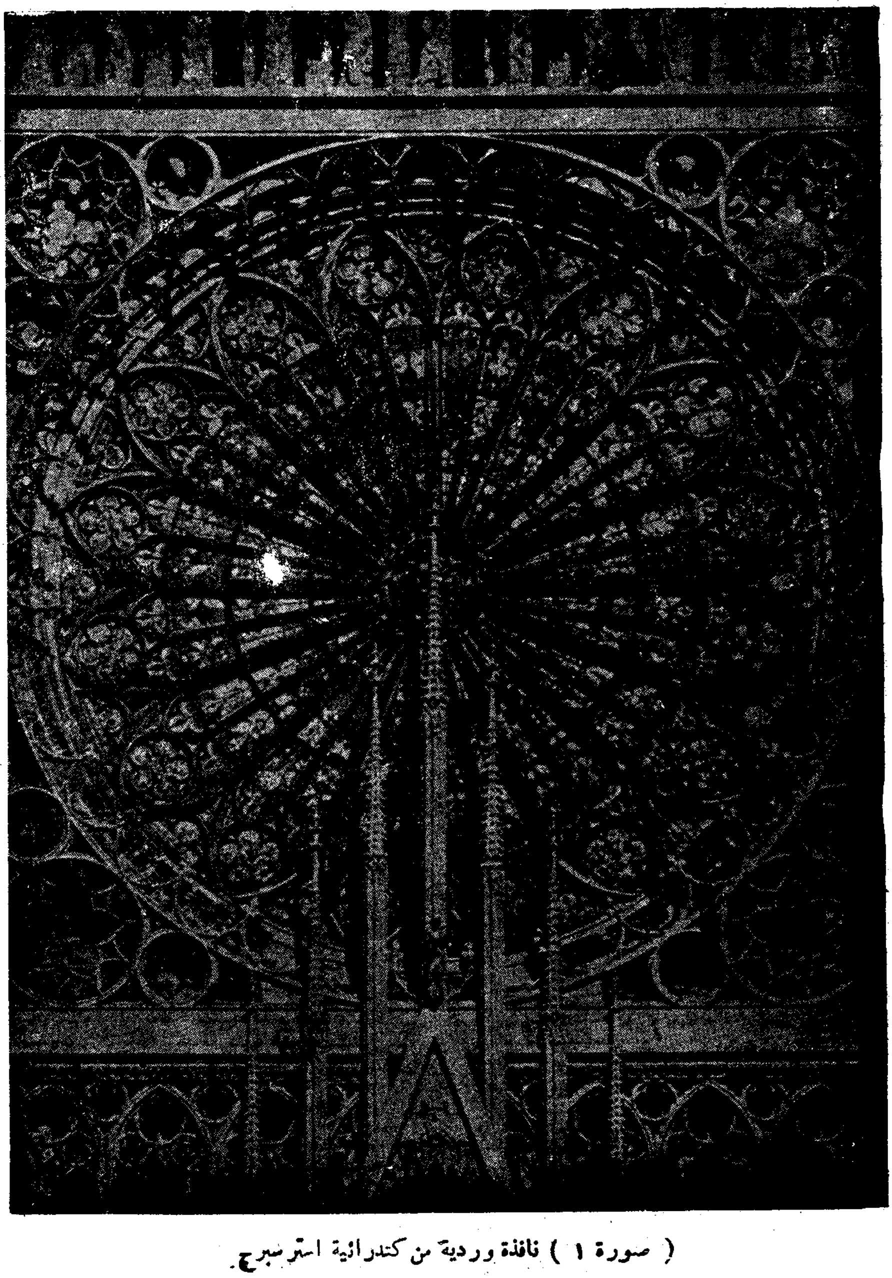
(صورة ١) نافذة وردية من كتدرائية استرسبرج.

الفهـــرس

الكتاب الخامس ـ المسيحية فى عنفوانها

الباب السادس والعشرون : إيطاليا قبل النهضة

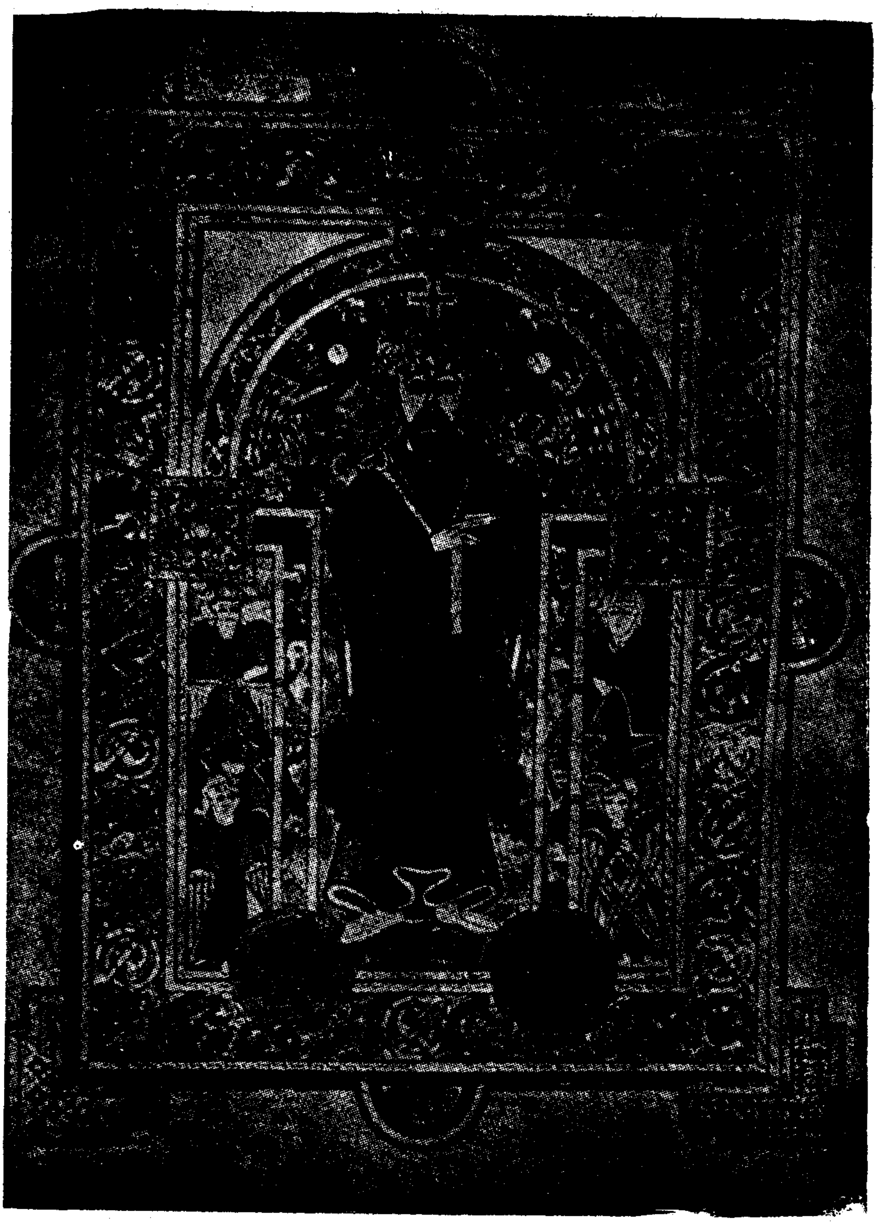
فهرس الصـــور



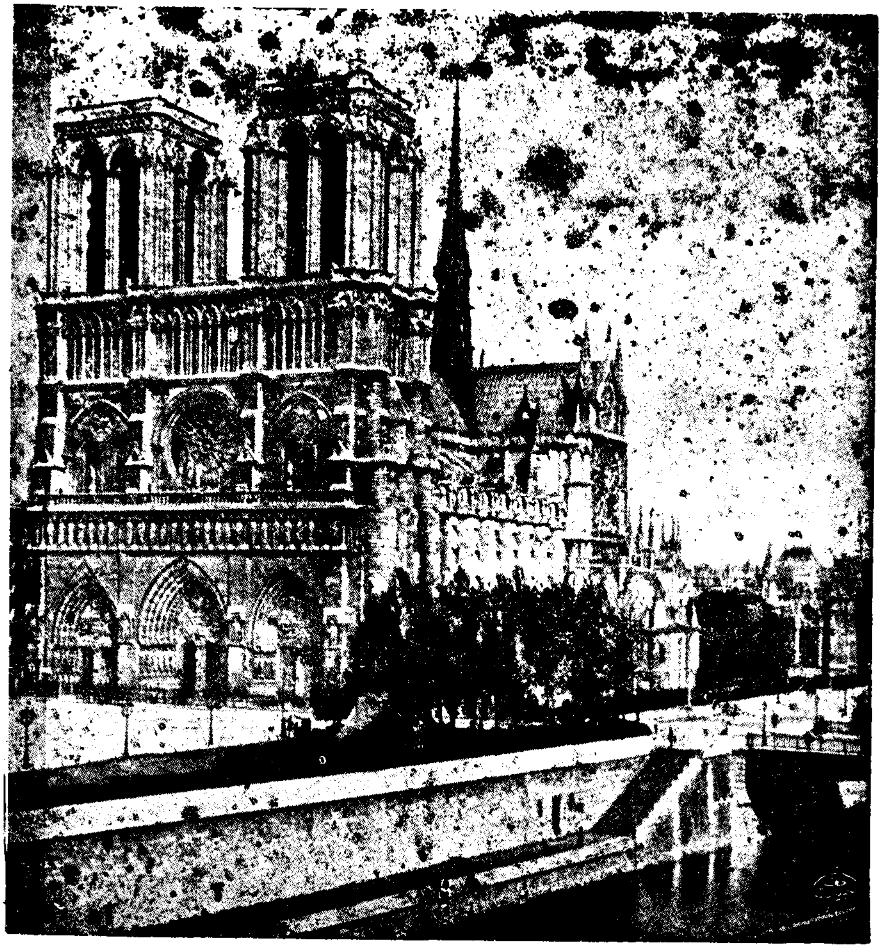
(صورة ١) نافذة وردية من كتدرائية استرسبرج



(صورة ٢) العذراء مع الملائكة والقديس فرانسس فى كتدرائية أسيسى



(صورة ٣) صورة قديس



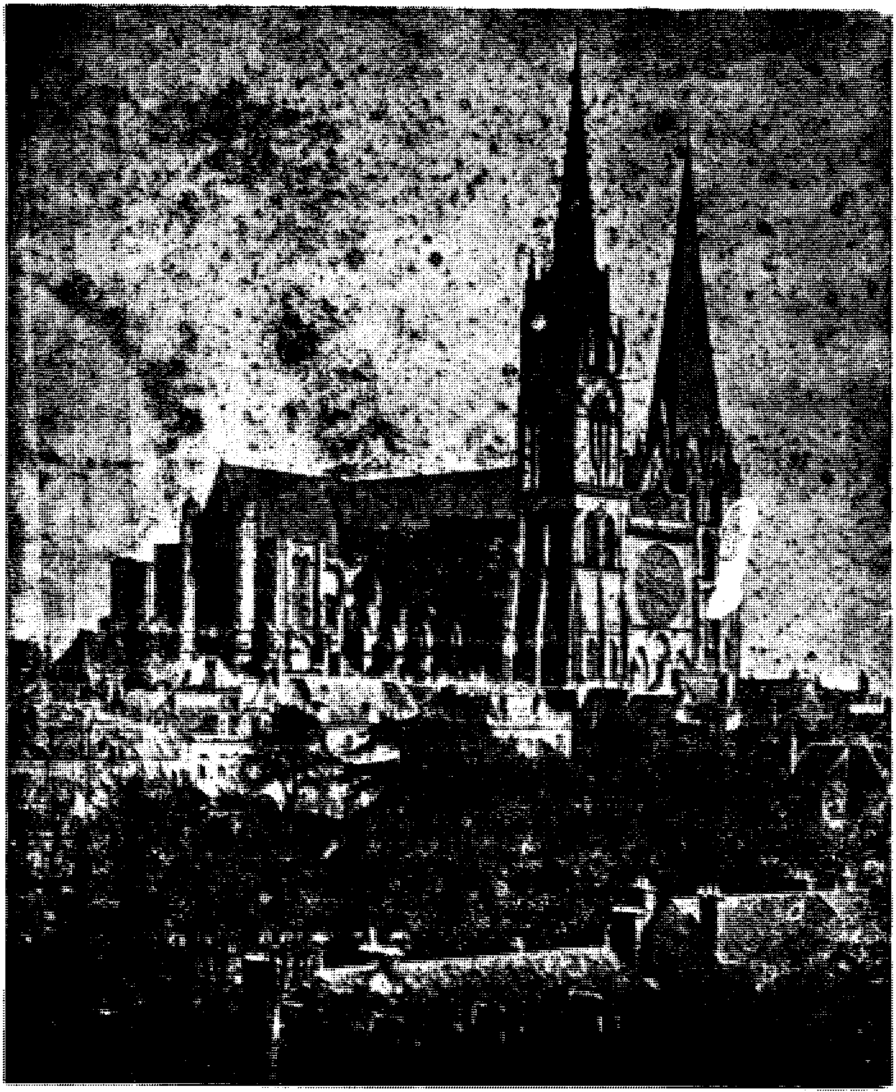
(صورة ٤) كنيسة نتردام ، باريس



(صورة ٥) عذراء العمود
من كنيسة نتردام ، باريس



(صورة ٦) جارجويل
نتردام ، باريس



(صورة ٢) كتدرائية تشارتر – المنظر الغربي



(صورة ٨) « الزيارة » من كنيسة تشارتر



(صورة ٩) « التواضع » من كنيسة تشارتر